مكتبة
Telegram Network

رواية

محمد الأشعري

من خشب وطين

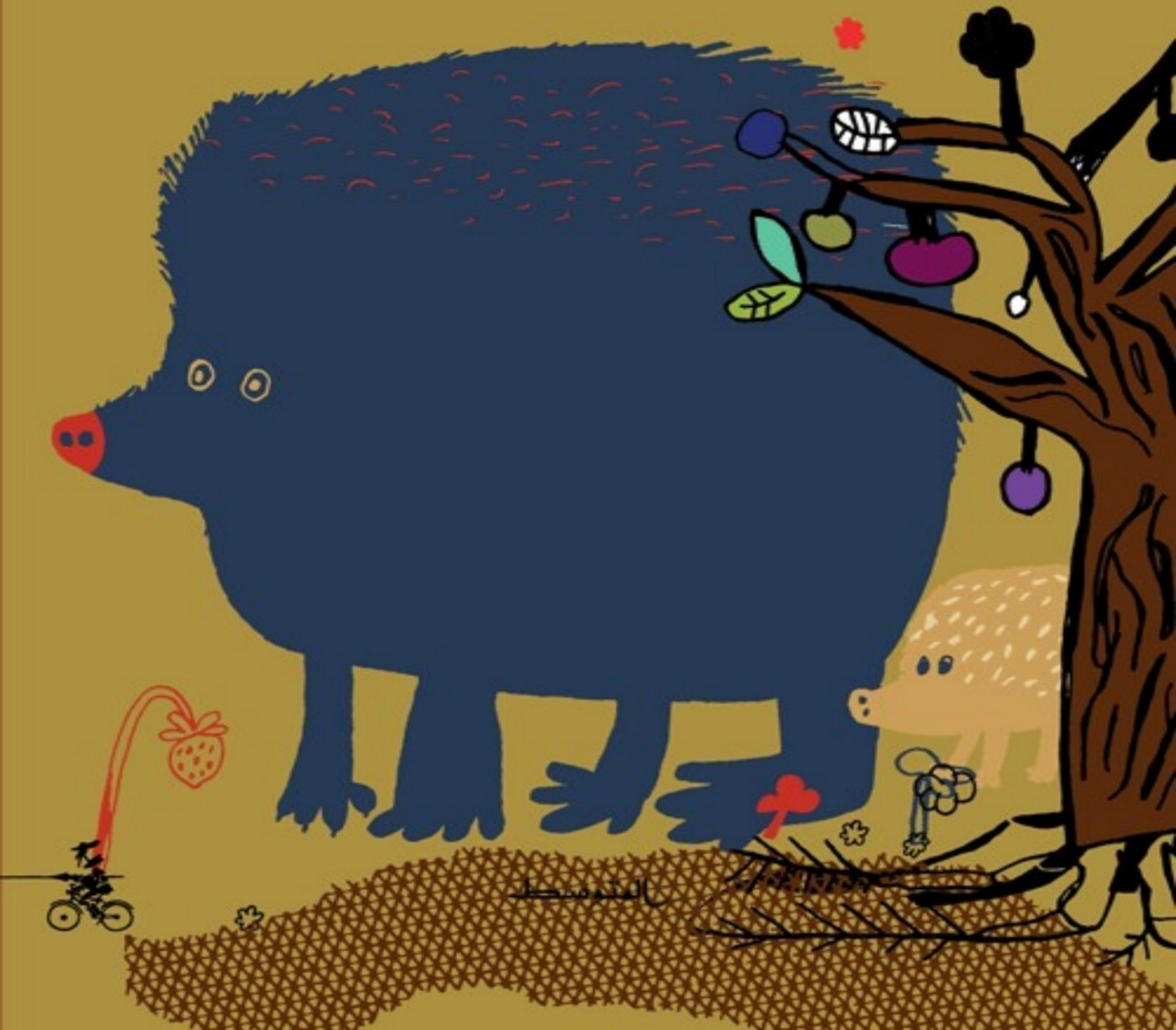

محمد الأشعري

من خشب وطين

«مكتبة ♔ النخبة»

منشورات المتوسط

خروج الدابَّة

-1-

كان يراه من حين لآخر، يعبر الممرَّ الغابوي، قريباً من مركز المياه والغابات، في البدايات الأولى لما تبقَّى من المعمورة، على الطريق الثانوية الرابطة بين تِيْفَّلْتْ والقنيطرة. كان يراه مساءً بُعيدَ الغروب، ويراه في غبش الفجر، وكلَّما رآه جزم بينه وبين نفسه أنه هو، وليس أحداً سواه. ليس شبيهاً، ولا نِدَّاً، ولا صِنْوَاً، ليس أخاً من عُصْبَةٍ، ولا فرداً من عائلة أو قبيلة، إنه هو، أو هي، لم يتأكَّد بعد، وربَّما لن يتأكَّد أبداً، هو فقط يحدس من تلك المشية الرياضية التي تشبه ركض المارطون، أنه كائن وحيد، يركض كأنه يهرب من نفسه، وفي أثناء ذلك، يستغرق في نحت جسده حتَّى يصير هوائياً، خفيفاً، يكاد يشبه سرعته.

ثمَّ مرَّت شهور لم يره فيها، حتَّى جزع لذلك جزعاً شديداً، لأنه اعتبر أن الهلاك في حادثة هو وحده ما يمكن أن يفسِّر هذا الاختفاء. إلى أن كان ذات يوم وقد وقف بسيَّارته جنب الممرِّ الذي كان يقطعه صاحبه في لمح البصر، وقف ليتأمَّل زهرة غريبة ظهرت فجأة تحت شجرة البلُّوط الوحيدة التي بقيت في الجانب الأيسر من الطريق الثانوية، انحنى على الزهرة البيضاء ذات التويجات الضخمة المنقَّطة بالأزرق في أجزائها الداخلية، فانتبه لكتلة سوداء متكوِّمة عند جذع الشجرة جنب الزهرة الغريبة، ولحظتَها جاء صبيٌّ كان يسيم غنمه في جنبات الغابة، وقال إنه قُنْفُذ مريض، أو مصاب في حادثة صيد، أو في عراكٍ مع الكلاب، أو ربَّما لدغته حيَّة وهو يحاول التهامها. وحاول إبراهيم أن يفحص كرة الشوك التي تتنفَّس بإيقاع سريع، فلم يهتدِ إلى طريقة ينفذ بها إلى جسده المُحَصَّن، وعند ذلك تَطَوَّع الصبيُّ، فبسط راحته قرب القُنْفُذ، وبرفق دفع الكتلة الشائكة نحو راحته المفتوحة، ثمَّ وقف وقد ضمَّ يدَيْه معاً حول الكائن.

لاحظ الصبيُّ أن القدم الخلفية اليسرى توجد خارج القفص الشوكي، والحال أن القُنْفُذ عندما يتكوَّم على نفسه، فإن أطرافه كلَّها تصبح في الداخل. فقال

إن بقاء القدم خارج التحصين يعني أنها مصابة.

خطر لإبراهيم أن يحمل المصاب المحتمل إلى مصحَّة بيطرية، ولو أن الأمر سيبدو مضحكاً في مصحَّات المنطقة التي لا تستقبل إلَّا الأنعام والخيل.
وعندما هَمَّ بوضعه في صندوق السيَّارة، سأله الصبيُّ بارتياع بدا جلياً على ملامحه عمَّا إذا كان سيأكله. ارتاع إبراهيم بدوره من الفكرة، وتذكَّر أنه يعرف القُنْفُذ منذ شهور، وكان معجباً بطريقته في الركض، وبجسمه اليافع، والتفاتاته الماكرة، حتَّى ارتبط معه بنوع من الصداقة الصامتة، أو «الأُخُوَّة في الغابة» هذه المساحة الشاسعة الظليلة التي قَبِلَتْهُ دون أن تدقِّق في سوابقه أو في نواياه. والتي تُؤْوِي صناديق نحله التي ينقلها حسب مواسم الإزهار من مربَّعات الأوكاليبتوس ذات العطر الحادِّ، إلى مقاطع الفِلِّين ذات الشذى البارد، إلى حقول الميموزا ذات العبير الاستعراضي. لقد أصبح إبراهيم جزءاً من حياة الغابة. ولا يتصوَّر أن يخذل شريكاً له في هذه الحياة، مثلما لا يتصوَّر ولو للحظة واحدة أن شخصاً سوياً يستطيع أن يقتل كائناً بهذا الغموض والهشاشة بغية طبخه وأكله. وماذا سيأكل فيه؟! إنه مجرَّد جلد وشوك.

قال الصبيُّ:

- كثيرون يأكلونه. يُقال إن له فوائد صحِّية عظيمة. زوجة أبي تقول إنه ألذُّ ما يمكن أن يأكله الإنسان، ولو أن لحمه قليل. كانت تقول على لسانه:

- الذبيحة، ذبيحة عجول، والمرق مرق حجل، أمَّا اللحم، فلا ينبغي أن يمتدح أحد نفسه!

- قال الصبيُّ ذلك بسرعة: «الذبيحة ذبيحة العجول، والمرقة مرقة لحجول، واللحم ما يشكر حَدْ راسُو».

فانهمك إبراهيم في تفكيك معنى ما يقوله القُنْفُذ عن نفسه، وهل يقول ذلك حقَّاً؟! وما هذا النصب والاحتيال الذي يدفع الإنسان إلى وضع كلام في فم

القُنْفُذ؛ ليبرِّر تحويله من كائن خرافي، إلى وجبة تضوع بالواقعية والتوابل؟!

وكأنما ليتأكَّد الصبيُّ أن إبراهيم لن يذبح القُنْفُذ، عاد إلى الإلحاح عليه لوضعه في الغابة، في المكان الذي وجده فيه، لا يَهُمُّ يقول الصبيُّ، حتَّى لو كان مريضاً أو مصاباً، فإن المكان الأنسب لحياته أو لموته هو الغابة. قال إبراهيم:

أريد أن أنقذ حياته، هذا كلُّ ما في الأمر، وبعد ذلك سأعود به، ونضعه معاً، إذا شئتَ، في قلب الغابة.

دخل الصبيُّ في نوبة انفعال مفاجئة، وصار يبكي متوسِّلاً لإبراهيم أن يطلق سراح القُنْفُذ. كان مشهداً مؤثِّراً، لدرجة دفعت إبراهيم إلى استخراج القُنْفُذ من صندوق السيَّارة، وإعادته إلى المكان الذي التقطه منه. فهدأ الصبيُّ، وقبل أن ينطلق وراء نعاجه التي بدأت تتوغَّل في الغابة، رسم ابتسامة سخية على وجهه، وقال إن أرواح قبيلة آيت ميمون ستكون راضية عنه، لأنه امتنع عن أكل القُنْفُذ.

سأل إبراهيم:

- ولماذا قبيلة آيت ميمون؟

قال الصبيُّ:

- أنا من آيت ميمون، ونحن إخوة رضاعة مع القُنْفُذ، منذ تلك الليلة البعيدة التي عاد فيها رجل من الصيد محمَّلاً بفراخ قُنْفُذة، لم يجد غيرها. كانت زوجته قد وضعت تلك الليلة، وتحتاج إلى أُكلة ساخنة، تستعيد بها قوَّتها. وقد وضع الفراخ تحت إناء، واستسلم لغفوة خفيفة، وعندما فتح عينَيْه، وجد قُنْفُذَيْن صغيرَيْن يرضعان زوجته.

قال إبراهيم:

- هذه مجرَّد خرافة، لا يمكن لقُنْفُذ أن يرضَعَ من ثدي امرأة... أنتَ تسخر منِّي!

قال الصبيُّ وهو يبتعد خلف قطيعه:

- وحقِّ المصحف! لقد حدث ذلك... كأنكَ رأيتَهُ بعينَيْكَ... نحن إخوة من الرضاعة، ولذلك نَكْرَهُ أكلة القنافذ. لو وجد أحدُنا قُنْفُذاً يباع، فإنه يشتريه مهما كلَّفه، ويطلقه في الغابة.

اختفى الصبيُّ، فعاد إبراهيم إلى سيَّارته، وانطلق بها لتفقُّد صناديق النحل بين مربَّعات الأوكاليبتوس، وعندما عاد بعد الظهر وقبل أن ينعطف إلى الطريق الرئيسة، تذكَّر القُنْفُذ، فعاد أدراجه نحو شجرة البلُّوط. كانت الزهرة الغريبة ما تزال هناك، وكان القُنْفُذ ما يزال جنبها مستسلماً لِوَهنه الشديد.

التقط إبراهيم القُنْفُذ بصعوبة، ووضعه في صندوق السيَّارة، ثمَّ توجَّه به أوَّلاً إلى عيادات البيطرة في تِيْفَّلْتْ التي استقبلتْهُ بكثير من الازدراء والسخرية. أحدهم قال ضاحكاً: إنه يدهس بسيَّارته العشرات من هذا الصنف كلّ ليلة وهو يتجوَّل على أبقار

المنطقة.

وقالت امرأة بدينة وقد صرخت عند رؤية القُنْفُذ:

- لم يبقَ لنا إلَّا أن نعالج فئران المواسير!

ووجد إبراهيم نفسه محرجاً بعرض ضحية لا يعترف أحد بحاجتها إلى الإنقاذ. لذلك قرَّر أن يصطحب القُنْفُذ إلى الرباط، حيث تعوَّد أن يرى، قريباً من مسكنه، سيِّدات أنيقات، يحملنَ في أحضانهنَّ قططاً وكلاباً وطيوراً غريبة، ويتردَّدن بها على مصحَّة بيطرية في شارع الأمم المتَّحدة.

وصل إبراهيم إلى المصحَّة في لحظة الإغلاق، كانت الطبيبة الفرنسية تهمُّ بالمغادرة، وعندما رأتْهُ يحمل بين يدَيْه تلك الكتلة الشائكة، هُرعت نحوه مُرَحِّبة، وأعادت فتح باب المصحَّة التي لم يكن بها أحد في تلك الساعة، وقالت الطبيبة إنها سعيدة أن تستقبل لأوَّل مرَّة في عيادتها قُنْفُذاً للمعالجة.

- هل تُربِّيه في البيت؟

- لا، أبداً، عثرتُ عليه هذا الصباح في غابة المعمورة.

- يبدو في وضع حَرِجٍ، سأحاول إلقاء نظرة. تعال معي إلى قاعة المعالجة، لا يوجد الآن أيُّ مساعد يمكن أن أعتمد عليه.

على الطاولة البيضاء كان القُنْفُذ يبدو هامداً، فقال إبراهيم:

- ربَّما يكون قد مات.

ردَّت الطبيبة:

- لا، لو مات، لما استمرَّ في وضع انكماش.

ووخزتْهُ بحركات متتابعة، فصدرت عنه تشنُّجات خفيفة سرعان ما همدت، ليعود إلى تنفُّسه البطيء.

ثمَّ انهمكت الطبيبة في فحصه، مستعملة ملاقط مختلفة الأحجام، وفي أثناء استغراقها في ذلك، كان إبراهيم يتملَّى وجهها المُنَمَّش المضاء بخصلات شَعْرها الأحمر. وكان يودُّ لو يسألها عمَّا إذا كان لون شَعْرها طبيعياً، لأنه إذا كان كذلك، فهي أقرب إلى معجزة منها إلى امرأة، ثمَّ انتبه إلى يدَيْها في القفَّازَيْن الشفَّافَيْن، فوجدهما أكبر حجماً من المتوقَّع، ومع ذلك، فإنهما تعزفان على جسد المصاب بخفَّة، كأنها لا تلمسه.

مرَّت لحظات صمت، لم يعد فيها إبراهيم مشغولاً بمصير القُنْفُذ، بل مأخوذاً بحالة حزن لذيذة، تعوَّد على مثلها كلَّما وجد نفسه في حضرة امرأة مدهشة،

إلى أن انتشلتْهُ الطبيبة من شروده قائلة:

- حقَّاً، ليس على ما يرام. حالته العامَّة لا تسمح لي باستعمال مخدِّر يفكُّ انكماشه، لكنْ، من الواضح أن قدمه مهشَّمة تماماً ومتعفِّنة، ولا أمل في جبرها، وحرارته مرتفعة جدَّاً. سأبتر الأجزاء المتعفِّنة، وأُخضعه فوراً لمضادٍّ حيوي، ثمَّ عليَّ أن أتدبَّر سريعاً أمر تغذيته، فهو لم يأكل شيئاً منذ أيَّام على ما يبدو .. إذا كان قوياً ومحظوظاً، فسيتعافى بعد يومَيْن، وعندئذ يمكن أن تستعيده.

سلَّمتْهُ بطاقتها، وسجَّلت اسمه في مذكّرتها.

وعندما كان يهمُّ بالمغادرة، سألتْهُ:

- وماذا تنوي أن تفعل بالقُنْفُذ لو تعافى؟

- سأُعيده إلى المعمورة، لا أعرف كيف سيعيش قُنْفُذ أعرج في الغابة، ولكنني سأُعيده إليها!

فقالت الطبيبة وهي تعود مسرعة إلى قاعة المعالجة:

- أنتَ شخص نادر، يا سيِّد إبراهيم!

-2-

-أمَّا من حيث الندرة، فأنا نادر حقَّاً! هكذا قال إبراهيم لنفسه وهو يدخل شُقَّته الصغيرة بحيِّ أكْدال، كان يحمل كيساً بمشترياته البسيطة، ويتساءل عمَّا إذا لم يكن هذا المآل الذي انتهى إليه، رجلاً وحيداً في شُقَّة باردة، هو طريقته التي اختارها ليسخر من الحياة الواثقة من نفسها، والمتيقِّنة دائماً أن وصفاتها لا تقبل المناقشة. فما إن تآلف، مرَّة أخرى، مع هذا المكان الغريب حتَّى وجد الجواب على تساؤله. نعم، إنه يسخر من الحياة فعلاً، يحمل كيسه، ويدخل شُقَّة لم تكن في المخطَّط، مغتبطاً بهذه الصيغة التي لم تَخْطُرْ للحياة على بال عندما كانت تطبخه على نار هادئة، وتُحضِّره ليصبح لقمة سائغة «للمسار البديهي»، تنويعاً مكروراً على شيء سبق حدوثه مرَّات ومرَّات، حتَّى صار نوعاً من الأسر، لا يُنقِذ منه سوى الموت. وكعادته عندما يشعر إبراهيم بغبطة شخص نجا من حادثة سير، فإنه يُحضِر لنفسه مشروباً فخماً، لترسيخ الغبطة، ويسترخي على الأريكة التي اقتناها وحده من «كيتيا»، بدون زوجة كانت ستهدر يوماً كاملاً في البحث عن عيوب القطعة المختارة، وما لها هذه الأريكة؟! إنها فظَّة قليلاً، ولكنها بدون ادِّعاء، عكس ذلك الطاقم الأصفر البذيء الذي كان يحتلُّ ثلثَي صالون الزوجية، والذي رغم غلائه الفاحش، أو بسببه لم يكن يستعمله سوى العابرون. أريكة «كيتيا» رمادية صلبة، تُشَكِّل مع طاولتها السوداء عُشَّاً خشناً في الظاهر، ولكنكَ ما إن تندمج معها في جلسة منتشية حتَّى تدرك أناقتها المتوارية، إنها محاكاة للبذخ دون أن تكون بذخاً، استعارة للتَّرف بالتركيز على الشكل والممكن. ذات يوم يقول إبراهيم سأكتب مديحاً متحمِّساً لأثاث «كيتيا»، لأنه تعبير عن تعاطف العالم الباذخ مع الطبقات المتوسِّطة التي غادرت قبل قليل منطقة الفقر دون أن تكون متأكِّدة تماماً أنها لن تعود إليه، لفترة طويلة أو قصيرة، سيستمتع المتوسِّطون الجدد بهذه النقلة النوعية في تدرُّجهم الاجتماعي، فإذا دفعتْهُم يد متجبِّرة إلى المواقع الدنيا، فإنهم سيبيعون أثاث الكيتيا إلى مَنْ هم أوسط منهم.

استطاع إبراهيم قبل سنتَيْن أن يضع حدَّاً لسنوات من الإقامة البلهاء في التعاسة، فجأة تسارعت الأمور بشكل غير متوقَّع بعد فترة طويلة من الخمود، ما كان إبراهيم يتصوَّره غير قابل إطلاقاً للمراجعة بدا مجرَّد صَرْحَ من ورق. وعندما أقبل على تفكيكه، لم يشغل نفسه بالبحث عن مكامن الخطإ، أو بالتعرُّف على الخاطئين. مضى في التفكيك إلى أبعد مدى، وهو مقتنع بأنه يحتاج إلى ذلك بشكل وجودي، إذ لو استمرَّ في قبول ما هو عليه شكلاً وحيداً للوجود، لفقد كلَّ إمكانية للبقاء على قيد الحياة. لذلك لم يكن يعير أيَّ اهتمام لذلك السيل الهائل من العتاب والنصائح الذي انهال عليه، لثنيه عن التنكُّر للنعمة، وعن الكفر بما بذلتْهُ الحياة لشخص لم يكن بديهياً - وقد جاء من حيث جاء - أن يحصل على شيء ممَّا حصل عليه. وقد ضحك كثيراً عندما قال أحد زملائه، إن «التخريب» الذي يقوم به ليس سوى «انهيار الناجحين بالصدفة»، إذ تراهم في عزِّ نجاحهم يقلبون الطاولة خوفاً من أن تنقلب من تلقاء نفسها، أو فقط لأنهم لا يصدِّقون ما حصل لهم. ضحك كثيراً، لأن الزملاء الذين يرتجلون أنفسهم مُحلِّلين للآخرين ربَّما يقيمون مثله منذ سنوات في التعاسة البلهاء نفسها، ولكنهم يفضِّلون استمرار التعاسة على زلزال القطيعة.

تزوَّج إبراهيم قبل خمس عشرة سنة من زميلة له في البنك بعد قصَّة حبٍّ مليئة بالحماقات والأسفار والمشاحنات. ثمَّ ما إن انتهى حفل الزفاف في «قصر القباج» وسط ضجيج لا يطاق من الغناء السوقي، الذي حصل بقوَّة الذوق الفاسد على الجنسية الشعبية، حتَّى بدأ تخطيط وتنفيذ «المسار البديهي»: الفيلَّا في حيِّ الرياض، ودار البحر في شواطئ بوزنيقة، والسيَّارات والقروض، والإقامة الإجبارية في العلاقات والأمكنة، والسُّمنة مباشرة في وضع تمدُّد أمام التلفزيون. كانت المشاحنات في البداية تشبه لعبة إيروتيكية، تعتمد على الإثارة والتوتُّر والعنف والتذلُّل والخنوع والمصالحة، لإشعال فتيل الشهوة، ثمَّ صارت في السنوات الأخيرة سُمَّاً خالصاً، لا يكتفي بتدمير خلايا الرغبة، بل ينجح في تدمير خلايا

الكائن.

كان إبراهيم خلال عشر سنوات مشلول الإرادة، رغم أنه كان يحقِّق نجاحاً باهراً في عمله بالبنك، يرتقي، ويكسب، ويتحوَّل يوماً بعد يوم إلى قطعة لا غنى عنها في ماكينة المال والأعمال. ولكنْ، لا شيء يملأ استيهاماته سوى الهروب إلى أقصى مكان في العالم، في مدينة مغمورة، يستأنف فيها الحياة كإنسان آخر، وكلَّما عجز عن تحقيق ذلك، شعر بكيانه كلِّه مُخَدَّراً، لا يقوى على الحسم في شيء. وخلال فترة الموات هذه، كان يمرُّ من حالات متناقضة، أحياناً يرى نفسه مصلوباً، يحسُّ بالمسامير التي تخترق جسده، وبالنزيف الذي يصاحبها، وأحياناً يرى نفسه مثل طائر خرج من القفص، وابتعد عنه، ومع ذلك، لا يجرؤ على التحليق اعتقاداً منه أنه ما زال في القفص، أو أن القفص ما زال فيه. إنه لا يقدر على التحليق، ولكنه لا يعرف أنه لكي يقدر عليه، يكفي فقط أن يحلِّق. وبموازاة مع ذلك، كان يصل أحياناً إلى كراهية عميقة لما هو عليه. لذلك التوتُّر المزمن الذي يعيشه بسبب المجهود الذي يبذله للحفاظ على المكاسب أو لتعزيزها بمكاسب أخرى، ولتلك العلاقة المدمِّرة مع زوجة، يتبادل معها في كلِّ لحظة وصفات عنف مُعلَنة ومُضمَرَة، تستهلك جُلَّ طاقَته. ثمَّ تأخذه، أحياناً أخرى، بعض الرقَّة تجاه ما هو عليه، النجاح ليس أمراً سهلاً ولا متاحاً باستمرار. وهذه العوالم، مهما كان خواؤها ومهما بلغت قسوتها، فهي أفضل بما لا يقاس من النزول إلى الجحيم. وحتَّى هذه المرأة المتربِّصة، المتحفِّزة دوماً للقتال، هي امرأة متعلِّقة به، بطريقتها القاسية، ولكنها، مع ذلك، متعلِّقة به، وبالبقاء معه حتَّى يفرِّقهما الموت، لأن الحياة أعقد من أن تفصل بينهما، ولأن السنوات الطويلة التي مضت ليست ماء نُلقيه بعد أن اغتسلنا فيه، إنها ربَّما، جلدنا الذي لم يمت بعد.

وذات صباح وهما يخرجان من البيت ويتوجَّهان إلى المؤسَّسة البنكية التي يشتغل فيها، والتي التحقت بها زوجته قبل سنة مفضِّلة أن تبقى في حيِّ الرياض عوض الاحتفاظ بمسار مهنيٍّ أقوى في حيِّ يعقوب المنصور. قال إبراهيم لزوجته إنه يودُّ لو يذهب كلُّ واحد منهما إلى حال سبيله. ففهمتْ أنه يقترح عليها أن يذهبا منفصلَيْن إلى عملهما. وأبدت بعض التفهُّم لهذا المطلب الذي يفتقد في نظرها لِلَّياقة، ولكنه لا يخلو من صواب. إذ لا معنى بالفعل لهذا الالتصاق اليومي ببعضهما، في البيت وفي الطريق وفي العمل. فسارع

إبراهيم بشجاعة لم يعرف كيف واتتْهُ، إلى تصحيح فهمها، بالتأكيد على أن ما يعنيه هو الانفصال السريع والعاجل، وضع حدٍّ لهذا التعايش القسري، أن يفلت كلٌّ واحد بجلده قبل أن يصبح لهذه العلاقة أنياب وغدد سامَّة. ولدهشته لم يجد عندها إصراراً بكائياً على الاحتفاظ به، كانت فقط تريد الاحتفاظ بالفيلَّا وبدار البحر، وكانت بهجته عظيمة عندما خرجا من مكتب القاضي مُطَلَّقَيْن هادِئَيْن. ثمَّ أصبحت بهجته نوعاً من السكينة الصافية عندما وضع حقائبه في غرفة الفندق، واستلقى على سريرها عارياً، تراوده، وهو في وضع جنين، سقط من رحم أُمِّه، رغبة ملحاحة في الحصول على مشروب فخم، يركِّز به هذه المشاعر الطيِّبة قبل أن تتناثر في الهواء.

كان لا بدَّ أن أفعل ذلك! قال إبراهيم لنفسه متحدِّثاً عن القُنْفُذ، لقد كنتُ في حاجة لهذا الإنقاذ ربَّما أكثر ممَّا كان هو في حاجة إليه. كثيراً ما صادفتُ قنافذ مدهوسة في الطريق التي تخترق «المعمورة»، كان ذلك يثير اشمئزازي، ليس من هول ما حدث، ولكنْ، من تلك الكتلة الدموية التي انبثقت من أحشاء حيَّة، وقد غادرت القفص الشوكي، وأصبحت جزءاً من الإسفلت.

ولكنْ، تلك كانت قنافذ لا أعرفها، وما أكثر ما وجدتُ بعضها كرات شوك مندسَّة بين صناديق النحل، فكنتُ أُبعدها بقدمي، ولم يحصل أبداً أن رأيتُ شيئاً من جسدها أو من ملامحها. أمَّا هذا القُنْفُذ بالذات، فقد التقيتُ به مرَّات عديدة في وضعية توقُّف، يتأمَّل العالم من خلف قناعه الواقي، أو في وضعية ركض صريح، وتأمَّلتُهُ وقد غادر الهيأة الكروية، وأصبح جسماً رشيقاً، بل رأيتُ وجهه، والزغب الأسود الذي يكسو وجنتَيْه وعنقه

وما يظهر من قدمَيْه، فوجدتُهُ يشبه من الداخل أرنباً أو فأراً كبيراً، أو سنجاباً، وتأثَّرتُ كثيراً لثنائية الظاهر الشائك، والباطن الحريري، ثمَّ لتلك الطريقة الطفولية الماكرة التي يعدو بها بين الرمال والأعشاب، متأهِّباً على الدوام، ليصبح كرة جامدة من الشوك والتنفُّس البطيء. وأجزم أنه كان يعرفني، فقد كان يتوقَّف عن الركض بُرْهَة عندما يراني، يدور حول نفسه، كأنه سيُغيِّر الوجهة، أو كما لو كان يتردَّد بين الرغبة في مفاتحتي بشيء، والخوف من

الوقوع في فخِّ علاقة صعبة. وأجزم أن تلك كانت طريقته في تحيَّتي، وغالباً ما كنتُ أردُّ عليها رافعاً يدي كأنني أمزح فقط، ثمَّ صرتُ أرفعها مقتنعاً أنه يفهمني، مثلما أفهمه. لقد أصبحنا صديقَيْن كنتُ أقول لنفسي، وكان ذلك يملؤني بشعور قوي بأهميَّة صداقة من هذا النوع، باعتبارها صداقة في المطلق، لا بداية لها ولا نهاية، وليس فيها حساب ولا مصالح، ولا حتَّى مشاعر سهلة.

ولأنني رأيتُ وجهه، ورأيتُ جسده الغامض، ولأنه ربَّما تفرَّس في ملامحي، وسجَّلها في مخِّه الصغير، بحيث أصبح بديهياً أن أكون أنا مَن انحنى عليه، ليلتقطه مجروحاً من المكان الذي كان يتألَّم فيه، قرب الزهرة الغريبة، وليس أيّ شخص آخر، فقد كان منطقياً أن ينشأ بيننا شيء أعمق من علاقة عابرة بين رجل وقُنْفُذ، شيء يؤسِّس إحساساً جديداً في غابة «المعمورة» الممتدَّة من الرباط حتَّى ولماس ومن بورقراق حتَّى وادي بهت ومن سيدي يحيى حتَّى مشارف اللوكوس. على ضفاف قبائل زمور وزَيان وبني حسن، والتي كانت تضجُّ بالضواري والظباء والأيائل والقِرَدَة والخنازير والبقر الوحشي والخيول البرِّية قبل أن تصبح اليوم بقعاً متناثرة من الفِلِّين الذي أكله الرعاة واقفاً، لا تشكِّل أكثر من عشر غابة القرن السابع عشر. وهذا الإحساس وإن كان يجمع بين رجل وقُنْفُذ فحسب، فإن أرواح كلِّ تلك الوحوش المنقرضة قد هَبَّتْ من مهاجعها تأثُّراً لهذه الرقَّة الوليدة، ولا شكَّ أنها حلَّقت مصاحبة رحلة القُنْفُذ بقدمه المتعفِّنة في سيَّارة إبراهيم رباعية الدفع من قلب الغابة التي تقع في دائرة الخزازنة من قبيلة زمور، إلَى حيِّ أكْدال بالرباط العاصمة، وتحديداً إلى غرفة المعالجة، بين اليدَيْن الرهيفتَيْن للطبيبة بريجيت، التي اعتبرت دخول أوَّل قُنْفُذ إلى مصحَّتها، بعد مرور عشرين سنة على افتتاحها، إشارة ربَّانية، فهي، أيضاً، كانت تحتاج لولادة خارج المتوقَّع. وقد تحصل إذا أنقذت القُنْفُذ، وعند ذلك ستعود الأرواح المحلِّقة إلى مكامنها العميقة. أحياناً يكون الكوكب كلُّه متعلِّقاً بحكاية بسيطة، بينما الإنسان في عزِّ أوهامه لا يتوقَّف عن انتظار «انفجار عظيم»، لتتحرَّك ورقة ميتة من مكانها.

اتَّصلت بريجيت في صباح اليوم التالي. كان صوتها مرحاً وهي تسأل:

- أَلَا تنوي زيارة مريضنا العجيب؟!

قال إبراهيم:

- سأفعل فوراً. لكنْ، خَبِّريني: هل سيخرج سليماً من الحكاية؟!

قالت بريجيت:

- لقد استجاب جيِّداً للعلاج، يمكن أن نقول إنه تخطَّى المرحلة الحَرِجَة، لكنه سيخرج معاقاً. وهذا ليس أفضل ما يحدث لقُنْفُذ سيعيش في الغابة.

عندما كان متوجِّهاً للمصحَّة، انتابه شعور لذيذ بأنه يذهب للقاء بريجيت، وليس لتفقُّد أحوال القُنْفُذ. كان شعوراً مدهِشاً لم يُراوِدْهُ منذ سنوات وقد استقبله بامتنان كبير للحياة التي لا تتوقَّف عن ابتكار المنعطفات الجميلة.

عاش إبراهيم، قبل الانفصال وبعده، مرحلة يأس وجداني، دفعه لطرح أسئلة لم يتعوَّد

على طرحها من قبل، ما هو الضروري؟ وما هو الزائد؟ ما هو المصير الذي نتحكَّم فيه، والذي لا نتحكَّم فيه؟ لمَنْ نرضخ عندما نقبل بما نحن عليه إلى أن يتغيَّر من تلقاء نفسه؟ ماذا نخسر عندما نخسر؟ وماذا نربح عندما نربح؟ .. كان يضع هذه الأسئلة وغيرها بدون مرارة وبدون شعور بالإحباط .. ويجتهد في بناء أجوبة ضدَّ الاستكانة وضدَّ قبول الأمر الواقع. وفي كلِّ مرَّة يستقرُّ فيها على جواب حاسم يدرك إلى أيِّ حَدٍّ يمكن أن تبدو معه الأجوبة السليمة ضرباً من الجنون، إذ يوجد في كلِّ جزء من حياتكَ صوت يقول لكَ: لماذا لا تحمد الله؟! هل تستكثر على نفسكَ أنكَ في أحسن حال؟ هل البؤس فردوس تندم على النزول منه؟! وإيَّاكَ أن تضع المكاسب الملموسة مقابل شعور مبهم بالخلاص. ستكون كمَنْ يضع الذهب في كفَّة والريح في كفَّة أخرى.

ذات صباح وهو يشرب قهوته قبل الدخول إلى البنك قرأ مقالاً صغيراً في جريدة لوموند الفرنسية، عن الخطر الذي يتهدَّد الحياة في كوكب الأرض جرَّاء الإبادة التي يتعرَّض لها النحل في جميع أنحاء المعمور. لم يكن يعير النحل أيَّ اهتمام، ولم يكن يتصوَّر أبداً أن انقراض النحل سيؤدِّي إلى انقراض الحياة. ربَّما فكَّر أن ينقرض العسل الذي لا يكنُّ له محبَّة خاصَّة، أمَّا الحياة برمَّتها، فكيف يكون مصيرها معلَّقاً بهذه الحشرة الصغيرة الهشَّة التي تموت إذا لسعت، وتعيش أيَّاماً معدُودة في شغل دائم لا يشبهه سوى الشغل في البنك؟ كان إبراهيم قد اتَّخذ قراره بتغيير الوجهة. ولكنه أحبَّ أن يكون هذا المقال الطريف هو الشرارة الأولى التي اشتعل بها حريق كبير في حياته، حريق سيؤدِّي به إلى سوء تفاهم كبير مع العالم. سيكون إبراهيم بمقتضاه في وضع مشوَّش لرجل نجا بجلده، وسيكون الآخرون في وضع اختبار دائم لنظرية «انهيار النجاح المكتسب».

ثمَّ هدأت الأمور بعد ذلك، كلُّ التوتُّر والخوف والشكُّ والتردُّد، ذهبت به الشهور الأولى بعد مغادرته للبنك بتقاعد مبكِّر. فقد قضاها منهمكاً في أمور عملية، لا تسمح بالعودة إلى الوراء. سافر إلى جنوب فرنسا للاستفادة من دورة تدريبية في تربية النحل، وسعى إلى اقتناء قطعة أرض على جنبات المعمورة، وبمجرَّد عودته من فرنسا، دخل غمار التجربة بيقين هادئ، الصناديق والشمع والمربَّعات التي ستستقبل البناء، و«قبيلة» النحل الأولى التي سينقلها ليلاً إلى عين المكان، مُخْتَرِقاً بها ضباب أبريل وهو يتخلَّص من البقايا الأخيرة للقلق الذي ساوره منذ اللحظة الأولى التي لمعت فيها الفكرة في ذهنه، إلى هذه اللحظة التي سيتعرَّف فيها رغم الليل والضباب على المنعطف الرملي الذي سيقوده إلى قطعة الأرض في قلب المعمورة، والذي سيقوده حتماً إلى حياة أخرى .. وبمجرَّد ما وضع الصناديق، وذاب صوت محرِّك البيكوب التي انصرفت، انصبَّت عليه سكينة باردة، وأحسَّ في جنبَيْه بانبثاق الأجنحة الأولى التي ستُمكِّنه من التحليق داخل «كُبَّةِ النحل».

وها هو الآن يشعر بانبثاق أجنحة أخرى، لأنه سيذهب للقاء بريجيت. وسيقترح عليها أن يُسمِّيا القُنْفُذ (يَنْسِي) كما يُدْعَى عند أمازيغ المعمورة. ثمَّ مَنْ يدري؟

ربَّما تنشأ من هذه الألاعيب الصغيرة شرارة تقدح انفجاراً، يضع كوكباً غير متوقَّع في فوضى المجرَّة.

-3-

عندما أضاءت بريجيت غرفة النزلاء، لمح إبراهيم (يَنْسِي) يتحرَّك بحذر شديد في قفصه، قبل أن يتحوَّل إلى كرة شوكية. تأمَّل إبراهيم القُنْفُذ طويلاً، وبريجيت إلى جانبه، يفعمه عطرها الرقيق الذي يكاد يكون شذى فاكهة بعيدة. أخرج القُنْفُذ جزءاً من رأسه، فلمعت عيناه عبر تلك الفتحة الخجولة. قالت بريجيت:

- لقد تعرَّف عليكَ .. إنه يركِّز نظرته على وجهكَ... كأنه يريد أن يقول شيئاً!

قال إبراهيم:

- وماذا عساه أن يقول؟

- إنه ممتنٌّ لكَ. الحيوانات تحرص حرصاً شديداً على التعبير عن امتنانها، تعتبر ذلك شرطاً أساسياً من شروط استمرار الحياة.

قال إبراهيم:

- أشكُّ كثيراً في كونه قد تعرَّف عليَّ!

- بل تعرَّف عليكَ فور دخولكَ إلى الغرفة، كان في وضع طليق، ثمَّ انكمش تلقائياً، لأن تلك طريقته الفطرية في الدفاع عن نفسه، لكنه سرعان ما أخرج رأسه قليلاً، وتطلَّع نحوكَ، من المفروض أن تصبح هذه الشحنة الأولى التي وصلتكَ من نظرته رابطاً روحياً بينكما حتَّى أَمَد بعيد.

التفت إبراهيم نحو بريجيت، فعثر في نظرتها على بريق لم يلاحظه من قبل، فقال إنه ممتنٌّ لها، لأنها وضعتْهُ في علاقة مثيرة مع القُنْفُذ، لقد أصبح لبنة أساسية في وجوده. ولن يستطيع من الآن فصاعداً أن يتصوَّر نفسه مبتوراً

من هذه اللّبنة، ومهما تَكُن تطوُّرات هذه الحكاية، فإن القُنْفُذ سيظلَّ مفتاحاً من مفاتيح وجوده.

قالت بريجيت إنها مَدعوَّة على استعجال لقاعة المعالجة. فقد وصل للتوّ كلب فَقَدَ إحدى عينَيْه في شجار مع كلب آخر. وأشارت عليه وهما يخرجان من غرفة النزلاء أن يعود بعد يومَيْن، ليأخذ القُنْفُذ.

مشى إبراهيم بعد مغادرة المصحَّة في شارع الأمم المتَّحدة عكس اتِّجاه منزله، كان في حاجة إلى المشي، ليتمكَّن من ترتيب أفكاره ومشاعره، لم يكن مضطرباً، كان فقط كمَنْ جلس إلى مائدة طعام غنية، ويريد ترتيب أولويات الاستمتاع بطريقة تجمع بين المتحقَّق والمتوقَّع. إنه يتذوَّق بلسانه طعاماً يَسْتَمْرِئُهُ، ويتذوَّق بذهنه طعاماً يراه. مشى حتَّى «باب الرواح: ثمَّ عاد أدراجه عبر شارع النصر حتَّى حديقة التجارب، فاخترقها صوب ساحة بورغون، ليصعد منها إلى سوق أكْدال، الذي يعتبره حديقة خلفية لمنزله، سيشتري من هناك سمكاً وخضاراً بأثمان باهظة. وسيفعل ذلك راضياً، لأنه يحبُّ تجاوُر الأسماك والخضر والفواكه والزهور والنباتات العطرية في صحن متناسق، يعرف الناس فيه بعضهم البعض، ويتنادون فيه بأسمائهم الخاصَّة، إنه آخر مربَّع حميمي في منطقة، انتقلت من الفيلَّات الكولونيالية الحالمة إلى العمارات المتزاحمة بالأرواح والعتاد، وعندما سيدخل شُقَّته الصغيرة سيكون متأكِّداً من أنه يعيش لحظة رهافة نادرة. إنه يكاد يحسُّ بالقُنْفُذ يلامس جسده ببطنه ذي الزغب الناعم، ويمشي ناثراً على صدره وعنقه ووجنتَيْه برودة الكائن الذي يخترق الهواء لأوَّل مرَّة في حياته، ويكاد يُحسُّ بأنامل بريجيت تخيط شيئاً مفتوحاً في معابر القُنْفُذ، شيئاً شبيهاً بجرح، أو بِثَلم في الوجود .. تخيط وتلمس الأثر

حتَّى لا يعود هناك أثر، وعندما تحسُّه منتبهاً للمستها المتأنِّية، ترفع يدها قليلاً ريثما تهدأ الشعيرات المُسْتَنْفَرَة، ثمَّ تعود بإلحاح رقيق، كأنها تُهرِّبُه من مخالب الشكِّ. هذه هي الآن أطباق مائدته الشهية. سيُقبل عليها دون عجلة من أمره، لأن الأمر لا يخضع لمنطق البَلْع والامتلاء والشبع، بل لمنطق

التشرُّب والارتواء وعبور الأطاييب من حالة المادَّة العنيفة إلى حالة الضوء العاشق الذي تمتلئ به البشرة وهي تنضح بالأشعَّة التي وصلت من شموس الدواخل.

سيذهب إبراهيم إلى نحله رائقاً، باديَ البهجة، والنحل سيعرف ذلك، من أوَّل ما سيلمس واحداً من صناديقه، ليتيقَّن من صحَّة المجموعة، ويتأكَّد من جودة العمل. سيعرفه النحل برائحة جسمه الخالية من كلِّ عطر، وسيعرف من تلك الرائحة كلَّ شيء عن مزاجه مثلما يعرف هو من أزيزه ومن تحليقه من الصندوق أو إليه كلَّ شيء عن أحواله النفسية والجسدية.

منذ انخراطه في هذه التجربة، صار إبراهيم عابداً في محراب النحل، وقد أعاد ضبط حواسِّه على إيقاعه البديع، يلتقط الإشارات الضوئية التي تبعثها الأزهار، ويحدس شهية النحل من حركات الباليه التي يقوم بها حول الصناديق، ويقرأ حركات الريح ومواسم الإزهار، ويفطن إلى تغيُّر نسبة الرطوبة في الجوِّ، وكثافة الندى في النباتات، ويَصِلُهُ نداء الإلقاح الذي تذيبه في الجوِّ أشجار شبقة، تستدرج النحل نحوها بكهرباء الخلق والشهوة .. وأكثر من ذلك، صار يعرف رائحة جسده، لأنه انقطع عن استعمال العطر والصابون العطري، ومراهم ما بعد الحلاقة، حتَّى لا يعتبره النحل غريباً يقتحم بيوتها، وها هو يعرف نفسه كما هو، بعرقه الذي يتغيَّر حسب الفصول وطبيعة الجهد، ونوع الأكل والشرب، صار شخصاً قريباً من الجسد الحرِّ، المتخلِّص من شوائب الاستهلاك الزائد والتنكُّر تحت طبقات سميكة من الروائح والألوان الزائفة .. يقول إبراهيم: هذه أحوال الجسد، أمَّا أحوال النفس، فعسى أن نعيد ضبطها بما يُرضي الملِكة وجنودها العظام.

الجنود! يا لها من كلمة سخيفة! يستدرك إبراهيم، إنها أرواح محلِّقة، أطفال رائعون، يعبرون الحياة، ويتركون فيها بذرة الطفولة الأبدية. كان إبراهيم يختزن في دواخله حزناً واخزاً، لكونه لم ينجبْ، لكن النحل استخرج الشوكة بسلام، فصار يهبُّ نحوهم بمشاعر أُبُوَّة جيَّاشة، وطالما تَخَيَّلهم وهو يتحرَّك بقناعه الواقي بين صخبهم وصمتهم في أثناء استبدال ألواح الشمع، أو تقسيم

الصناديق، أو الزيادة في حجمها، أطفاله المتأخِّرون جاؤوا ليُذيقوه تلك العذوبة التي تغسل القلب... ومرَّات كثيرة تصوَّر أن أجمل ما سيحصل له هو أن يتمكَّن ذات يوم من التعرُّف على النحل واحدة واحدة، كأنهم فعلاً أطفاله، أو كأنه واحدة منهم. خرجتْ ذات صباح من الدودة، وحلَّقت عجلى، لتُنقذ الحياة.

قبل سنة، عندما جنى إبراهيمُ عَسَلَهُ الأوَّل، أصابه كَرْبٌ عظيم من تلك القيامة التي أثارها تهجيج النحل من بيوتها الآمنة، كان إبراهيم يقطع الشهد بمساعدة الشيخ عبد الله. مستعملاً نافثات الدخان التي تُبعد النحل عن الصناديق، وكلَّما انتقل من صندوق إلى صندوق، كان النحل يُحلِّق مفزوعاً في اتِّجاهات متقاطعة، فيسقط ويحلِّق، ويبتعد ويعود كجحَافل من المتهافتين على حادثة سَيْر... كان إبراهيم يسمع صراخهم وأنينهم، ويرى مَنْ سقط منهم في هذه المعركة الظالمة، فأصبح جثَّة هامدة أو مصاباً يجاهد للبقاء على قيد الحياة .. فلم يُكمِل دورته على الصناديق حتَّى كان مصاباً في أعماقه بألم لا يُطاق، وقضى ليلة بيضاء حتَّى رأى في غبش الصبح صناديقه وقد امتلأت من جديد بأرواحها الرهيفة.

ومع ذلك، فقد لازمه ذلك الكَرْب أيَّاماً متتالية حتَّى أنقذه الشيخ عبد الله الذي عاش في الغابة لأزيدَ من خمسين سنة، لم يَرَ فيها الطريق المعبَّدة، أو المدينة ولا مرَّة واحدة. أنقذه بقصَّة الحاجّ لحسن الذي كان أوَّل مَنْ دخل الغابة بصناديق النحل، كان ذلك يقول الشيخ عبد الله قبل»نَفْي محمَّد الخامس» بسنة أو سنتَيْن، والعسل وقتها كان رخيصاً لاً

يُسْأل عنه، ونقله إلى المُدُن التي تستهلكه على نطاق واسع لم يكن متأتِّياً، وحتَّى الأواني التي كان يُعبَّأ فيها لم تكن قبل دخول البلاستيك إلَّا من فخَّار هشٍّ، ما أكثر ما يتهشَّم من تلقاء نفسه بثقل العسل. والحاجّ لحسن من طيبوبته كان يضع قُلَل العسل على عربة الكَارو، وينتقل بها من بني حسن غرب البلاد مخترقاً غابة الفِلِّين وأراضي قبيلة لخزازنة حتَّى حدودها مع عرب المزورفة، وأبعد من ذلك حتَّى مشارف تِيْفَّلْتْ، وهي كانت معروفة باسم

لاكَّار، أي محطّة القطار الذي كانت له على ذلك العهد محطّة هناك. فيخرج سكَّان الدواوير المبثوثة على جنبات الغابة، ويقفون بأوانيهم البالغة النظافة، لأن الحاجّ لحسن كان لا يضع عسله إلَّا في الإناء النظيف، يفعل ذلك خلال أيَّام، ويقول ويردِّد «مَنْ لم يأخذ اليوم يأخذ غداً» في الشهر السادس وفي الشهر التاسع من كلِّ سنة أوان جني الشهد الذي كان شذاه يسكن الدواوير شهوراً حتَّى ينفد من البيوت. وذات يوم شعر الحاجّ لحسن بضيق في تنفُّسه وهو يرتاح تحت شجرة فِلِّين، كان سعيداً بالهواء البارد الذي تصنعه أوراق الفِلِّين الخضراء والفضِّية، إذ لا أرحم من هذه الشجرة، ولا أهنأ منها في المقيل، عندما داهمه ذلك الألم الغريب، فلم تمضِ سوى لحظات حتَّى فاضت روحه.

يقول الشيخ عبد الله إنه لم يَرَ في حياته جنازة بتلك المهابة، فقد مشى فيها كلُّ سكَّان المنطقة رجالاً ونساءً وأطفالاً، فما إن وصلوا إلى المقبرة حتَّى ظلَّلتْهم سحابة نحل الحاجّ الحسن، وقد رأوها تدور حول قبره ساعات بعد الدفن قبل أن ترجع إلى صناديقها.

«النحل لا يغضب من أحد» يقول الشيخ عبد الله، إنه يعرف أن العسل سيؤخذ منه اغتصاباً، ولكنه لا يمكن أن يمتنع عن وضعه بعد كَدٍّ ونَصَبٍ في ثقوب الشهد الذي بناه. نزلت هذه الحكاية برداً وسلاماً على إبراهيم. فلم يعد يتكدَّر كلَّما دخل معترك ذلك المشهد القيامي الذي يُقْطَع فيها العسل كما تُهدم بيوت على سكَّانها، إنَّه فقط تكرار لمشهد الغارة الهوجاء التي تعوَّد الإنسان أن يرضي بها رغباته. وبعد ذلك سيسود الهدوء تدريجياً، ويعود كلُّ طرف إلى طبيعته، الإنسان إلى شرهه الذي لا تساوره الشكوك، والنحل إلى بذله .. وكلاهما ضروري لبقاء الكوكب على قيد الحياة.

إنه يوم جميل، فكَّر إبراهيم وهو يجلس تحت شجرة الفِلِّين مع الشيخ عبد الله، وبينما انصرف هذا الأخير إلى جرابه لتحضير عدَّة الشاي، راح إبراهيم يفكِّر بما كانت ستقوله بريجيت لو كانت هنا تقتسم معهما فطائر الذرة بالزعتر وزيت الزيتون. وانتبه إلى كون بريجيت التي لم يمرّ سوى يوم واحد

على لقائهما الأوَّل قد أصبحت فجأة طرفاً في الحكاية. فهذا المكان يوجد في خاطره وفي علاقة جسده بالعالم منذ ثلاث سنوات، وشجرة الفِلِّين الكبيرة التي توجد في قطعة الأرض التي اشتراها، وبالضبط في الحدِّ الفاصل بين المِلْك الغابوي والأملاك الخاصَّة، والكوخ الذي به معدَّات النحل وسرير المعسكر، هذا كلُّه قد أصبح، بمعجزة ما، تاريخاً مشتركاً مع بريجيت، منذ غادر المصحَّة صباح هذا اليوم وهو لا يضع قدمه في مربَّع من هذه المربَّعات القليلة التي أصبحت حياته، حتَّى يجد بريجيت قد سبقتْهُ إليه. وطبعاً في هذه اللحظة بالذات، رنَّ هاتفه، فكانت بريجيت على الخطِّ، وفعلاً قال إنه كان يفكِّر بها في هذه اللحظة، وطبعاً ضحكت، وقالت إن القُنْفُذ بخير، وربَّما اشتاق إليه، وتحدَّثا لبضع دقائق عن الريح التي تذهب بصوتَيْهما، ذلك لأنني يقول إبراهيم تحت الفِلِّينة الكبيرة التي تكاد تكون مُكيِّفاً في الهواء الطلق. هنا كانت الزهرة الغريبة التي وجدت القُنْفُذ الجريح قربها. هذه الأشجار لا تمنع العشب ولا الأزهار ولا الفطر من الحياة في ظلِّها عكس الأوكَاليبتوس الذي يشبه المستعمِر الذي استوردَهُ لبلادنا من أصقاع أستراليا. لا يترك خفقة حياة واحدة حوله، بل يمدُّ عروقه، لتمصَّ آخر نقطة ماء في أعماق الأرض .. طبعاً نضع صناديقنا تحت الأوكاليبتوس من أجل الأزهار، ونقيل تحت شجرة الفِلِّين، ونشتم الفرنسيِّيْن من أعماق القلب!

- مع مَنْ تقيل تحت الشجرة؟ سألت بريجيت.

قال إبراهيم:

- أنا والشيخ عبد الله.

سمع الشيخ عبد الله اسمه بالفرنسية في النصِّ، فقفز متحفِّزاً، وسأل إبراهيم بعينَيْه عمَّا يفعله اسمه في هذا الحديث. قال إبراهيم...أقول فقط إنكَ في صحبتي...

قال الشيخ ساهماً وهو يمسح عينَيْه البليلتَيْن بكُمِّ جلبابه:

- الله يرحمه .. كان يعرف سبعة ألسن، وكان في السابعة والعشرين عندما سقطت طائرته عند البوليساريو .. والآن مرَّت سبع وعشرون سنة وهو في الأسر... حياً أو ميتاً مَنْ يعرف؟ صار شيخاً مثلي، ولكنْ، لا أتذكَّره إلَّا طِفْلاً .. وكان يتكلَّم سبعة ألسن، والشكُّ أنه كان يعرف، أيضاً، منطق الطير .. ولكنْ، ما الفائدة؟! ويل لمَنْ تبعثهُ العين، كان يقال عنه: «إنه يطير مع الطيور»، وقد طار فعلاً، ولم يعد.

تأمَّل إبراهيم وجه الشيخ المتغضِّن، كانت عيناه متَّقدَتَيْن، فكان ذلك يمسح من وجهه كلَّ أثر للشيخوخة، ولولا الألم الذي كان ثاوياً تحت الجلد ما ظهر للسنوات التسعين أثر خارج العروق النافرة ليدَيْه النحيفتَيْن. الناس كلُّهم يدعونه الشيخ عبد الله، ليس بسبب سنِّه، ولكنْ، لأن رُماة المنطقة الذين يلتفُّون حول ضريح سيدي العربي كلّ شهر أكتوبر عن افتتاح موسم الصيد، اختاروه «شيخ الرْمَى» .. ولو أنه لم يستعمل في حياته أبداً بندقية صيد، كان يصيد بالعصا، وقد قتل بها من الحجل والأرانب أضعاف ما قتله الرماة ببنادقهم .. وكان يعرف أثر الطرائد حتَّى ولو مشت على ورق الأوكاليبتوس الميتة، وإذا قصد سِدْراً معزولاً، وحدَّق بعينَيْه الحادَّتَيْن بين أشواكه، فاعرف أن أرنباً سيهبُّ منه مذعوراً ومكشوفاً للرماة، ويا ويله مَنْ رمى ولم يَصِبْ! سيُجرِّده الشيخ عبد الله من سلاحه، يقول: أفرغها أوَّلاً (اخْوِي المكحلة)، ثمَّ يُقَبِّلُ البندقية، ويعلِّقها على كتفه، ويسلِّم العصا للصيَّاد الخائب: «ادخل مع النشاشة، أنتَ لا تستطيع أن تصيب سوقاً بأكمله .. فكيف تصيب الأرنب؟! حتَّى لو ربطناها، فإنكَ ستصيب الخيط، لتعيدَه حرَّاً طليقاً إلى الغابة ..».

كان إبراهيم يحبُّ الشيخ عبد الله، ويتبرَّك به، ويتمنَّى أن يعيش طويلاً في صحبته. عشية ذلك اليوم وقبل أن يتركه على مشارف الدوار، سأله ملتمساً إشارة ربَّانية على يدَيْه.

- هل أدعو الطبيبة للعشاء؟!

قال الشيخ ضاحكاً:

- وماذا تنتظر؟ ستموت جوعاً!

كان عشاءً لطيفاً، لم يذق مثله منذ سنوات .. فقد تجمَّلت له بريجيت بفستان غامق، يكشف ذراعَيْها وجزءاً كبيراً من صدرها، ووضعت قلادة من اللبان الخام، تناغمت مع نمشها الدقيق، وتركت شَعْرها حرَّاً، يلامس ما يشاء من خدَّيْها وجِيْدها، ويتيح لها أن ترسل فيه أناملها من حين لآخر بحركة راقصة، يتوقَّف معها كلُّ شيء حول المائدة. كان إبراهيم دون أن يستعيد شيئاً ممَّا مضى، أو يتذكَّر طقساً مماثلاً، يستمتع بتفاصيل العشاء، المناديل البيضاء والشمعة والفضِّيات والكريستال وأطباق الخزف المنقوش وكلمات البدايات المتلعثمة .. لا شيء أكثر سحراً من العشاء الذي ندخله طقساً مركَّباً من الإثارة والإغواء والشكِّ والتوقُّع، ونَخرج منه وقد اقتربنا قليلاً أو ابتعدنا كثيراً. العشاء في المطعم، قبل أن يتحوَّل إلى صفقة للأكل والشرب وكيل الجمل المسمومة، هو جنَّة الغرام التي ابتكرها الإنسان لمكافأة نفسه مسبَّقاً على قصَّة الحبِّ التي سيتجرَّأ على تأليفها، ولا يعرف ما إذا كانت ستكون فلتة من فلتات الجمال واللذَّة، أم نزولاً إلى الجحيم.

كان إبراهيم يسمع كلَّ شيء في المطعم .. حتَّى آلمتْهُ أُذناه، يسمع الهمس في أقصى الصالة، وطلبات الزبائن، ويتلقَّى أصوات الملاعق والكؤوس كطلقات نارية، وكان ذلك لأنه قضى أَزْيد من سنتَيْن، لا يسمع شيئاً من أصوات المدينة حتَّى صار يُكلِّم الشيخ عبد الله، ويسمعه، وكلاهما على الطرف الآخر من الغابة.

قال إبراهيم: إن مطاعمنا صارت تشبه المطاعم الإسبانية، بها لغط كثير وضجيج لا يُطاق، فزعمت بريجيت أن الضجيج يساعد المبتدئين على عبور صحاري الصمت دون خسائر فادحة، ثمَّ أضافت:

- لو كنَّا في مطعم نمساوي، لكنَّا في ورطة حقيقية!

فقال إبراهيم: إننا، مع ذلك، في ورطة!

ولكنهما، بعد الشروع في الشرب، تحفَّزا بطريقة تلقائية للحديث عن كلِّ شيء، وعن لا شيء. وصار بإمكانهما أن يضحكا كثيراً لأسباب واهية، وأن يتفلسفا في شؤون هي نفسها تضحك إذا أدخلها أحد في غمار الفلسفة ..

لم تكن بريجيت سخية في الحديث عن نفسها، ولم تضع على إبراهيم أيَّ سؤال شخصي، كانت تتحدَّث عن المغرب كما عرفتْهُ قبل عشرين سنة، وعن مغرب اليوم من خلال مهنتها. قبل عشرين سنة، كانت لا تستقبل في العيادة أكثر من كلب أو كلبَيْن في الأسبوع، وقططاً نادرة، كان أصحابها يطلبون إخصاءها أو استئصال أرحامها، وجُلُّ شغلها كان مع خيل دار السلام، أو خيل نادي الحَرْكَة بالمعهد الزراعي، يمكن، تقول بريجيت أن نقرأ تحوُّلات المغرب في العشرين سنة الأخيرة من العدد الهائل للكلاب والقطط والطيور والسلاحف والزواحف التي صارت تتردَّد على عيادتي، وتُنْفَق على تداويها وعملياتها الجراحية مبالغ لا يُستهان بها ..

- تقصدين أن الحيوانات الأليفة صار لها مكان طبيعي في العائلة المغربية؟

- ربَّما ليس في كلِّ مكان .. لكنْ، في الأحياء المتوسِّطة والراقية بكلِّ تأكيد، فكثيراً ما تأتي العائلة بأكملها، لمصاحبة كلب في أثناء إجراء عملية جراحية خطيرة، ويمرُّ أفرادها من لحظات عصيبة، وكم مرَّة أبلغتُ عن وفاة حيوان أليف بعد فشل العلاج، فوجدتُ نفسي أمام مأتم حقيقي، ومضطرَّة لربط اتِّصال للعائلة مع طبيب نفسي لترويض الفقدان الذي يعصف بحياة رجال ونساء وأطفال فقدوا كلب حيواتهم .. نحن أبعد ما نكون عن تلك الفترة التي كان فيها أطفال المدارس حتَّى في الأحياء الراقية لا يتردَّدون في تقاذف قطَّة تائهة بين السيَّارات ككرة من جلد وريح.

قال إبراهيم: إنه لا يعرف كيف يتلقَّى هذا الأمر. فهو يحبُّ الحيوانات من فترة قصيرة، ويعتقد أنها كائنات، ليست في مرتبة أدنى ولا أعلى من الإنسان، إنها مثله تماماً كائنات حيَّة. ويتصوَّر أنه لو حدث شيء لكلبته « لايْكا» فسيتألَّم كثيراً .. ولكنه، من جهة أخرى، يخاف من استبدال العلاقة المكلِّفة والمرهقة مع الإنسان بعلاقة أقلّ كلفة وإرهاقاً مع الحيوان، في محاولة يائسة للتعويض.

وكاد أن يستطرد في الحديث، ويذكر المستشفيات والمستوصفات التي يموت فيها الناس في شروط بهيمية، حتَّى صار المستشفى في حياة الإنسان شبيهاً بحادثة سير مروِّعة .. لكنه أحجم في آخر لحظة، مفضِّلاً أن لا يُقحِم في عشاء رقيق حديثاً بهذه السوداوية.

قالت بريجيت:

- لا أحد يعوِّض أحداً، الإنسان مهما كان قريباً منكَ، لا يمكن أن يعوِّض القطَّ الذي يتخايل

أمامكَ متظاهراً بتجاهلكَ، بينما يُحضِّر شيئاً لإسقاطكَ في فخِّ الاستسلام له، يفعل ذلك بغرور وعجرفة واتِّقاد ذهني عجيب حتَّى إذا استسلمتَ ووضعتَ أصابعَك في فروته تكاسل وتثاءب، ثمَّ قفز بعيداً، ليمثِّل دور المستغني عن هذه الألاعيب كلِّها .. ولكن القطَّ لا يتبادل معكَ الأوهام، وأنتَ تحتاج في كلِّ لحظة إلى مَنْ يتبادل معكَ الأوهام .. والإنسان وحده يصلح لهذه المهمَّة العسيرة ..

قال إبراهيم:

- أنا لا أحبُّ القطط .. لا أريد أن يحصل لها شيء سيِّئ، ولكني لا أحبُّها، أحبُّ الكلاب، وقد أحبُّ القنافذ، إذا تواضع (يَنْسِي) وأحبَّني!

ضحكت بريجيت، وقالت: إن (يَنْسِي) سيختفي في الغابة، ومع ذلك سيصبح صديقاً لنا في الحياة، حتَّى ولو لم نلتقِ به مرَّة أخرى، لقد جمعتْنا لحظة صعبة عندما انتشلناه من هلاك أكيد، وستجمعنا لحظة ساحرة عندما نضعه في كنف المعمورة، ونبتعد قليلاً، لنراه يخرج بِعَرَجه البَيِّن من كرته، ويعدو في البراري غير مصدِّق ما حدث له.

يحبُّ إبراهيم كثيراً ما حدث له في السنوات الأخيرة، يعتبره بطولة شخصية خارقة للعادة، ولكنه يخاف من استعراض تفاصيل ما حدث، لأنه يدرك أن الآخرين سيضعونه حتماً في خانة «الخاسرين»، وسيُسيئون فهمه تبعاً لذلك،

بل وسيُسيئون معاملته أيضاً، لا أحد سيصدِّق أن الإطار البنكي اللامع الذي نجح في كلِّ شيء تقريباً باستثناء الإنجاب، قد حدث له شيء طيِّب عندما انفصل عن كلِّ ثمار النجاح، وأصبح شخصاً شبيهاً بإنسان بدائي، يعيش بعقله وروحه وجسده في الغابة، رَقْم الشُّقَّة في أكْدال والسيَّارة الرباعية الدفع والهاتف الذكي والكومبيوتر المحمول، شخصاً لم ينفصل فقط عن «ثمار النجاح»، بل انفصل أيضاً عن فكرة النجاح. هذه الفكرة المتعجرفة التي تُوهِم بأن النجاح أهمُّ وأفضل من الحياة، وتشيع بين الناس ديناً جديداً قائماً على تمجيد المكاسب وتحقير الخسارات، والمشي مع الأقوياء على أجساد «الساقطين».

وربَّما بسبب الحديث عن (يَنْسِي)، أو بسبب الضحكة الصافية لبريجيت، فقد وجد إبراهيم نفسه سعيداً بالحديث عمَّا حدث له. كان يقول الأشياء باقتصاد شديد في الكلمات، ودون أن يلجأ إلى التفسير والتأويل أو حتَّى إلى التعليق عمَّا حدث. كان يتذكَّر أمامها «لحظة الكشف التي دَاهَمَتْه ذات مَسَاء وهو يستعيد ما قَرَأَهُ عن مخاطر اختفاء النحل، لا يتعلَّق الأمر فقط بالتناقص الهائل الذي يعرفه النحل في العالم، وهو ما سيعرِّض 80 % من زراعات الكوكب إلى الانقراض. ولكنْ، وبالأساس بالاختلال الكبير الذي ستعرفه الحياة جرَّاء الصمت الذي سيغمرها عندما يختفي النحل. لقد هزَّتْه عميقاً عبارةٌ «صمت العالم» التي عنون بها أحد الصحفيِّيْن شريطاً وثائقياً حول انقراض النحل في منطقة صينية معروفة بإنتاجها للكمَّثرى، فقد اضطرَّ المزارعون فيها للإبقاء على إنتاجهم إلى تعويض التلقيح المجَّاني الذي كان يقوم به النحل بتلقيح باهظ، يقوم به العمَّال باليد زهرة فزهرة، وسط صمت تراجيدي حول حياة الفاكهة.

«صمت النحل» أو «صمت العالم» المترتِّب عنه، عبارة سحبتْهُ من ضباب الطمأنينة الجوفاء التي كان يعيش فيها، وشحذت انتباهه إلى أصوات الحياة، تلك التي يجتهد الضجيج المفتعل في إخفائها .. لقد أحسَّ إبراهيم فجأة أن العودة إلى هذه الأصوات المدفونة تحت ركام من «المكاسب» والصخب

التعبيري الذي ينفخ في «الظواهر» ويطفئ كلَّ بارقة صادقة تتمرَّدُ على الأكذوبة، هي السبيل الوحيد للعثور على السكينة.

كان إبراهيم منفعِلاً وهو يستعيد هذه اللحظة، بذلك الانفعال الذي يقع بين اللذَّة والألم، وكان لذلك وقع مادِّي على بريجيت، كأن شيئاً ما وُلد فجأة في دواخلها، وأضاءها من الداخل، كانت تستمع إلى إبراهيم، وتستمع إلى الوليد الجديد الذي لا تعرف ما إذا كان

إلهاماً، أو كشفاً أو رغبة خرجت من تحت الرماد، أم مجرَّد قُنْفُذ تسلَّل إليها من الحكاية.

هل قال إبراهيم أقل ممَّا ينبغي أو أكثر ممَّا ينبغي؟ هل قالت بريجيت ما يُتوقَّع أن تقوله في العشاء الأوَّل؟ لم يكن أيٌّ منهما يعرف عن الآخر أشياء دقيقة أكثر ممَّا كان يعرف قبل العشاء. وها هو يمشي معها كما طلبت من المطعم الذي يقع في أوَّل شارع الجزائر، حتَّى منتصف شارع باتريس لومومبا، حيث تسكن، وهو لا يعرف ما إذا كانت تسكن وحدها أم لا، ولا يعرف كيف تنظر إلى المسافة التي يقطعانها بمشي وئيد، يكاد يكون جُملاً متأنِّية، إنه فقط يحدس من خطوها غير المنتظم أنها تريد أن تقول شيئاً، وعندما وصلا إلى مدخل العمارة، قالت: إن هذا العشاء قد أَرجعَها إلى نفسها، فعلَّق ضاحكاً:

- سأُعاني طويلاً لاستخراجكِ من هذا الحصن الحصين!

فعانقتْهُ عناق مودَّة وامتنان عميقَيْن، ودخلت العمارة وهي تقول: غداً نُعيدُ (يَنْسِي) إلى الغابة، وإذا مرَّ كلُّ شيء على أحسن ما يرام، فلن ينتهيَ اليوم حتَّى نكون قد أعدْنا إلى المجرَّة هذه القطعة الصغيرة التي انفصلت عنها في لحظة طيش عابرة.

في اليوم التالي حصل ارتباك صغير، كاد يفسد شيئاً كبيراً، فقد وصل إبراهيم في الساعة الأولى يحمل علبة كارطونية، فاستقبلتْهُ بريجيت بفرح طفح من تعابير وجهها المتهلِّلة، وقادتْهُ مُمسِكَة بذراعه إلى غرفة النزلاء، ولكنها قبل

أن تستخرج القُنْفُذ من قفصه، وضعت العلبة على الطاولة، وحدجتْهُ بنظرة عاتبة:

- هل تريد أن تُحرِّر (يَنْسِي) بدوني؟!

قال متلعثماً: ..

- لا، أبداً، فكَّرتُ أن أحمله معي في مشوار اليوم، وتصوَّرتُ أنكِ لا يمكن أن تغادري المصحَّة في هذا الوقت.

وكان سيستمرُّ في نسج أعذار، لم تخطر على باله إطلاقاً عندما انتبه إلى النافذة التي انفتحت أمامه دون أن يرى ضوءها القادم، إن بريجيت تقترح عليه رحلة إلى أدغال المعمورة، ومساء بعد إغلاق المصحَّة، وربَّما في بداية الليل، للجلوس تحت الفِلِّينة الكبيرة وتحرير (يَنْسِي)، وقد تتحرَّر معه مشاعر مأسورة في كرة شائكة .. وهو من غبائه يأتي إليها بعلبة كرطون، وينتظر أن تضع فيها قُنْفُذاً معاقاً وفرصة ضائعة ..

لاحظت بريجيت ارتباكه، فأرادت أن تُهوِّن الأمر.

ليس هناك مشكلة، ب- (يَنْسِي) أو بدونه سنذهب عمَّا قريب إلى فردوسكَ السرِّي، وإذا لم تكن هناك مخاطر من المقيل تحت تلك الشجرة، فسنفعل، وإذا هاجمتْنا سباع جائعة، فسنتسلَّقُ الشجرة، ونبقى هناك حتَّى يغمرَنا الليل، وعند ذلك نتفرَّج على النجوم، ونستمتع برؤية النيازك الحمقاء، والسباع تزأر تحتنا ..

هل يناسبك؟!

- يُناسِبُني كثيراً، ولكنْ، لماذا لا نترك الأمر ليوم عطلتكِ الأسبوعية، فنحرِّر (يَنْسِي)، ونغامر بأرواحنا؟!

ضحكت بريجيت، وأحبَّت كثيراً اضطراب إبراهيم، الذي جعله يشبه طفْلاً خائفاً من مُدَرِّسَةٍ صارمة. وكادت تعانقه لِتُسَرِّيَ عنه، لكن شخصاً دخل المصحَّة في تلك اللحظة يَحْمل قفصاً صغيراً به قِطَّةٌ معجونة بسائل ثقيل، ولا تتوقَّف عن المواء.

كان الرجل يردِّد جملة مُفكَّكَة:

- لقد حدث لها شيء رهيب، كانت عائدة من الحديقة، وعندما قفزت من نافذة المطبخ وقعت في طنجرة الحريرة! كان يبدو من صراخ الرجل أنه يعيش حدثاً تراجيدياً لا مثيل له، والقطَّة أيضاً كانت تعيش حدثاً تراجيدياً، قد يذهب بحياتها، ولكنْ، ما إن تدخل الحريرة على الخطِّ حتَّى تهجم على الحكاية كوميديا مُدَمِّرَة!

انصرف إبراهيم مُنقبضاً بحكاية القطَّة ومنشرحاً بما عداها، وعندما هَمَّ بالتوجُّه نحو الطريق الدائري باتِّجاه الغابة، لم تصعد من أحشائه تلك اللهفة التي كانت تسبقه دائماً إلى الطريق، منذ ثلاث سنوات تعوَّد على المرور من المدينة مستعجلاً، لا يحسُّ أن شيئاً ما سطحياً أو عميقاً يجمعه بأحد من الناس، إنه بينهم، وليس منهم، كأنه سقط من كوكب آخر، فوجد نفسه تائهاً بين مخلوقات الأرض.

وخلال هذه الفترة تخلَّص من العلاقات كلِّها التي كان يملأ بها حياته كما يملأ شخص بيته بآلاف الأشياء الزائدة، وتخلَّص من التعلُّق بتلك الأشياء المدهشة كلِّها التي تمنحها المدينة طعماً مغرياً، لكي تلتهمَ الصِّنَارة، وتظلَّ عمركَ كلَّه مشدوداً لخيطها السرِّي، القهوة والهلاليات والجرائد والثرثرة، والأمكنة التي لا غنى عنها، والتوابل التي لا غنى عنها، والمعدَّات الكهربائية المنزلية التي لا تستقيم الحياة بدونها والتهاني والتعازي والخصومات وجلسات الصلح الطويلة، والسهرات التي تحضر كما تحضر الحروب والغارات، كلُّ هذه الأشياء التي تبدو صغيرة للبعض، وهائلة للبعض الآخر، وضعها إبراهيم على

الرصيف، ليس تماماً في صندوق القمامة، ولكنْ، جنبها، علامة على الوجع الذي يُسبِّبه التخلُّص منها، هكذا دفعة واحدة، ودون أيٍّ مجهود للفرز ما بين ما هو قابل للروسيكلاج أو غير قابل، ما هو ممكن للاستعادة أو مستحيل على الذوبان في الطبيعة. ومن هذا الجهد الأليم في استعادة الجوهر، تبقَّى لإبراهيم شعوران متضاربان، شعور بالفقدان وشعور عارم بالحرِّية، وهذا الأخير هُو ما تحوَّل تدريجياً إلى تلك اللهفة التي تصعد من الأحشاء، وهي مزيج من فرح ومن تحليق جذلان كلَّما هَمَّ بالتوجُّه نحو الغابة، لأن الأمر ببساطة يكون لحظتها إيذاناً بالنجاة من العزلة، والعودة إلى التوحُّد مع العناصر.

لذلك، عندما لاحظ إبراهيم تلكُّؤ هذه اللهفة في الصعود من أحشائه، توجَّس خيفة من أن تكون المشاعر اللطيفة التي تخالجه تجاه بريجيت، ممَّا يمكن تشبيهه بأجواء انبثاق قصَّة حبٍّ، هي السبب في جَرِّه من جديد إلى أحابيل المدينة. أليس الحبُّ «سُمَّاً مدينياً» بكلِّ ما يعنيه من مواعيد وهدايا وثرثرة؟! وحتَّى يقطع الطريق على هذه المخاوف الطارئة، صَعِدَ إلى السيَّارة، وساق بسرعة لم يتعوَّد عليها حتَّى هَدَّأَتْهُ أشجار الفِلِّين الأولى التي ابتسمت له قريباً من «دار السكَّة».

-4-

لإبراهيم صديق قديم من عهد الجامعة، لم يسقط من الغربال الواسع الثقوب الذي وضع فيه الأشخاص والأشياء. سليمان، يقطن في الرباط منذ عودته من فرنسا وانخراطه في سلك التعليم بالجامعة .. ولكنه لا يعيش، بالفعل، سوى في حيِّ الفتح الذي لا يغادره إلَّا لِماماً، للتدريس أو للقيام بغارة خاطفة على حانات العاصمة. يحبُّ إبراهيم أن يزورَهُ من حين لآخر في مقهاه بالحيِّ، يتحدَّثان عن الروايات والغابة والنحل وأشياء أخرى يجهدان في جعلها مادَّة للضحك والسخرية.

عندما عاد إبراهيم مساء ذلك اليوم مِن المعمورة، عرج على سليمان، وحدَّثه مطوَّلاً عن القُنْفُذ، كان سيلمان يحترم كثيراً تجربة إبراهيم، ولا يعتبرها مجرَّد نُسخة من تلك الهجرة السخيفة لأغنياء المُدُن نحو الأرياف المجاورة، بحثاً عن جنَّة تجري من تحتها الأنهار .. كان يراها اختياراً مطابقاً تماماً لفكرة هايدجر عن الفَرْق بين العزلة والتوحُّد، «ففي المُدُن الكبرى يحدث للمرء أن يكون في قمَّة العزلة، ولكنه لا يستطيع أن يكون فيها وحيداً، ذلك أن للوحدة القدرة على فَكِّ عزلتنا، لأنها ترمي وجودنا بأكمله في الحوار الواسع مع جوهر الأشياء».

بمعنى ما، فإن سليمان هو المرفأ الآمن الذي يلجأ إليه إبراهيم عندما تحيط به عواصف الشكِّ والالتباس، لأن له قدرة عجيبة على العثور على الكلمات التي تحتاجها الأشياء، لتصبح أليفة وصديقة. ويتعجَّب إبراهيم كثيراً لكون سليمان بإصرار مُعلَن لا يمارس الكتابة .. يقول إنه يتركها عن طيب خاطر للمغرورين الذين يتصوَّرون أنفسهم زملاء لريلكه ونيتشه وديستوفسكي وكواباطا. يجب أن لا يكتب، يقول سليمان، سوى الشخص الذي يعرف بيقين خالص بأن ما يكتبه ستسمعه الأرض كلُّها، وستدمجه في عناصرها الجوهرية كالرياح والبحار والبراكين.

وعندما يقول إبراهيم إن المغرورين هم أوَّل مَنْ يعرف ذلك بيقين تامٍّ، يضحك سليمان ويردُّ بأن الأرض هي التي تقرِّر، وليس أصحابكَ!

في بداية حديثهما هذا اليوم لم يبدُ على سليمان أنه مهتمٌّ كثيراً بقصَّة القُنْفُذ، كما لو يكون قد اعتبرها مجرَّد انفلات صغير لتكسير الرتابة .. وبالمقابل، فقد توقَّف ملياً عند الزهرة الغريبة التي ظهرت تحت جذع الفِلِّينة. كان يريد أن يعرف شكلها وخصائصها، وما إذا كانت قد ظهرت من قبل في هذا الفصل أو في غيره.

حسب الشيخ عبد الله الذي قضى خمسين سنة من عمره داخل الغابة، لم تخرج أبداً زهرة بهذا الشكل. يرى إبراهيم أنها تشبه زهرة توليب، ولكنْ، أضخم منها حتَّى لكأنها كأس نبيذ، وبما أن نصفها الأسفل نبيذيّ اللَّوْن، فإنها تبدو فعلاً كأساً ممتلئة للنصف، أمَّا النصف الآخر، فأبيض تتخلَّله خيوط نيلية غير منتظمة، وداخلها يندفع إلى الأعلى لسان أسود معمَّم بحبيبات صفراء، وتحيط بقاعدته تويجات، تتناوب بين الأصفر والأسود. إنها تشبه زهرة توليب، ولكنْ، بدون صرامتها الهندسية، لذلك من السهل أن تبدو لنا أيضاً مثل زهرة أُورْكِيدْيَا ضخمة. إنها بالفعل زهرة غريبة، والأغرب من ذلك أنها ما تزال يانعة حتَّى اليوم، ولا يبدو عليها أنها آيلة إلى الذبول، حتَّى إن الشيخ عبد الله شَكَّ في أن تكون طبيعية، وتساءل عمَّا إذا لم تكن من تلك الزهور البلاستيكية التي يباع مثلها في موسم سيدي العربي. وقد قال إبراهيم للشيخ عبد الله النحل لا يدخل زهر البلاستيك، يا عمِّي عبد الله، قال الشيخ:

- عندكَ الحقُّ، ولكنْ، ما تعرف، النحل يدخل ويخرج، في الأكل وفي الكلام، مثل باقي أهل هذا الزمان!

يعتقد سليمان أن ظهور الأزهار مثل ظهور الفراشات، يخضع لنظام دقيق، لا مكان فيه للصدفة. لا يتعلَّق الأمر فقط بكيمياء العناصر، التي ينتج عن التحامها المنظَّم أو العشوائي ميلاد الزهرة أو الفراشة، بل يتعلَّق أيضاً بانبثاق

شيء جديد في الحياة، لا يتأتَّى إلّا بانبثاق هذَيْن الكائنَيْن الهَشَّيْن في شكل مفاجئ غريب، ومخيف بعض الشيء. وذكر سليمان أن زهرة غريبة على شكل رئتَيْن ظهرت في إحدى الجزر اليابانية قبل سقوط قنبلة هيروشيما، وأن الفراشة الضخمة المسمَّاة مَايَا تْرَاكُومَا ظهرت لأوَّل مرَّة في مدينة براغ، أيَّاماً قليلة قبل ميلاد كافكا .. فقال إبراهيم: إن ما يوجد في الطبيعة أبسط بكثير من اللوحات الإغرابية التي تعبِّر عنه في الروايات والأخيلة، عند ذلك زعم سليمان أن الأمر قد يكون فقط إيذاناً بميلاد قصَّة حبٍّ كبيرة، ففهم إبراهيم أن صديقه قد التقط شيئاً من ظهور بريجيت في الصورة، وأنه يريد أن ينسج حوله ثَرْثَرَة تتراوح بين التعاطف والتَّفَكُّه. لماذا لا نتكاشف حول غرامياتنا المتأخِّرة؟ سأل سليمان، فردَّ إبراهيم مرتبكاً بأن الأمر لا يعدو أن يكون «استلطافاً» بسبب القُنْفُذ.

- ما أكثر ما يحدث بسبب القُنْفُذ! قال سليمان، كان وصفة طبِّية، وتعويذة ضدَّ العين والحسد، ونذير شؤم، فألاً حسناً، حارساً للموتى لدى الفراعنة، وصِنْوَاً للشيطان عند الرومان .. ومنذ القرون الوسطى والناس يخرجون يوم 2 فبراير من كلِّ سنة، ليراقبوا القُنْفُذ، فإذا خرج من غاره، ورأى ظلَّه، ثمَّ هرب منه، فإن الربيع ما يزال بعيداً، أمَّا إذا خرج واستطاب الهواء الطلق، فإن الربيع على الأبواب .. أَمَّا أنتَ، فقد وجدتَهُ قرب ساق زهرة مدهشة، وفي راحة امرأة جميلة، أنتَ لستَ دليلاً على الربيع فحسب، بل على صحَّة الأسطورة!

ومع ذلك، قال إبراهيم فإن القُنْفُذ كائن غامض. من الصعب أن تعرف ما إذا كان طيِّباً أم شرِّيراً، ماكراً أم مغفَّلاً، وحتَّى الآن لا أفهم لماذا لا يحترس في الطريق الغابوي الذي لا تمرُّ منه سوى سيَّارات معدودة، ومع ذلك تدهس العشرات منه كلّ ليلة.

قال سليمان:... لعلَّهم ينتحرون، كثير من الحيتان والصقور تفعل ذلك، لماذا لا تكون القنافذ أيضاً على هذه الحال، وهم أجدر بالاكتئاب والانهيار العصبي؟

يحبُّ إبراهيم كثيراً هذه الطريقة التي يستعملها سليمان لتفسير الأشياء، حيث يعمد دائماً إلى المزج بين الحقيقة العلمية والسخرية السوداء، كأنه ما إن يطمئنّ إلى حقيقة ما حتَّى يسارع إلى تخريبها بالضحك واللعب بالكلمات.

عندما كان إبراهيم يهمُّ بالذهاب قال سليمان:

- إذا صدق حدسي، فإن بريجيت ستُعيدكَ إلى المدينة غصباً عنكَ. فمشى إبراهيم مبتعداً عن سليمان وعن حدسه. وقبل أن يصل إلى سيَّارته كان متأكِّداً أن بريجيت لن تُعيدَهُ إلى شيء، إنه طريق يوحي بأنه سيُعيدكَ إلى المكان الذي أتيتَ منه، لكنكَ ما إن تتقدَّم فيه بضع خطوات حتَّى تدرك أنه أخذكَ إلى تيه مُخَلْخِل. ولكنْ، لا بأس، التيه الأكثر بؤساً هو أن تكون في مدينة بها امرأة مثل بريجيت، ولا تجد سبيلاً يقودكَ إليها .. وهو احتمال وارد حتَّى في مدينة صغيرة يمكن جمع سكَّانها في مقهى، إذ ما أكثر ما لا نعثر فيها على أحد، رغم أن هذا «الأحد» يكون في أغلب الأحيان ذلك الرَّقْم الأخير الذي لو ركبناه، لانفتحت أمامنا خَزْنَةُ المسرَّات.

سينام إبراهيم هذه الليلة مستأنساً بفكرة الخَزْنَة التي انفتحت برَقْم جاءت به المعجزة. ولكنه لم يتوقَّف خلال منامه عن التفكير في إحساس جديد عليه، فهو متأثِّر جدَّاً بتلك المسحة الرقيقة التي تشِعُّ من ملامح بِريجيت، وكثيراً ما استلذَّ قوام المرأة التي احتفظت بأنوثة عارمة رغم سنِّها أو بسببه، ولكنه لا ينجح في ربطها باشتهاء عابر أو مقيم. إنه

يشتاق إلى وجودها مجرَّداً من الغواية، ويفكِّر بها كما يفكِّر بالغابة، كنقطة لقاء مع الجوهر، وعندما تلسعه الشهوة فإن استيهاماته تتكفَّل بتحويلها إلى أجسادٍ أَلِفَ أن يَصْخَبَ معها في سيناريوهات متهتِّكة، لا يكون للواقع أيَّة رقابة على تدفُّقها. ما هو سبب هذا الإحساس الغريب؟ هل يعود إلى كون بريجيت اتَّخذت في ذهنه منذ رآها تعالج القُنْفُذ المُصَاب شكل قِدِّيسَةٍ مستعصية على الاشتهاء، أم يعود ذلك إلى انهيار مباغت لطاقة الشهوة في جسده تزامن صدفة مع ظهور بريجيت؟ لا يستطيع إبراهيم أن يحسم، ولكن الأشياء في وضعها الحالي لا تبدو له مثيرة للمخاوف أو للشكوك، إن بريجيت ليست

مشروعاً .. إنها غير مُستبعَدَة وغير واردة، في آنٍ واحد، مسار قابل للتفاوض والتكيُّف، وقابل لإعادة الرسم الذي تقود إليه، ولابتكار الأسفار الحاسمة التي تتمخَّض عنه.

في صبيحة ذلك السبت المشرق الذي ارتدت فيه الرباط سماءها الزرقاء المشبعة برائحة المحيط، كان إبراهيم على موعد مع بريجيت لإعادة (يَنْسِي) إلى بيته. هما معاً كانا قلقَيْن، بريجيت لأنها تخاف من تأثير الإعاقة على حياته في الغابة، وإبراهيم لأنه يخاف أن تخرج بريجيت من حياته عندما يخرج منها القُنْفُذ. ومنذ وضعا (يَنْسِي) في علبة الكارتون المفتوحة وحتَّى قبل أن يصعدا إلى السيَّارة اجتهدا في اختلاق مرح زائد حول تطلُّعه إليهما بعينَيْن دامعتَيْن. قالت بريجيت: إنه متأثِّر جدَّاً كما نحن متأثِّران .. إنه يريد أن يقول شيئاً. وربَّما قاله ولم نفهم، فردَّ إبراهيم، إنه فقط يسخر منَّا، بل يكاد يبكي ضحكاً من شخصَيْن يتصوَّران أن الغابة بروحها الأولوفية سَيصلها شيء من هذه الحركة ..!

انطلقت السيَّارة نحو الطريق الدائري، وكانت بريجيت قد استاءت قليلاً من الطريقة التي استهان بها إبراهيم بهذا الإنقاذ، ولكنها لم تشأ أن تقترف خصومة في الموضوع .. وعندما لاحت أسواق مرجان قالت إنها تحتاج لاقتناء شيء من هناك، فانعطف إبراهيم يساراً، وهو منقبض قليلاً، فقد تذكَّر أنه لم يضع قدمَيْه منذ سنوات في مثل هذه الأماكن، أي منذ أن قضى ليلته الأولى بعد طلاقه وحيداً في فندق صغير، وأدرك في صباح اليوم التالي أن تحرِّره من عبودية الأماكن والموادّ، والوفرة، لم يفقده الحياة، بل جعلها فجأة أرحب وأكثر كثافة ممَّا يملك .. يومها قرَّر أن يعيش بأقلّ ما يمكن من الأحمال، وأن يعطي مكانة للحياة في حَدِّ ذاتها، وليس للأشياء التي تتزاحم فيها .. وعندما كان سليمان يجادله في هذا الاختيار بالقول إن الحياة هي أشياؤها الصغيرة، كان إبراهيم يصحِّح له: بل هي أشياؤها القليلة. الآن وقد انعطف يساراً، ووقف أمام تلك البوَّابات الضخمة قريباً من مستودع عربات التسوُّق، تذكَّر بنوع من الفزع تلك الحُمَّى التي كانت تحوِّله وزوجته إلى كائنَيْن صامتَيْن، تمسك العربة بخناقَيْهما، وتقودهما صَاغِرَيْن من شعاع إلى آخر، ومن وحدة

إلى أخرى، حتَّى تحجب البضاعة رؤيتهما، فيضطرّ أحدهما إلى تقدُّم العربة والتوجُّه بتسليم لا غبار عليه إلى الصندوق .. وحتَّى يتخلَّص من شعوره بالضيق، فتح نوافذ السيَّارة، ونزل منها، ودار حولها بينما بريجيت واقفة تنتظره، وبعد لحظة ارتباك قالت:

- أَلَا تأتي معي؟!

كان مُحرجاً، ويفكِّر بأن الأمور تبدأ دائماً هكذا، بتنازل صغير لا قيمة له ولا تأثير له، ثمَّ يتوسَّع شيئاً فشيئاً، ليصبح عودة منظَّمة إلى العبودية.

قال إبراهيم مُراوِغاً:

- ربَّما يكون من الأفضل أن أبقى مع (يَنْسِي).

وتمهيداً لتنفيذ هذا الاختيار، فتح إبراهيم الباب الخلفي للسيَّارة، وأطلَّ على علبة الكرتون، كانت خاوية ليس فيها سوى رائحة عطنة من مخلَّفات «الكرة الشوكية»، وعند ذلك اندلعت حركة هوجاء داخل السيَّارة وحولها، وفتحت الأبواب كلَّها، بما فيها باب المحرِّك، وقلبت الكراسي، وأفرغ صندوق السيَّارة من محتوياته، وبعد عناء واضطراب

كبيرَيْن وقفا يائسَيْن قرب تلك الفوضى التي أحدثاها، وأثارت انتباه عدد من الفضوليِّيْن. ثمَّ قالا معاً: كيف يمكن أن يحدث ذلك؟!

مرَّت لحظات خاوية، لم يعرف أيٌّ منهما ماذا يقترح على الآخر. ثمَّ بدءا يرتِّبان السيَّارة المبقورة تدريجياً، بحركات بطيئة، ثمَّ أخذا مقعدَيْهما، وجلسا صامتَيْن. فجأة سمع إبراهيم خشخشة تحت الكراسي الخلفية، وعندما أصاخ السمع، انتبهت بريجيت لحركته، فركَّزت، بدورها، على مصدر الصوت، وعند ذلك عادا من جديد إلى هَسْتَرَة البحث والتقليب، دون جدوى، فرجعا إلى مقعدَيْهما.

قال إبراهيم:

- في الحكايات كلِّها حول القُنْفُذ يستطيع هذا الحيوان الماكر أن يخرج من ثقب إبرة، ولا أظن أن هذه السمعة بُنيت على باطل!

- نعم، يقال إن جسمه يَمُرُّ حتماً من حيث يمرُّ رأسه. لذلك يفلت دائماً من مُطاردة المزارعين، ولا يفلت منها أمكر الحيوانات كالذئاب والقِرَدة!

ماذا نفعل؟ تساءل إبراهيم:

قالت بريجيت، نذهب إلى المعمورة مع ذلك، ونفتح أبواب السيَّارة هناك، ونترك الفرصة ل- (يَنْسِي)، ليتسلَّل منها براحته، ويذوب من جديد في الغابة.

بعد ساعات طويلة تحت شجرة الفِلِّين الكبيرة، قرب سيَّارة مشرعة، وفي صحبة الشيخ عبد الله استسلمت بريجيت لقناعة تامَّة بأن (يَنْسِي) قد خرج الآن من السيَّارة، وابتعد عنها بما يكفي ليشعر بالأمان، وبأنه أصبح حرَّاً طليقاً. وقالت ذلك لإبراهيم، فقام وأغلق الأبواب ونظر صوب الشيخ الذي كان يضحك كعادته تمهيداً لقول شيء طريف.

- اترك أبواب السيَّارة مفتوحة، قال الشيخ، سيعود عندما يدرك أنه بساقه المبتورة قد أصبح أضحوكة بين القناقذ!

-5-

في طريق العودة من المعمورة، انتاب إبراهيم شعور بالحسرة، فقد مرَّ هذا اليوم الموعود دون أن يكون مطابقاً لِمَا توقَّعه منه من التماعات شِعْرية. أكلا وجبة خفيفة مع الشيخ عبد الله، وأخذها إلى الصناديق التي جلسا بعيداً عنها تلافياً لإثارة النحل الذي كان سيجد عبير بريجيت مثيراً وعدوانياً.

ولم يقيلاً تحت الشجرة، ولا حاصرتْهما السباع، ولا تفرَّجا على السماء المزدحمة بالنجوم .. ومرَّت عليهما لحظات صمت، نظرا فيها إلى بعضهما، وكأنهما قالا كلَّ شيء، ولم يبقَ لهما سوى أن يهربا معاً، ويتوغَّلا في الغابة حتَّى يصلا إلى مكان، لا يسمح بالعودة، لأنه ليس مكاناً ولا وجهةً، بل مجرَّد ولادة. ولكنهما لم يفعلا، وكلَّما طال الوقت وهما لا يفعلان شيئاً، أصبح مستحيلاً أن يفعلا أيَّ شيء، وعند ذلك أصبح الرجوع إلى المدينة هو الحلَّ الوحيد لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، وها هما يعودان. اقترح إبراهيم أن يأخذا الطريق الوطنية القديمة التي كانت قبل الطريق السيَّار، إنها تمرُّ وسط ما تبقَّى هناك من غابة المعمورة، وتمنح بذلك مشاهد ظليلة طالما ارتبطت في ذهنه بنزهات الآحاد التي كانت شلَّته تقوم بها في عين الجوهرة أو العرجات، أو بلاد الدندون أو معسكر مونيي الذي أصبح الكاموني في لغة الناس... كانت بريجيت تتطلَّع نحو الأشجار الكبيرة وهي تفكِّر بمكان محدَّد، كانت ترتاده مع المرحوم زوجها، ضيعة نصل إليها، تقول بريجيت، من منعطف قريب من الطريق الثانوي المؤدِّي إلى «السهول»، ولكنْ، في الجهة الأخرى يميناً باتِّجاه الرباط .. كانت ضيعة صغيرة، تكاد تكون «غابة سوداء: بسبب تداخل أشجار الأفوكاتو، وقريباً منها كانت توجد مدرسة فلاحية، وعين عظيمة تُدعى «الفورات»، كان يصلها منها ماء كثير .. كان صديق زوجها، عسكري متقاعد، يعيش في الضيعة مع زوجته الثانية، وهي فتاة من القرية المجاورة، تزوَّجها بعد انفصاله الجسدي عن زوجته الأولى أُمِّ أولاده، وبريجيت تتذكَّر بوضوح تامٍّ تلك الفتاة الجميلة التي كان العسكري المتقاعد لا يكفُّ عن تقبيل يدَيْها كلَّما مرَّت أمامه، وهي في كلِّ مرَّة يصعد الدم إلى وجنتَيْها، وتُسرع الخطى دون

أن ترفع عينَيْها عن الأرض .. كان المرحوم يقول لها وهما في طريق العودة إن العسكري رجل طيِّب، ربَّى إخوته اليتامى، وأوصلهم جميعاً إلى برِّ الأمان، وأحسن كثيراً إلى والدته حتَّى فارقت الحياة، وصبر على زوجة متجبِّرة قاسية حتَّى حلَّق أولاده بعيداً عن العشِّ، فاستحقَّ بذلك هذا الفردوس الصغير، وتدبَّر بنفسه أمر «الحورية».

قالت بريجيت مُحاوِلة إخراج إبراهيم من الوجوم الذي تلبَّسه:

- أنتَ تعيش فعلاً في فردوس، ولو أنكَ بدون حُورٍ عين ..

- لا تُعجبني فكرة الفردوس، ولا فكرة الحور العين، أحبُّ هذا المكان فقط، وأعرف أن بعضه أو كلَّه سيموت، ولكنْ، تعجبني قدرة الغابة على التكيُّف والمقاومة، قبل سنوات كان مسار واحد يخترق الطريق الوطنية، الآن هناك مسار مزدوج وطريق سيَّار، وتجزئات سكنية وبَرَاريك سرِّية، ورعاة ومعتاشون بالبلُّوط والترفاس، ولصوص الخشب، وفحَّامون وحطَّابون من كلِّ نوع، وبلدات هجينة نَمَتْ حول مِشواة مؤقَّتة، أو حول موسم بمناسبة عيد العرش .. وهذه «الأفواه» كلُّها أكلت من الغابة، وتأكل منها في كلِّ لحظة، ولكن الغابة تُقاوِم ولو بشجرة واحدة...

قالت بريجيت إن «الانقراض» مجرَّد أسطورة، لأننا نضعه في سياق زمن نستطيع إدراكه، لكن الحياة لو انقرضت برمَّتها، فإن الأرض وخلال أقلّ من ثلاثة ملايين سنة ستُعيد إنتاج حياة أخرى... وبهذا المعنى، فإن «معمورة» القرون الوسطى ستعود بكلِّ تأكيد!

تعجَّب إبراهيم لهذا الفصل بين الإنسان والأرض، وقال إذا حدث هذا الأمر، فإن الأرض ستُراجع «الوصفة» التي وَضَعَتِ بها الإنسانَ في قلب حياتها، وربَّما بَرْمجتْهُ ليصبح كائناً لا علاقة له بالإنسان الذي نعرفه.

قالت بريجيت:

- أنا أحبُّ الإنسان «الذي نعرفه».

- بالفعل ليس هناك غيره، هو يستحقُّ ذلك، لأنه الكائن الوحيد القادر على الأسوإ والأفضل في آنٍ واحد، انظري إلينا مثلاً. لقد أنقذْنا القُنْفُذ، وأمضينا يوماً سيِّئاً، الجنُّ الأسود نفسه لا يقدر على ذلك!

ضحكت بريجيت، وقالت:

- يتوجَّب علينا أن نجد الآن روحاً أخرى نُنقذها أو تُنقذنا.

وكانت هذه الجملة مقدِّمة لصمت جديد لم ينكسر إلَّا وهما على مشارف أكْدال، تكسَّر من تلقاء نفسه، لأن إبراهيم كان يريد أن يأكل شيئاً، فتحدَّثنا طويلاً حتَّى بعد أن وصلا إلى العمارة التي يسكن فيها، عن المطاعم التي تظهر وتختفي، وعند ذلك سيكتشف إبراهيم أنه لا يعرف شيئاً عن مطاعم أكْدال، ولا عن مطاعم حسَّان، حيث تسكن بريجيت، وأكثر من ذلك، فهو لا يعرف كيف جاء إلى عمارته دون أن يستأذن بريجيت في ذلك أو يتوقَّف بها في حَيِّها الذي مرَّ منه.

وقد وجد نفسه يقول لبريجيت بتلقائية لم يتوقَّعها من نفسه، إنه حضَّر قبل خروجه هذا الصباح «طجين» خُضَر، سيضع عليه، إذا وافقت على اقتسامه معه، شرائح سمك، تعوَّد على إضافتها عند تسخين الوجبة، لأنها، بهذه الطريقة، تحتفظ بنكهتها كلِّها، وتغذِّي الطجين كلَّه بمذاقها البحري.

واستطرد إبراهيم كثيراً وهو يتحدَّث عن نظريته في الطبخ السليم، وهي قائمة على ثلاثة قوانين: الاعتدال الشديد في الطهو، الاحتفاظ لكلِّ مكوِّن باستقلاله عن المكوِّنات الأخرى، واعتمادُ تَتْبِيلٍ أُحاديٍّ.

عموماً، لاحظت بريجيت، أنتَ لا تحبُّ الطبخ، الطبخ يعني الخلطَ والمزجَ وتفاعلَ العناصر، وتضادَّ النكهات وتركيبَ الطعوم. أنتَ لا تحبُّ ذلك .. صحيح؟

- صحيح تماماً، أفضِّل أن أبحث في كلِّ عنصر عن شخصيَّته الدفينة تلك التي يجتهد الطبخ في طمسها.

قالت بريجيت:

- هل تريد أن نموتَ جوعاً في هذه السيَّارة؟!

هكذا إذنْ صَعِدَت بريجيت تلك السلالم المعتمة، ودخلت شُقَّة إبراهيم لأوَّل مرَّة موزَّعة بين إحساس بالخجل من المرحوم الذي لا بدَّ أنه يراها تفعل ذلك، وإحساس بالاطمئنان لأنها لا تفعل شيئاً تخجل منه، كانت الشُّقَّة بيضاء ناصعة من أثر طلاء جديد، وقد بدا واضحاً أنها خضعت لمعالجة حديثة، اعتمدت على إلغاءٍ كاملٍ للشوائب، فالجدار الأكثر مساحة عُلِّقت في أقصى يمينه لوحةٌ واحدة، هي لعبد الكريم الوزَّاني، لوحة مثيرة بأسلوبها وبمحتوياتها وبالموقع الذي تحتلُّه على الجدار .. سمكة خضراء تسبح في كأس نبيذ أبيض، وتسوق درَّاجة، لها ضرع عنزة ومِقود على شكل قرنَيْن، تكاد اللوحة أن تكون

سوريالية، لولا النوايا الواقعية التي تشي بها الحركة العفوية للفنَّان، والصدق العميق الذي يقدِّم لنا به سمكة شربت كأس نبيذ أبيض، أو غرقت فيه، فسرقت درَّاجة الجيران، فما إن قطعت بها المسافة بين البحر وزرقته حتَّى تبيَّن لها أنها عنزة، لا تقوى على السباحة .. ومن فرط صِدْقه، وقف الوزَّاني بالحكاية عند هذا الحدِّ!

كان إبراهيم يهيِّئ الوجبة، ويتحدَّث عن اللوحة التي جعلت بريجيت تبتسم وتنتشي وتسأله عمَّا إذا كان لديه نبيذ آخر غير الذي في اللوحة.

وقد كان له نبيذ، احتسيا قليلاً منه واقفَيْن، قُبالة اللوحة. قال إبراهيم إن الوزَّاني له شغف مثير بالسمكة، يرسمها وينحتها ويحشرها في أوضاع لا تخطر على بال، ربَّما لأنه يحبُّ شكلها اللَّينَ الذي يسمح لها أن تكون هيكلاً حيَّاً، فراشة، أو عصفوراً، أو درَّاجة، أو بهلواناً، أو لعلَّه يحبُّ البحر الذي تحمله

في روحها المائية، أو يخاف من انقراض هذا الكائن الذي يتنفَّس بالماء ويبلع الطعم والصِّنَارة حتَّى وهو يعرف أنها ستقوده مباشرة إلى الطجين.

وعندما احتسيا باقي النبيذ على إيقاع شرائح «القرب» بالخُضَر .. صارا يحسَّان معاً أنهما يعيشان في هذه الشُّقَّة منذ زمن بعيد، لهما فيها حركات مألوفة، وكلمات سهلة الولادة، تأتي في وقتها، وتملأ الفراغ الذي يخلقه تصادم الرغبات، وعندما انتقلا إلى الأريكة السوداء تحت سماء اللوحة، وضعت بريجيت رأسها على صدر إبراهيم، كأنها تفعل ذلك دائماً، واحتضنها إبراهيم، كما لو كان يفعل ذلك دائماً، والحركات كلُّها التي تلت ذلك، سواء جرت بينها وبين ألبستها العنيدة، أو بينهما وبين كلِّ جزء من جسدَيْهما في ذلك التسابق المحموم على ابتلاع الآخر، أو بينهما وبين الفوضى التي هجمت على الأشياء والأنفاس والأمكنة، هذه الحركات كلُّها انتظمت في دقَّة المجرَّة، كأنها جزء من دوران الأرض الذي ما لبث أن أوصل الليل إلى المكان الذي يرتِّب بعتمته الطارئة طقوسَ المغادرة.

اتَّصلت بريجيت مساء اليوم التالي وسط خليط من الأصوات الضاجَّة، وبالكاد فهم إبراهيم أنها تتَّصل من أسواق مرجان. قالت إن لها شيئاً هامَّاً تريد أن تخبره به، وطلبت منه أن يلتحق بها هناك، ثمَّ بالكاد فهم أنها ستنتظره قرب محطَّة البنزين.

كان إبراهيم متوتِّراً وهو يسوق إلى موعده، فقد خطر له أن بريجيت ربَّما ستُفصح له بالكلمات عن شغفها به، وهو شيء مثير ولكنه مُرْبِكٌ، وقد يُفْسِدُ الأشياء بإخراجها من المادَّة إلى اللغة، ومن الغموض الآمن، إلى الوضوح الحافل بالمخاطر، ثمَّ إن المزعج حقَّاً هو أن يتمَّ هذا الإعلان الغرامي المخلخل في حَدِّ ذاته، في موقف للسيَّارات وقرب محطَّة بنزين جنب أسواق مرجان .. واضطرَّ إبراهيم إلى التخفيف من سرعته حتَّى يفكِّر في ما سيفعله بعد الإعلان المحتمل، إنه لا يحبُّ أن يَنتُج عن ذلك أحد السيناريوهات المسكوكة التي لا يطيق ترتيباتها البالغة السذاجة، من البحث عن الكلمات، إلى البحث عن مطعم، إلى البحث عن مخرج. واستقرَّ أخيراً على فكرة

الذهاب فوراً إلى الغابة، فالليل والنجوم والأشجار التي تتنفَّس ببطء في الظلام، ذلك كلُّه سيفرض الصمت كإمكانية وحيدة للتواصل. كانت بريجيت واقفة لصق صندوق سيَّارتها، وعندما وصل إبراهيم، هجمت عليه بعناق سريع، وبِسَيلٍ من الكلمات المشوَّشة.

«كنتُ في الممرِّ الذي يقع بين رفوف البسكويت وعلب القهوة، لمحتُ جسماً غريباً يتحرَّك بين الرفوف .. ارتعبتُ لذلك، مَاذا يفعل هذا الفأر المقزِّز هنا؟ قلتُ لنفسي، والآن أتصوَّر أنني أراه للمرَّة الأولى، ولكنْ، في الواقع، منذ دخلتُ إلى فضاء البضائع، أحسستُ بشيء يعوق تقدُّم العربة، وعندما انحنيتُ لأرى الشيء، لمحتُ جسماً داكناً يمرق بسرعة، ويختفي خلف رفوف موادّ التنظيف... والآن أراه مرَّة أخرى .. وفي كلِّ مرَّة لا أُصدِّق، وعندما أراه أتصوَّر أنها المرَّة الأولى .. ثمَّ أطرد الصورة من دماغي .. الآن أنا واثقة أنني

أراه... إنه يمرُّ في لمح البصر، ولكنني أراه. وهذه المرَّة استَدَرْتُ نحو المرأة التي كانت جنبي تقرأ شيئاً على علب البسكويت، وسألتُها:

- هل رأيتِ شيئاً يتحرَّك بسرعة؟

قالت:

- نعم، نعم، يا سيِّدتي، الأثمان تتحرَّك بسرعة خارقة!

كان عليَّ أن أدرك، ومنذ البداية، أنه ليس موجوداً فحسب، ولكنه يتبعني، وبين الخوف والفضول اقتربتُ من ممرٍّ مقفرٍ يؤدِّي إلى منطقة الآلات الرياضية... وانتظرتُ، انتظرتُ حتَّى بدأت الشكوك تساورني، وبدأتُ أخاف من أن تكون لوثة ما قد أصابتْني جعلتْني أرى كائنات غريبة تتحرَّك بين السلع. وفجأة... رأيتُهُ وسط الممرِّ، كان ينظر إليَّ بعينَيْن ضاحكتَيْن، ويحرِّك يده اليمنى، يرفعها، ويرسم بها حركات واسعة يميناً وشِمالاً، في محاولة لإخراجي من حالة الرعب التي أصابتْني .. نعم .. إنه (يَنْسِي)!، تصوَّرْ (يَنْسِي)، وقد تقدَّم نحوي بمشيته العرجاء حتَّى صَارَ عند قدمي، فانحنيتُ ولمستُهُ، وهو وضع يده

في راحتي وحرَّكها بطريقة ضحكتُ لها كثيراً .. فخاف من ضحكتي، وابتعد حتَّى وصل إلى منعطف بين الرفوف، ومن هناك أطلَّ عليَّ للمرَّة الأخيرة، ورفع يده بالتحية .. هل تُصدِّق؟!

قال إبراهيم تفادياً لمزيد من المشاهد المجنونة:

- لا بأس، لا بأس، تحدث كثير من الأشياء في هذه الأسواق اللعينة!

لم يتوقَّع إبراهيم أن يبلغ الاضطراب ببريجيت إلى الحَدِّ الذي بَلَغَهُ، فقد عجزت عن سياقة سيَّارتها، وكانت ترتعش، وتتكلَّم، وتبكي. وصَعِدَت إلى سيَّارة إبراهيم، ونزلت منها عدَّة مرَّات عندما كان يُدبِّر أمر سيَّارتها مع مسؤول محطَّة البنزين، وعندما انطلق أخيراً، كان لا يعرف أين يمضي، ولكنه كان قَلِقَاً جدَّاً بخصوص بريجيت التي لم يكن وراداً أن يُوصلَها إلى بيتها وهي على تلك الحال .. ولم يكن حكيماً أن يأخذَها إلى بيته وهو لا يعرف أين سيمضي بها هذا الاضطراب. لذلك ساق عبر الطريق الدائري حتَّى الطريق السيَّار، ثمَّ نفذ من مدخل عين عتيق، ورجع عبر الطريق الساحلي. حتَّى سوق الجملة، ثمَّ انعطف متَّجهاً نحو شارع النصر، ذلك كلُّه وبريجيت مأخوذة في هذيان متقطِّع، تتخلَّله لحظات صمت، وأحياناً وكأنها عادت إلى رشدها، تمسك بد إبراهيم، وتحضنها، كأنها تبدأ بذلك حديثاً آخر بعيداً عمَّا جرى .. ثمَّ ما إن تعود إلى الكلام حتَّى تعود حيث كانت.

«هل تتصوَّر أن الأمر سيقف عند هذا الحَدِّ؟ .. إذا كان قد جرى مرَّة، فمن المؤكَّد أنه سيحدث مرَّات ومرَّات، ليس في مرجان بالضرورة، إن (يَنْسِي) قادر على ترتيب سيناريوهات مجنونة في أيِّ مكان آخر، هل تتذكَّر ما حصل في موقف السيَّارات بأسواق مرجان عندما كنَّا في طريقنا إلى الغابة من أجل تحريره؟. لقد غادر الكارطون، واختبأ تحت الكراسي، ونحن من سذاجتنا فتحنا أبواب السيَّارة كلَّها، وغرقنا معاً في بحث أحمق، ولا شكَّ أنه غافلنا ونزل من السيَّارة. ثمَّ لمَّا رآنا نستعدُّ لإغلاق أبوابها يائسين، عاد إليها، واختبأ مرَّة أخرى، وعندما رآنا نهمُّ بالمغادرة، أحدث خشخشة بَيِّنة، ليُعيدنا إلى البحث المجنون، فما إن فتحنا الأبواب حتَّى تسلَّل ساخراً، واندسَّ تحت السيَّارة .. ثمَّ ما إن انطلقنا حتَّى ذاب بين السيَّارات والمداخل والعربات ..

أَلَا يستطيع كائن بهذا المكر أن يتجوَّل في المدينة حتَّى تنفذ إلى أنفه رائحة العيادة، فيكمن لي هناك، ويحشر نفسه في السيَّارة، ويدخل معي في

السرير، ثمَّ يلتهم قدمي وساقي وأنا نائمة، انتقاماً، لأنه يعرف أنني مَنْ بَتَرَ سَاقه وقدمه؟ حَاوِلْ أنتَ أن تفسِّر لقُنْفُذ مجنون أن ما فعلتُهُ كان السبيل الوحيد لإنقاذ حياته!

نعم، نعم، أنا طبيبة، وأعرف حدود ما يقبله العقل وما لا يقبله، لكنْ، أنا رأيتُ (يَنْسِي)، وسلَّمتُ عليه، وقد وضع يده في يدي، ولعب بأصابعه في قلب راحتي متعمِّداً أن يُدغدغني حتَّى ضحكتُ، لم أقرأ ذلك في أحاجي لافونتين، بل رأيتُهُ في ممرٍّ من ممرَّات مرجان .. بالطبع بما أن ذلك كلَّه حصل لي وأنا وحيدة وجهاً لوجه مع (يَنْسِي)، فإنكَ ربَّما لا تصدِّقه، ولا بدَّ أن تقول في نفسكَ إنني تخيَّلتُ ذلك وابتكرتُ تحت ضغط التوجُّس الذي حاصرني عندما جئتُ إلى الأسواق، هذا الفيلم الكرطوني للخروج من الورطة بطريقة خفيفة قريبة من الفكاهة، امْحُ هذه القناعة السهلة من دماغكَ فوراً... لقد شاهدتُ ما شاهدتُ، عياناً بياناً، لستُ صغيرة ولا غِرَّةً لأركب عَالَماً كامِلاً بتوابل البارانويا .. إذا كنتَ لا تُصدِّقني، فما عليكَ إلَّا أن تُنْزِلَنِي هنا .. سأعود إلى البيت مشياً .. ربَّما تتصوَّر أنني مرعوبة ولا أقدر على ذلك .. أنا فعلاً مرعوبة، ولكنني قادرة على المشي، إذا كنتُ سأعيش هذه التجربة المدمِّرة، فمن الأفضل أن أعيشها بعينَيْن مفتوحتَيْن .. كنتُ وحيدة جدَّاً قبل أن تدخل عيادتي بذلك القُنْفُذ المَعْطُوب، وعندما انصرفتَ وتركتَني منهمكة في إيقاف التعفُّن الذي كان يزحف على جسده .. أحسستُ أنني أُوقِفُ بالحركة نفسها زحف تلك الوحدة على حياتي .. لم أكن أتصوَّر أن هذا الوحش الصغير سيتدخَّل في ما بعد، ليُفسدَ معجزة العثور عليكَ. لا، لا، أرجوكَ، لا تقلْ إنه لن يُفسِّرَ شيئاً .. بعد يوم أو يومَيْن من هذا الهذيان ستتعب منِّي، وستزعم أن المنحلَ يحتاج إلى وجودِكَ المستمرِّ بالغابة .. وربَّما ستقول لي ما كان يقوله المرحوم إنني شكل خادع من أشكال العذوبة. ظلَّ يقول ذلك ويردِّده حتَّى مات، وأُمِّي كانت تقول من الأفضل أن تنفصلي عن الشخص وأنتِ تحبِّينه، ولكني لم أكن أحبُّه،

ولم أكن أكرهه، وسلَّمتُ الأمر للمجهول، حتَّى وُجدَ ذات صباح في سيَّارته لصق شجرة أوكاليبتوس أمتاراً قليلة عن الملهى الليلي الذي كان يسكر فيه. ابنتي الوحيدة لم تغفرْ لي أبداً أنني تلقَّيتُ هذه الفاجعة كخلاص. مَنْ قال لها

ذلك؟ هل كان عليَّ أن أغرق في بكاء قاهر لأقنعها أنني فقدتُهُ؟ ولكنْ، ما الفائدة؟ ها هي لعنة الشكل الخادع للعذوبة تُلاحِقُني، ترصَّدتْني لسنوات، ثمَّ في اللحظة التي كدتُ أن أركب فيها خرافة عذبة، تزعم أن رجلاً وامرأة أنقذا حياة كائن، يتوقَّف عليها توازن الكوكب الذي نعيش فيه، فأهداهما الله قصَّة حبٍّ، ينتصران بها على خَوَاء الحياة، خرج لي الوحش الصغير من بين علب البسكويت ..».

ضحك إبراهيم فجأة .. فتوقَّفت بريجيت عن الهذيان. وادَّعت بنوع من الحبور المبالغ فيه أنها جائعة. وتريد أن تأكل شيئاً سيِّئاً ولذيذاً، مثل الهامبوركر أو بيتزا المحلَّات الرخيصة .. أو سندويش النقانق من عربات الأحياء الشعبية... ساق إبراهيم بهدوء شديد باتِّجاه «ماكدونالد المدينة». دخل المحلَّ مرتبكاً خجلاناً، كأنه يتسلَّل إلى بائع أشرطة بورنو، وهناك رأى بريجيت تطلب أَكْلَتَها بتصميم مَنْ يعرف ما يريد، وتعود إلى المائدة بتلك البناية الضخمة من الخبز واللحم والجبن، ثمَّ رآها تقضم من البناية، وتُحدِث فيها بقضمها المتواصل المنتظم شروخاً، تؤدِّي إلى انهيارها طبقة بعد أخرى، إلى أن أصبح الصحن ركاماً غير متجانس من البقايا .. وعند ذلك تطلَّعت نحوه بعينَيْن دامعتَيْن، وقالت إنها تشعر بالخجل من نفسها، فقام من مقعده، ودار حول الطاولة حتَّى صَار خلف كرسيِّها، وطوَّقها بذارعَيْه وسط ضجيج الماكدونالد، وكاد يهمس في أُذنها بشيء يشبه إعلان حبٍّ، لولا أنه انتبه فجأة إلى أن هذا المكان ليس أفضل من محطَّة بنزين، وأن إعلاناً بهذه الفخامة لا بدَّ أن يحدث بعيداً عن روائح القلي. وعندما كانا يتأهَّبان لمغادرة المحلِّ، أخرجت بريجيت مِن حقيبة يدها قارورة عطر، رشَّت بها عنقها وأجزاء متفرِّقة من ذراعَيْها، وقد حَدَست بالضبط أن ما منع الكلمات المناسبة من الخروج في الوقت المناسب هو رائحة البطاطس المقلية!

لم تردّ بريجيت أن تذهب إلى بيتها، كانت متأكِّدة أنها ستجد (يَنْسِي) مندسَّاً في السرير قالت ذلك بطريقة بين الجدِّ والهزل، فردَّ إبراهيم بأن «الأعرج» لا يستطيع الوصول إلى الطابق الرابع، وهو في الأحوال كلِّها، إذا كان سيتحوَّل إلى كابوس، فسيلحق بها حيثما كانت، ولن يأبه ما إذا كانت وحدها في البيت

أم مع شخص آخر .. فانكمشت بريجيت، وطلبت من إبراهيم أن يُوصِلَها. طلبت ذلك بصوت بَاكٍ، كأنها مستاءة منه، وعندما ركن السيَّارة قرب العمارة، ونزل هو الآخر ليصحبها إلى الشُّقَّة، كادت أن تقول له إنها لا تريده لمساعدتها على مواجهة الكابوس .. ما دام لا تحرقه الرغبة في البقاء معها، فإن وجود (يَنْسِي) في السرير ليس سبباً وجيهاً، ولكنها لم تقل، وعندما دخلا إلى المصعد كان الوقت قد فات لتقول شيئاً، فقد اشتبكا في قبلة، لم تُوقِفْها سوى رجَّةِ المصعد الذي توقَّف، ثمَّ انفتح على رجل وكلب، وطبعاً فقد دخلت بريجيت في حديث مطوَّل عن الكلب، فخمَّن إبراهيم أن هذا الكلب هو الذي جاء مرَّة إلى المصحَّة، وقالت بريجيت إنه أُصيب في شجار غرامي، إذ بينما كان مأسوراً في عشيقته بعد سِفَادٍ ناجح، هجم عليه كلب غيور، وفقأ عينَيْه! وبدا له الرجل مغلوباً على أمره، بسبب الكلب الذي فَقَدَ عينَيْه، ومع ذلك فها هو يخرج معه، ليقضيَ حاجته على أرصفة الأزقَّة المجاورة. انغلق المصعد، فهُرعت بريجيت، لتفتح باب شُقَّتها، فما إن صارا في الداخل وحتَّى قبل أن تُغلِق الباب بركلة مدرّبة، كانا قد اشتبكا من جديد، وتدحرجا من الممرِّ إلى الغرفة عبر الصالة المزدحمة، وفي السرير، حدثت تلك الأشياء البديهية كلَّها التي نتوهَّم أننا أوَّل مَنْ يفعلها، وتوسَّلت الرغبة بأشكال متنوِّعة من الحنان والقسوة واللطف والعنف، في محاولة للإمساك بشيء تحتفظ به لنفسها من هذه المجازفة. وبينما كانت بريجيت تستعذب اختراقاً وئيداً يملأ جسدها ويفصلها عن الأرض، كان إبراهيم يلتهم الساق البيضاء الناعمة والقدم الصغيرة وأصابعها الوردية ذات الشذى العشبي، وعبثاً ردَّدت مفتونة إبراهيم .. إبراهيم، كان (يَنْسِي) هو الذي يأكلها، وكانت لا تصرخ في أعماقها إلَّا باسمه.

يستفيق إبراهيم دائماً بمزاج سيِّئ، لأنه في تلك اللحظات الأولى لا يكون واثقاً من شيء، لا من نفسه مَنْ هو وكيف هو، ولا من المكان أين ومتى، ولا من المشاعر عَابِرِهَا ومُقِيمِهَا .. وفي مثل هذه الصباحات المضطربة، يتفاقم المزاج السيِّئ، لأنه يتذكَّر فجأة عدداً من المَهَامِّ المحْبِطة التي لا قيمة لها ولا

مناص منها، من ذلك مثلاً أن عليه أن يخرج على رؤوس أصابعه من شُقَّة بريجيت والساعة لم تصل بعد السادسة صباحاً، ثمَّ عليه أن يبحث عن مقهى مفتوح ليشرب قهوة، يستعين بها على ضجر المبكِّرين، ثمَّ يذهب إلى شُقَّته، ويأخذ ما يحتاجه هو والمنحل والشيخ عبد الله، ثمَّ عليه أن يأخذ بريجيت إلى موقف السيَّارات بمرجان، لتستعيد سيَّارتها، وهذا كلُّه سَيُسْلِمُهُ مُنهَكاً للمعمورة.

عندما وصلا إلى مرجان، كانت بريجيت تتحدَّث عمَّا حصل بالأمس، كأنها تستعيد مشاهد من فيلم شاهدتْهُ منذ سنوات، فلم تتبقَّ منه سوى نتفٍ من صور غير مؤكَّدة حتَّى إن إبراهيم تساءل عمَّا إذا لم تكن بريجيت قد اختلقت بالأمس هذه الحكاية، ثمَّ ندمت على ذلك، وها هي الآن تضع كثيراً من النسبية في الأحداث، وفي الطريقة التي حدثت بها، كأَنها تمهِّد لمحو الحكاية، والاحتفاظ فقط بما حدث بعد ذلك في الشُّقَّة.

لكنْ، عندما توجَّهت بريجيت نحو سيَّارتها، توقَّفت فجأة، ثمَّ عادت أدراجها لتقول لإبراهيم إنها لن تلومه إذا دخل إلى الأسواق طمعاً في لقاء مع (يَنْسِي).

- بعد كلِّ شيء، قالت بريجيت: أنتَ أجدر بصداقته منِّي!

فانطلق إبراهيم مخترقاً موقف السيَّارات، ليعود إلى الطريق الدائري، ثمَّ توقَّف فجأة، واستدار يميناً، ليركن قريباً من البوَّابة الأولى. إذا كان لا بدَّ من هذا اللقاء، فليكن فوراً، لنرَ ماذا ستؤول إليه الأمور بعد ذلك. لا يمكن أن يختزل ظهور (يَنْسِي) في فلتة فانطاستيكية لتكسِير الرتابة النثرية لهذه المدينة .. إنه إشارة، ككلِّ تلك الإشارات الخفية التي تحفل بها الحياة، وتدعونا إلى استقبالها كتحوُّل حاسم في المسار. وقال إبراهيم لنفسه لا يمكن أن أتركها تنتظر، هذه الإشارة تطلب منِّي أن أترك كلَّ شيء، وأن أتبعها أوَّلاً، وإذا لم أفعل، فمن المؤكَّد أنها ستتحوَّل إلى شخص آخر أو إلى إشارة أخرى ..

دخل إبراهيم من البوَّابة الأولى، ثمَّ اتَّجه إلى الداخل عبر مدخل الإلكترونيات. لم يكن هناك زبائن كثيرون في الأَرْوِقة، ممَّا سمح لإبراهيم بالتجوُّل متحرِّراً من ضغط الزحام الذي يجعله فاقد الخطى، متشبِّثاً بأيِّ شيء يمكن الاستعانة به على مواجهة السيول البشرية .. في هذا الخَوَاء الصباحي كان المشي ممكناً، والعربات القليلة الممتلئة الواقفة في منتصف الممرَّات لا تشبه حيوانات خرافية هربت من ملاجئها .. وحتَّى السلع التي كان إبراهيم يُشبِّهها بضفادع ملوَّنة، تقفز من الرفوف إلى العربات كانت في هذه الساعة مجرَّد ضفادع نائمة. وعندما لاحظ إبراهيم أنه يمشي فقط، ولا يبحث عن شيء حتَّى ولا عن (يَنْسِي)، كان قد وصل إلى رواق المخابز والحلويات، فحدَّثتْهُ نفسه بابْتِياع بعض الهلاليات والخبز المُحَلَّى، ليُبهرَ بها الشيخ عبد الله، فما كاد يمرُّ إلى التنفيذ حتَّى أحسَّ بجذب يشدُّ ثوب سرواله بحركة خفيفة ملحاحة، وعندما التفت صوب الحركة رآه هناك، كان واقفاً على قدمه الخلفية الوحيدة، ويربِّت بيده على صدره، ليقول: هذا أنا!. وقبل أن يبلع إبراهيم ريقه، أشار (يَنْسِي) بعلامة. «اتبعني» كما يفعل الأطفال في ساحات المدارس، وجرى في الممرِّ ملتفتاً من حين لآخر، ليتأكَّد أن إبراهيم يتبعه، إلى أن وصل إلى جناح الآلات الرياضية. وهناك أشار إلى إبراهيم، ليعتلي درَّاجة ثابتة للتمويه بأنه يُجَرِّبُها، ريثما تنتهي المقابلة، ثمَّ أشار إلى درج فارغ خلف الآلات، ليقول إنه مسكنه الجديد، وفي أثناء هذا الإخراج المتَّسم بمزيج من الدقَّة والمرح، كان إبراهيم خائفاً وسعيداً، كان يتمنَّى في قرارة نفسه أن تستمرَّ اللعبة طيلة اليوم، بما يشبه شريط رسوم متحرِّكة، يجمع بين ممثِّلَيْن بَشَرِيَّيْن (هو أحدهما) ورسوم كارطونية، وينشأ عن هذه الخلطة سقوط الحدود الوهمية بين الواقع والخيال .. ولكنه يتوجَّس خيفة من أن يمرَّ (يَنْسِي) إلى الكلام، فقد كان

مستعدَّاً ليسمعه في الشريط، ولكن سماعه مباشرة من فم القُنْفُذ كان مرعباً حتَّى قبل أن يحدث .. ثمَّ إنه لو حدث، لكان معجزة صاعقة يجب أن تتغيَّر على وقعها نواميس الكون. وإبراهيم لا يحبُّ المعجزات، ولا يؤمن بها، منذ فهم بمساعدة سبينوزا «أن الخالق الذي وضع قوانين ثابتة للطبيعة لا يمكن أن يخرِّبها بمعجزات تخرق هذه القوانين»، وأن ما نسمِّيه معجزات

ليس سوى ضرب من الخيال، يجعل العجيب والخارق وسيلتَيْن لمصاحبة العقل، وليس لإعلان الحرب عليه.

كان إبراهيم يستعيد في نفسه هذه القناعة التي كوَّنها عن المعجزات عندما سمع شيئاً جعله يقفز من الدرَّاجة الثابتة، ويقع أرضاً. كان (يَنْسِي) يقول له بصوت يشبهُ صوت الشيخ عبد الله:

- دَعْكَ من سبينوزا! هل يمكن أن تساعدني؟ أحتاج في هذه السكنى الفخمة والمليئة بأصناف الأكل كلِّها إلى قُنْفُذة تؤنسني .. هل يمكن أن تقوم بجولة في الغابة، وتَصِيدَ لي واحدةً من هناك؟!

وعندما كان إبراهيم يستجمع قواه للخروج من هذا المأزق، أضاف (يَنْسِي):

- إيَّاكَ أن تقول لها شيئاً عن الساق المبتورة!

-7-

منذ دخل (يَنْسِي) أَبهاء «مرجان: تغيَّرت حياته رأساً على عقب، كانت الغابة مترسِّخة في جسده، لدرجة أصبحت معه عضواً من أعضائه، وليس مجالاً خارجياً، فالتربة الرملية الهشَّة، أو تربة الحمري» الصلبة، ونبتة الدوم، والعود الأحمر، وشجرة البلُّوط أو الفِلِّين والأوكاليبتوس، والميموزا، والصَّبَّار، والعُلَّيق، والمصاصة، هذه العناصر كلُّها وغيرها، لم تكن مجرَّد «خارج» ينفذ إليه من الجُحْر الذي حفره في الجزء الصلب تحت الطبقة الرملية من الأرض، بل كان أجواء متفرِّقة من الدواخل. وهكذا فما إن خَطَا (يَنْسِي) خطواته الأولى على الأرض الرخامية، ومشى بين الأروقة والرفوف، حتَّى أحسَّ بحركة هائلة داخل جسده، كأن انهياراتٍ وحرائقَ وسيولاً هائجة قد حدثت فيه دفعة واحدة، في محاولة لاستئصال الغابة من نفسه بطريقة جذرية لا رجعة فيها، لأن تلك كانت الطريقة الوحيدة لتحضيره لحياة أخرى. وقد استسلم (يَنْسِي) لهذه القيامة رغم آلامها المبرِّحة مُدرِكاً أنها سواء ساعدته أم لم تساعده فإنها قَدَرُهُ، وانزوى في ركن قَصِيٍّ متكوِّراً على نفسه، يتنفَّس عبر شوكه بصعوبة بالغة. وينتظر هدوء الارتجاجات التي تخضُّه بقوَّة من الداخل. كان ذلك الزلزال العنيف يُدخِلُهُ في غيبوبات متقطِّعة، يفيق منها بين الفينة والأخرى، فيسمع أصوات حطَّابين، مبهمةً خلف ضجيج الشواقير والمناشير وعويل الأشجار التي تخرُّ من طولها، فتكادُ تأخذه نوبة بكاء حزناً لهذه المجزرة، كانت هذه الأخيرة هي الهول الوحيد الذي يعرفه جيِّداً من كثرة ما صادفه في حياته الأخرى، عندما كانت الجماعة تبيعُ مربَّعات الغابة الجاهزة للاستغلال، أو يتسلَّل إلى بعض منها لصوص الخشب تحت جنح الظلام .. فتنشأ من ذلك قيامة مفزعة. كان لا يعرف حتَّى تلك اللحظة أصوات المتسوِّقين وأزيز العربات وتحريك البضائع، لا يعرف ما هي، ولا يعرف ما ينشأ عنها.

في لحظة ما، وقد توقَّفت الرجَّات التي تخضُّهُ، خرجت الغابة من جسد (يَنْسِي)، أفاق من غيبوبته، فوجد نفسه خفيفاً معدنياً. وفهم من تلقاء نفسه

أن الضوء الذي يغمر المكان ليس شمساً، وإنما مصابيح بيضاء، والأزيز الذي يسمعه ليس صوت الريح في أوراق الفِلِّين، بل فقط صوت الثلَّاجات، وأن الليل قد حلَّ منذ ساعات، وليس هنا في هذا المكان الفسيح والممتلئ مَنْ يحتاج إلى ليل أو نهار... ولكن الشيء الذي أحسَّ به يهبُّ من داخله بارداً ندياً وهو يعدو بقواه كلِّها بين الممرَّات، ويصعد إلى بعض الرفوف، وينزل منها، ويدخل بين علب المخازن وصناديق المعلَّبات، ويصعد إلى حاسبات الصناديق، ويلعب بمفاتيحها الغامضة، هو أنه لا يرغب إطلاقاً في الحفر، ولا يشعر في نفسه بأيَّة حاجة إلى غار مُعتِم يسكن فيه. لقد صار العالمُ غارَهُ، مثلما هو غار الكائنات كلِّها .. اهتدى (يَنْسِي) إلى ما يشبه ممرَّاً مُغطَّى في أسفل الجدار، وتحديداً في رواق الآلات الرياضية، وعندما قام بجولة داخله، وجده صالحاً للسكنى. إذ ليس فيه سوى أسلاك بلاستيكية، يبدو أن المستطيل الأبيض وُضِع خصِّيصاً لحمايتها أو لحجبها عن الأنظار، وفوق ذلك، فإن الممرَّ مُقسَّم إلى مقاطع، يفضي بعضها إلى بعض، وهو ما يوفِّر، من الناحية الأمنية، منافذ للطوارئ. في ليلته الأولى، كان (يَنْسِي) قد جَاع كثيراً، فقام بجولة، مكَّنتْهُ من اصطياد بعض الصراصير، سدَّ بها رَمَقَهُ، أمَّا في لَيْلَتِهِ الثانية، فإن فكرة الصراصير لم تُراوِدْهُ بالمرَّة، ولو راودتْهُ، لشعر بالتقزُّز من ذلك. وبالمقابل، فإن النداء الملحاح الذي مارس عليه سحراً لا يُقاوَم هو نداء البسكويت الذي هُرع نحو رفوفه مستعجلاً، وانتقى منه أصنافاً مختلفة مالحة وحلوة، بالشوكولاته أو بالفانيلا، أو بالفراولة. وكلَّما انتهى من علبة حمل تلفيفها البلاستيكي، ووضعه جنب صندوق من صناديق الأداء. كان هذا الإجراء ضرورياً لتفادي العثور على أدلَّة السرقة قريباً من مسكنه، وكان يستكشف الأروقة عندما عثر على أكياس تحمل صور كلاب وقطط وديعة، لا علاقة لها بشراسة كلاب الدواوير المحيطة بالغابة، وعندما ثقب أحد الأكياس، عثر فيه على طعام لذيذ، كأنه مزيج من لحم وفاكهة، فأبلى فيه البلاء الحسن. ثمَّ أنهى الوجبة أخيراً بفاكهة، حدس بنظامه الجديد أنها على صلة بالغابة، وقدَّر

أنها ستصبح صديقته في هذا العالم الجديد، كما كان «البلُّوط» صديقه، و«حَبّ الغاز» وأشياء أخرى كثيرة سينساها عاجلاً أو آجلاً، ثمَّ آوى (يَنْسِي) إلى «عشّ الأسلاك»، ونام نومة عميقة، حلم خلالها أنه التقى إبراهيم، وسأله عن

القُنْفُذة، فلم يَبْدُ عليه أنه تذكّر شيئاً من حديثهما في الموضوع، أو لعلّه قال شيئاً عن صعوبة المهمَّة. لأن إناث القنافذ لا تظهر كثيراً خصوصاً في هذا الفصل الذي يبدو أنها تلد فيه، وتُرضِّع صغارها طول الوقت. وعندما سمع الأصوات الأولى للنهار تغمر المكان حوله، استسلم من جديد للنوم. وعاد وحلم بالمصحَّة، وببريجيت التي يحبُّها كقُنْفُذة، وعلى هامش حلمه تساءل عن نوعية العلاقة التي تربطها بإبراهيم، وقال في نفسه إنهما يبدوان سعيدَيْن معاً، وتَعِيسَيْن كلّ على حِدَة، وشَطَنَتْهُ هذه الفكرة التي لا يعرف كيف توصَّل إلى تركيبها، فَهَجَرَهُ النوم، وكاد أن يخرج من وكره، بسبب الفضول والضجر، لولا أن القُنْفُذ الكامن في أعماقه بادر بقَتْل هذه الرغبة في مَهْدها، فاستلقى على ظهره، وراح يداعب بيدَيْه المشعرَتَيْن زغبَ بطنه وصدره وجِيْده، ولمس خصيتَيْه، فوجدهما ضخمتَيْن أكثر من المعتاد، فقدَّر أن هذا الأمر يعود للبسكويت أو للفاكهة الغريبة أو لروائح الأفران والبهارات والبائعات اللواتي يجلسنَ أمام صناديق الأداء، وهنَّ مازلنَ نائمات. ثمَّ تحسَّس موضع البتر الذي طال الساق والركبة وما فوقها بقليل، فنشأ ذلك النتوء المدبَّب الذي ينتهي به ما تبقَّى من فخذه، إنه يؤلمه بعض الشيء لكثرة ما استعمله في المشي بين الأروقة، وقد خطر له أن هذا النتوء ربَّما تحوَّل مع مرور الأيَّام إلى قدم تفي بالمطلوب، وربَّما استطال فخذه قليلاً، بسبب التمرين اليومي والحاجة التي تلد العجائب، فلم يعد مضطرَّاً إلى تلك الرقصة المضحكة، وهو يمشي مبعثر الخطو بعَرَجِهِ.

ولا عليكَ! يقول (يَنْسِي) لنفسه، كلُّ ما في الأمر أنكَ مُطالَب بابتكار طريقة المشي على ثلاث، عوض المشي على أربع، مسألة تمرين فقط، يجب أن أُلغي من جسدي هذا النزول المهين بذلك النتوء حتَّى يلامس الأرض. وماذا لو لم يلامسه؟! من الممكن أن أخلق توازناً مريحاً على ثلاث، تماماً كتلك الكراسي العالية التي تستعملها البائعات وهي ليست على ثلاث فقط، بل تدور أيضاً في كلِّ اتِّجاه! إذا جاءت القُنْفُذة ستجدني «واثق الخطو» لا ينقصني سوى النظر في وجهها العزيز!

ولكن إبراهيم كان في حَيْرة من أمره، فلم يُحضِر القُنْفُذة. مرَّت أيَّام، لم يتجرَّأ فيها على استرجاع ما دار بينه وبين (يَنْسِي). كلَّما تذكَّر ذلك الحوار طرده فوراً، واجتهد في العثور على مبرِّر لهذه الهلوسة. كان مُنهَكاً وخاوياً، لأن الليلة التي قضاها مع بريجيت كانت عذبة وممتلئة حتَّى إن الخوف داهمَه من أن يكون في منعطف جديد. وأنه بسبب ذلك ربَّما اضطرَّ قريباً إلى تغيير جلده مرَّة أخرى، وإلى القفز في الفراغ. وهو لا يريد ذلك، إذا كان لا بدَّ من قصَّة جديدة، فلتكن موازية لقصَّته الحالية، ليست نَسْخاً لها، ولا طبقة من الحكي تغطِّي طبقة موجودة .. وهذا الخوف هو ما ألقى به في اضطراب كبير منذ تسلَّل على رووس أصابعه من شُقَّة بريجيت، وهام على وجهه، يتعلَّل ب-«الواجبات»، ليحشر نفسه في انضباط صوري، لا علاقة له بفوران الدواخل، وكلُّ ما تلا ذلك من حركة محمومة حتَّى وقوفه أمام البوَّابة الأولى لمرجان كان بالنسبة إلى إبراهيم شيئاً ضرورياً للخروج من ذلك الصباح المربِك. والذهاب أخيراً إلى الغابة، ولو استدعى الأمر ابتكار مشهد فانطاستيكي لإخراج الحكاية من النفق الذي وقعت فيه، لذلك لا بأس أن يبحث عن (يَنْسِي) بين أروقة الأسواق، ولا بأس أن يدور بينهما حوار مجنون، وإذا حصل الحوار المجنون، فلِمَ لا يصل إلى القُنْفُذة؟!

لكن إبراهيم سرعان ما قبل الأمر عندما اهتدى إلى اعتباره نوعاً من «الإيحاء الذاتي» .. ف- (يَنْسِي) سواء طلب ذلك بالكلمات والسخرية أم لم يطلبه، فإنه في ذلك المكان المريع يحتاج فعلاً إلى قُنْفُذة، وما عليه إلَّا أن يستعين بخبرة الشيخ عبد الله للعثور على المطلوب. أمَّا الشيخ عبد الله، فلا يطيق القيام بمهامّ غامضة، ما معنى البحث عن أنثى، طوال حياتنا ونحن نأكل القُنْفُذ، لا نأبه أن يكون ذَكَرَاً أو أنثى!

يقول إبراهيم:

- إنها ليست للأكل، أحدهم يريدها أنثى، يقال إن الأنثى هي الأقدر على منازلة الأفاعي .. ثمَّ لماذا المماحكة؟ نُحضرها له، ونقفل الموضوع.

لأيَّام متتالية، كان الشيخ عبد الله يخرج ليلاً بكلبه الأصهب، ويصطاد قُنْفُذَيْن أو ثلاثة. يضعها في كيس، يُحْكِم إغلاقه، ويُعلِّق الكيس بكراته الشوكية في شجرة الفِلِّين حتَّى يصل إبراهيم، فيخرجهم الشيخ عبد الله واحداً واحداً، ويمارس عليهم ذلك الطقس المروّع الذي يذهل له إبراهيم، يستخرج اليدَيْن والرجلَيْن من كرة الشوك، ويبدأ في حكِّ ظَهْر القُنْفُذ على الأرض حَكَّاً سريعاً قوياً حتَّى يبدأ القُنْفُذ في الصراخ مثل طفل خرج من بطن الأرض، ولشدَّة ما يلقاه من هذه الحركة المؤلمة، فإنه يستسلم، كما يقع عند تحضيره للذبح، فيغادر هيأة الكرة، ويصبح عنقه وبطنه باديَيْن للعيان، وفي هذه الحالات تحديداً، تظهر أوَّلاً وقبل كلِّ شيء خصيتاه اللتان تثيران غضب الشيخ عبد الله، فيرمي به بعيداً كما يرمي قطعة ميتة.

ذات ليلة شَعر (يَنْسِي) بضجر كبير، فغامر بالتوغُّل في مجاهل مرجان، حتَّى وصل إلى بوَّابات تسليم البضائع التي توجد خلف الأروقة، وهناك عثر على منفذ خرج منه، فإذا به في أرض خلاء، تحيط بها سياجات ضخمة من أشجار التين الشوكيّ. كانت الليلة رطبة دافئة، فاستمتع (يَنْسِي) بجولة طويلة، قادتْهُ إلى الطريق التي تقع خلف الأسواق، ثمَّ إلى أزقَّة حيِّ الرياض، وفي أثناء عودته من هذه الجولة، اكتشف قصراً كبيراً بحدائق فسيحة، سيعرف، فيما بعد، أنه بيت «الجنرال»، فما إن غادرهُ، وتوجَّه شرقاً إلى المنفذ الذي خرج منه حتَّى وصلتْهُ رائحة يعرفها جيِّداً، ويشتهيها دائماً. فتبعها متوتِّراً وغير مقدِّر لمخاطر عبور الطريق الدائري بأهواله كلِّها حتَّى وصل إلى مزرعة البرتقال المعروفة «بضيعة الأميرات»، فما هي إلَّا بضع لحظات حتَّى عثر على قُنْفُذة حياته مستغرقة في التهام الحلازين التي عثرت عليها ملتصقة بجذوع الأشجار.

وقبل بزوغ الخيوط الأولى لشمس يوم جديد، كان العشيقان ينامان في المربَّع الأبيض جنب الأسلاك المتاشبكة، وقلباهما يدقَّان بشدَّة جرَّاء المخاطر التي أحدقت بهما وهما يعبران نهر السيَّارات المجنونة نحو الحياة الجديدة!

-8-

يُقرُّ إبراهيم إن حياته قد تغيَّرت رأساً على عَقب، بسبب كائن، لم يكن أبداً في الحسبان، هو هذا الذي لم يعد متأكِّداً ما إذا كان موجوداً بالفعل أم مجرَّد رؤيا، وقبل ذلك كانت حياته قد انقلبت رأساً على عقب، بسبب كائنات غير متوقَّعة هي النحل الذي صار عشيرته وبيته وبؤرة الحياة التي لا يحتاج إلى شيء خارج مملكتها العظيمة. ولكنْ، هل كان الإطار البنكي صاحب البذلات الأنيقة، وربطات العنق الفاخرة، وعشاءات المطاعم الكبرى، وأسفار درجة الأعمال، والعلاقات التي يتبادل أصحابها عجائب التفوُّق ونوادر الصفقات القاتلة؟ هل كان هذا الشخص البارد الذي لا يُروِّعه شيء مثل زيادة كرشه بملمترٍ واحد، يتصوَّر أن القُنْفُذ بفروته المدجَّجة بنحوِ سبعة آلاف شوكة، سيحتلُّ حياته فجأة، ويتولَّى فيها مهمَّة القيادة؟!

لقد مرَّت عليه سنوات طويلة كان يتصوَّر نفسه فيها لاعباً كبيراً في ساحة الكبار، تلك الساحة التي لا تدخلها الحشرات والقنافذ وما شابه ذلك، بل لا يدخلها حتَّى البسطاء من الناس، أي تلك الكائنات الممسوحة التي لا تطمع في شيء، ولا تتطاول لتأخذ نصيبها من الضوء. كان إبراهيم ينفر من هذا الصنف، ويعتبره مضيعةً للوقت، ومُعْدِياً بطاقته السلبية، وجالباً للنكد. عندما كان يسمع خطابات تمجِّد الإنسان البسيط، وتعتبره منجماً للمشاعر النظيفة، كان ذلك يملؤه بالغيظ .. الإنسان مخلوق معقَّد، وفي غاية الدقَّة، وهو بذلك ينحو طبيعياً نحو درجات أرقى من التعقيد والدقَّة، ومتى ما جنح للبساطة، فمعنى ذلك أن عطباً كبيراً قد أصاب محرِّكاته. كان إبراهيم يؤمن بأن الكائنات البالغة الدقَّة هي التي يمكن أن تُغيِّر حياته، وكان الشعور الذي يتبقَّى لديه من لقاء هذه المخلوقات أو مَنْ يعتبرها كذلك، هو الشعور بالارتفاع، أي المشي دون ملامسة الأرض، أو المشي على الماء، أحياناً كان يحدث له هذا الإحساس بمجرَّد سماعه لجملة ذكية، وعند ذلك يتوقَّع أن يصبح إنساناً آخر، إنساناً يبحث في الكلمات عن أراض بِكْر، لِتَوقُّد الذهن الإنساني.

عندما ينظر إبراهيم إلى نفسه اليوم، واقعاً في شَرَك (يَنْسِي)، يتنازعه شعور بالغُبْن من أن يتولَّى هذا المخلوق الزهيد أمر إعادة هيكلة حياته، وشعور بالرضى، لكون مساره قد انعتق أخيراً من التدخُّلات العشوائية لبني آدم، وأصبح مرتبطاً بروح، لا تحدُّها الأوفاق والمواصفات، روح وحشية، تحرِّكها الفطرة الصافية وحدها، وغالباً ما يستقرُّ على الشعور بالرضى، لأن ذلك يقوده إلى التفكير في بريجيت .. فيتأمَّلها عن بُعْد، يراها في سريرته تعبر بسحنتها الهادئة ضجيج العالم .. تنساب تحت جلده شرسة وناعمة، لا تقول بالكلمات شيئاً تستطيع أن تقوله بأناملها، تدخل طقس الحُبِّ غير مرتابة ولا متوجِّسة، وعندما تصل إلى لحظة العبور تتحوَّل إلى فتاة غريرة تفعل ما تفعله، كأنها تفعله لأوَّل مرَّة في حياتها، وتكاد تهرب من جسدها خوفاً من المجازفة. بريجيت التي وجدها إبراهيم مشغولة بكلاب الحيِّ الراقي سرعان ما تحوَّلت إلى قدِّيسة ترعى حَيْرته المزمنة. قبلها، كان سليمان هو الشخص الوحيد الذي يتكلَّم معه عن حَيْرة الكائن، لكنه كان يفعل ذلك دائماً بترسانة من «أسلحة التأويل الشامل» .. أمَّا بريجيت، فلا تدَّعي أيَّة قدرة على سَبْر الأغوار البشرية، كانت تقول مازحة إنها تخاف من الإنسان، من الممكن أن تعالج جَمَلاً هائجاً أو كلباً على حدود السِّعَار، ولكنها تهاب أن تعطي حقنة لآدمي، ومع ذلك، فإن إبراهيم صار أقلَّ خصاماً مع نفسه، بسبب الحديث معها، لأنها تتحدَّث عمَّا حدث فقط بإعادة تركيب الحكاية، وليس بمحاولة تفسيرها، والحكايات إذا ما أُعيد تركيبها قد تبتعد كثيراً عن الأصل، وقد تصبح حكايات أخرى، حتَّى لكأنَّها وقعت لأُناس آخرين، وهكذا وبنوع من البراءة تنجح بريجيت دائماً في انتشال إبراهيم من توتُّر «الصيغة الأولى للحكاية»، وتصحبه إلى المراتع الآمنة لتعدُّد الروايات.

في الأيَّام الأخيرة ودون أن تَطْلُبَ ذلك، باح إبراهيم لصديقته بسرٍّ، لم يكن ينوي إطلاقاً

أن يَبُوحَ به. قال إنه منذ مراهقته وهو يكره «الأصل». كما يُطلب منه ذلك، ويحبُّه سرَّاً بينه وبين نفسه، ويتعذَّب بذلك، يشعر بضرورة محو كلِّ شيء يتعلَّق بالجذور، ويشعر بالذنب تجاه هذه «الجذور البريئة»، كلُّ ما فعله في

حياته أو لم يفعله، كان بتأثير من هذا الشعور بالكراهية، أو بتأثير من هذا الحُبِّ المصادَر. قال إبراهيم إنه فتح عينَيْه على مكان يجتهد الناس في اعتباره موبوءاً وعابراً وغير لائق، ومع ذلك، فإنه يحبُّ هذا المكان ويحبُّ تلك الهجرة التي وضعته فيه، وتلك الوضاعة التي يجتهد سكَّان مُدُن القصدير في تغليفها بطبقات كثيفة من التجاهل والكبرياء، إنه يحبُّ المكان الذي جاء منه، ومع ذلك، فقد قضى حياته كلَّها هارباً من عار الأمكنة.

ولكن بريجيت التي كان يُفترَض فيها بسبب رقَّتها البالغة - أن تجزع لهذا الأمر، لم يبدُ عليها أنها أدركت البُعد المأساوي في هذه الحكاية. فقد زعمت أن الناس كلَّهم لا يحبُّون الأماكن التي أتوا منها، ربَّما لأنها قَسْرِية، ولا خيار لهم فيها. وعادةً ما ينتقي الناس لغرامهم بالأمكنة مكاناً يُركبونه من عناصر عدَّة، يملكون ناصيتها، وكلَّما كان هذا المكان بعيداً عن مسقط الرأس ومُضَادَّاً له، كان شبيهاً «بالبعث» في نسخة مؤكَّدة هنا والآن. ثمَّ زعمت أن هناك أشخاصاً يخلطون بين الحنين الطبيعي لأمكنة البدء المفقودة، وبين حبِّ الأمكنة، وهذا الأخير هو بناءٌ مُحكَمٌ من الوجوه والمشاعر والرغبات، ونسيج معقَّدٌ، تتدخَّل فيه الأوهام بنصيب وافر. وعندما ذكر لها إبراهيم أمثلة عن أشخاص يعرفهم لم يغادروا أبداً أمكنتهم الأولى، قالت، وما هي مغادرة الأمكنة؟! هناك أشخاص لهم طبيعة سمكية، إذا خرجوا من أمكنة البدء اختنقوا، وهناك أشخاص يشبهون الطيور المهاجرة، يروحون ويجيئون بانتظام أعمى، وهناك أشخاص مثلي لا يعرفون المكان أو لا يعرفون الحبَّ، وهناك أشخاص مثلكَ يريدون أن يبتروا من أجسادهم مكاناً زائداً عن اللزوم .. سيناريوهات لا نهائية لعبث واحد، وماذا في الأمر، تحبُّ مكاناً أو تكرهه؟ .. ما الفرق؟ انظر إلى (يَنْسِي)، بدون تحسُّر أو تردُّد، مضى إلى «مرجان»، بِرَبِّكَ، هل يتصوَّر أحَدٌ قُنْفُذاً في مرجان؟ ربَّما قال في نفسه: الغابة التي خَسِرْتُ فيها ساقاً كاملة لا تستحقُّني ..

وهو محقٌّ في ذلك، إذا آذاك مكان ما، فإن الردَّ الوحيد الذي تملكه هو أن تغادره. وكلَّما تَقَاعَسْتَ، استبدَّت به الرغبة في تعذيبكَ أكثر ممَّا فعل.

وتوقَّفت بريجيت عندما لاحظت أن وجه إبراهيم قد أصبح مُظْلِماً، تكاد تختفي ملامحه. إنه يتألَّم فعلاً، ولا يقوم فقط بتمرين في المكاشفة. فأحاطت وجهه بيدَيْها حتَّى أضاء من جديد، وبعد عناق طويل لترويض تلك اللحظات الوحشية، قالت:

- بَوْحاً مُقَابِلَ بَوْحٍ، أنتَ لا تحبُّ مكاناً، أمَّا أنا، فإن ابنتي الوحيدة لا تحبُّني. نَسَجَتْ من شيئَيْن لا يخصَّانها بتاتاً شرعية لهذه الكراهية، فقد تركتُ والدها، وزعمَتْ أن خذلاني هو الذي قتلَهُ، ورفضتُ أن أذهب إلى فرنسا بينما كانت تريدني هناك لاستكمال قطيعتها مع هذا المكان، .. أنا أيضاً تعذَّبتُ لفترة بهذا العداء المُختَلَق، ولكنني ابتعدتُ عنه. قرَّرتُ ذات يوم أن أضع ابنتي وعداءها في ركن قَصِيٍّ من حياتي، وأن أصُدَّ كلَّ محاولة لاستعبادي بهذه الحاجة البليدة إلى المخلوق الذي تَكَوَّنَ في أحشائي، وأن لا أخضع أبداً لأيِّ ابتزاز عاطفي، يجعلني ألهث خلف محبَّة زائفة. هي الآن تتَّصل من حين لآخر للاستفسار عن بعض الشؤون المادِّية أو الإدارية أتعمَّد أن أستمع إليها بصمت كامل، ثمَّ أحيلها على مَنْ يهمُّه الأمر، بلا كلمات جوفاء، ولا رغبة في العثور في نبرة الصوت أو في ارتعاش الكلمات عن شرخ صغير، أنفذ منه إلى الأمومة المفقودة. أعرف كثيراً من الناس يسكنون في «عداءات مُختَلَقَة»، فتصبح سجنهم الأبدي، يتعذَّبون من فهمها ومن عدم فهمها، يبحثون لها عن تفسيرات، ويتخيَّلون لها الحلول .. ويربطون بها إحساسهم بالعزلة، أو شعورهم باليُتم، يُقنعون أنفسهم بأن هذا الشيء العبثي الغامض، هو الذي دمَّر حياتهم، لا أريد أن أكون مثل هؤلاء. لا أريد أن أملأ حياتي بفقدان شخص آخر .. أريد أن أمتلئ بالمشاعر والأشياء الصافية، وأن أحبَّ الخَوَاء الذي يخلِّفه فقدان بعضها ..

وأبدى إبراهيم إعجابه الشديد بما تقوله بريجيت، قال إنه يودُّ أن يُعرِّفها في أقرب وقت على صديقه سليمان الذي يدعوه «فيلسوف حَيِّ الفتح»، فهو يقول أشياءَ مشابهة، وأكثر من ذلك يجد حلولاً مدهشة للقضايا كلِّها. منذ سنوات، لم يخرج من حَيِّ الفتح إلَّا في ما ندر، يتمشَّى صباحاً في غابة الحزام

الأخضر، ويجلس في المقهى حتَّى منتصف النهار، ويعكف على القراءة حتَّى ينام .. هو أيضاً له مشكلة مع «المكان الأوَّل»، لكنه يسخر من ذلك، يقول إنه ترف كبير أن يكون لكَ مشكل من هذا النوع في بلد ما تزال النساء فيه تُسلِّمنَ الروح في أثناء المخاض. ولكنني أعرف أنه فقط يخادع بهذه السخرية، ليتغلَّب على الألم الذي لا يفارقهُ. كلَّما ذكر مسقط رأسه ولْمَاسْ يقول ساخراً إن الحلَّ الوحيد هو أن يقول لكَ أحد كما في بقالة الحيِّ:

- ماكاينش والماس! هل تريد شويبس؟!

قالت بريجيت إنها تنفر نفوراً شديداً من «ديكتاتورية الحلول»، هذه الضرورة القصوى التي يعذِّب بها الإنسانُ نفسَهُ، أحياناً كثيرة يكون الحلُّ الأمثل هو عدم العثور على حلٍّ، ومع ذلك ما أكثر ما نفضِّل الحلول الحمقاء على المشاكل الرائعة!

ضحك إبراهيم، وسألها مبتهجاً:

- من أين تأتين بهذه الأعاجيب؟

قالت بريجيت:

- من الحيوانات، يبدو أنني لستُ فقط طبيبة حيوانات، أنا أيضاً فيلسوفة حيوانات. صادفتُ كثيراً من القطط «تفقد عقلها» عندما تفقد أمكنتها، وكثيراً من الكلاب تعثر على أمكنتها بعد شهور من التيه. حتَّى الحمار الذي اتَّخذه الناس رمزاً للبلادة، استعمله المهرِّبون وتجَّار الأسلحة لمعرفته الدقيقة بالمعابر السرِّية والمخاطر المحدقة بها، بل ولأنه يعرف على وجه الدقَّة أين يبدأ التراب الجزائري وأين ينتهي التراب المغربي، هذه الأشياء وغيرها تجعلني أضع قَدْراً من النسبية في نظرية التفوُّق البشري.

سأل إبراهيم:

- في نهاية المطاف، ما الفرق بين الإنسان والحمار؟!

- الارتباك، يا عزيزي، الارتباك فقط. الحمار لا يرتبك ولو كان يحمل قنطاراً من الحبوب المهلوسة، أمَّا الإنسان، فيرتبك كثيراً إذا عبر الحدود ومعه حبَّة واحدة!

وَعَدَ إبراهيمُ بالعودة إلى موضوع المكان في مناسبة أخرى، فقد بدا له هذا المساء أجمل من أن يُهدَر في إشكال كئيب، فاقترح على بريجيت أن يذهبا لاكتشاف مطعم فتحه مهاجرون سوريون حديثاً في العاصمة. كانت بريجيت متحمِّسة وهي تستعدُّ للخروج غير أنها ما إن صَعِدَت إلى السيَّارة حتَّى ظهرت عليها علامات قلق مفاجئ، وعندما سألها إبراهيم عمَّا يشغلها قالت إنها تريد أن تقترح عليه شيئاً ربَّما لن يُعجبه، إنها تبذل جهداً كبيراً لكي لا تفعل،ولكن فكرة الذهاب إلى مرجان لتفقُّد أحوال (يَنْسِي) تُلحُّ عليها كثيراً، وتخاف إن ذهبت بها إلى المطعم أن تصبح حاجزاً بينها وبين الاستمتاع بجلسة طيِّبة. فما كان من إبراهيم إلَّا أن انعطف يميناً، ليصبح في الطريق الدائري، حيث يوجد مرجان.

دخل إبراهيم وبريجيت إلى المساحة الكبرى صامتَيْن، وتوجَّها مباشرة إلى جناح الآلات الرياضية. كان المكان مكتظَّاً في هذه الأثناء، لذلك اقترحت بريجيت أن يقوما بجولة بين الأروقة، ريثما يخفُّ الزحام. وبمناسبة هذه الجولة، اكتشف إبراهيم موادَّ كثيرة، لم

يسبق له أن تعرَّف عليها، حتَّى في جناح الخُضر والفواكه، اكتشف فلفلاً أصفر، وباذنجاناً بنفسجياً، وجَزَرَاً أسود، وفواكه غريبة مثل الباباي والليتشيز والجوافة وثمرة العشق، وأنواعاً غريبة من الإجاص والتفَّاح، وهذه الأصناف كلُّها تحمل لصيقاً بأسماء البلدان التي قَدِمت منها. قال إبراهيم:

- صِرْنا كالسعودية، نأكل من مزارع العالم كلِّها!

فردَّت بريجيت:

- يقال إن هذا من فضائل التبادل الحُرِّ. ولكنْ، في الواقع هذا من كوارثه المدمِّرة ..

وعند عودتهما من الجولة، مرَّا برواق الجِزَارَة، فرأى إبراهيم علباً معبَّأة بأفخاذ الدجاج وحدها، فتذكَّر الشجار الذي كان ينشأ بين والدَيْه في أثناء شراء قطعة دجاج بالتقسيط، أحدهما يريدها فخذاً، والآخر يريدها صدراً، فحكى ذلك لبريجيت التي ضحكت من الموقف قبل أن تشير إلى أن هذه الموادّ الجديدة هي أيضاً من عجائب التبادل الحُرِّ .. فالغربيون لا يأكلون سوى صدور الدجاج، ويُصدِّرون أفخاذها لأسواقنا المستباحة.

عندما وصلا إلى الجناح المعلوم دارا بين الآلات، وجرَّبا بالتناوب بعضها، وفجأة ظهر (يَنْسِي)، خرج من المستطيل الأبيض، ومسح المكان بنظراته الحذرة، ثمَّ وقف وأدَّى التحية التي أرادها هذه المرَّة عسكرية، لأنه رأى حُرَّاس قصر الجنرال يؤدُّونها له وهو داخل السيَّارة أو يؤدُّونها للسيَّارة خاوية إلَّا من سائقها.

وعندما ضحكت بريجيت من التحية الهزلية، رجع (يَنْسِي) إلى وضعه الطبيعي، واقترب من فتحة المستطيل، وأدخل يده فيها، ليُخرِج الحسناء التي تقاسم سكناه الفاخرة. كان موقفاً مؤثراً، بكت له بريجيت وهي تمرِّر يدها مرَّة على ظهر (يَنْسِي) ومرَّة على ظهر صَديقته، إلى أن سُمع وقع خطى تقترب، فهُرع العشيقان إلى جحرهما ..

وجد إبراهيم صعوبة في حَمل بريجيت على الانصراف نظراً لتأثُّرها الشديد، لكنها أذعنت في النهاية، وتوجَّهت نحو ممرَّات الخروج، وعندما صَعِدَا إلى السيَّارة، كاد إبراهيم أن يقول لها إن (يَنْسِي) قذف في وجهه:

- بلا جميلكِ!

لكنه أحجم في آخر لحظة مخافة أن تظنَّ به الظنونَ.

-9-

يصف الشيخ عبد الله الغابة التي عاش فيها خمسين سنة بدون انقطاع بأنها كانت شيئاً لا ينتهي، كان التاريخ بالنسبة إليه يحدَّد بعام الدخول إلى الغابة أو بعام الخروج منها. فرنسا بنت مركز دار بنحسين عام الدخول، ومحمَّد الخامس نُفي بعد سنة من دخول الغابة، والبيت في الفيلاج، اشتريتُهُ عام الخروج، هنا في هذه الغابة التي لا تنتهي، كان القطيع الذي تحت مسؤوليته يتألَّف من مئات الأبقار، تسرح في تلك المساحات التي يعرفها، والتي لا يعرفها، والتي لا يهتدي في أدغالها إلَّا بالبناء الحجري لمركز المياه والغابات في المكان المعروف «بالشَّطِّ»، والذي تمرُّ منه طريق غير معبَّدة، تفصل بين غابة الفِلِّين القديمة، ومربَّعات الأوكاليبتوس والميموزا التي استحدثها الاستعمار الفرنسي، أو «بالعلامة»، أي ذلك البرج الحديدي الذي يُفترَض أن يراقب منه حرَّاس الغابة حركة الاتِّجار اللاَّمشروع في الأخشاب، أو بالسور الدائري الذي يحيط بسوق السبت .. الأبقار نفسها تعرف أنها إذا ضاعت، فيجب أن تعود إلى هذا المثلَّث، ليسهل على الشيخ عبد الله العثور عليها، أمَّا إذا توغَّلت وابتلعتْها الأحراش، فستؤول رغم أنفها إلى أبقار وحشية، تُنَظَّمُ لها حملات صيد كتلك التي تُنَظَّمُ للخنازير. والشيخ عبد الله كان لا يعرف سوى هذا الاتِّساع المليء بالحياة، ولا يتصوَّر أن حياة أخرى ممكنة خارجه سوى تلك التي نصبت خيامها على مشارف الغابة، وأصبحت دواوير مقسَّمة على مجموعات متفرِّعة من الخزازنة المتفرِّعة بدورها عن زمور. في تلك الخيام وُلِد، ومنها توجَّه ولمَّا يبلغ العاشرة من عُمُره في صحبة أخيه الأكبر إلى الغابة، ليعيش مع القطيع، ولمَّا اشتدَّ عودُهُ، استفرد بالرعي، وتفرَّغ أخوه للأسواق ولتلك الحياة البعيدة التي يُسمّونها «المدينة» أو «لاكار» أو «البيرو» .. ولا مرَّة واحدة خطر بباله أن مجالاً ما يمكن أن يكون أكبر أو أوسع من الغابة.

كان يصطاد الأرانب والحجل بالعصا، يشوي منها ما يحتاج، ويبعث بالباقي إلى الخيام، كلَّما جاءه أحدٌ منها بما يحتاجه من خبز وشاي وسُكَّر. أحياناً كان

الرُّماة يمرُّون على كوخه القصبي، فيذهب معهم للصيد، يكون دليلهم، وبؤرة حديثهم في الجدِّ والهزل. كان إذا أطلق العصا من يده لا تسقط وحدها أبداً، وحتَّى الآن لا يفهم ضرورة البنادق للإيقاع بهذه المخلوقات الضعيفة. ذات يوم ذهب إلى موسم سيدي العربي لأوَّل مرَّة في حياته، فرأى الخيل، والخيام، والمتاجر، والذبائح، والهيت، والحيدوس، والحلقة، والزحام، والصراخ، وذهب به أخوه إلى بائع الملابس، وكساه كما يقول من رأسه إلى قدمَيْه. وعندما عادوا من الموسم بعد يومَيْن مجنونَيْن، كان لا يريد شيئاً سوى العودة فوراً إلى الغابة، لكن أخاه استبقاه بحركة من يده. وفي المساء أولمت الخيمة لضيوف جاؤوا من «آيت أوريبل»، وفيهم تلك البنت الباكية، التي ستذهب في اليوم التالي مع الفتى النحيف إلى مجاهل الغابة، ليشخصا بافتتان واندهاش كبيرَيْن مشهد التيه الأوَّل لآدم وحوَّاء على هذه الأرض. يعتبر الشيخ عبد الله أن الغابة أُصيبت بجرح قاتل، ليس فقط لأن شجرة البلُّوط تعيش أهوال حرب قاسية بالعمران والنهب وغزو الأوكاليبتوس .. ولكنْ، لأن الإنسان يقول الشيخ عبد الله لم يَعد يحبُّ الغابة. نحن كنَّا نقاتل الحرَّاس الفرنسيِّيْن على هذا المجال، يطاردون الرعاة منَّا والصيَّادين، ويدفعون بنا كلّ يوم إلى الهوامش، وعندما يندر الكلأ، نتقاتل مع بعضنا، مع «بني حسن» غرباً، ومع «المزورفة» شَمالاً .. ولكننا جميعاً نحبُّ الغابة، وهي تعرف ذلك.

يستمع إبراهيم إلى الشيخ عبد الله يتحدَّث عن حروب القبائل، وعن غنائم الحرب، وسبي النساء والغارات الخاطفة، ولصوص الماشية، وكلَّما قدَّم الشيخ عبد الله تفاصيل جديدة، أو أعاد الحكاية للمرَّة الألف، ولكنْ، دائماً بإضافات مثيرة، ازداد إبراهيم اقتناعاً بأنه يعيش تجربة خارقة. إنه يستمع إلى رجل من هذا الزمان، يأتي إلى مجالسته من العاصمة التي لا تبعد عن هذه الشجرة الوارفة سوى بنحو سبعين كيلومتراً، يأتي إليه من مدينة، أصبحت بفضل المباني الجميلة والطُّرُقات الواسعة والحدائق، وبفضل ذلك وحده «مدينة

الأنوار» .. وعندما يصل بمؤونته البسيطة وبسيَّارته رباعية الدفع يكون كَمَن انتقل عبر هذه المسافة الصغيرة إلى قرون غابرة. إنه لحظٌّ عظيم أن يضع

البنكي السابق يده في يد الرجل الذي نجا بأعجوبة من غارة بني حسن على مرابع الخزازنة، لكن زوجته سيقت مع نساء أُخريات وجزء كبير من القطيع ضمن المغانم، وكانت حاملاً في شهرها السابع، وعندما يتحدَّث عن هذا المولود المصادر، فإنه لا يفعل ذلك بأيِّ نوع من التحسُّر .. لقد وُلد هناك، هذا كلُّ ما في الأمر، وعندما صار طاعناً في السنِّ، زاره مرَّة على سبيل «صلة الرحم»، والشيخ عبد الله الذي كان يكبره بنحو عشرين عاماً ضحك كثيراً من شيخوخة ابنه التي أضفت على علاقة البُنُوَّة التي تجمعه به طابعاً هزلياً، مثلما يضحك كلَّما جاءت «الحسناوية» العجوز إلى الغابة وقد كانت طفلة، عندما سباها أبوه في غارة على بني حْسَن، ثمَّ اتَّخذها أخوه زوجة ثانية، يضحك منها لأنها تعلَّمت الأمازيغية، لكنها كانت تتكلَّمها بلكنة غرباوية دون أن تَهْتَمَّ لوقعها على المحيط. يتحدَّث إبراهيم مع الشيخ عبد الله وهو يكاد لا يعرف هل يعيش بالفعل فَصْلاً من حياة حقيقية أم يقرأ مقاطع من حياة مُتخيَّلة؟! وعندما يحاول استدراجه إلى تأمُّل الحياة التي التهم قرابة قرن من زمنها، فإنه يندهش لكونه مقتنعاً تماماً بأن حياته كانت مليئة حقّاً، عاشها بالطول والعرض، عرف فيها أحداثاً كبيرة وصغيرة، وأعطى منها للغابة نصف عُمُره قرباناً لروحها العظيمة، واقتنص منها حكايات لا يملُّ من ترديدها. لقد عاش في حياته غزوة واحدة، فتناسَلَتْ منها غزوات وغزوات بالحكي وحده، وقابل ذئباً واحداً، فصار مئات من الذئاب المتقلِّبة بتقلُّب الحكي، ورجالاً قليلين، رُماةً في أغلبهم صَاروا شعوباً وقبائل، ورأى طائرة واحدة في حياته يقف ابنه الطيَّار عند سُلَّمها، فصارت أسراباً من المقاتلات، تخترق سماء صحراء، لا يعرف لها شكلاً ولا معنى سوى أنها صحراء، وأن ابنه سقط من سمائها. كثيرون سقطوا هناك، لأنهم لحكمة غامضة كلّهم قرَّروا أن الجندية هي التعويض الوحيد عن شظف القبيلة، منذ حرب لاندوشين إلى حرب الصحراء مروراً بالحرب العالمية، ناس بسطاء لم يقتلوا في حيواتهم ذبابة انتقلوا مباشرة من الغابة إلى «الكسوة»، وبعدها مباشرة إلى الحرب. حكاياتٌ بسيطة، وأساطير بلا آلهة ولا ملاحم، وحِكَم ساذجة، وشذرات من أقوال الأوَّلين «الذين لم يتركوا للآخرين ما يقولونه»، هذا ما يُسمِّيه الشيخ عبد الله بالحياة المليئة. الحياة التي تسمح له بسرد مئات الحكايات عن الموتى، ليس

عن بطولات، ولا عن معجزات أتوها، ولكنْ، عن كيف كان أحدهم يركب الخيل، أو يشرب الشاي، أو يقيم الولائم، أو يقتل لصوص الأسواق، أو ينصب المصائد للثعالب والذئاب .. فإذا تعلَّق الأمر بالصيد حكى الحكاية ألف مرَّة، يضيف وينقص حسب تراكُب الحكايات وتفاعلها. ذات مرَّة حكى للمرَّة الألف حكاية الأرنب الذي انطلق من عند قدمَيْه كالسهم، فقتله بالأرنب الذي كان يذبحه، وزاد في الحكاية حجلة كانت تهمُّ بالإقلاع، فأحجمت مذعورة من هول ما رأت حتَّى عاجلها بالعصا التي لا ترحم.

- يا عمِّي عبد الله، الحجلة لم تكن من قبل في الحكاية!

يضحك الشيخ عبد الله ويردُّ ساخراً:

- ألم تسمع، «كلُّ صيَّاد كذَّاب»!

كان إبراهيم عندما يتأمَّل هذا الردَّ يشعر بعمق العلاقة التي تربط الشيخ عبد الله بحياته، فهو، أوَّلاً، يعرف أننا عند ما نصيد في الواقع، فإننا نصيد الطرائد، ولكنْ، عندما نصيد في الحكي، فإننا نصيد الحكايات، وهو ثانياً يحبُّ حياته، لا يتمنَّى أن يكون رجل أعمال أو كاتباً، يريد فقط أن يكون هو، وأن تكون حياته كما هي، ليس فقط لأنه يعيشها، ولكنْ، أيضاً، لأنه يقولها .. هذه هي الحياة المليئة، يقول إبراهيم، الحياة التي تستطيع أن تقولها، الحياة التي لا مكان فيها للزوائد ولا للإضافات المنقِذَة، ولا يحتاج المرء إلى ترقيعها بحياة أخرى، بل يترك ثقوبها تتَّسع على هواها مثل نسيج يندثر حتَّى تصبح ثقباً أسود، يبتلع كلَّ شيء.

كثيراً ما يسأل الشيخ عبد الله صديقه إبراهيم عن حياته؛

- ولكنْ، كيف عشتَ؟ نحن نعرف من يوم جئتَ بصناديق النحل .. لكنْ، ألَيس لكَ ما «تُعاوده» (تحكيه) عن أحبابكَ أو عن موتاكَ، أو عن مغربات مرَّت بكَ؟! لم يكن لإبراهيم ما «يُعاوده». وخصوصاً للشيخ عبد الله، هل يحكي له عن

البنك، أو عن مخيَّماته الصيفية في جنوب إسبانيا؟ هل يحكي له عن سنوات السعادة الزوجية، وعن سنوات تعاستها؟ هل يقول لشخص لم يعرف معنى الاضطراب أبداً إنه لم يذق طعم السكينة في حياته إلَّا وهو داخل بذلته الواقية يروح ويجيء بين أسراب النحل؟

ربَّما أفضل ما يقوله للشيخ عبد الله هو أن يعترف له بأنه جاء من كوكب آخر، وإذا لم يفهم ما هو الكوكب الآخر، فعليه أن يصف له تكدُّساً ضخماً للبراريك والعِشَش والأكواخ على مَدِّ البصر، تفصل بين صفوفها الطويلة أزقَّة ضيِّقة، تتوسَّطها مجاري الصرف الصحِّي، والحيّ اسمه دوَّار الضبابة، هرج ومرج وضجيج لا ينتهي، وهُم خمسة أطفال، والأُمُّ تبكي ليل نهار على الفردوس الذي خرجت منه، والأب المستعدُّ للحرب في كلِّ وقت، يخرج من الغرفة العطنة صباحاً، يحمل مقصَّات التقليم في جرابه، بعد أن يكون قد وضع على الطاولة القصيرة خبز اليوم، وألقى في الجمع الصغير أوامره الصارمة أن لا يخرج أحدٌ، ولا يدخل أحدٌ.

أمَّا أنا وأخي الأكبر، فقد خرجنا بعد سنة من الإقامة الإجبارية لنذهب إلى المدرسة. في الطريق لم يتوقَّف الأب الذي وُلد غاضباً ومات غاضباً عن الصراخ والسبِّ واللعن.

«افتحا أعينكما جيِّداً، ولكنْ، لا تريا شيئاً حتَّى تصلا إلى المدرسة .. نحن نمرُّ من هنا فقط مؤقَّتاً، ريثما نعثر على مكان يسترنا، ذات يوم سأعثر على ضيعة أشتغل فيها، فنعيش في مكان، يمكن أن نفتح فيه أعيننا، ونرى كلَّ شيء .. أمَّا هنا، فنعبر، ولا نرى، لا نُبحلق عبر الأبواب، ولا في الوجوه، ولا نسمع الضحك ولا الدفوف ولا الغناء، نمشي بأسرع ما نستطيع، نطير إلى المدرسة، ونطير منها إلى عشِّنا النظيف، حتَّى هذه الساقية، يجب أن تنطَّا فوقها دون أن تنظرا إلى تدفُّقها القذر، وماذا فيها؟ هل تعرفان ما فيها؟ الخِرَاء والمَنِيّ. هذا كلُّ شيء!».

وإذا لم يفهم الشيخ عبد الله ما هو الكوكب الآخر، فعليه أن يصف له شيئاً، لا يستطيع وصفه، لأنه خليط من المشاعر والملامح والوقائع - لنبدأ من تلك

الحادثة الرهيبة التي شهدتْها الطريق الوطنية بين الكاموني وتِيْفَّلْتْ، حيث لم يُقدَّر في ذلك اليوم لأيَّة شاحنة أن تصطدم بحمولتها مع شاحنة أخرى، سوى لتلك الشاحنة التي كان ضمن تكدُّسها البشري رجل جاء من الريف للعمل في كروم المنطقة، وهو، بالضبط، ذلك الأب الغاضب الذي يريد لأبنائه أن يعبروا هذا المكان، دون أن ينظروا فقط أن يعبروه. في ذلك المساء نفسه والجثمان ممدَّد بينهم في «العشِّ النظيف»، نظروا إلى كلِّ شيء، ورأوا الظاهر والباطن، رأوا نساء ورجالاً يحيطون بهم من كلِّ جانب، يفرشون الأغطية، ويطعمون الناس، ويبكون معهم، رأوهم أجساداً معجونة بالقسوة، وأرواحاً طافحة بالرحمة .. ثمَّ بعد ذلك تمرُّ الشهور والسنوات. نعيش وسط جحافل من المهاجرين والغرباء، يتقاسمون المحبَّة والعنف، المآتم والأعراس، العُسْر واليُسْر. بيوت العاهرات لا تسترها سوى أثواب فاقعة، تغري أكثر ممَّا تَحْجُب...

ودُوْرُ الآخرين محكمة الإغلاق. ونحن نذهب إلى المدرسة، وأُمُّنا تخرج للعمل في الضيعات، وقد صرنا نرى، ونتندَّر بما نرى، المهاجرون من الريف يرعون يُتْمنا في الأعياد والعطل وموسم الدخول المدرسي، والجارات المرحات يتعهَّدْنَ الكوخ، وأخواتنا البنات برعاية صارمة، والأيَّام تمشي كما نمشي، تنطُّ فوق القذارات، وتتحاشى الحُفَر الطارئة.

ولنأتِ إلى ذلك اليوم الحزين، الذي جاء فيه أخي ببذلة الدَّرَكي بعد تخرُّجه في مدرسة تكوين الدَّرَك بمراكش. جاء بقراره الذي لا رجعة فيه، أن يُخرجَنا من هذا «الحيِّ الموبوء»، بل ومن هذه المدينة الفاسدة، ويُسكننا في حيٍّ طيِّب الذِّكْر بمدينة الخميسات .. في هذا اليوم وُلد الكوكب الآخر الذي اسمه سوء الفهم، أي تلك المَنَاحة العظمى التي انخرطت فيها الأُمُّ والبنات والجارات وصفوف الأكواخ التي على مَدِّ البصر .. في تلك اللحظات التي كنتُ أمتلئ فيها بوجوه أليفة، وأخرى جاءت بها المناحة، وبمشاعر ملتبسة، تقع بين الحبِّ

والكراهية، وبمعاني أكثر التباساً حول النظافة والقذراة، في تلك اللحظة، وُلد هذا الوجوم الذي يُشَخِّصه الشيخ عبد الله «كعجز مُكتسَب عن المُعَاودَة» ..

-10-

ارتأى إبراهيم أن يُشرِكَ سليمان (أو فيلسوف حَيِّ الفتح) في حكاية (يَنْسِي)، كان يتهيَّب من ذلك حتَّى الآن، ويتوقَّع أن تتحوَّل القصَّة إلى تربة خصبة للسخرية، وهو يعرف أن سليمان إذا انبرى للسخرية، فإنه لا يتوقَّف عند حَدٍّ. ولكنه شعر بأن ما جرى له ولبريجيت في المرَّة الأخيرة بمرجان هو مقدِّمة لتطوُّرات خطيرة، لا يستطيع مواجهتها وحده، والفكرة نبتت في ذهنه على شكل سؤال خطر له وهو يعود من الغابة .. وماذا لو ضُبطَ (يَنْسِي) ورفيقته في أروقة الأسواق، ماذا لو حُوصِرَا في المربَّع، ونُكِّل بهما؟! ماذا لو وضعوا لهما سُمَّاً في البسكويت؟!

انتبه إبراهيم فجأة، وعلى ضوء هذا السؤال، إلى المخاطرة الكبرى التي توجد في كلِّ «إنقاذ»، بدءاً باللغة التي تنطوي على سوء فهم مزمِن، وانتهاء بسخرية الأقدار، التي تستطيع أن تضع في حركة خيِّرة، ما لا نهاية له من الاحتمالات الشرِّيرة أو العكس. سيكون شيئاً قاسياً أن يموت (يَنْسِي) في جريمة قتل بشعة، بعدما نجا بأعجوبة من «حادث طبيعي»، وماذا ستفعل بريجيت وأنا بأثقال الشعور بالذنب التي ستسحقنا كلَّما تذكَّرنا أننا كنَّا سبباً مباشراً في تسليمه إلى آلة قاسية، تعتبر القتل «تطهيراً، ضرورياً للحفاظ على نقاء المدينة؟ أَمَا كان الأجدر بنا أن نترك القُنْفُذ يواجه مصيره في بيئته الطبيعية، فيناله من تجربة الحياة والموت ما يناله كلُّ كائن يقاوم في بيئته من أجل البقاء، عوض التطويح به لأقدار عابثة؟! أليس الإنقاذ الحقيقي هو أن نقوم بغارة على مرجان، لنستعيد (يَنْسِي) وصديقته، ونعيدهما إلى الغابة؟!

هذه الأسئلة كلُّها راودت إبراهيم وهو يفكِّر في إثارة الموضوع مع سليمان، كانت فكرة تحرير (يَنْسِي) قد ألحَّت عليه من قبل، وأراد أن يقترحها على بريجيت، لكنه خاف من فشل العملية، ومن الملابسات التي ستنشأ من ذلك، خصوصاً إذا اضطرَّ لاستخدام القوَّة، أو استُدرج إلى مطاردة محمومة بين الأروقة، وماذا لو أثارت المطاردة انتباه رجال الأمن، ووجدت بريجيت

وإبراهيم نَفسيْهما قيد التحقيق في قضية لا رأس لها ولا رجلَيْن؟! وهَبْ أنهما وقَعَا على أَمْنِي بالغ اللطف، متفهِّم، ومجنون قليلاً، هل سيُصدِّق أن المطاردة كانت تخصُّ قُنْفُذاً، وأن إبراهيم وبريجيت النصف فرنسية والنصف مغربية، حسب أوراق تعريفها، كانا يحاولان إعادته إلى الغابة، وإنقاذه من مملكة الاستهلاك الطاحنة؟!

استمع سليمان إلى القصَّة من بدايتها، أي من العثور على القُنْفُذ المصاب قرب الزهرة الغريبة، حتَّى الوقوع في ورطة المطاردة، وخلافاً لتوجُّسات إبراهيم كلِّها، فإن سليمان لم يُقدِم على أيَّة سخرية واضحة أو مبطَّنة، حتَّى عندما أورد إبراهيم المقاطع الحوارية التي جرت مع (يَنْسِي) استمرَّ في الاستماع باهتمام، وقطب جبينه مراراً، كما يفعل عادة عندما يبدأ بالتفلسف.

وقد تعمَّد إبراهيم أن يُسِرَّ في نفسه شيئاً طالما أزعجه منذ ظهور (يَنْسِي) عقب اختفائه، في أسواق مرجان. فهو لا يمكن أن يتجاهل التوازي الموجود بين «هجرته» إلى الغابة، وهجرة (يَنْسِي) إلى قلب المدينة، هجرتان متناقضتان، وكأن (يَنْسِي) يريد أن يقول بهجرته: لا فائدة! إذا خسرت المدينة شخصاً، فستربح غيره أضعافاً مضاعفة، وإذا ربحت الغابة روحاً، فإنها فقدت جزءاً أساسياً من روحها. كان إبراهيم متحمِّساً للتخلُّص من الحياة الزائفة، ومن مجتمع الرغبات المفتعلة والأوهام، وها هو يعيد بحركة ظاهرُها بريء تماماً إلى العالم الذي هجره، أكذوبة خطيرة. إن (يَنْسِي) ينسف مشروعه من الأساس، ذلك الاستغراق اليومي كلُّه في عوالم النحل، والمبيت لفترات طويلة في كوخه الغابوي، والاقتصار على عشير واحد، هو الشيخ عبد الله، والعيش بأقلّ ما يمكن، وبأكثر الأشياء انتماءً إلى الأرض، هذا المجهود كلُّه لم يعد له معنى، لأن (يَنْسِي) يجاهد بطريقته العابثة،

ليخلط الأوراق، ويزرع فخاخ الشكِّ في الحكاية.

لم يقل إبراهيم شيئاً عن هذه الهواجس لسليمان، بل اكتفى بالإشارة إلى أنه تحدَّث لبريجيت عن خيبته الكبيرة بما آلت إليه عملية الإنقاذ، وأنها، هي أيضاً، تشعر بالذنب أحياناً، ولكنها تتابع بحنو ما يفعله (يَنْسِي) بحياته الجديدة.

والظاهر أنها تُطوِّر بخصوص غراميات (يَنْسِي) مَيلاً مبالغاً فيه للتسامي به إلى مقام الأسطورة.

قال سليمان:

- إنه لشيء رائع فعلاً أن يحصل ذلك، بِغَضِّ النظر عن الإسقاطات الممكنة التي تسمح بها الحالة.

وفهم إبراهيم أن صديقه يعني إمكانية وجود تقابُل بين ما يعيشه زوج القنافذ، وما تعيشه بريجيت في علاقتها به، فاغتنم الفرصة ليقول لسليمان إنه يعيش تجربة حبٍّ غريبة نوعاً ما مع بريجيت. لقد تآلفا بسرعة، ثمَّ أسْلما لجسدَيْهما زمام الأمور، وفي غمرة ما يشعران به من شغف واشتباك ولذَّة، لم يجدا الحاجة للتعبير عن ذلك أو التعليق عليه، اعتمدا الصمت صديقاً للمغامرة، وبذلا كلَّ ما في وسعهما لتجنيب الحبِّ جَلَبَةً تُجْفِلُهُ، كأنه عصفور يتقدَّمان منه بحذر ورفق شديدَيْن، حتَّى يظلَّ حيث هو، ولا يطير. ولكنْ، وهما يفعلان ذلك يعرفان على وجه اليقين أنه سيطير لا محالة .. إنها فقط مسألة وقت، كلاهما يحاول تجنُّب هذه اللحظة القاسية بالتزام الهدوء والمشي على رؤوس الأصابع.

قال سليمان: إن القُنْفُذ هو مَنْ سيُفسِد الحكاية، لا بدَّ أن تطرده من وجودكَ .. لقد كان سبباً في لقائكَ مع بريجيت، لكنْ، ليس ضرورياً أن يصير سبباً لكلِّ ما يحدث بينكَ وبينها .. حتَّى «مشروع التحرير» يجب أن تتولَّاه وحدكَ، وتنسى الموضوع .. أمَّا الصمت، فليس مشكلة على الإطلاق، العدوُّ الحقيقي للحُبِّ هو الثرثرة.

كان إبراهيم يأمل أن يُوقِظ بحكايته مع (يَنْسِي) رغبات جديدة لدى سليمان، وعلى رأس هذه الرغبات رغبة الخروج من حيِّ الفتح .. ثمَّ بعد ذلك الرغبة في الغابة. سليمان يعرف الغابة جيِّداً، أمَّا إبراهيم، فلم يعرف منها بمساعدة الشيخ عبد الله سوى ذلك المربَّع الصغير الذي يتحرَّك فيه بصناديق النحل.

ولو عاودت سليمان الرغبة في التردُّد مرَّة أخرى على تلك المساحات الصامتة لصار لهذه القصَّة طعمٌ آخر.

وكأنما ليردَّ على ما يدور في خاطر إبراهيم، قال سليمان إنه بخير في المعزل الذي يوفِّر بغابة الحزام الأخضر وهماً بالغابة، إنه كثيراً ما يلتقي هناك بأسراب حجل أو بثعابين أو سلاحف أو سناجب، وينتظر بفارغ الصبر أن يفاجئَهُ بين الممرَّات الخضراء فهد تائه أو أسد من مخلَّفات العصور الغابرة. كلُّ ما تحتاج إليه يوجد في حيِّ الفتح .. تقول إنه ليس حيَّاً، بل مجرَّد صناديق قبيحة، يجب أن تعرف أن هذه الصناديق حصلت بعد إنجازها في ثمانينيات القرن الماضي على جائزة أغا خان، ليس عن جمالها المعماري، ولكنْ، عن طريقتها الحديثة في الإنجاز، ولو كان عليَّ لوضعت الآغاخان أو ذوي حقوقه في قفص من هذه الأقفاص، ليتفرَّج عليهم السكَّان المكتئبون إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها .. لكنْ، هذه قصَّة أخرى، لا تحتقر هذا الحيَّ، إنه رغم ما يبدو عليه من تواضع، غابة أو بحر أو هما معاً! ..

كلُّ شيء تحتاج إليه موجود في حيِّ الفتح، الأطبَّاء والصيادلة وبائعات الحرشة والبغرير والمَحْلَبات وباعة السمك والفواكه، ولدينا جسر يربط بين الضفَّتَيْن الشَّمالية والجنوبية للحيِّ .. لا أعرف لأيِّ شيء يصلح هذا الجسر، لكنه مناسب جدَّاً، على ما يبدو، لباعة الحشيش والسجائر بالتقسيط، كلُّ شيء موجود في حيِّ الفتح حتَّى الفلسفة، و«القصَّة الضيِّقة»، وليس القصيرة أو القصيرة جدَّاً، تناسباً مع ضيق الشقق .. لكنْ، لا وجود

فيه للبارات ولا للنكت. غريب أمر النكت في هذا الحيِّ، لا أحد يحكي فيه نكتة حتَّى لنفسه، أحياناً يكون الناس المكدَّسون في الحافلات منهمكون في تبادل النكت، لكنْ، ما إن تدخل الحافلة إلى حرم الحيِّ حتَّى يكفَّ الناس عن ذلك .. في نهاية الأمر، يحصل لي أن أفسِّر وقوعي في براثن حيِّ الفتح، بكونه نوعاً من إعادة إنتاج محنة الأصل، هناك شيء لا بدَّ أن يتكرَّر في حياتكَ عدَّة مرَّات، لأنه مرتبط ارتباطاً وثيقاً بما حدث في البدايات. عندما نزلتُ مع أخوالي من الجبل إلى «الفيلاج» كان الشخص الوحيد الذي احتفظ ببهجة الغابة هو

«أمِّي» .. في تجمُّع سكني بارد ومكتئب، وهي من بهجتها الفطرية لم تكن تتوقَّف عن الغناء، ظنَّاً منها أنه جزء لا يُجتزأ من الوجود، كما هو الحال في الغابة مع القطعان أو بعيداً عنها .. والناس هنا كانوا يستحسنون الغناء، ولكنهم يعتقدون أن المرأة تغنِّي لأنها جُنَّت عندما اقتُلعت من مكانها الأصلي .. أمَّا أنا، فكنتُ أبتعد عن الغناء وعن الناس المتجمِّعين للتندُّر به، فأجد نفسي في شيء يشبه حيَّ الفتح، لا ينقصه سوى جائزة الآغاخان!

يتذكَّر إبراهيم أن سليمان اقترح عليه قبل سنوات أن يقوما بزيارة خاطفة إلى «ولماس». وقد فعلا ذلك في يوم ماطر عبر تِيْفَّلْتْ، ثمَّ انعطفا وهما في طريق الخميسات يميناً باتِّجاه المعازيز.

كانت الطريق الثانوية تتلوَّى صاعدة، تخترق الغابة والضباب الكثيف الذي يُغلِّفها، وبدا لإبراهيم وقتها أن اختيار هذا اليوم بطقسه الشتوي يُضفي على الزيارة طابع السرِّية. وعندما وصلا إلى ما يمكن تسميته بوسط المدينة، أي إلى تلك الساحة التي تضمُّ موقف سيَّارات الأجرة وما يشبه السوق، ساق إبراهيم باتِّجاه الشوارع المتفرِّعة عن نقطة البدء هذه، ليجدا ملامح مدينة منبثقة،أضفت بناياتها الرسمية ووكالاتها البنكية وفيلَّات أكابرها على المشهد العامّ مسحة أنيقة، كاد سليمان أن يبتهج لها من قلبه كلِّه. ثمَّ توقَّف إبراهيم، ليعرف من سليمان برنامج الزيارة. تطلَّع سليمان من النافذة التي كان يمسحها براحته، وقال:

- لا شيء، انتهت الزيارة!

هناك عند السفح، يوجد بيتنا القديم، وفي الجانب الآخر من الهضبة توجد المدرسة .. قبل النزول إلى الفيلاج، كنتُ أعيش في خيام أخوالي .. يبدو أن رجلاً من وجهاء العاصمة كان قد عهد إليهم بقطعانه الكبيرة، وتمتيناً للأواصر تزوَّج أختهم الصغرى، ليجعل منها أُمِّي المجنونة، ثمَّ اشترك مع فرنسيِّيْن في إقامة ضيعات «أربور» الشهيرة التي تُنتج تفَّاح وإجاص المنطقة قبل أن يبيع نصيبه لشركائه، ثمَّ يُصفِّي قطعانه، ويختفي. أخوالي جنَوا من سنوات الرعي نصيباً استقرُّوا به في المدينة تجَّاراً للموادِّ الغذائية، أو عُمَّالاً في معامل المياه

المعدنية، وأنا جنيتُ من هذه المغامرة الطائشة طفولة بلا حرَّاس، يلاحقني فيها غناء أُمِّي، ونداء الأطفال الذي لم يكن يتضمَّن أيَّ عداء أو تحقير: «ولْد الحمقا» أتقبَّله كجزء من تلك الخضرة الغامقة التي فتحت فيها عيني .. الكُرِّيشْ، والدْرُو، والدُّوم، وأشجار البلُّوط، خضرة كثيفة دائمة، متَّصلة. لا يضيء عتماتها سوى الأغنام السائمة وبياض أُمِّي ولا شيء عدا ذلك، بعض الأمكنة لا تنجح أبداً في أن تكون أمكنة، تتجمَّع مثل سحاب كثيف في الدواخل، وتروح وتجيء حسب ما تريده الريح.

عاد إبراهيم مرَّات كثيرة إلى هذه الزيارة، لكن سليمان لم يكن يُطاوِعُهُ، لقد أغلق هذا الملفَّ مباشرة بعد عودتهما في ذلك اليوم الماطر، وها هو الآن يطمع في تحريك الخيوط مرَّة أخرى، وإعادة ربط بعضها ببعض، ماذا سيجني من ذلك؟ ربَّما لا شيء، ولكنْ، لديه إحساس بأنه لم يتوغَّل في شيء حتَّى الآن، فهو مع النحل يقف في مدخل الغابة، ومع (يَنْسِي) يقف في مدخل القصَّة .. فإذا نجح في إستعادة سليمان إلى إغراء هذه الرحلة، فربَّما يستطيع مُغادرة البدايات، والتخلُّص نهائياً من مخاطر العودة إلى الوراء.

استرعى انتباه سليمان وهو يستمع إلى قصَّة إبراهيم مع (يَنْسِي) نوعٌ من التردُّد في لهجة الحكي، كأن إبراهيم في الوقت الذي يحكي فيه ما جرى يبثُّ قليلاً من الشكِّ في ما يحكي .. أو يقدِّمه بنوع من «الحشمة»، كما لو يكون قد اقترف بما جرى له شيئاً لا ينبغي له، أو كما لو أن تصديقه لما جرى رغم ما فيه من خوارق، وإن لم يكن عيباً في السرد، فإنه عيبٌ في السارد. وأراد سليمان أن يضع حدَّاً لهذا التردُّد وبصفة حاسمة، فتبنَّى الحكاية كلَّها، وقال لإبراهيم إنه مستعدٌّ للمشاركة في عملية تحرير (يَنْسِي)، ينبغي أن نعطي لما جرى بُعداً فلسفياً يليق به، منذ عقود لم يحدث في البلاد شيء بهذه القوَّة، هل تتصوَّر الأمر مجرَّد طُرفة للتسلية؟ إنه انقلاب خطير في نواميس الحياة. الغابةُ مشتْ. على اعتبار أن الغابة ليست فقط أشجارها التي تربط الأرض بالسماء، ولكنْ، أيضاً أرواحها. تلك الحيوات كلُّها التي لا معنى للغابة بدونها، ولا معنى لها إلَّا في الغابة .. الفهود والخنازير البرِّية لو تحوَّلت إلى كائنات

حضرية، لأصبحت حيوانات أخرى، وحوشاً ضالّة، مثل كلاب الأسواق .. تنام جنب أضواء المرور، وتقضي حاجاتها على الأرصفة، وتتناسل جنب المكتبات ومحلَّات البيتزا. لا معنى للقُنْفُذ خارج الغابة إلَّا أن يتحوَّل إلى كائن إلكتروني، نوعٍ من البوكيمون الشائك، وهذا الأخير، طبعاً، لا يمكن أن ينشب أنيابه في أفعى، وينكمش بكلِّ ما أُوتي من قوَّة، ليتركها تنزف حتَّى تموت، ثمَّ يأكلها كما يأكل حلزوناً بريئاً، هل تتصوَّر غابة تُصاب بالشكيزوفرينيا؟ الأشجار في وادٍ، والأرواح في وادٍ آخر، هذا ربَّما ما نشهد إرهاصاته الأولى، وإذا حصل، فإن أحداً لن يعرف ماذا سيترتَّب عن ذلك، هل ستموت الغابة مثلاً، ونصبح شعوباً بدون أشجار أم ستطوِّر لحسابها الخاصِّ أرواحاً جديدة، فتظهر أصناف وحشية مدهشة، أو تعود الوحوش المنقرضة، أو تتناسل وحوش ذكية مثل الهواتف النقَّالة؟! وماذا ستصبح عليه الوحوش التي انفصلت عن الغابة؟ هل تصبح داجنة، حيوانات مصاحبة تتثاءب في صالونات حيِّ الرياض؟!

وقفا إذنْ جنباً إلى جنب قرب الدرَّاجة الثابتة، في رواق الآلات الرياضية... إبراهيم يحمل كيساً من القماش، أحضره خصِّيصاً لمهمَّة التحرير، وسليمان يحمل في وجهه تصميم مَنْ يُقبل على اقتحام عسكري. وقفا في الساعة التي اعتبراها مناسبة تماماً للعملية، أي قبيل الإغلاق .. ثمَّ دوَّت صفَّارة الإغلاق ثلاث مرَّات، ولم يخرج (يَنْسِي) .. وقرَّرا أن يعودا في اليوم التالي، ثمَّ في أيَّام كثيرة تلتْهُ، بالكيس نفسه، وبالملامح الصارمة نفسها. ولم يخرج (يَنْسِي). وخطرت لهما فكرة الاختفاء وراء المخازن، وقضاء ليلة كاملة هناك، ليضبطا (يَنْسِي) رغم أنفه. وفعلا ذلك بسذاجة، كادا يدفعان ثمنها غالياً، ولم يخرج (يَنْسِي).

وفي المقهى الذي جلسا فيه عقب تحريرهما من قِبَل أمن الأسواق، جلسا صامتَيْن لفترة طويلة قبل أن يقول سليمان وقد بدت عليه شيخوخة مفاجِئة بسبب تلك الليلة السيِّئة:

- لقد أنقَذْنَا (يَنْسِي) من الحكاية، كان سيبقى سجيناً لما جرى؟ ولما سيجري، الآن هو حُرٌّ طليق في المجهول .. هذه أفضل طريقة للإبقاء عليه بيننا، ولكنْ،

ليس معنا .. إنه «يهب نفسه وهو ينسحب» بتعبير صديقنا هايدجر.

سأل إبراهيم فجأة:

- ألستَ جائعاً؟

قال سليمان:

- بل أموت جوعاً! وعلى كلِّ حال، وبتعبير صديقنا «فيلسوف الغابة السوداء»:

«ما إن يصل الإنسان إلى الحياة حتَّى يصير شيخاً بما يكفي لِيُقبِلَ على الأكل»!

-11-

دعا سليمان كلاً من بريجيت وإبراهيم إلى غداء ببيته في حيِّ الفتح، كان يريد التعرُّف على بريجيت، ووجد من المناسب أن يعرِّفها على زوجته وبنتَيْه اللتَيْن عادتا بمناسبة عطلة الصيف من لندن، حيث تدرسان. كان غداء لطيفاً، انصبَّ فيه الاهتمام على الأطباق الشهية التي أعدَّتْها أُمُّ كلثوم أستاذة الأدب العربي، الفاسية الأصل، والتي رفضت رفضاً باتَّاً أن تغادر وظيفة التعليم ضمن مشروع «المغادرة الطوعية»، رغم الإغراء المالي المصاحب لها، معتبرة أن التعليم ليس وظيفة ندخلها ونغادرها، بل نوعاً من الديانة، نعتنقها شغفاً واعتقاداً، ولا نغادرها طوعاً ولا كرهاً، بل نظلُّ مرتبطين بها حتَّى نموت .. وهذه السيِّدة التي تذهب حتَّى اليوم إلى الصفِّ سعيدة، وتعود منه سعيدة، والتي يقول عنها سليمان إنها الجنَّة التي استحقَّها على هذه الأرض، هي التي وضعت بريجيت لأوَّل مرَّة في حياتها أمام تعريف دقيق للسعادة. لم تقل ذلك، ولكنها أوحت به بدفق من المشاعر الطيِّبة تجاه الأشياء والأشخاص جعل بريجيت تدرك فجأة أن السعادة هي مصادقة العالم، اعتبار الأشياء والوقائع والأشخاص والتبدُّلات كلّها عناصر موجودة لحسابها الخاصِّ، وليس من أجل شقاء الإنسان أو سعادته، وعلينا أن نستقبلها باستعداد دائم، لاعتبارها مجرَّد لقاءات عابرة، ليس من الضروري أن تستقرَّ في حيواتنا حتَّى الرمق الأخير.

خلال هذا اللقاء احتفت أُمُّ كلثوم بمهنة البيطرة التي تمارسها بريجيت بشغف كبير، وكرَّرت مراراً أنها أقرب الحِرَف إلى حِرْفة الأدب، لأنها تهتمُّ بأوجاع كائنات لا تتكلَّم، وعلى الطبيب أن يبني حولها متخيَّلاً علمياً وعاطفياً دائم التحوُّل. وفرحت بريجيت كثيراً بهذا القول، لأنها كانت تؤمن به، وتتضايق من الترتيب الأدنى الذي يحتلُّه الطبُّ البيطري قياساً للطبِّ الإنساني في المعتقد العامِّ، والذي غالباً ما يعتبر الإقبال على هذا التخصُّص اضطراراً بسبب الفشل في الالتحاق بكلِّية الطبِّ «الحقيقي». بينما تعتقد بريجيت أن البيطرة تحتاج إلى شغف خاصٍّ، وإلى استعداد روحي، يجعلكَ قريباً من أسرار الخالق.

لم تكن المأدبة فخمة واستعراضية كما هي عادة المآدب المغربية التي ابتكرت قاعدة حمقاء أن تتشكَّل وجوباً من لحوم تمشي وتطير وتسبح. كانت فقط أطباقاً صغيرة من سمك وخضروات وبقُول وقطاني، كلُّها معمولة بتلك الطريقة المدينية الدقيقة التي تحتفي بالمادَّة أوَّلاً، ثمَّ تعكف على تثمينها «بالصنعة»، وإذا كان الأكل قد استغرق وقتاً طويلاً، فليس لأن الأطباق كانت تتالى بعجرفتها الكمِّية وادِّعاءتها الصارخة، ولكنْ، لأن «التذوُّق» كانت يستدعي الحديث والصمت والاستعانة بالذاكرة، وهذا الأمر كلُّه كان متيسِّراً، لأن للأطباق أسراراً، وحولها تاريخ مشترك، يحتاج إلى تحريك، «فالرَّجلة» التي هي غير «البقولة الشتوية» لها ارتباط بالصيف، وبمناطق السقي، وهي، مع العدس، أكلة، ووحدها أكلة مختلفة - وأُمُّ كلثوم احتفظت من يوم كانت تذهب مع جدَّتها إلى «الرصيف» بفاس بعادة البحث في باقات الرَّجلة عن تلك التي لم تظهر تويجات أزهارها بعد، لأنها تكون ليِّنة، وعلى «طيبة الحموضة» كما تقول جدَّتها .. وفي النهاية، فإن هذه الأكلة وغيرها ممَّا حفلت به مائدة أُمُّ كلثوم تستطيع أن تكون نموذجاً لما ترسَّخ في ثقافة مطبخ المُدُن العتيقة، فهو مزيج من أكل الفقراء والأغنياء، ربَّما لأن الفوارق بين الناس لم تكن شاسعة كما هي اليوم، العدس بالرَّجلة يوجد في المائدتَيْن، وقد يزيد عليه الغني قطعاً من «الخليع»، وخارج اليومي المعتاد، فإن الفوارق تحطُّ رحالها عندما يتعلَّق الأمر بولائم الاستعراض والفخفخة ..

اكتشفت بريجيت ثقافة وحساسية البنتَيْن صفاء ونهلة، فرغم أنهما كانتا مشبعتَيْن بثقافتهما الأنجلوساكسونية، وبتجربتهما الخاصَّة في المهجر، فإنهما كانتا قريبتَيْن جدَّاً من أُمِّهما ومُعْتَنِيَتَيْنِ كثيراً بالوالد الفيلسوف، صفاء تتمنَّى لو يتجرَّأ على الكتابة، ونهلة تقول إن المواهب العظيمة عادة ما تُعلن عن نفسها متأخِّرة، ولكنها تضيف إن إيقاظ

الموهبة يستدعي الإفلات من الأمكنة العقيمة، لا بدَّ أن تأتي إلى لندن، وتتسكَّع بين أزقَّتها ومطاعمها وملاهيها وأقبيتها التحتية، أن تُفاجأ بالأصوات والموسيقى والوجوه وأنتَ تمشي، كأنها جاءت خصِّيصاً من أجلكَ، في هذه البيئة المفعمة بالحرِّية والدهشة والفضول والجرأة والغرابة، حتَّى لو كانت

موهبتكَ تحت أطنان من الأتربة، فإنها ستمتدُّ إلى السطح كلسان من لهب .. فكيف إذا كانت على مَسَامِّ جلدكَ؟! هل تتصوَّر أن يحدث لكَ هذا في حيِّ الفتح؟!

يضحك سليمان من هذا الحماس «الساذج»، ويقول إن الأمر لا علاقة له بالأمكنة، الأبكم أبكم حيثما وضَعْتَهُ، والإبداع كلَّما كان في منأى عن تشويش الأمكنة الثرثارة، كان أقرب إلى جوهر الأشياء. ثمَّ استغرق في مديح «حيِّ الفتح» رياضته المفضَّلة عندما يريد أن يفلت من حصار الأسئلة. إنه ليس مكاناً لقبيلة، ولا لسلالة عريقة، ولا لهجرة، إنه تعمير خالص، حاجة حجرية لجدران وأبواب ونوافذ، ظاهرياً لإيواء الموظَّفين المتوسِّطين والأساتذة والمعلِّمين الذين تحتاجهم المدينة، ولا تحبُّهم .. ظاهرياً فقط، أمَّا في العمق، فلإعطاء هوية أقلّ عنفاً وتمرُّداً للهامش، أو بناء «مركز للهوامش» يكون نموذجاً للهندسة المحايدة، القائمة على المربَّع والخطِّ المستقيم والدائرة، التنظيم في مواجهة العشوائية، الوضوح في تضادٍّ مع الغموض و«البناء السرِّي» هندسة لا تبعثرها ألغاز الأصول والشرعية التائهة، كما في يعقوب المنصور والمعاضيد ودوَّار الدوم وقرية أولاد موسى ودوَّار الشيخ المفضل وسوق الكلب، وما إلى ذلك من بؤر الهوامش العشوائية التي صارت مُدُناً رغم أنف البداوة ورغم أنف المدينية دون أن تفقد براكينها النائمة. «حيُّ الفتح» هو أوَّل حيٍّ بُني على السلالم من 7 إلى 11 في ملجأ الوظيفة العمومية. هنا يكفي أن تخرج من بيتكَ، لتدرك أنكَ لن تخرج أبداً. المكان الفاتن، مكان يأكل منكَ، يلتهم طاقتكَ كلَّها، يطرد من خيالكَ كلَّ مكان آخر .. أمَّا مكان مثل هذا، فإنه يتركك حُرَّاً، تحبُّ ما تشاء من أمكنة حقيقية أو افتراضية، يأسركَ بلا قيود وبلا أسلاك شائكة، فقط لأنه يجعل العجز عن الهرب جزءاً من جسدكَ...

قالت نهلة:

- اكتبْ كتاباً عن حيِّ الفتح. لا أحد يمكن أن يفهم اللاَّمكان مثلكَ .. ثمَّ إنكَ تعرف كيف تضع كلمات على الأشياء. أليس هذا بالذات هو دور الكتابة؟

قالت بريجيت بلهجة مَنْ يفضح سرَّاً:

- إبراهيم يكتب عن تجربته في الغابة!

احتجَّ إبراهيم على إفشاء هذا السرِّ، وقلَّل من شأنه:

- لا كتابَ على الإطلاق، كلُّ ما هنالك أنني أُسجِّل ما يحدث لي في الغابة، ليسهل عليَّ أن أفهم بعض الأشياء. ثمَّ لا تنسَوا أنني، كما تقولون، أعيش تجربة قطيعة، والكتابة هي نوع من التواصل يُفسِد القطيعة...

جرى بعد ذلك حديث طويل عن القطيعة، هل هي حاجة فردية أم جماعية؟ هل هو تحوُّل بهيج أم مأساوي؟ هل هو انتقال من الشيء إلى ضدِّه أم «تجريب» متحايل» للتردُّد بينهما؟ .. ثمَّ بطريقة أقرب إلى الواقعية، هل «الغابة» بالنسبة إلى إبراهيم هي، فعلاً، قطيعة أم مجرَّد لُجوء عابر، ريثما يتأتَّى قبول انهيار المشروع الآخر؟ وهل اختيار تربية النحل هو اختيار لمهنة جديدة، تحلُّ محلَّ مهنة «البنكي» أم هو اختيار شكلي لمصاحبة التحوُّل؟! وفي هذا الحديث، كان إبراهيم يشعر بسوء فهم مؤسف، حتَّى عند سليمان الذي ينتظر منه قدرة أكبر على التقاط الجوهري في هذا الذي يُسمُّونه القطيعة، إذ مهما يكن، فإنه ليس محبطاً، يهرب من المدينة التي خذلتْهُ، ليرتميَ في أحضان الطبيعة الأُمِّ، طلباً

للمواساة أو سعياً وراء اندمال الجرح. إنه ليس مجروحاً ولا يائساً، بل فقط مشبعاً برغبة دفينة أن يذهب إلى شيء بديهي، مسجَّل في ذاكرته وفي جسده، وربَّما في جِيناته أيضاً، شيء مطابق تماماً لحاجاته المادِّية والروحية، كان يمكن لو تفطَّن للأمر، أن يذهب إلى هذا الشيء البديهي، منذ البداية، بدون لفٍّ ولا دوران، ولكنه توهَّم أن الانفصال عن هذه الرغبة هو الوسيلة الوحيدة للانتصار على تلك «البدائية المهينة» التي يضعنا فيها الفقر والأحياء اللقيطة، أي «الارتقاء» المستمرّ، من قعر الهامش إلى الهامش، ومن الهامش إلى المركز، ومن المركز إلى مركز المركز، من الوضاعة إلى الوجاهة، من الحاجة إلى الترف، ومن العجز إلى القدرة أو كما لخَّص ذلك

مدير البنك في حفل وداعه عندما تحدَّث عنه كإنسان عصامي، قطع مساره الشخصي والمهني كلَّه «من نجاح إلى نجاح».

ربَّما تكون صفاء وحدها هي التي التقطت في لحظة حدس خاطفة أن الأمر بالنسبة إلى إبراهيم لا يتعلَّق بعودة إلى النبع، بل فقط بتأخُّر في الذهاب إليه. وعندما قالت له ذلك فرح كثيراً، وقال إن أروع ما حصل في هذا الغداء هو الميلاد السحري لهذه العبارة.

وأخيراً قالت أُمُّ كلثوم رأيها في الموضوع، أنتَ الآن في منعطف جديد، يا إبراهيم، ستعود الأمور إلى طبيعتها، أنتَ إلى المدينة، والغابة إلى أصحابها .. إنها قصَّة حبٍّ ما تعيشه اليوم، إلَّا أن أكون واهمة تماماً أو تكونا ممَوِّهَيْن خطيرَيْن، والحبُّ هو المدينة، لا تقلْ لي إنكَ ستصنع كوخاً لبريجيت بين أشجار البلُّوط، وتنغمر في حياة القطف والصيد وارتداء الجلود، وأن تعمل لنا فيها حيَّ بن يقظان .. الحبُّ هو الشارع والواجهات والمطاعم والهاتف الذي يرنُّ بعدد نبضات القلب .. الحبُّ هو المدينة، والمدينة هي الحبُّ! هل ترى شيئاً آخر، يا سليمان؟

قال سليمان وسط الضحك وجلبة المغادرة:

- أرى أنكِ خبيرة، لا يُشقُّ لها غبار!

في الممشى الجديد الذي فُتح على الكورنيش، والذي اقترحت بريجيت أن يتمشَّيا فيه قليلاً، ويستمتعا بمشهد المحيط، كان الزحام شديداً، جحافل من الناس انتشرت حول الحدائق الجديدة والمسابح العظمى، أين كان هؤلاء كلُّهم قبل ميلاد هذه الأماكن؟ هل يُعقَل أن تكون الأماكن قد ولدتْهم، فتورَّطت فيهم، أو يكونوا قد قضوا هذه السنوات كلَّها سجناء، كلُّ واحد في قُمْقُمِهِ، حتَّى جاء مَنْ حطَّم القُمْقُمَ بخطوة جبَّارة؟! كانت بريجيت تريد أن تطلَّ على المسابح التي فُتحت حديثاً جنباً إلى جنب مع المحيط الهادر، بمائه الخفيف المالح نفسه، فجاهد إبراهيم لتحمُّل الدوخة التي تُسبِّبها له الجموع

الحاشدة، وتقدَّما عبر المسالك حتَّى أشرفا على البرك الهائلة التي لم تعد برك ماء، بل حُفَراً تغلي بالناس. قال إبراهيم:

- كأنما فُتح سجن كبير، ليتدفَّق على المسابح!

فقالت بريجيت: إن مثل هذه الأماكن هي التي تُغيِّر المدينة، سيقتسم الناس هُنا أشياء كثيرة، وستنشأ من ذلك حكايات، وتُنْسَج ذاكرة وأخيلة، وستتغيَّر الحياة كثيراً تبعاً لذلك، انظرْ، لقد بدأ لباس السباحة يعود تدريجياً على يد نساء، يُشجِّعهنَّ الزحام على نبذ فجاجة البوركيني. في هذه الأثناء، لم يكن إبراهيم مهتمَّاً بما يعنيه ميلاد هذه الأمكنة في حياة الناس، بقَدْر ما كان مأخوذاً بالأشكال التي استقرَّت في مجال، كان خاوياً وفسيحاً قبل أسابيع، وأصبح مزدحماً وضيِّقاً بين عشية وضحاها. والأشكال هي تلك المساحات والمسالك والبقع الخضراء، وهي، بالخصوص، صفوف النمل المتقاطعة، والتدفُّق الرتيب الذي تصنعه عبر الممشى الموازي للطريق الشاطئية، وعبر المسالك التي تنزل إلى المسابح، نزول وصعود لا ينتهيان، استسلام آليٌّ لمنطق التدفُّق، ثمَّ استسلام آليٌّ للبقاء داخل الحركة، لا أحد يقرِّر في نفسه ما يشاء، إنه يمشي، لأن منطق التدفُّق يقتضي ذلك،

وسيجري ويسبح ويصرخ قبل أن يُلقيَ بنفسه في صفوف العودة نَمْلَةً بين جحافل النمل .. كانت هذه الحركة بالنسبة إلى إبراهيم مسلِّية ومُفزِعة في آنٍ واحد، وكان سيقول ذلك لبريجيت عندما سألتْه وهما يعودان للسيَّارة التي تركاها في مدخل حيِّ الفتح:

- هل سيكون لنا كوخ في الغابة كما توقَّعت أُمُّ كلثوم؟

قال إبراهيم، إن الكوخ فكرة سطحية، حتَّى الغابة ستضحك منها. لكنَّ فكرة بناء بيت بسيط بجوار شجرة الفِلِّين العظيمة حلم يراوده منذ فترة، وتحدَّث بشأنه مع الشيخ عبد الله، فأشار عليه أن يبدأ أوَّلاً بحَفْر بئر في أرضه. إذا وجَدْتَ الماء، قال الشيخ، فإن كُلَّ شيء سيبني نفسَه بنفسِه!

تذكّر إبراهيم أن الشيخ عبد الله حدَّثه عن تجمُّع لحفَّاري الآبار، يوجد في سيدي علال البحراوي جنب المسجد، يتشكَّل هناك خلال شهور الصيف من رجال يأتون من نواحي ورزازات، للقيام بهذا العمل الموسمي قبل العودة إلى قراهم البعيدة أو الموت تحت انجرافات مفاجئة. اقترح إبراهيم أن يذهبا إلى هناك، فوافقت بريجيت متحمِّسة، وبعد نحو السَّاعة، كانا يتحدَّثان إلى ثلاثة أشخاص من منطقة تازارين ناحية ورزازات، داود، لحسن، وسْعِيد، داود أكبرهم ورئيسهم، كلُّهم يتعثَّرون في عربية، يجتهدون في جعلها مفهومة، ويضحكون كلَّما نجحوا في إنهاء جملة بلا حوادث قاتلة. عندما عرفوا المنطقة التي سيتولُّون فيها حفر البئر، قال داود إن الماء موجود هناك لا محالة، ولكنْ، قبل عشر سنوات كنَّا نجده على بُعْد عشرين متراً، الآن ستكون محظوظاً إذا وجدتَهُ على بُعْد خمسين أو ستِّين متراً، ولا بدَّ أن نبني البئر ونحن نحفرها، حتَّى لا تنهدم علينا، فلا تجد فيها سوى عظامنا البالية .. تلك المنطقة كانت فيها بئر واحدة «في الشطِّ» الآن فيها أزيد من مائة بئر .. الأودية والعيون كلُّها جفَّت بسبب الضخِّ اليومي والحَفْر المتواصل.

ثمَّ حصل الاتِّفاق سريعاً. غداً نبدأ الحفر. قال داود. في أثناء عودتهما، شعر إبراهيم بأنه مقبِل على خطوة حاسمة في علاقته بتلك الأرض، وفي الآن نفسه، فإن نوعاً من عدم الرضى قد داهمه وهو يفكِّر أنه سيلتحق عملياً بعصابة «المجفِّفين». أي بكلِّ أولئك الذين يهجمون على هذه الأرياف المطمئنَّة، وينشبون في جسدها الهشِّ مضخَّاتهم حتَّى يملأ الطين أنابيبها، ثمَّ ينتقلون إلى أرياف أخرى، فعلوا ذلك ببن سليمان وتمارة وبوزنيقة، وها هم حطُّوا الرحال بمقام الطَّلَبَة، ولغزاونة، والقطبيِّيْن، ولخزازنة... غربال ضخم ينبثق منه الماء ألسنة مندفعة، ثمَّ ينسحب تدريجياً حتَّى يغور.

قال إبراهيم:

- لا أريد أن يأتي عليَّ يوم تجفُّ فيه البئر .. أُفضِّل أن أموت قبل ذلك.

وقد وَلَّدت هذه الجملة شيئاً ثقيلاً في طريق العودة، ربَّما زاد من كثافته زحف العتمات الأولى لما بعد الغروب في تلك الطريق المزدوجة التي تربط بين

سيدي علال البحراوي وسلا، والتي كان إنجازها سبباً في إعدام أعدادٍ كثيرة من أشجار الفِلِّين العتيقة.

قالت بريجيت إنها تحبُّ هذه الطريق .. منذ كانت طريقاً وطنية، فحدَّثها إبراهيم عن المرَّة الأولى التي مرَّ فيها من هذه الطريق على متن حافلة متداعية. كان ذلك في صباح باكرٍ من أيَّام أكتوبر الذي توجَّه فيه إلى العاصمة، ليبدأ فيها مشواره الجامعي، وسيظلُّ هذا الخطُّ المستقيم بين الأشجار أعذب شيء يقفز إلى ذهنه كلَّما أقدم على سَفَر.

قبل أن يفترقا في ذلك اليوم المليء .. تذكَّر إبراهيم أنه سمع في إذاعة فرنسا الدولية، وهو يغادر شُقَّته صباحاً، أن البشرية عرفت منعطفاً خطيراً في وجودها هذا اليوم، 29 يوليوز (تمُّوز) 2019، فلأوَّل مرَّة منذ ظهور الإنسان على ظهر الكوكب، التهمت البشرية

كلَّ ما تُنتجه الأرض سنوياً في أقلّ من سبعة أشهر، وسيكون عليها أن تستدين من العام الموالي ما يكفيها لتغطية خمسة أشهر من استهلاكها، أمَّا في نهاية أربعينيات هذا القرن، فستحتاج البشرية، إذا استمرَّت على وتيرتها في الاستهلاك، إلى كوكب يعادل الأرض لتغطية طلباتها!

مساءً، وهو يتابع برنامجاً حول الموضوع في قناة أجنبية، استمع إلى عالم يقول بغضب: إن خطأ الإنسان الفادح هو أنه اعتبر الأرض مجرَّد موارد .. بينما هي كائن حيٌّ، وككلِّ كائن حيٍّ، فإنها مُعرَّضة للقتل. وعندما كان إبراهيم يتهيَّأ للنوم، قال في نفسه: ترى ماذا سيقول (يَنْسِي) لو علم بالأمر؟!

ولكنَّ (يَنْسِي) لم يعرف شيئاً عن الموضوع، ولم يقل شيئاً .. كان قد اختفى في مجاهل الأسواق، وفي الوقت الذي كان فيه إبراهيم واقفاً جنب بريجيت في المكان الذي ستبدأ فيه رحلة الحفر باتِّجاه الماء، يراقب تلك الحركة القلقة التي انخرط فيها داود وفريقه بمصاحبة من الشيخ عبد الله، والتي أدَّت من بين ما أدَّت إليه إلى خمود الجَدِي الذبيح بعد إزهاق روحه قرباناً لأصحاب المكان، وإلى صوت الضربة الأولى للفأس في النقطة التي ستصبح دائرة تتقدَّم في جوف الأرض، إلى أن تنبثق مرآة الماء من الفتحة، في هذا الوقت إذنْ، كان (يَنْسِي) يبذل جهوداً جبَّارة، ليُساعد رفيقته على بناء عشٍّ حريري، يستقبلان فيه صغارهما .. إنهم قادمون بعد بضعة أيَّام، و(يَنْسِي) قَلِق جدَّاً، لأنه يعرف كم سيكون صعباً أن يدبِّر حياة خمسة أو ستَّة قنافذ في هذا المكان الذي تحفُّ به المخاطر. ولو كان عليه لانتقل إلى قصر الجنرال، أو إلى سياج الصَّبَّار المجاور، أو إلى فيلَّا فسيحة في حيِّ الرياض، وعند ذلك ربَّما يتمكَّن من تربية صغاره في جوٍّ أقلّ توتُّراً، ولكن رفيقته رفضت رفضاً قاطعاً أن يخرج من الأسواق، ليس فقط بسبب المربَّعات المضغوطة من غذاء الكلاب والقطط التي أدمنت عليها، وأصبحت لا تتصوَّر الحياة بدونها، ولكنْ، لأنها جرَّبت بيوت الأكابر وحدائقهم، وانتهت إلى الاعتقاد بأن وفرة الحلزون اللذيذ هناك لا تساوي شيئاً أمام الرعب اليومي الذي تتسبَّب في الكلاب عندما يُخرجها السيِّد أو السيِّدة للفسحة، فتتحوَّل إلى نمور شرسة، بمجرَّد ما تشمُّ رائحة قُنْفُذ مندسٍّ بين الأعشاب العالية.

في بداية الحَفْر، كان إبراهيم كلَّما وصل صباحاً إلى المكان عينه، وصله الصوت القويُّ الحادُّ الذي يصاحب ضربة الفأس، أهَّهْ، أحَّه، أهَّهْ، أحَّه، يَسْمعه قبل أن ينزل من السيَّارة، داود ولحسن يتناوبان على الصوت وعلى ضربة الفأس، وسْعِيدْ يَجُرُّ الحبل، ليُخرِجَ الأحجار والأتربة، ثمَّ صار لا يسمعه حتَّى ينزل من السيَّارة، ثمَّ حتَّى يكون على فُوَّهَة البئر. وذات يوم وقد مرَّ شهران

على الحَفْر والبناء، وجدهم عند وصوله جالسين جميعاً قرب الجبل الصغير الذي أخرجوه من أحشاء الأرض... وقال داود مبتسماً:

- مبروك، الماء خرج!

وفهم إبراهيم أن الماء كان قوياً، فطردهما من البئر حتَّى إنهما تركا أدوات الحَفْر، وتشبَّثا بالحبل حتَّى انتشلهما سْعِيد.

«تقول إن الماء ما يزال بعيداً. ليومَيْن متتاليَيْن، كنتَ تُخرِج تراباً مشبعاً بالماء، وتقول إنه ما يزال بعيداً، ثمَّ وقعتَ على صخرة، حفرتَ فيها أيَّاماً طويلةً وسط الخوف والغبار، وكنتَ تقول إن الصخرة لا تُبشِّر بخير، وها هو الماء كاد يذهب بكَ. قال داود.

- شيء لله أرجال البلاد!

ثمَّ ضحكوا جميعهم، مثل أطفال يُبهِجُهم الماء، وتُثيرهم الأشياء الغامضة، وأنزل سْعِيد دلواً، غرف به من ماء البئر، ثمَّ صبَّ فيه في كأس، قدَّمها لإبراهيم بحركة سعيدة .. الماء ليس صافياً تماماً، ولكنه عذب، وطري من جوف الأرض إلى الكأس، لم تغيِّره الأنابيب، ولم يأسن في الخَزَّنات، وقد ذاقه إبراهيم بتحفُّظ، وشربه الشيخ عبد الله بجرعات كبيرة قبل أن يُصدِر حُكْمه بتقديم ذبيحة للماء. أمَّا داود، فقد طلب مضخَّة لإتمام الحَفْر، إذ لا بدَّ من حَفْر أمتار أخرى، ليتجمَّع فيها الماء، والمضخَّة لا بدَّ أن تكون من نوع «ليستر» البريطانية الصنع، ستجد في مكان منها رمزاً لا تُخطِئه العين: مثلَّثان: واحد أحمر والآخر أخضر، يفصل بينهما مثلَّثان أبيضان، إذا ربطتَ بين المثلَّثات ستحصل على مستطيل كامل .. هل تريد أن نحفر أنفاقاً لتخزين مَاء أوفرَ؟ أنتَ الذي تعرف، إذا أردتَ بئراً لا تنضب أبداً، عليكَ بالأنفاق، وإذا أردتَها على قَدِّ الحال نكتفي بالتعميق .. وهل التعميق سهل؟ سنحفر لشهر كامل

على الأقلّ، وفي قلب صخرة لا نعرف حدودها، وكلُّ شيء على الله، ولو عليَّ نبدأ بنفق صغير أعلى قليلاً من مستوى الماء، سنستعمله لإتمام الأشغال ..

ولكنْ، اليوم سيكون يوم راحة، وأضاف الشيخ: وذبيحة! وقام إبراهيم، وأحضر من السيَّارة طبق حلوى، كأنه أعدَّه للمناسبة، والواقع أنه مرَّ من مرجان، فاستبدَّ به الفضول، ليستطلع أحوال (يَنْسِي)، ولَمَّا لم يظفر بشيء مرَّ على جناح الحلويات، وابتاع منها تشكيلة، توقَّع أن تُدهِش الشيخ عبد الله. وقد اندهش فعلاً، وعبَّر عن استغرابه ممَّا يبذله هؤلاء الحمقى من جهد لابتكار أشكال وتركيبات عجيبة لقطع من الحلوى، يعرفون أن التهاماً سريعاً سيطمس معالمها كلَّها.

خلال أيَّام طويلة، سيصل إبراهيم كلّ يوم صباحاً، ليجد المكان آخذاً في التحوُّل، بجرعات صغيرة، ولكنها مؤكَّدة. لقد حَفَرَ الماء الذي يضخُّونه للاستمرار في الحفر أخدوداً بين البئر وشجرة الفِلِّين، ثمَّ صار الأخدود جدولاً، يجري به الماء حتَّى يصل إلى الجزء الأسفل من مربَّع الميموزا، حيث كوَّن بركة صغيرة سرعان ما أصبحت مكوِّناً دائماً من مكوِّنات الغابة، تقصده القطعان والنحل والطيور لإرواء ظمئها، أو فقط للتغلُّب على قيظ الظهيرة. كثيراً ما يصل إبراهيم، فيجد المكان ممتلئاً بهدير المضخَّة، والماءَ مندفعاً يصبُّ في الجدول. وعندما يتوقَّف الهدير، يستمرُّ صوت الماء داخل البئر وخارجها، ثمَّ يرى من حين لآخر حمولة من الأحجار، تصعد من أحشاء البئر، أحجار هشَّة صفراء وبُنِّية، يُلقيها أحد الحفَّارين في التلَّة الصغيرة التي تكوَّنت من الحفر .. منذ فترة طويلة، لم يعد يسمع صوت الفؤوس والمعاول، حتَّى التواصل بين الشخص الذي يشتغل خارج البئر والشخصَيْن اللذَيْن يشتغلان في الداخل لم يعد بالكلام والصراخ، بل فقط بحركات شدٍّ وجذبٍ على الحبل .. مرَّة كان داود في البئر، وعندما حان وقت العصر، أذَّن لصلاتها، بتلك الرنَّة الأمازيغية التي تضغط على الحروف مخافة أن تهرب من اللسان .. فاقشعرَّ جلد إبراهيم .. كان الأمر شبيهاً بالأذان من صومعة مقلوبة، مدفونة في أحشاء الأرض، وكان الأذان أكثر من نداء للصلاة، كان أشبه ما يكون بنشيد لتمجيد الكون. إن الأرض تتكلَّم معنا من قلبها، تريدنا أن نُنصت فحسب، أن لا نهرول للوضوء، ولا نركض لأقرب مسجد، ولأيِّ شيء سينفع هذا الطقس الذي لا يجري إلَّا على السطح، أن نُنصت، وأن نُرسِلَ عبر سكينة الصوت، جوارحنا كلَّها إلى الداخل، داود يؤدِّي صلاته بين الماء والطين، كأنه يستقبل الحياة في

لحظات ميلادها الأولى، ثمَّ ينزل من النفق الفوقي إلى القعر، حيث سيواصل الحفر، وسْعيد سيملأ الدلاء بالحجارة، ولحسن سيجذب عندما يتحرَّك الحبل في يده إشعاراً بامتلاء الدلو، حتَّى إذا أصبح الماء عائقاً للحفر تحرَّك الحبل «ثلاث مرَّات في يد لحسن» إشعاراً له بأن عليه أن يُشغل المضخَّة، ساعات من الصمت بين الماء والماء، بين السماء والأرض، بين السطح والعمق حتَّى يحين وقت الصعود .. وما أكثر ما اهتزَّ إبراهيم وهو يرى الرجلَيْن يخرجان من البئر، أزرقَيْن من البرد والبلل .. فيشيح بوجهه، حتَّى ينسحبا وراء التلَّة الصفراء، ليغتسلا، وليستبدلا بأسْمَالِها المبتلة ألبسة يابسة دافئة.. ثمَّ ليجلسا إلى الشاي الذي أعدَّه الشيخ عبد الله، تَغمُرُهُما سكينة عمل ربَّاني، لا يفهم كُنهه إلَّا الذين أطلعتْهم الأرض على بعض أسرارها، يبتسمان بالقَدْر الذي يسمح به تعب الحفَّارين، ويسمح به الرضى بالمقسوم، ويحتسيان الشاي، برشفات متلاحقة، كأنما يعتذران بها عن الانخراط فوراً في الكلام.

ذات مرَّة جاء سليمان مع إبراهيم، ورأى مقاطع من هذا المشهد، فعبَّر عن ارتياعه من استمرار هذه الأساليب، المتخلِّفة والخطيرة، بينما توجد وسائل حديثة آمنة تُنهي هذا العمل في أقلّ من يومَيْن، فقال إبراهيم إنه، كان يعرف، ولكنه استسلم لهذا الاختيار تدريجياً، ثمَّ استطاب بعض تفاصيله، كطقس الذبيحة وتحضير الأكل للحفَّارين، والالتئام حول طاجين اللحم بالخُضر، حيث نبدأ بأكل الخُضر والخبز والمرق، ثمَّ عندما يبقى اللحم وحيداً يتولَّى داود تقسيمه على شكل قِطَع معزولة، وعندما يفرغ من ذلك، يطلب من أحدنا أن يُغمِض عينَيْه، وعند ذلك يضع يده على قطعة من اللحم، ويُسمِّي مُغمضَ العينَيْن أحدنا لداود، فيسلِّمه القطعة، ثمَّ يمرُّ إلى التي تليها يميناً، ويسلِّمها يمين الشخص الأوَّل حتَّى لا تفضل سوى قطعته، فيضعها على كسرة خبز، ويبدأ في الاستمتاع بها كما في لقطة

بطيئة. ثمَّ إن الآلة، يا سليمان، لا تعرف شيئاً عن الرحلة إلى الماء، إنها تنشب خرطومها الحادَّ في الأرض، وتشرع في وضع الأنابيب آلياً حتَّى تصل إلى الماء، فتضخّه آنياً كأنها تلعب .. نحن هنا منذ أزيد من شهرَيْن، نحفر ونبني، ونؤسِّس مملكة الأصوات صوتاً صوتاً، ونخلط الأنفاس بالتراب، والتراب

بالنبض، لا نصل إلى الماء دفعة واحدة، نباغته وهو في مأمنه، بل نصل أوَّلاً إلى التراب الذي يدلَّ على احتماله، ثمَّ إلى التراب الذي يدلُّ على وجوده، ثمَّ إلى الصخر الذي يتوقَّع استحالته، ثمَّ من جديد إلى التربة التي تتوقَّعه، وأخيراً إلى بلل شحيح، ثمَّ إلى بلل وافر، وفي أثناء ذلك، يكون الماء قد عرف بوجودنا، وتعوَّد على حضورنا، وأصبح ينتظرنا كما ننتظره، ثمَّ، أخيراً، يتكاثر الماء عند أقدامنا، ويبدأ في الارتفاع حتَّى يلامس رُكَبَنَا، وفجأة يغمرنا من القعر والجدران والفتحات الصغيرة التي لم نحسب لها حساباً، فنسابق تدفُّقه، لنهرب إلى السطح .. قال إبراهيم لقد أحببتُ كثيراً هذه البدائية، ولولا أنني اضطررتُ إلى هذه المضخَّة اضطراراً، لَمَا أدخلتُ ضجيجها إلى هذا المكان الهادئ، ولكنْ، لا عليكَ، بعد الانتهاء من الأشغال، سأُرَكِّب على البئر مضخَّة صامتة، تشتغل بالطاقة الشمسية، فأُعيد إلى الهدوء الكائنات كلَّها التي هجَّجها هدير المضخَّة.

لم يكن سليمان مقتنعاً تماماً بما يوحي به مديح البدائية، لكنه ارتأى أن يجاريَ إبراهيم في هواه مستغرباً من قدرته على التوفيق بين حداثة الألواح الشمسية وعتاقة الفؤوس والمعاول. وعندما انتهت وجبة الغداء بتلك التفاصيل كلِّها التي ذكرها إبراهيم من قبل، لم يستطع سليمان أن يمنع مرور غيمة ماطرة في صدره، فقد تذكَّر أُمَّه «المجنونة» تنتحي مكاناً قَصِيَّاً من حوش الدار، لتأكل قطعة اللحم التي وُضعت لها على كسرة خبز كبيرة، كان يراها عَبْر تلك الغيمة، مستغرقة في الأكل، مبتسمة كما كانت دائماً، ويعرف أنها عندما ستنتهي من الأكل، سترفع عقيرتها بالغناء، وهو كان يحبُّ ذلك كثيراً، ويخجل منه .. أمَّا هي، فكانت تقول به شيئاً لا يعرفه أحد.

تلك كانت المرَّة الأولى التي خرج فيها سليمان من حَيِّ الفتح، وابتعد بما يكفي، ليشعر أنه أَقْدَم على سَفَر خطير. منذ عشر سنوات، لم تَتعدَّ خرجاته الذهاب إلى دروسه النادرة أو النزول إلى المدينة عند تنظيم أسبوع الفيلم الأوروبي أو المرور من متحف الفنون المعاصرة بمناسبة معرض كبير. وربَّما نزل مرَّة أو مرَّتَيْن لحضور محاضرة للأستاذ عبد الله العروي الذي يحبُّه ويبجِّله كثيراً .. ونزل مرَّة لدخول مصحَّة أكْدال لإجراء عملية استئصال

المرارة! وكلّما نزل إلى المدينة، كان شعور بالاقتلاع يُلازمه حتَّى يعودَ .. وعندها يبدأ بجولة في الحَيِّ حتَّى يطمئنَّ أن لا شيء قد نقص منه، ثمَّ يجلس في المقهى فقط للاستمتاع بعبارة «على سلامتك» التي يُلقيها عليه العاملون والزبائن .. إنه شعور لذيذ حقّاً أن تحسَّ بأن الناس افتقدوكَ وابتهجوا لانبثاقكَ فجأة أمام أعينهم، لوضع حَدٍّ لما يكون قد خامرهم من شكٍّ في أنكَ ربَّما قد ذهبتَ ولن تعود، ذلك لأن الذين «يبيتون ولا يُصبحون» كما تقول العبارة هم في العادة أناس تحوَّلوا بمرور الزمن إلى أجزاء خالدة من حجارة الأمكنة، وسليمان مثلهم تماماً سوى أنه حجر يحبُّ السينما والفلسفة. وحصل له أن بات ولم يصبح، ولكنه كان يعود دائماً، ويتساءل عمَّا إذا لم يكن انغراسه في الحَيِّ بهذا الشكل الذي يشبه الأشجار هو نوع من الجواب عن الاقتلاع الأوَّل، عندما تبع أُمَّه الباكية ذات فجر، وانتظم في القافلة الصغيرة التي تركت الجبل وغابته الكثيفة، ونزلت إلى مجالٍ مُبهَم، لم يستطع أن يضع عليه اسماً حتَّى اليوم. يحبُّ سليمان أن يخضع نفسه لتحليل، يستعمل فيه معارفة الفرويدية، وعندما يفعل ذلك، يتصوَّر أنه قام لتوِّه من أريكة الطبيب، وأنه أصبح خفيفاً، ولكنه يتساءل ساخراً: وما الفرق؟ هَبْ أنكَ تجيب عن اقتلاعكَ الأوَّل، ماذا ستفعل الآن؟ هل تستطيع أن تُعيد عقارب الاقتلاع إلى الوراء؟

في طريقه إلى المعمورة مع إبراهيم، قال سليمان إنه يشعر بأن هذه الطريق تبتلعُهُ. ثمَّ أضاف إن هذا الشعور بالضبط هو الذي خَامَرَهُ عندما توجَّه لأوَّل مرَّة من الخميسات إلى الرباط، فقد أحسَّ أن الطريق ليست سوى مريء ضخم يبتلعُهُ، وأن مكاناً هائلاً ينتظره، ليطحنه في رحاه العظيمة. قال إبراهيم إنها علاقة طبيعية بين الهامش والمركز .. إذا

تحرَّك الهامش نحو المركز، فلا مناص من أن يُبتَلَعَ ويُهْضَمَ. لا يمكن أن تظلَّ هامشاً وأنتَ في المركز .. إذا أردتَ أن تبقى كما أنتَ ولا تُطْحَن في رحى المركز، فَعليْكَ أن تبقى حيث أنتَ، هامشاً بعيداً، ومَنسيَّاً إذا أمكن.

يصعب على سليمان أن يتعرَّف على موقعه هامشاً أو مركزاً. عندما كان في الهامش المَنسيِّ لم يكن يعرف شيئاً عمَّا يعنيه مكانُ ما عندما يكون مركزاً أو

هامشاً .. فالغابة والجبل اللذَيْن نزل منهما لم يدرك إلّا بعد سنوات أنهما هامش بعيد، أمَّا عندما كان هناك، فقد كانا مركز الكون، وعندما تعرَّف على أُمِّ كلثوم صار مركز الكون هو أن يكون معها، ثمَّ جاءت صفاء، ونهلة، فوضعتا خريطة جديدة للعالم ..

وقد قرأ كُتُباً كثيرة، فأصبح بضعها قارَّات يرتادها ويعود منها بمراكب محمَّلة بالنفائس والذخائر .. أمَّا هذا المكان الذي اسمه المعمورة، فإن إبراهيم سيُخطئ كثيراً لو اعتبره مجرَّد مَعْبَر إلى مكانٍ آخر. إنه مقبرة خضراء، لا يَلِجُها حَيٌّ إلَّا وأصبح في عداد أرواحها التائهة.

خلال فترة الحفر جاءت بريجيت عدَّة مرَّات، وفي كلِّ مرَّة كانت تُسبِّب لداود ولفرقته في نوبة خجل، لا يخرجون منها إلَّا بصعوبة بالغة. وخصوصاً في فترة الأكل، حيث كان عليهم أن يُجالسُوها، وأن يمدُّوا أيديهم للطاجين بأصابع مدرَّبة وهم يضحكون من تلعثم أناملها قبل الظفر بلقمة ناقصة .. ولكنْ، مع تعدُّد الزيارات، استقرَّت الأُلفة، وجرى بين المجموعة وبريجيت تيَّار مودَّة، ازدادت متانة عندما أحضرت لهم بذلات رياضية، لا يتسرَّب منها الماء، صاروا ينزلون بها إلى البئر ويصعدون، وقد أشرقت وجوههم بامتنان سخيٍّ.

وذات مرَّة وهم يحتسون الشاي، طلب داود من إبراهيم أن يسأل بريجيت عمَّا إذا لم يكن بمقدورها أن تُنقذه من أهوال الحفر بعقد عمل في فرنسا، لأن أناساً كثيرين لهم ما يبيعونه يستطيعون أن يشتروا من وسطاء نافذين عقوداً، تفتح لهم أبواب الفردوس، حتَّى إن قريتهم تازارين لم يعد فيها إلَّا النساء والحفَّارون، وزاد سْعيد عبر ضحكته، والثعابين!

لكن بريجيت أفهمتْهُ بعربيتها المتعثِّرة أنها لا تعرف فرنسا سوى كسائحة، فقد وُلدت هنا، وتعيش هنا. وفوق ذلك، فإنها مسلمة، وسألتْهُ بريجيت:

وماذا تريد أن تشتغل هناك؟! إنهم لا يحفرون الآبار.

فأجاب داود:

أيّ شيء، لا يهمُّ الشغل. المهمُّ هو الهجرة!

ولمَّا رأت بريجيت ملامحَهُ الحزينة، بسبب الباب الذي أغلقتْهُ في وجهه، حاولت أَن تجد منفذاً لأمل ما، بالحديث عن برامج الهجرة إلى كندا، والتي يمكن أن يترشَّح لها في شروط أقلّ تعقيداً من شروط الهجرة الأوروبية، عند ذلك قال داود، إنه قد سبق وأن ترشَّح للهجرة إلى أمريكا. فجاءت ذات يوم بعثة أمريكية إلى «تازارين»، لتلتقيَ بالمرشَّح وعائلته. كان أعوان السلطة

المحلِّية كلّهم في صحبة البعثة والمنتخبون والأعيان، وجرى الخبر كالنار في الهشيم، حتَّى إن زوجته سمعت به قبل وصول الحشد، فانخرطت في بكاء أشبه بالعويل، لقد جاء الميركان ليأخذوا داود وأهله، أمَّا هو، فقد جرى في كلِّ اتِّجاه، ليجمع أطفاله التسعة، لأن الأمريكيِّيْن أصرُّوا على اللقاء بهم جميعاً، وكلَّما التأموا، رفعوا أصواتهم بالبكاء، وهرب منهم مَنْ هرب، حتَّى إذا أحضرهم كلَّهم وقد أخمد محاولات الهرب بضرب مبرِّح، وضع فيه حرجه كلَّه من الموقف، اصطفُّوا في ركن من البيت الطيني من أكبرهم ذي العشر سنوات، إلى أصغرهم ذي السنة الواحدة، وتنافسوا على البكاء بأصوات حادَّة على المقامات كلِّها، كلٌّ على حَدَة، وقد امتلأت وجوههم بكلِّ ما يمكن أن تفرزه أجسادهم من سوائل وهَلَع.

قال داود، بعد ذلك رجع الميركان من حيث أتَوا، لماذا جاؤوا؟ ولماذا ذهبوا؟ لا أحد يعرف! هل عدد الأطفال هو الذي أفزعهم أم ذلك البكاء؟ لا أحد يعرف، وهم لم يقولوا شيئاً. أحد المتعلِّمين قال إنهم لم يُصدِّقوا أن الأطفال التسعة كلَّهم أطفالي، فمن أكبرهم إلى أصغرهم، لا تفصل الواحد عن أخيه سوى سنة واحدة .. إن هذا الأمر مستحيل بشرياً في اعتقادهم، لذلك تراهم حَسِبوا أنني جمعتُ أطفالاً متفرِّقين من عائلات عدَّة، فقد لاحظوا أنني كنتُ أعدو في الاتِّجاهات كلِّها لأجمعهم، وربَّما فطنوا إلى كوني قد ضربتُهم كي لا يهربوا .. ولا تفسير لديهم لهذا البكاء إلَّا أنني أردتُ إجبارهم على الهجرة إلى أمريكا، وعائلاتهم موافقة على ذلك، ومتواطئة بالتأكيد!

كانت الحكاية مضحِكَة، وزادها داود إضحاكاً بطريقته في الحكي التي تتعمَّد إضفاء كثير من الهزل، على ما يبدو لأوَّل وهلة مأساة حقيقية، لقد دمَّرت الملهاةُ الكامنة في ما جرى كلَّ إمكانية للشعور بالهول، إذ بينما كان كرنفال صاخب ينهض تدريجياً بمشاركة القرية كلِّها وجهاء وبسطاء، والمخزن بجلال قَدْره، وممثِّل الدولة الأكثر قوَّة في العالم، وبينما كان الناس يبكون رحيل واحد منه إلى وجهة، قد لا يعُود منها، كان مصير فاجع ينتظر داود في نهاية الحكاية، سينسحب الكرنفال تدريجياً كما بدأ، وسيرجع الأطفال إلى مخابئهم،

وعندما يهدأ كلَّ شيء، سيُدرك داود أن الحلم الأمريكي قد تبخَّر إلى الأبد. وقد اهتدى بفطرته إلى أن الطريقة الوحيدة لترويض هذه الفاجعة هي تحويلها إلى ملهاة.

البكاء هو السبب، يقول داود، نحن بشر من الصنف الضئيل كما ترين، وأولادنا أكثر ضآلة، إنهم مثل الرسوم المتحرِّكة .. والميركان عمالقة شُقر، وعيونهم زرق مثل لهب الشاليمو، والأطفال خافوا كثيراً .. كان من الممكن أن يبكوا في نفوسهم كما نفعل دائماً، ولكنهم فقدوا السيطرة .. ولكنْ، مع مَنْ تتكلَّم؟ البكاء على أشُدِّه، حتَّى أنا تخشَّعْتُ، وأخذتُ في البكاء. وبريجيت، أيضاً، ذرفت دمعتَيْن كبيرتَيْن، وذهبت نحو مربَّع الميموزا لاستعادة هدوئها .. وعندما عادت، كان داود وسعيد قد نزلا إلى البئر، ولحسن يستعدُّ لتشغيل المضخَّة، فقالت لإبراهيم إن هؤلاء كائنات استثنائية، ودون أن يفهم الشيخ عبد الله ما قالت، ردَّد ما يقوله عنهم باستمرار، إنهم «دجَّالون» لا محالة، هؤلاء الصحراويون الذين نصفهم عفاريت ونصفهم ضفادع، وثِقْ فِيهِمْ، ظاهرياً هم يحفرون للوصول إلى الماء، ولكنهم يحفرون على كلِّ شيء، ولن يذهبوا من هنا إلَّا وقد وجدوا شيئاً، لا علم للمضخَّة به. هل يعرف أحد منكم «تازارين»؟ ولا واحد يعرف تازارين، ومع ذلك، وصل إليها الميركان! قوم وأيُّ قوم!

في طريق عودتهما من المعمورة، مرَّ إبراهيم وبريجيت على قصور كثيرة، بُنيت في الأراضي الممتدَّة على الطريق بين الشطِّ وتِيْفَّلْتْ مروراً بالغزاونة ومقام الطَّلَبَة، قصور لا تختلف كثيراً عن قصور حيِّ الرياض والسويسي ودار السلام. كلُّ قصر يبز الآخر في الفجاجة وسوء الذوق، وينمُّ عن عجرفة ساذجة تجاه المجال البسيط الذي يحيط بها. قال إبراهيم إنه يريد بيتاً بسيطاً من ثلاث مربَّعات مفتوحة على بعضها مَبنيَّة بالطين. كان قد تحدَّث مع داود في الموضوع، فأشار عليه بتِقْنِيَّة الطابوق التي يستعملونها في نواحي ورززات، لكنْ، بعد الوقوف على صعوبات استقدام معلِّمين من هناك، أشار داود إلى حلٍّ أقلّ تعقيداً باستعمال آجرِّ الطين المخلوط بالتبن شريطة أن ينهض البناء الطيني على أسس من حجر وإسمنت، تفادياً لتحلُّله في ماء الأمطار. ثمَّ لاحظ داود أن المشكلة الوحيدة في هذا النوع من البناء هو

استحالة وضع سقوف من إسمنت مسلّح عليها، ثمَّ ضرورة القيام كلّ سنة بأشغال صيانة ملائمة، واستقرَّ الأمر على وضع سقف بأعمدة خشب ونسيج قصب تحت طبقة من تراب صلصالي، وجعل ذلك السقف مائلاً، لتسهيل تصريف المياه. وعندما اتَّضح المشروع في ذهن إبراهيم، ها هو يعرضه على بريجيت منتشياً بفكرة البناء أساساً بعناصر المحيط، وعدم استخدام أيَّة مادَّة دخيلة سوى النزر اليسير من الأسمنت الذي سيدخل في تركيب الأُسس. وقالت بريجيت إنها تخاف قليلاً من هذه الأبنية المتقشِّفة، ولكنها تحبُّ الفكرة. وهكذا شرع في الإنجاز صبيحة يوم قائظ من أيَّام غشت (أغسطس). كَشَطَ العمَّال غير بعيد عن شجرة الفِلِّين طبقةَ الرمل التي لا يتجاوز سمكها خمسين سنتيمتراً، وعندما وصلوا إلى «الحمري»، شرعوا في خلط الطين بالماء والتبن والاستعانة بقوالب من الخشب لصنع الآجرّ بأحجام متماثلة، وترصيفها في الشمس، لتفقد ماءها، وتصبح قطعاً صلبة صالحة للبناء. وغير بعيد عن الشجرة، رسم العمَّال، بواسطة أعواد وحبال، المربَّعات الثلاث التي سيتشكَّل منها البيت. وجاء وقت الذبيحة التي لا مفرَّ منها، فأزهقت روح جديدة استرضاء لأصحاب المكان، وفي هذا اليوم بالذات، يوم الذبيحة حضرت بريجيت وسليمان وأُمُّ كلثوم وصفاء، ونهلة، وجاء الشيخ عبد الله بخيمة من ذويه، ونصبها في الموقع.

كان يوماً حافلاً مرحاً، حتَّى أُمّ كلثوم التي لا تحبُّ البادية أصلاً اندمجت في الجوّ. وصفاء ونهلة قامتا بجولة في مربَّع الميموزا، ثمَّ عبرتا الطريق التي تخترق الغابة في اتِّجاه سيدي يحيى، وتجوَّلتا في الجزء المحاذي لها من غابة البلُّوط (الفيلِّين)، وفي أثناء عودتهما عثرتا على سلحفاة صغيرة، حملتها نهلة معها إلى الخيمة، لكن السلحفاة رغم حداثة عهدها بهذا العالم لم تمكث في الخيمة سوى وقت قصير، اختفت بعده، وفي أثناء ذلك، جرى حديث مستفيض عن الحماية الدولية لهذا النوع من السلاحف، ولماذا لا تحترم هذه الأوفاق العالمية بخصوص سلاحف المعمورة. كانت صفاء قد لاحظت، وهي عائدة من فاس عبر الطريق الوطنية، وبالضبط في المنعرجات المحاذية

لوادي بهت، وجودَ سلاحف معلّقة من أرجلها ورؤوسها إلى الأسفل، فتوقَّفت هي ونهلة للاستفسار عن السبب في تعذيب السلاحف بهذه الطريقة، فأفهمهم صاحبها، بطريقة فظَّة، أنها فقط معروضة للبيع، وأعرض عنهما لوضع حَدٍّ للثرثرة. كان هذا المشهد قد صدم الفتاتَيْن، فتحدَّثتا عنه بهذه المناسبة. بعد ذلك تساءلت نهلة، ولماذا يشتري الناس هذه السلاحف؟. قال سليمان هناك مَنْ يربِّيها .. إنها تعيش طويلاً، ومن الممكن أن تصحب عائلة ما على مدى جيلَيْن أو أكثر. هنا تدخَّل الشيخ عبد الله ليقول إنها أيضاً موصوفة كأكلة علاجية لكثير من الأسقام. وذكر منها على وجه الخصوص مرضاً يصيب الطفل الذي رضع من أُمِّه وهي حامل في أسابيعها الأولى .. ومن أعراض المرض أن الطفل يصبح رأسه أكبر من جسده، ويفقد الشهية، ويصاب بالإسهال والحُمَّى، في هذه الحالة، فإن طبخ سلحفاة وإطعامها للطفل قد يُنقذه من سموم «حليب لغيال» الذي رضعه من أُمِّه الحامل، وأضاف الشيخ عبد الله غير عابئ بالتقزُّز الذي أشاعه في الجماعة، أن السلحفاة تُذْبَح ولكنها لا تموت، ويتعيَّن وضعها على حطب مشتعل للإجهاز عليها من جهة، ولتخليصها من درعها اللصيق بالجلد من جهة أخرى .. إذ عندما تنفجر تلك القشرة الصلبة بفعل النار، تصبح السلحفاة قطعة لحم جاهزة للطبخ .. عند هذا الحَدِّ من الحديث أصبح لزاماً على الجماعة أن تقوم بشيء آخر قبل الشروع في تحضير الغداء، فشاركوا جميعاً في صنع نصيبهم من الآجرّ، ونشروه معزولاً عن الآجرّ الآخر، ليكون كما ألحَّ إبراهيم على ذلك بداية البناء.

حصل هدوءٌ بعد انصراف سليمان وعائلته، وانصراف الشيخ عبد الله إلى بيته. بدت الخيمة ضخمة جدَّاً، في ضخامة طائر أسطوري حطَّ قرب الشجرة. وقد نظرا إليها معاً، بريجيت وإبراهيم، والتقت نظراتهما محمَّلة بفكرة المبيت في الخيمة .. فقالت بريجيت كأنها تجيبه: لمَ لا؟!

عندما حلَّ الليل، اقترح عليهما داود شيئاً يأكلانه، فاعتذرا، واكتفيا بالشاي، تناولاه وهما مستلقيان خارج الخيمة، تنفذ إليهما من خلال أغصان شجرة البلُّوط الأشعَّة الأولى لقمر يبدأ رحلته الليلية.

لكنْ، مع تقدُّم الليل وسطوع ضوء القمر بشكل غامر ينير التفاصيل كلّها، ويضخِّمها، استشعرت بريجيت رهبة، جعلتها تلتصق بإبراهيم، ثمَّ تستدرجه إلى داخل الخيمة، وكان ما يزال يحتفظ بحرارة النهار، وفي ذلك الجوِّ الحارِّ المشبَع برائحة صوف الخيمة وأدخنة الشواء التي تجمع فيها، حاولا التغلُّب على تلك الوحشة الطارئة بالانغمار في طقس غرامي مضطرب، كأنه يحصل في حلم، ولم يكن أيٌّ منهما متأكِّداً أن الطقس سيمضي إلى نهايته، ولكنهما استغرقا فيه مع ذلك بقناعة مشتركة أن المهمَّ هو أن يحصل، وأن يُصهَر جسداهما في تجربة تجمُّع بين التهوُّر والحكمة، كأنهما بطريقة مجنونة، يعيدان ربط خيوطهما بمكوِّنات الحياة البِكْر، حيث لا جدران ولا أبواب ولا نوافذ، بل فقط شساعة الحياة عندما تكون تراباً وشجراً ونجوماً طليقة.

عندما هدأا، كانت الخيمة قد بردت قليلاً، وقد حاولت بريجيت أن تتحرَّك داخلها، لكن عثورها على التراب العاري في أوَّل محاولة جَمَّدَها، ثمَّ تطلَّعت من خلف كتفَي إبراهيم إلى مدخل الخيمة، فرأت ضوءاً أبيض يغمر العالم، وأحسَّ بها إبراهيم قلقة، فاقترح عليها أن يتمشَّيا قليلاً خارج الخيمة .. قال إن الغابة شيء عظيم في ضوء القمر .. فاستجمعت قواها، وخرجت معه، فما إن وقفا في الضوء حتَّى انطلقت جلبة كبيرة خلف البئر، حيث ينام الحفَّارون، وتبيَّن لإبراهيم أن كلباً كان يبحث بين الأواني عن بقايا أكل هو مَنْ أثار تلك الجلبة، وكان عليه أن يبذل جهداً كبيراً ليُهدِّئ من روع بريجيت، ثمَّ ليقنعها بالمشي مرَّة أخرى، لكنْ، ما إن ابتعدا كثيراً عن الخيمة، واستقبلا مربَّع الميموزا حتَّى اكتنفتْهما السكينة، وغمرتْهما أُلفة المكان الآمن، ثمَّ تحدَّثا طويلاً، همساً، حتَّى عندما ابتعدا كثيراً عن الخيمة، واستمرَّا في الحديث همساً حتَّى أخافتْهما أصواتهما الخافتة. عند ذلك وقفت بريجيت، وسألت بصوتها العادي:

لماذا نتحدَّث همساً؟!

ضحك إبراهيم، وقال:

- حتَّى لا نُوقِظ الأشجار!

ثمَّ إن ريحاً هبَّت فجأة من جهة الغرب، فأيقظت الأشجار التي أحدثت أوراقها أصواتاً مختلفة مزيجاً من حفيف ونداءات وعبارات غير مكتملة. وكان لهذه الأصوات وقع غريب، فقد كانت حميمية جدَّاً، لأنها تحدث بين الريح والأشجار، وكانت مشهدية، لأن الأشجار لم تكن تدَّخر جهداً في إبراز قدرتها على الرقص فور استفاقتها بتلك الرعونة التي تشبه رعونة راقصات ثَمِلات.

تساءلت بريجيت وهما يعودان إلى الخيمة عمَّا إذا كان البناءُ سيأخذ وقتاً طويلاً. قال إبراهيم:

- يبدو أنه لن يتجاوز الشهرَيْن. ولكنني أحبُّ العملية في حَدِّ ذاتها، وأخشى أن لا يمنحَني المكان المكتمل المتعة نفسها.

بدا لبريجيت أن الوقت مناسب للحديث «عنهما». مَاذا سيفعلان غير الاستسلام للقارب الذي ينساب بهما على هواه في نهر ليست لهما أيَّة فكرة عن عمقه، ولا عن وجهته؟ كانت تعرف أن الشروع في حديث من هذا النوع ربَّما سيُوقِف القارب، وسيربطه بشجرة ما للاتِّفاق أوَّلاً على مسار الرحلة، ومَنْ يضمن أن يحصل الاتِّفاق؟ وما هو الأفضل: الاتِّفاق على الرحلة أم فقط القيام بها؟!

تردَّدت بريجيت، ثمَّ قالت:

- عندما يكتمل البناء، سيتغيَّر كلُّ شيء!

قال إبراهيم:

- هناك شيء أتمنَّى أن يتغيَّر بالفعل. منذ فترة طويلة أحسُّ بنفسي طافياً، لا أرتبط بشيء مضى، ولا أرتبط بشيء آتٍ. ربَّما يجعلني البيت قادراً على الخروج من وضعية الطفو. إذا سكنتُ هنا .. سأجعل كلَّ الأشياء التي وراء ظهري وراء ظهري فعلاً، يفصلني عنها خندق عميق، لا يسمح بالعودة .. أمَّا الآن، فليس هناك سوى خيط مطَّاط يشدُّني وأنا أمشي نحو حياة أخرى، فإذا حدث شيء لي أو للخيط، فسأرتدُّ على عقبي، كأن شيئاً لم يكن.

فسألتْهُ بريجيت:

- وأنا أين أوجد قبل الخيط أو بعده؟!

صَمَتَ إبراهيم، ففهمتْ أنه لم يفكِّر بذلك. استطاب «القارب الثمل»، ولم يعد مهتمَّاً بضبط الملاحة.

كانا في الخيمة يحاولان النوم، ولكن الليلة كانت أكثر رقَّة من أن تسمح لهما بذلك. سألتْهُ بريجيت عمَّا إذا كان قد جرَّب الخيمة قبل هذه المرَّة. قال إنه في طفولته كثيراً ما تردَّد صحبة أُمِّه وأختَيْه على خالة له، كانت متزوِّجة في آيت واحي، أيَّام كانت لهم هناك خيام متفاوتة في الحجم والجودة حسب أحوال أصحابها، كان الانتقال من براكة دوار الضبابة في تِيْفَّلْتْ إلى الخيمة من شَعْر الماعز في آيت واحي انتقالاً بالغ الإرباك، كانت الخيام السوداء القابعة مثل حيوانات كبيرة تُفْزِعه خصوصاً بالليل .. وكان الصمت يمنعه من النوم لكثرة ما أَلِف ضجيج الدوار وقيامته الدائمة ..

كثيراً ما كانت بريجيت تفسِّر بينها وبين نفسها أحوال إبراهيم المضطربة بما يمكن أن يكون قد عاشه من طفولة قاسية في مدينة الصفيح، لذلك فوجئت كثيراً وهي تسمعه يتحدَّث عن تلك الطفولة بشكل لا علاقة له بأيِّ شيء مُوجِع. كان الدوار فقيراً وصعباً، ولكنه كان واحة عذبة، لو كنَّا في مكان آخر، لأكلتْنا الذئاب عندما توفِّي والدي، حتَّى العاهرات كنَّ يحرسنَ عِرْضَ «اليتيمات» بأشرس ما تكون الحراسة...

المتاعب بدأت بالنسبة إليَّ عندما غادرنا هذا «الفردوس الموبوء...».

فالفقر لا يظهر في الدوار، والقذارة لا تظهر، إنهما مكوِّنان طبيعيان من مكوِّنات المجال .. أمَّا خارج الدوار، فإن التراتب يفضح الكائنات الهشَّة التي في أسفل السُّلَّم.

استمرَّ إبراهيم وبريجيت ينبشان في تفاصيل مختلفة، داخل تلك الخيمة التي بدأت تُعتِّم قليلاً مع ميل القمر للغروب. وعندما غلبها النوم أخيراً، لم يدم ذلك سوى لحظات، ثمَّ انطلق هدير المضخَّة. قال إبراهيم إنهم يشغِّلونها فجراً، ليتمكَّنوا من تجفيف البئر وإعدادها لحفر جديد مع بداية النهار. وقفا في وسط الخيمة، وأخذا يجمعان أغراضهما استعداداً للرحيل، وفي اللحظة التي كانت تحاول فيها بريجيت إدخال قَدَمِها في حذائها الرياضي، لمست داخله شيئاً صلباً أفزعها، فجاء إبراهيم ليكشف بمصباحه السلحفاة الصغيرة التي نامت في الحذاء. وربَّما رأت وسمعت كلَّ شيء!

لم يقل (يَنْسِي) لأَحَدٍ أن قُنْفُذتَيْن حطَّتا الرِّحال بصفة دائمة في سياج الصَّبَّار الذي يقع وراء الأسواق، وأنهما تنفذان منه حين لآخر إلى الداخل، وتستعملان لذلك فتحات موجودة في السور الغربي، وقد يحصل، أحياناً، أن تقضيا الليل بين الأروقة، وتنالا نصيبهما من الفواكه وأكل القطط. ولكن (يَنْسِي) الذي أصبح دائم القلق بسبب عاهته، وبسبب ميلاد الصغار التسعة، وهم كائنات متهوِّرة تجرؤ على الخروج نهاراً من عشِّها، لم يعد يتحمَّل مشهد القُنْفُذتَيْن تتهاديان بين السلع، واستشاط غضباً ذات ليلة وقد التقى صدفة بقُنْفُذة أخرى كانت تعيش في حديقة الجنرال، تجرُّ خلفها سبع قنافذ صغار، وهي تقضم مطمئنَّة تفَّاحة، تكاد تكون أضخم منها. لقد استفزَّه هذا التكاثر المفاجئ، وتوجَّس خيفة من أن يثير الانتباه، ويشعل حرباً، لا قِبَل له بها. ولا شكَّ أن هذا الخوف هو ما جعل (يَنْسِي) يتحوَّل إلى وحش، يطارد القنافذ الوافدة، ويقضي أغلب وقته الليلي في حرب الدفاع عن مجاله. كان شرساً، لا يتردَّد في البطش بالمتسلِّلين حتَّى إنه قتل قُنْفُذاً صغيراً في أثناء معركة مع أُمِّه، وتسبَّب له ذلك في اكتئاب خطير، ما يزال يرزح تحت أثقاله، ومع كلِّ ما بذله من جهد ليقبل بالتعايش مع بني جنسه في أسواق مرجان، فإنه ما إن رأى صغاره يقتربون من سنِّ النضج، أي بعد مرور ستَّة أسابيع على ميلادهم، حتَّى بدأ يفكِّر في الهجرة. وتحدَّث في ذلك مع قُنْفُذته، فأعربت عن اعتقادها بأن ما يفعله الوافدون الجدد هو عين الصواب، العيش في الخلاء المحيط بالأسواق وفيلَّات حيِّ الرياض، والتسلُّل ليلاً إلى موائد مرجان لضمان تغذية متوازنة. كان (يَنْسِي) قد اكتشف خلف المدرسة الخاصَّة التي تقع قريباً من بيت الجنرال، حديقة مهملة، تصلح مكاناً للسكنى، فتوجَّه إليها حزيناً. وقد لاحظ أن الحسرة التي يُسبِّبها له فراق هذا المكان حسرة لا تطاق. لم يذق مثلها حتَّى عندما هاجر من موطنه الأصلي في المعمورة، ثمَّ قال في نفسه إن الأماكن كلَّها سواء، والقنافذ منذورة للترحال بحثاً عن القوت أو بحثاً عن الأمان، المهمُّ هو أن لا تكون في مجال يتكالب فيه عليكَ الآدميون، بدعوى أنكَ لذيذ في الطاجين، وفياجرا طبيعية في الفراش، وأن لا تكون أبداً في

أوطان الكلاب، هذه الكائنات الغبية التي تحسب أنها إذا كشفت قُنْفُذاً في الحديقة، فإنها ستدخل الجنَّة.

في الأيَّام الأولى لهجرته، لم يَقْوَ (يَنْسِي) على المشاركة في الغارات الليلية على مرجان، كانت القُنْفُذة وأولادهما يقومون بذلك، ويعودون فجراً تفوح منهم رائحة الفواكه والبسكويت، أمَّا هو، فكان يكتفي ببعض الجنادب والحلازين، ويتسكَّع غير بعيد عن عشِّه الجديد، ثمَّ يستسلم للنوم مع خيوط الفجر الأولى، وعند ذلك يحدث له أن يحلم ببريجيت كما كانت في آخر مرَّة رآها فيها وقد طفرت عيناها تأثُّراً لقصَّته الغرامية .. كان يحاول في حلمه أن يقول لها عن هذه الغمَّة التي تجثم على صدره، كيف السبيل إلى التخلُّص منها، لماذا لا نبترها كما فعلت بالساق، ولماذا لا يستطيع أن يكون سعيداً، وهل مغادرة الأمكنة هي أيضاً مثل بتر ساق جريحة، يصير الكائن بعده معاقاً وناقصاً إلى الأبد، وكان يحاول في حلمه أن يعتذر لها، لقد هرب منها ومن إبراهيم، ورآهما يبحثان عنه، فاختبأ، ثمَّ رأى إبراهيم مصحوباً بشخص يشبه الصيَّادين، فاختبأ .. كان يمكن أن نبقى عائلة واحدة، ولكن الإنسان متقلِّب المزاج، والقُنْفُذ أيضاً، ولا يضمن أحد لأحد أن يظلَّ كما كان.

وعندما يخرج (يَنْسِي) من حلمه يمرُّ من نوبة أَرَق مزعجة، فيحاول التخفيف من حِدَّتها، بالتجوُّل في ذكرياته، بالغابة، إن أكثر ما يفتقده منذ غادرها هو شجر البلُّوط، كانت كلُّ شجرة لها شخصيتها وملامحها، بل ولها اسم ذائع بين الناس والحيوانات. وهؤلاء لم يكونوا يعتبرون أنفسهم في غابة، بل بين أشجار. وكلُّ شجرة لها صوت، عندما تحرِّكه الريح تغنِّي به، وهو لا يشبه صوتاً آخر، وذلك الهواء المنعش الذي تُحدِثه حركة الأوراق في الريح، هو هواء شجرة بعينها، إذا جلست تحتها تتعرَّف عليه من أوَّل هبَّة، وتعرف إن كان كافياً أم أن عليكَ الانتقال إلى هواء شجرة أخرى.

في تلك الليلة التي حاول فيها كلب أخرق أن ينتشله من العشِّ، فطحن ساقه، كان قد تسكَّع طويلاً تحت أشجار البلُّوط، ورجع إلى العشِّ فجراً وقد

نسي تماماً عمَّاذا كان يبحث في ذلك التجوال الطويل .. الآن وهو يستعيد تلك الأشجار تذكَّر فجأة أنه في مبتدأ تلك الليلة، رأى قريباً من شجرة الفِلِّين الكبيرة التي توجد جنب الطريق، زهرة غريبة لم يرَ مثلها أبداً في حياته. كانت كبيرة ومتعدِّدة الألوان وذات ساق عالية قوية، وعلى عكس أزهار الغابة التي تبدو متواضعة خجولة، كانت هذه الزهرة متعجرفة، ونوعاً ما وقحة: فقضى (يَنْسِي) وقتاً طويلاً يبحث في الغابة عن مثيلات لهذه الزهرة، وكلَّما يئس من العثور عليها، عاد إلى الزهرة الوحيدة، ليتأكَّد أنها موجودة بالفعل، فكان يجدها دائماً وقد طوت تويجاتها إلى الداخل، تغطُّ في نوم عميق. لو كان الفصل خريفاً لاعتبرها من فصيلة تلك الزهرة التي تُدعى (عاصي ربي)، وهي تظهر قبل الأمطار، فإذا ظهرت في ذلك الوقت، أي إبَّان نضج ثمرة البلُّوط، دَلَّتْ على أن السنة ستكون ماطرة. لكن الوقت كان في عزِّ الصيف، وتلك الزهرة لم تكن تشبه إلَّا نفسها. وها هو الآن يستحضرها بحنو بالغ، ويعتقد جازماً أنها وُجِدَت من أجله. يدلُّ على ذلك كونه لم يتذكَّر سواها، عندما عصفت به تلك الأوجاع. كان الكلب قد انصرف عنه لمَّا يئس من انتشاله، وهو كان نازفاً ومرعوباً، يتصوَّر أنه سيموت بين لحظة وأخرى، ولكنه في لحظة خاطفة تذكَّر تلك الزهرة، واقتنع أن كلَّ ما عليه أن يفعله هو أن يزحف نحوها، لأنها لا شكَّ تنتظره وتعرفه، وستعرف ما ستفعل به. ولولا أنه تبع حدسه وذهب إليها، وخاطر بالنوم تحتها مكشوفاً، لَمَا وجده إبراهيم، ليستأنف معه قصَّة أخرى، ووجوداً آخر. ما أبعد تلك الأيَّام! وما أقسى الغابة وأَرَقَّها في الآن نفسه. يتذكَّر (يَنْسِي) أنه وقع مرَّة في بئر يستعملها الرعاة، فظلَّ يسبح ساعات طويلة حتَّى كاد يهلك من الجوع والتعب، ثمَّ فجأة وقع جربوع في البئر، فانقضَّ عليه (يَنْسِي) وأكله، ولا شكَّ أن الثعبان الذي سقط في البئر مُحدِثاً ضجَّة كبيرة كان يتبع الجربوع، فتركه (يَنْسِي) يعوم حتَّى فرغ من التهام طريدته، ثمَّ توجَّه نحوه، فاعتقد الثعبان أن جربوعه قد طفا على سطح الماء، فما إن مدَّ رأسه، ليظفر به حتَّى التقمه (يَنْسِي)، وشطره نصفَيْن، ثمَّ تركه حتَّى لا يَنْجَرَّ معه تحت الماء، وعندما طفا أكل منه ما تيسَّر، واستمرَّ في العوم إلى أن انتشله أحد الرعاة في دلوه، فوضعه برفق على الرمل، كرةً من الشوك ستنطلق كالسهم عندما تهدأ الأمور. الغابة تُوقِعكَ في ورطة، ثمَّ

تُنقذُكَ منها، ثمَّ تُوقِعكُ وتُنقذُكَ، حتَّى تقتنع أنكَ عنيد ومنحوس، وأنْ «لا إصلاح لكَ إلَّا بزوالكَ» عند ذلك تمدُّ إليكَ يداً مدرَّبة، وتضع حدَّاً لورطة الحياة التي دَوَّختْكَ.

لكن الورطة الكبرى التي لا خلاص بعدها، ولو كُتِبَت لكَ النجاة، هي النار إذا اشتعلت في الغابة .. يتذكَّر (يَنْسِي) ذلك الهول الذي عاشه مرَّة واحدة في حياته، فيجزم بأن العودة إلى الغابة حماقة لا مثيل لها. إذا اشتعلت النار مرَّة، فَمَنْ يضمن أن لا تشتعل مرَّة أخرى. وأيَّاً كان الكائن، قُنْفُذاً أو إنساناً أو حَيَّة رقطاء، فإنه لن يتحمَّل أكثر من مرَّة واحدة هذه القيامة المروِّعة، وإذا نجا منها، فإنه سيمتلئ برمادها، ليعيش بقية حياته مُظلماً من الداخل .. وهذا بالضبط ما دار في خاطره عندما وضعتْهُ بريجيت وإبراهيم في سلَّة، وتوجَّها به سعيدَيْن بنجاح الإنقاذ، ليُعيداه إلى غابة المعمورة... لقد نظَّم عندئذ هربه وهو مقشعرُّ الشوك من فكرة العودة، وماذا لو حدث ما حدث قبل بضعة شهور؟! .. كان صوت الحطب اليابس يصل إليه عندما تبدأ النار في التهامه بحذر مخافة أن تثير انتباه أحد، فيطفئها في المهد، ثمَّ يصله صوت اندفاع مفاجئ عندما تجد النار في طريقها هشيماً كثيفاً، ما إن تلمسه حتَّى يصير ألسنة من لهب، تمتدُّ إلى عنان السماء، ثمَّ يصله أخيراً صوت حوافرها وهي تركض بين الأشجار، كأنها قطعان خيل وحشي تركض باتِّجاه الماء، وعند هذا الحَدِّ كان (يَنْسِي) ما يزال يفكِّر في الطريقة التي ينجو بها من حوافر الخيل، ويرفع أنفه إلى الأعلى، ليلتقط اتِّجاه الأنفاس والغبار، والسيول الهادرة التي أصبح لها فحيح وشواظ. صارت ترسل من مقدِّمتها أدخنة خانقة .. وإذ ذاكَ فهم (يَنْسِي) أن الأمر ليس فيه خيل ولا ماء، فطار من لحظته أمام الأدخنة، ورأى وهو يسابق اللهيب الذي يلاحقه أعداداً غفيرة من الخنازير والذئاب والثعالب والأرانب والأفاعي والعقارب والسناجب تعدو بكلِّ

ما أُوتيت من قوَّة، وقد نسيت ما بينها من ثارات أو حتَّى من نواميس مستقرَّة أن يكون بعضها لبعض عدوَّاً أو غذاءً.

كانت الريح تهبُّ من الشرق، فتتَّجه النيران غرباً، أو من الغرب، فتتَّجه شرقاً، وإذا ما تعاكست الرياح، انقسمت النيران، فاتَّجهت نحو كلِّ صوب. وعند ذلك لا يبقى أمام (يَنْسِي) سوى وجهة واحدة هي الذعر الذي لا تقسمه نار ولا ريح .. حتَّى إذا وقع في ما يشبه خندقاً بين الطريق والغابة تكوَّر على نفسه، وراح يتابع الضجَّة الكبرى التي جاء بها المخزن في الشاحنات والعربات، جحافل من الناس، يصرخون في وجه النار، ويضربونها بالعصي، ويحفرون أمام مسارها خنادق، تُوقِف زحفها السريع .. صراخ وفوضى .. ثمَّ هُدنة قبل اندلاع صراخ جديد. والنار التي لن يعرف أحد كيف اندلعت، تروح وتجيء، تشتدُّ وتخبو، وعندما تقول إنها همدت تماماً، تسمعها فجأة تهبُّ من جمرها الثاوي تحت الرماد، فتعود الشاحنات والقبائل، ويستمرُّ (يَنْسِي) مندسَّاً في قنوات الإسمنت التي تسمح للطُّرُق أن تمرَّ فوق الوديان، يقتات من الجنادب التائهة والثعابين التي شوتْها الحرائق، وينتظر نهاية القيامة، أسابيع طويلة في عزِّ القيظ، رأى فيها (يَنْسِي) أشياءَ، لم تخطر له على بال، مثل تلك الشاحنات الحمراء التي تقذف من جوفها مطراً غزيراً بلا سحاب، وتلك الطيور العملاقة التي تُفرِغ على ألسنة النار غيوماً كاملة، وتلك الجحافل من الناس اليائسين الذين لفحتْهم الشمس والنار، فجلسوا على قارعة الطريق، ينتظرون المؤونة والأوامر، وعيونهم تدمع بالحسرة والدخان .. وذات يوم وقد حلَّ شهر شتنبر (أيلول) تجمَّعت الغيوم فوق المعمورة، واخترقت سماءها رعود وبروق، وكان الناس يتبعون بالفؤوس والمعاول بؤر النار الكامنة، عندما انهمرت عليهم المياه التي لا تحتاج إلى خراطيم، فرفعوا أصواتهم بالتهليل، وأغلبهم رفض الصعود إلى الشاحنات، وفضَّل المشي في رذاذ تلك الرحمة المفاجئة، وحتَّى (يَنْسِي) هرب في الوقت المناسب قبل أن تجرفَهُ من القنوات مياه الوديان، وعندما وجد نفسه في مكان مُوحِش تقف في دماره الشامل هياكل مخترقة لأشجار لن تكون أبداً أشجاراً، لم يعد ذلك الحيوان القلق الحذر الذي لا يمشي إلَّا إذا هدأ كلُّ شيء، بل صار كائناً حزيناً يمشي في الرماد الذي أصبحت له بفعل الأمطار رائحة لحم مشوي، ولا يتوقَّع أيَّ خطر يداهمه، ولشهور طويلة سينسى أن القنافذ جُبِلَت على التجوال ليلاً، والاختباء نهاراً. صار يمشي ليل نهار، ليخرج من تلك المشواة حتَّى وجد نفسه ذات فجر يعبر غابة بلُّوط يانعة،

وفي جزء منها، انحدرت فجأة نحو وادٍ يخترقه جدول صغير، ومن هناك وقد بدأت خيوط الشمس الأولى ترسل إنارة باهتة على ضباب الوادي، بدا له مربَّع الميموزا، وأشجار الأوكاليبتوس. وقال في نفسه: لا بأس. نعم، لا بأس به من وطن جديد.

لم يكن (يَنْسِي) سعيداً بإقامته الجديدة خلف المدرسة، فقد حلَّ بها في أثناء عطلة الصيف، فما إن انتصف شهر شتنبر حتَّى انفجرت قيامة الدخول المدرسي، و(يَنْسِي) ساعتها قد خلد للنوم بعد ليلة طويلة من التسكُّع والهذيان. كانت أصوات الأطفال تخترق جسده بحدَّة، لم يعرف مثلها أبداً في حياته. وعندما عاد الصمت من جديد بدأ يفكِّر في طريقة يخرج بها من هذا المأزق. كان صغاره قد وصلوا سنَّ الرشد، وانتشروا، لا يعلم أين، فما إن حلَّ الليل مرَّة أخرى حتَّى قطع (يَنْسِي) حبل تجواله، ليقترح على شريكته عبور الطريق من جديد، وهذه المرة باتِّجاه حديقة الجنرال، لكن الأمور جرت بشكل مختلف تماماً عمَّا كان يخطِّط له، فقبل العبور الكبير، اختفت القُنْفُذة، فوجد نفسه وحيداً كما ينبغي لقُنْفُذ يحبُّ الليل، ولا يحبُّ الزحام... ولذلك فقد مضى خفيفاً وقد استعاد من بين ما استعاده عَرَجَهُ الذي كاد يختفي. لا يعرف (يَنْسِي) لماذا تتعقَّد الحياة بحتمية، لا سبيل إلى الفكاك منها .. كانت أسواق مرجان تجربة رائعة، تسلَّى فيها كثيراً، ولعب كثيراً، واستمتع فيها بأشياء مدهشة، كان الجري بين الأروقة وتحت الأضواء البيضاء والقفز بين الرفوف، واستكشاف البضائع، معروضات لا أوَّل لها ولا آخر، ثمَّ الجلوس إلى حواسيب البائعات والعبث بالمفاتيح، وأخيراً الاستلقاء أمام تلك الجدران اللَّامعة، التي تظهر فيها حيوانات وغابات، وانتظار نزولها إلى الأرض وهي لا تنزل، فقط تذهب وتجيء، وتتصرَّف كأننا غير موجودين، كان هذا كلُّه يصيب (يَنْسِي) بالدوار، فيشعر بالحاجة إلى بريجيت أو إلى

إبراهيم، ليتحدَّث مع أحدهما عن غابة الأشياء التي لا يفهم فيها شيئاً، وعن الأسباب التي تدفع الحياة إلى ابتكار منعرجات خطيرة، بِلا تبريرات وجيهة سوى الرغبة في التعقيد. ألم نكُن في طريق مستقيم، نركض فيه غير عابئين، وغير مهتمِّين بفَهْم هذا الكائن الذي يحتاج لغابةٍ متشابكة من الموادِّ الغامضة

ليعيش، حتَّى امتلأ علينا المكان فجأة، فإذا القنافذ التي تركض معنا بين الممرَّات أكثر بكثير من الأسئلة التي تركض في أدمغتنا الصغيرة، ولكنْ، أين بريجيت؟ وأين إبراهيم،؟ لقد وضعت الحياة دونهما نهراً، لا سبيل إلى عبوره إلَّا إذا كانت هي نفسها ستُنشئ جسراً للالتقاء بهذه الأرواح القَلِقَة.

"وَرِّنِي وحشك ألغابة"(1)

-1-

جدَّته لأُمِّه هي التي قالت له كلَّ شيء قبل موتها .. أمَّا أخواله، فلم يخوضوا معه أبداً في حديث عن أُمِّه، ولا عن أبيه. كان يسألهم: مَنْ منكم أبي؟ فيجيبونه نحن أبوكَ وأُمّكَ. عاد مرَّة من المدرسة، وأخبر جدَّته أن الأطفال ينادون عليه «بولد الحمقاء»، فقالت ولا عليك .. قل لهم: ما أحسن؟ ولد الحمقا أم ولد القحبة؟! .. وعند ذلك سيسكتون، أمَّا أنتَ، فيجب أن تعرف أن أُمَّكَ ليست مجنونة. إنها مجذوبة، تعيش مع الأرواح.

ثمَّ عندما كانت الجدَّة على فراش الموت، قالت له كلَّ شيء.

«أُمُّكَ كانت طفلة، كأنها خرجت من الجنَّة، تضحك وتغنِّي، طوال النهار، وحتَّى مغيب الشمس. وجدُّكَ كان لا يضع رأسه على الوسادة حتَّى تنام في حضنه، فينقلها إلى مكانها، ويطلب منِّي أن أردَّ البال لهذه البنت المبروكة. وأنا كنتُ أردُّ البال، ولا أتركها تغيب عن ناظري لحظة واحدة، وعندما بدأت تطفح بأنوثتها، ربطتُ لها المنديل على رأسها، ووضعتُ أصبع عسل في فمها، لتكون امرأة حلوة طيلة حياتها .. وذات ليلة أيقظتْنا جميعاً في جوف الليل، وطلبت أن نُشعل القناديل، وعندما فعلنا، كانت جالسة تبكي عند رأس والدها .. لقد عرفت أنه مات في نومه، لأنها تعيش مع الأرواح، والأرواح لا تُخبِّئ عنها شيئاً .. كنتُ أردُّ البال، ولكن الأشياء التي يفعلها الله لا ينفع معها ردُّ البال. ذات يوم جاء «الشريف» فذبحنا له، وجمع له أخوالكَ مَن استطاعوا من القبيلة، ليُجالسوه، ونحن ونساء الرعاة كنَّا نرسلها إلى الخيمة الكبرى، لتُحضر لنا «بلغة» الشريف، نتبرَّك بها، وتمرِّرها المتزوِّجات الحديثات على بطونهنَّ التماساً لحمل سريع .. ومن كثرة ما تردَّدت على مجلس الشريف، دعاها فجأة باسمها: تعالي، يا مباركة، ومرَّر يده على رأسها ووجنتَيْها.

ـُ

وفي اليوم التالي جمع أخوالكَ، وقال لهم: أريد أختكم الصغيرة. وكلّنا فرحنا، لأن الشريف سيصبح واحدًا منَّا، وليس شريكاً فقط .. والبركة ستحلُّ بخيامنا .. إلَّا امباركة، فقد فقدت للتوِّ ضحكتها، يا بنتي، أقول لها وأردِّد: أنتِ ستدخلين إلى خيمة سيِّدنا محمَّد، فالشريف من لحمه ودمه، لكنها تردُّ غاضبة، لا أريده، لو جاء سيد النبي بنفسه ما تبعتُهُ .. ولو سمعها أحد من أخوالكَ، لقتلها فوراً. ولكني سترتُ عليها، وجَهَّزْتُها للشريف وقلبي يكاد يصل إلى حَنْجَرَتي. وفي اليوم التالي، كانت أُمُّكَ امباركة قد أصبحت واحدة أخرى .. كأنها احتفظت للشريف وللخيام بجسدها، وأرسلت روحها خلف الأرواح .. كانت تدور بيننا لا تقول شيئاً، وعندما تجلس إلى نفسها تغنِّي بتلك الكلمات التي تجود بها الأرواح، وعندما كان الشريف يعود من غيبته، كانت تكفُّ عن الغناء .. إلى أن حملت بكَ. لا أحد يعرف ما جرى .. لكن كلَّ ما جرى حصل يوم ميلادكَ .. هل قالت شيئاً للشريف؟ هل جادلها في شيء؟ .. لا أحد يعرف .. الناس يقولون كلَّ ما تسوِّل لهم أنفسهم الشرِّيرة، ولكنْ، لا تعبأ بما يقوله الناس .. أبوكَ هو الشريف، والشريف سيستفيق من «قلبته» إذا رآكَ .. اذهبْ إليه حيث هو، في دار المخزن، وانظر في عينَيْه، سيراكَ قلبه الذي ينيره النسب الشريف .. وسيندم على الأيَّام التي قضاها بدونكَ .. وماذا يقول لجَدِّه غداً يوم القيامة، عن بضعة منه تركها شريدة في ولماس .. قلْ، يا ولدي، ماذا سيقول لجَدِّه الرسول؟! ..»

ولكن سليمان لم يذهب إليه. لم تُراوِدْهُ الرغبة أبداً في ذلك. ولم يشعر بالحاجة إلى ربط نفسه بغياب لا يقول له شيئاً. كانت أُمُّه كافية جدًّاً. بحضورها وبغيابها، ولم تترك مساحة فارغة لهذه الزوائد. وجَدَّتهُ تعرف ذلك. طوال حياتها كانت تتبعه، لتستعيدَهُ من تيه أُمِّه .. وعندما تفعل ذلك، ترسل الأُمُّ صوتها من أيِّ مكان وصلتْهُ، ليعرف أنها هناك .. فإذا صمتت، يعود إلى البكاء .. وفي المدرسة كان يسمعها. ويعرف أنها غير بعيدة، وأن لا

شيء سيحصل له ما دامت هناك. طفولته كلُّها قضاها يتبع أُمَّه .. وأُمُّه لا تكفُّ عن المشي، وجَدَّتُهُ لا تكفُّ عن استعادته من تيهها .. مخافة أن يحصل له شيء .. وماذا نقول للشريف إذا أصابه مكروه، ونحن قبيلة كاملة، لم نعرف

كيف نحميه، ولم نعرف كيف نحافظ على «ولد الشريف»؟ أمَّا أمُّه، فكانت إذا رجعت من تيهها، تُهرع إليه مقطِّبة، وتنتزعه بحركة حازمة، وتحضنه بقوَّة، ثمَّ تضع يده في يدها، وتذهب به إلى الفسحة بين الخيام، حيث توجد شجرة البلُّوط المُرُّ، وتجلس قُبالته، وتغنِّي له بصوت خافت، له وحده، كأنها تغسله بذلك الصوت الغامر، فيرفع يده، ويُمرِّرها على وجهها المتورِّد .. يا إلهي، سيقول في نفسه حتَّى اليوم، كم هي جميلة ويانعة مثل شجرة غسلتْها الأمطار!

أمَّا لماذا أرسلت الجَدَّة في طلبه وهي على فراش الموت لتقول له ما قالت، فإنه لم يشغل نفسه كثيراً، لا بفهمه، ولا بالنبش في مغاليقه. هناك في كلامها إشارة مُلغِزَة إلى ما تكون أُمُّه قد قالتْهُ للشريف أو جادلها فيه، في علاقة موحية بما تلوكه الألسنة، وهناك، من جهة أخرى، إلحاح على أُبُوَّة «الشريف»، وعلى ضرورة المواجهة معه، وإيقاظه من «قلبته». لا شيء في هذا كلِّه يمكن اعتباره كشفاً متأخِّراً لحقيقة مُتستَّر عليها. إنه يعرف كلَّ شيء عمَّا يقوله الناس، ويحبُّ كثيراً هذا التشكيك المبطَّن في أُبُوَّة «الشريف»، كما يحبُّ ضحكة أُمِّه عندما كانت تردُّ على الجَدَّة الغاضبة:

أحافظ على مَنْ؟ ههه، على ولد الشريف؟ ههه، أَلَا ترين أن عينَيْه هما عينا الشريف، وحاجبَيْه المقوَّسَيْن حاجبا الشريف، ووجهه وجه الشريف، وشفتَيْه شفتا الشريف، خسارة زرقة عينَيْه؟ ههه... ههه.

الجَدَّة لأنها جَدَّة، لا يمكن أن تمنع نفسها من التفكير في السلالة، من عرش النُّبُوَّة، إلى مضارب «زايان»، والسلالة متى ما اندسَّ فيها هذا «العِرْق الساحر»، صارت أكبر من سلالة وأكبر من قبيلة، وأذعنت لها الهامات، وخضعت لها النفوس، وفرشت بين أيديها أراضي الفلاحة وغابات الرعي، وقطعان الماشية، ذلك كلُّه بدعاء سخي من الشريف، للناس الذين يلثمون «بَلْغَتَه»، ويفرشون ممتلكاتهم بين يَدَي رضاه الذي هو قطعاً من رضى الله.. أولادها الذين نزلوا من الجبل الذي لم يعد لهم فيه شيء يحتاجون لهذا الفتى حتَّى ولو فيه شيء من جنون المرحومة أُمِّه يكفي أن يتوكَّل على الله،

ويذهب إلى دار المخزن، حيث يوجد الشريف الكبير، فإذا داهمتْهُ لواعج «الكبدة»، فإنه سيأتي معه. ليربط له القبيلة، كما تُربَط بقرة حلوب، لتسهيل حلبها.

أمَّا سليمان، فقد مشى في جنازة جَدَّته مُسرنماً. لا يحمل في نفسه أثراً من حزن أو من وصية. كان يتمنَّى أن ينتهي كلُّ شيء بسرعة، ليعود إلى الخميسات. ويعرف أن الطريق ستكون طويلة بما يكفي، ليستعيد تفاصيل تلك الجنازة الوحيدة التي كانت مرادفة للموت .. وهي جنازة أُمِّه. وليتوقَّف مرَّة أخرى أمام ذلك «الجذل المضمَر» الذي كان يحفُّ بالجنازة. رآه أوَّل ما رآه في ملامح الجَدَّة وهي تحمل معه جثمان ابنتها. ملامح تكاد تقول: أخيراً حصل هذا الرحيل .. وكان سليمان الذي حضنتْهُ أُمُّه طويلاً وهي متَّكئة إلى الشجرة، شاحبة منطفئة الصوت، يسمع في تلك الأثناء ذئباً يعوي بداخله، ويريد أن يخرج الصوت، ولا يطاوعه. ثمَّ رأى ذلك في ملامح الآخرين، ثمَّ في كلمات العزاء الغبية. «تْهَنَّاتْ»، «الموت ستَّار» الأفضل لها ولكَ أن تذهب، ولا تتعذَّب برؤيتها على تلك الحال .. ما لهم وهذا الانحشار في شيء لا مكان لهم فيه؟! ومَنْ قال لهم إنني كنت ُأتألَّم لتلك الحال؟! .. وما لها تلك الحال؟! كانت سعيدة، تضحك، وتغنِّي وتصادق الأشجار، تقطف منها كلماتها وخدوشها، وتقول لي إذا سألتُها كيف أنتِ؟

- أنا مثل هذه الشجرة، ليس فيها حلو سوى الظلّ؛

أسألها.

- وهذا الضوء الذي في وجهكِ، وهذا الصوت الذي يفلق الحجر، أليسا حلوَيْن؟! تضحك كثيراً، وتدمع عيناها، ثمَّ تُصوِّب نحوي نظرة، تريدها قاسية، ولكنها لا تنجح في ذلك، وتقول:

- وإيَّاكَ، وإيَّاكَ!

ولا تقول ماذا «وإيَّاي»، حتَّى لو ألححتُ كثيراً، تكتفي برفع أصبعها وتحريكه مهدِّدةً، فأحسب ذلك على تشتُّت ذهنها .. حتَّى جاء اليوم الذي شتَّتني فيه.

وها هو سليمان يعثر مرَّة أخرى في طريقه على تلك الكلمة التي يُخبِّئها في أعماقه لِلَّحظات الصعبة. «التشتُّت» .. نعم، إن «التشتُّت» هي الكلمة التي تختصر كثيراً من عوالمه. لقد كان الإحساس الذي يراوده باستمرار هو أنه جزء مُبهَم من شتات عظيم، شتات حروب وغارات وإخضاع وتمرُّد، كلَّما تجمَّعت البقايا، نسجت حول مجالها بيت عنكبوت سرعان ما تستعمله لأَسْر أجسام ضخمة، والأجسام الضخمة تخرقه، فيسقط منه شتات وشتات، لا يجمع بعضه أو كلّه سوى العنف والتيه. يقول إبراهيم: لا يمكن أن نحدِّد مَنْ نحن على ضوء هذه الجروح القديمة، بلى، يردُّ سليمان، نحن لا شيء سوى مخلوقات جروحنا القديمة، ثمَّ ما هو القِدَم في هذه الأشياء، عندما يكون الشخص الذي يتحدَّث مساء إلى ابنته التي تدرس «الربوتيزم» في جامعة بريطانية هو نفسه الذي يتحدَّث في أحلامه إلى أُمِّه المجنونة، تلك التي قدَّمتْها القبيلة قرباناً «للنسب الشريف»، طلباً للبركة والأمان والنفوذ على الغابة؟! .. وماذا سيفعل «المشتَّت» بين هذه القارَّات الجانحة عندما تنجح ابنته في جعل إنسانها الآلي شخصاً نزقاً يقع في غرامها؟!

يعترف سليمان بأن اعتكافه في حَيِّ الفتح هو، نوعاً ما، محاولة لجمع نفسه في بؤرة محدَّدة، لأن المجال الفسيح يشتِّته، ما إن يضع قدمَيْه في طريق ما حتَّى تخرج من كيانه طُرُق متشعِّبة، يتوزَّع عليها، فلا يبقى منه شيء، يقول سليمان: أنا من جيل شَبَّ على عبارة «اجْمَع رَاسَكْ»، يقولها لكَ الناس كلَّما رأوكَ تتبع أجزاء متفرِّقة من نفسكَ. وها أنا أجمع رأسي كلّ يوم، وفي اليوم الموالي، أضطرَّ إلى جمعه من جديد.

عندما ذهب سليمان لأوَّل مرَّة مع إبراهيم إلى غابة المعمورة، ورأى ورشة البناء، والبئر التي بدأت تمنح ماءها، ارتعشت دواخله. فقد ذكَّرتْهُ شجرة الفِلِّين، بشجرة البلُّوط المُرِّ التي كانت أُمُّه تقضي جُلَّ أوقاتها متَّكئة إلى جذعها، مستغرقة في هذيان متقطِّع، جُلُّ أطوراه شكوى للشجرة، يلفُّها إبهام

كبير .. تبدأ دائماً بالبكاء على أبيها، وتعداد كلّ الفراغات التي تركها في حياتها، ووصف موته الذي حصل بشكل متزامن تماماً في حلمها وفي جسده، ثمَّ تنتهي بالوقوع في براثن الهلوسة، وعند ذلك تقوم وتمشي، كأنها تبحث عن شيء أو تهرب من شيء، والجَدَّة تتبعها، وتتبعه، تُصرُّ على استعادته، كما تفعل بصغار الماعز، فالأُمُّ تعود إلى صغيرها مهما كان إغراء التيه، وملذَّات الغابة .. وما إن تستقرّ بأسيرها الصغير قرب مدخل الخيمة، حتَّى يصل صوت غنائها، وفيه أسف على الصغير الذي لا يعرف الغابة ولا تعرفه، وكلام عن عيون الذئاب التي تلمع في الأحراش، فلا تراها سوى النعاج التي فَقَدَت صغارها. وعن شخص اختُطف منها، أحياناً يكون أباها، وأحياناً يكون شخصاً آخر، تبتسم النساء عند ذِكْره.

تذكَّر سليمان هذا المشهد البعيد من طفولته، وشعر أن هذه الشجرة التي يتَّكئ إلى جذعها الآن هي أخت تلك الشجرة، وأنها تعرفه، وتسمع ما في داخله، وكان ينبغي أن يجيء إليها منذ فترة طويلة، أَلَا يشعر الآن بامتلاءٍ مبهِج جرَّاء ما ملأتْهُ الشجرة من فراغ في حياته منذ اقتُلع من الغابة؟ ولكن إبراهيم هو الذي اهتدى لهذا المكان، إبراهيم الذي لم تدخل الغابة في شأن من شؤون حياته، منذ أنزلتْهُ هجرة عائلته في دوار الضبابة، إلى حين أنزلتْهُ عصاميَّته في مؤسَّسة بنكية .. هو الذي قاده ضجر مزمن إلى اعتناق حياة

أخرى في كنف الأشجار .. وها هو يرفع بالطين النِّيءِ صَرْحَ هذه الحياة، ويملأ كيانه بوحشية ذئب، يحلُّ بأرض جديدة، يشتهيها ويخاف منها، وعليه أن يستوعب بأسرع ما يستطيع قوانين هذا المجال الشاسع الذي تقال أشياء كثيرة عن مساحاته المفقودة، ولكنه ما إن يستفرد بكَ حتَّى يتعملق عليكَ، ويستدرجكَ إلى المتاهات التي ستأكلكَ، ولعلَّ هذا التفصيل بالذات هو ما فكَّر فيه سليمان عندما ذهبت صفاء ونهلة في جولة استطلاعية، وتأخَّرتا في العودة .. كان قَلِقَاً، ولا يعرف كيف يثير الموضوع، وأُمُّ كلثوم كانت سعيدة بالجوِّ، لا تعير اهتماماً لدورانه العصبي، لكن البنتَيْن سرعان ما ظهرتا وقد تورَّدتا بالمشي والشمس، وعندها فقط أعرب سليمان عن مخاوفه، فقال الشيخ عبد الله ..

- من حقِّكَ أن تجزع على البنتَيْن، لا خوف من الضواري، فقد انقرضت، ولكن الخوف من أن تكبر عليهما الغابة، فلا تستطيعان العودة إلى نقطة البداية.

فقال سليمان لنفسه: كلُّنا تكبر علينا الغابة .. كما تكبر علينا الحكايات، فلا نعرف كيف بدأناها، ولا كيف سنُنهيها.

---

(1) من أُغنيَّة شعبية قديمة

-2-

عندما تعرَّف سليمان على أُمِّ كلثوم، كان قد التحق لتوِّه بالتدريس في شعبة الفلسفة بجامعة محمَّد الخامس، وكان يسبح ضدَّ التيَّار، إذ بالرغم من الهيمنة المطلقة لأفكار اليسار في الجامعة، لم يكن يتردَّد بمناسبة أو بدونها في الإعلان عن انتصاره للأفكار الليبرالية، أمَّا أُمُّ كلثوم، فكانت قد التحقت بتنظيم من أقصى اليسار، وأصبحت في فترة وجيزة وجهاً بارزاً من وجوهه، بسبب حماسها الصادق، وأيضاً بسبب جمالها ولهجتها «الفاسية» المثيرة. كان من المفروض إذن أن ينتقل الشابُّ بتأثير من هذه العلاقة من شظف سبينوزا إلى خفَّة الكائن الثوري .. لكن الأمور تحوَّلت تدريجياً إلى تلاقح بين الحماس والعقل .. ونتج عن ذلك في البداية توتُّر حادٌّ بين أُمِّ كلثوم والتنظيم، لأن هذا الأخير لم يقبل هذه «الخيانة»، ثمَّ بعد ذلك بين العشيقَيْن وأسرة أُمِّ كلثوم الفاسية، التي فرحت بخروج ابنتها من المياه العكرة للثورة، ولكنها اضطربت كثيراً لكون سليمان ليس عائلة، ولا مدينة، ولا حتَّى قبيلة، بل مجرَّد شخص، ولولا أنه كان قد تخرَّج في السوربون، لكان مجرَّد شبح بلا أصل ولا فصل .. ومع ذلك، فإن العائلة سرعان ما تصالحت مع هذا الوضع، بتأثير من الأب وهو مثقَّف، وإطار كبير في وزارة المالية، وقد تصادق سريعاً مع سليمان، واعتبره دفق هواء جديد يهبُّ على حياته المتخشِّبة. ومهما يكن من أمر تلك الجلسة الغريبة يوم عقد القران. والتي شارك فيها خاله الكبير وزوجته وأولاده مباشرة بعد وصولهم من ولماس بطبعتهم الكاملة مزيدة ومنقَّحة بما تقتضيه المناسبة، فقد مرَّ كلُّ شيء على ما يرام، لأن أُمَّ كلثوم كانت سعيدة، وكانت تشعر بامتنان كبير لهؤلاء الذين ابتكروا لها «سليمان»، ووضعوه في طريق حياتها، وجاؤوا اليوم، ليتأكَّدوا أن الهدية قد وصلت. كانت سعيدة، لأنهم لم يحاولوا أن يكونوا غير ما هم عليه .. كانوا نبلاء على طريقتهم، ولم يتنازلوا عن ذلك أمام الزخرف المتعالي الذي أحاط بهم، وربَّما أحسُّوا في لحظة ما بحرج العائلة المدينية من هذا الاكتساح الغابوي، فما كان منهم إلَّا أن وقفوا كمحاربين يغادرون طاولة المفاوضات، ووضعوا سليمان بينهم في رقصة

ألوفية، لحظتها عرفت أمُّ كلثوم أن ما تُقدِم عليه ليس زواجاً فحسب، بل سَفَرَاً في الأزمنة.

لسنوات عدَّة لم يتحدَّث الزوجان كثيراً في التفاصيل المرتبطة بالأصل، كانت فاس قد أصبحت مزاراً واحداً لأصول مختلفة، وذلك منذ صارت زيارتها الشهرية طقساً مقدَّساً، لا يمكن القفز عليه. يبدأ ذلك بالحديث عن «النزول إلى فاس»، وسليمان يتعب كثيراً لإقناع زوجته وأصهاره بأنهم يصعدون إلى فاس، ولا ينزلون إليها. لأنها أكثر ارتفاعاً عن سطح البحر من الرباط. ولكنهم يُصرُّون على «نهبطو لفاس» «ونحوفو لفاس»، وكأنهم وحيثما كانوا، فلن يقصدوا سوى النزول إلى «قاع المدينة»، هناك حيث تقيم روحها الأبدية هندسة في ظلال الحيطان، فإذا ما وصلوا إلى «الرصيف»، وصَعِدُوا منه عبر توقُّفات مضبوطة، لا تتغيَّر طقوسها حتَّى يصلوا إلى «باب الفتوح»، فإنهم سيجدون أشياء كثيرة قد تغيَّرت في أجسادهم وفي أرواحهم، بسبب ذلك الصعود البطيء وذلك العبير الذي يتجمَّع بين أيديهم من مشتريات، يعتقد «الفاسي» اعتقاداً راسخاً أنها لا توجد إلَّا في فاس، حتَّى ولو كانت قادمة لتوِّها من «مرجان».

يحبُّ سليمان هذا الطقس، وقد صار يحبُّه أكثر بعدما كبرت البنتان، وصارتا قادرتَيْن على الجري سعيدتَيْن بين هذه الأزقَّة. ثمَّ ذات يوم سألتْه صفاء فجأة، عمَّا إذا كان، هو الآخر، فاسيَّاً مثل الجميع. فقال نعم .. نعم ..»مثل الجميع» تحلُّ المشكلة، لكن الصغيرة ألحَّت كثيراً، فاضطرَّ إلى ذِكْر «ولماس»، وبما أنه لم يكن يخزِّن في وجدانه أشياء كثيرة عن المكان، فإنه سرعان ما وصل إلى «المياه الغازية».

العين اسمها «للاَّ حيَّة»، والماء يخرج ساخناً وفائراً، أحد أخوالي يشتغل «بالعين»، وأخوالي الآخرون يشتغلون بالتجارة أو بضيعات «أربور»، ستجدين الاسم ملصقاً على

تفَّاح المنطقة وإجاصها... ثمَّ ماذا أيضاً؟ «الغابة، نعم الغابة، بعيدة جدَّاً، وخضراء غامقة، أحياناً، عندما ينزل السحاب حتَّى يلامس الأشجار، وينتظم

المطر رتيباً أيَّاماً طويلة، تجثم عتمات ثقيلة على العالم، فلا يخفِّف منها سوى الأحاجي أو الغناء...».

في أوَّل لقاء له مع أُمِّ كلثوم، جرى بينه وبينها حديث عن الأصل، شيء عادي أن يحصل ذلك، فالمغاربة عموماً لا يسألون عن شيء أكثر ممَّا يسألون عن الأصل «منين أنا ومنين أنت»، الأمان يأتي أوَّلاً من معرفة الأصل، وسليمان تحدَّث لأُمِّ كلثوم عن أصله باقتضاب، لأنه أصل مقتضب، والاستطراد الوحيد الممكن في هذا المقام هو العودة إلى الجذور الأولى، إلى تاريخ القبيلة وأساطيرها .. أمَّا الأصل في علاقته بالحياة، فلم يتجاوز في تلك الجلسة حكاية الشريف الذي يفترض أن يكون أباه، وحكاية الأُمِّ التي ابتلعها الجنون أو الحزن، أو هما معاً. وعلَّق سليمان ساخراً:

- هذه الأمور لا تُطلَب بها يدٌ جميلة من فاس!

ومع ذلك، فإن سليمان طلب يدها، كان قد تحدَّث لصهره عن يُتْمِهِ المبكِّر، ونشأته في كنف أخواله والمدرسة والإعدادية في ولماس، والثانوية في الخميسات، والفلسفة التي ارتاد عوالمها مطمئنَّاً في باريس، فلم يحتجْ إلى أكثر من ذلك عندما وصلا إلى ترسيم العلاقة .. ونام الموضوع طويلاً، لم يحرِّكه من حين لآخر سوى أسئلة المناسبات، عندما كان شخص ما ينبثق فجأة، ليسأل سليمان عن عائلته الفاسية، مَنْ تكون؟ فكان يحصل له أن يغيظ سائله، بأن عائلته ليست فاسية، بل «شَلْحَة» من زيان، فلا يجد السائل ما يقول سوى الاستفهام قَلِقَاً: شلوح... شلوح؟

فيضيف سليمان ..

- لا يتكلَّمون العربية، ولم يسمعوا في حيواتهم أبداً وصلة من طرب الآلة.

فينصرف السائل مذعوراً.

لكن هذا الأمر لم يكن يحدث له إلَّا مع محافظين من سنٍّ معيَّنة، أمَّا أبناء جيله، فإن دكتوراه من جامعة فرنسية تكفي لإضفاء هالة أكثر وضاءة من كلِّ

أصل. وأمُّ كلثوم كانت تُركِّز كثيراً على قصَّة «اليتيم» الذي تفوَّق على الفرنسيِّيْن في عقر دارهم، حتَّى إنها كرَّست هذا الإنجاز في ذهني طفلتَيْهما كمفخرة لا تعلو عليها أيَّة مفخرة نسباً كانت أم جاهاً أم ثروة.

ماذا حصل إذنْ لأُمِّ كلثوم، حتَّى تستفيق ذات يوم برغبة جارفة في دفع سليمان إلى البحث عن الشريف، أبيه المُفترَض، كان ذلك بدون مقدِّمات تقريباً، سوى شيء حصل ولم تشأ أُمُّ كلثوم أن تخوض فيه مع أحد. حصل بينها وبين نشرة الأخبار المسائية التي كانت تتابعها وحيدة، بينما كان سليمان يُنهي مع صفاء ونهلة واجباتهما المدرسية، فعلى حين غِرَّة، ظهر الشخص الذي تحدَّث عنه سليمان باقتضاب شديد، يستقبل وفداً من قبيلةُ «بَنِي يَزْنَاسَنْ»، جاء ليحتجَّ على تغيير اسم الشارع الذي كان يحمل اسم القبيلة في عاصمة المملكة، فصار يحمل اسم الشهيد المهدي بنبركة. جرت المقابلة بسرعة، وانتهت ببلاغ إرضاء للقبيلة، يضع اسمها في ناصية شارع أفخم، وللحظة قصيرة جدَّاً رُكِّزت الكاميرا على وجه الشخص، فبدا لأُمِّ كلثوم شخصاً منطفئاً، في خريف العُمُر، ويكاد يكون منكسراً، وقالت في نفسها، إذا كان هذا الشخص هو الأبَ الفعليَّ لسليمان، أي الجَدّ المؤكَّد للطفلتَيْن، فسيكون شيئاً قاسياً أن نحرمه ونحن نعيش في مدينة واحدة من «معجزة» يستعين بها على مواجهة النهاية. وفي اليوم التالي، كانت أُمُّ كلثوم تواجه جبلاً من جليد، تحاول أن تُفهِم سليمان أنها فقط تتساءل عمَّا إذا لم يكن من الأفضل أن يحارب هذا الغياب في حياة الرجل، قبل أن يرحل إلى حيث لا تنفع حرب ولا سلام في تبديد الغموض وقتل

الشكِّ .. ومَنْ أدراك أنه إذا مات استفاقت الحاجة إليه، فأصبحْتَ معذَّباً بها ما حييتَ، ثمَّ إنكَ لن تطالبه بشيء، حتَّى اسمه الذي تبعكَ لفترة ما، ما إن شببتَ عن الطَّوْق حتَّى رفعتَ دعوى، واستَبدَلتَه باسمَ أخوالك «الزياني»، حتَّى لا يبقى لديكَ سوى يقين واحد، هو يقين القبيلة؟! وهو ماذا تراه يفعل، سوى أن يستعيد إليه جزءاً من روحه، إذا كانت له روح، ثمَّ يمضي؟! إنه لن يربِّيكَ، ولن يؤويكَ، ولن يكتب لكَ جزءاً من أملاكه، ولن يورثكَ السلالة التي تهرب منها أو تهرب منكَ .. ربَّما يتأثَّر كثيراً، ويسكت قلبه بمجرَّد ما يتعرَّف

عليكَ. ثمَّ تنتهي الحكاية، يسكت قلبها هي الأخرى، فتنصرف أنتَ إلى شيء آخر دون أغلال ولا ندم.

كان سليمان يستمع إليها، ويحاول أن يتذكَّر المرَّة الوحيدة التي راودتْهُ فيها فكرة البحث عن الأب، ليس لاستعادة أُبُوَّة ضائعة، ولكنْ، للقيام بقَتْل حاسم، يُخرِج هذا الأب من حياته، ومن الحياة برُمَّتها. كان عائداً من جنازة أُمِّه .. رأى تلك الحجارة والأتربة كلَّها التي أهالوها على جسدها الضئيل، وتأكَّد أنه لن يسمع أبداً ضحكتها ولا غناءها، وأنها لن تقول له شيئاً ينبش عنه بأسئلته وهي متَّكئة إلى شجرة البلُّوط المُرِّ .. تصمت طويلاً، ثمَّ تضحك، وتبكي، وتضحك، وتقول غاضبة: ابتعدْ عنِّي، ثمَّ تتبعه وتحضنه وتقول: تريد أن تعرف لماذا أُمُّكَ حمقاء؟ أُمُّكَ ليست حمقاء، أنا أضحك عليهم .. ولكنْ، لا تقلْ لأحد، احْلِف بستِّين حزب، لا تقول لأحد!

وإذنْ، فإن طَيَّ هذه الصفحة يقتضي شيئاً واحداً، هو أن ينتظر قليلاً حتَّى يخرج من هذه الطفولة البطيئة، ثمَّ يذهب إلى الرباط، ويقتحم على «الشريف» مَكمَنَهُ المنيع، ثمَّ يقول له: «أنا سليمان، هل تتذكَّرني؟ قل لي، ماذا فعلتَ بها؟ ثمَّ يهوي على رأسه بالشاقور.

كانت هذه هي المرَّة الوحيدة التي فكَّر فيها في ربط اتِّصال الدم بالدم .. ثمَّ تكفَّل الزمن فيما بعد بترويض الضغينة. والحياة لم تدَّخر جهداً في ابتكار مسرَّات للتعويض، ليسَ أقلُّها أنتِ والطفلَتَيْن والهدنة .. تقومين أنتِ، وأنتِ تحديداً لتقويض هذا البناء، ماذا تريدين من هذه «السوسة» التي ستُخرِّب كلَّ شيء؟ تريدين أن نصبح فجأة متكافئَيْن، أنتِ بالعراقة، وأنا بالنسب الشريف؟! وماذا سنجني من هذه الرفعة الطارئة؟! هل تشعرين بالذنب تجاه البنتَيْن، لأنهما مقطوعتان من شجرة؟! هل نحن خيول أو كلاب، لا بدَّ أن نثبت صفاء النسل؟!

كان سليمان غاضباً جدَّاً، ليس لأن أُمَّ كلثوم فتحت عليه فجأة أبواب الجحيم، ولكنْ، لأنها هي بالذات قد أحسَّت بالحاجة إلى هذه الجذور الوَهْمية، بينما وخلال سنوات لم يكن يبدو عليها أيُّ اهتمام «بالأصل»، بل سعيدة أن يكونا

معاً هما أصل كلِّ شيء، كانت تعرف حكاية السلالة الملتبسة، لكنها كانت أقرب إلى اعتبارها جزءاً من أسطورتهما، وليس عقدة، لا بدَّ من فكِّ اشتباكاتها قبل مواصلة الأسطورة.

وقد مرَّ وقت طويل، كان فيه سليمان خائفاً من أن يكون قد حدث لأُمِّ كلثوم ما يحدث لعموم الناس في هذا العصر، ما إن يحسُّوا بالقارب الذي يأخذهم إلى الضفَّة الأخرى مترنِّحاً، حتَّى يغادروه مضطربين، ويعودوا سباحة أو غرقاً إلى الضفَّة الأصل .. حيث «أمان الثوابت»: السلالة والقبيلة والولاءات والزوايا والطقوسية العمياء .. كان سليمان يعتقد جازماً أن انتكاسة التحديث لا تؤدِّي فقط إلى العجز عن العبور إلى الضفَّة الأخرى، بل تؤدِّي إلى العودة المأساوية قروناً إلى الوراء.

ثمَّ نسي سليمان هذه الهواجس كلَّها، عندما نفضت أُمُّ كلثوم يدها من الحكاية. لا أصل ولا فصل، كان مجرَّد «انفلات عاطفي» تمَّت السيطرة عليه، هكذا علَّقت أُمُّ كلثوم على ما جرى وهي تسخر من الحجم المبالغ فيه الذي أعطياه للموضوع.

- كلُّ ما في الأمر أنني كنتُ أحاول الحصول معكَ على موقع مريح في العائلة المالكة!

فكانت هذه السخرية طوق نجاة، ارتمى عليه عليه سليمان بكلِّ ما أُوتي من قوَّة.

-3-

في فترة التوتُّر الذي مرَّت منه علاقتهما بسبب هذه الحكاية، لجأت أُمُّ كلثوم إلى صفاء ونهلة. ليس لالتماس المساندة، ولكنْ، لتعرف هل حقَّاً أخطأتْ لهذا الحَدِّ؟ وهل النبش في العلاقة الصعبة بين سليمان ووالده مسألة عادية، بل وضرورية أم أنها تقليب للمواجع، لا فائدة منه؟

وقد وجدت لديهما رأيَيْن مختلفَيْن.

فبينما اعتبرت صفاء أن قلب هذه الصفحة لا بدَّ أن يتمَّ بالمواجهة معها بدون لفٍّ ولا دوران، ومهما تسبَّبت فيه هذه المواجهة من أوجاع، فإنها السبيل الوحيد لتحقيق خلاص نفسي للجميع.

أمَّا نهلة، فقد اعتبرت الخوض في هذا الموضوع اعتداء على حميمية سليمان، وعلى اختياره الحُرِّ في قلب الصفحة بالطريقة التي تُلائمه، ماذا نعرف عن آلامه في هذه المسألة؟ ولماذا نُشْعِره بأنه لا يكفينا وحده، كأننا استلمنا في شخصه إنساناً مثلوماً؟ ثمَّ ماذا ينقصه؟ إنه سعيد بما يفعل، وبما هو عليه، سعيد معنا، ولا يعاني من أيِّ خلل أو اكتئاب، وما حاجتنا نحن إلى جَدٍّ؟ ما حاجتكِ أنتِ بالذات إلى ربط رجل بشجرة أنساب؟ هل ستطلبين منِّي إذا وقعتُ في غرام شابٍّ إيرلاندي أن يكون نسبه متَّصلاً بمولاي إدريس؟!

قالت أُمُّ كلثوم:

- كفى، كفى، لا أريد أن تضيفي إيرلاندياً لهذه الحريرة!

عندما يذهب سليمان إلى الغابة ليتفقَّد ورش البناء الذي يقوده إبراهيم باستغراق صوفي، كان ينتابه شعور بالمشاركة في تحوُّل عظيم للإنسانية. كانت الدار العجيبة التي من تبن وطين على وشك الوقوف في قلب الغابة بلونها البنِّي المندمج تماماً في تربة المحيط، كأنها انبثقت فجأة من تحت

الأرض، أو نزلت من السماء، ليس حولها مدينة، ولا حيّ، ولا تخدش الغابة، مجرَّد جُمْلة وقفت خجولة قرب شجرة الفِلِّين.

كان سليمان ينظر إلى إبراهيم يشارك بنفسه في التشييد، فيغبطه، لأنه عمَّا قريب سينام في مكان بناه بنفسه، كما كان يفعل الإنسان الأوَّل، مكان سيحتفظ دائماً بارتعاش يده. وبأخطائها الصغيرة. وعندما كانت بريجيت تعبِّر عن مخاوفها من هذا البناء المرتجل، كان إبراهيم يسخر منها، ويقول إن البناء المعقَّد هو أوَّل ما يتعرَّض للانهيار. ووجد سليمان في هذه الجملة شيئاً جديراً بالتأمُّل، فقد تبيَّن له فعلاً أن البناء المعقَّد سواء كان بناية أو علاقة أو مفهوماً، لا يصمد كثيراً، بل سرعان ما ينهد لأوَّل هزَّة، هناك دائماً خطر في تركيب شيء بالغ الذكاء والقوَّة والجمال، لأن الإغراء الأكثر إلحاحاً حينذاك هو العودة بهذا التركيب الخارق بأسرع ما يمكن إلى العدم، كما يحدث مع قصور الرمال التي نبنيها في الشاطئ، نقضي يوماً كاملا في تشييدها، والأطفال يبذلون جهداً عظيماً في ذلك، كأنهم يبنون شيئاً للأبدية، وعندما يستوي القصر تحفة باهرة، يأتي أحدهم، وبمنتهى الرعونة، يرفس التحفة بضربة قَدَم حمقاء. إنها لعنة البدء من الصفر، لا فكاك منها أبداً.

ها هو البناء الطيني يعلو إذنْ بعد كلِّ يوم عمل، هشَّاً وخشناً، يحاكي البيت الأوَّل الذي بناه الإنسان عندما غادر الكهوف والمغارات، وقد تساءل سليمان، وماذا ستكون عليه الإنسانية لو أن كلَّ بنكي في العالم خرج من بنايته الزجاجية، وارتمى في أحضان الغابة، وانهمك في بناء عشٍّ بدائي على هذه الشاكلة؟ وقال في نفسه، إذا كان إبراهيم هو فقط

أوَّل مَنْ يفعل ذلك، ثمَّ يتبعه آخرون، فربَّما نكون في بداية خلق جديد!

في إحدى زياراته للغابة، دعاهما الشيخ عبد الله للغداء في خيمته، فكان عليهما أن يدورا بالسيَّارة حول الوادي، ليتمكَّنا من الوصول هو وإبراهيم إلى الهضبة التي تقع غرب الغابة في تلك المساحة الواسعة التي أصبحت دواوير وأرضاً زراعية، بعد أن اجتثت القبيلةُ أشجارَ الفِلِّين التي كانت تغطِّيها حتَّى القنيطرة من جهة، وحتَّى سلا من جهة ثانية، وقد أشار الشيخ عبد الله إلى

جزء من تلك الأراضي الذي يبدأ من الشريط الغابوي، وينزل حتَّى العين الكبيرة المُسمَّاة: «عين حجامين»، وقال :

- هذه أرض الشريف!

- ومَنْ هو الشريف؟ سأل سليمان.

- إنه رجل من الشرفاء كان يزور القبيلة كلّ صيف، يقيم في كلِّ خيمة من خيامها بضع أيَّام، وكلَّما جمع أحد محاصيله جاء بنصيب منها إلى الشريف، وفي نهاية الموسم، يأتي بشاحنة، يحمل عليها محاصيل «الزيارة»، بالإضافة إلى خرفان وديوك من نساء يلتمسنَ الخِلْفَةَ، ومن فتيات يلتمسن عرساناً، ومن رجال يلتمسون سلامة القطيع وتكاثره. فيمضي الشريف بعد ابتهال طويل وصلوات، فلا يأتي الصيف الموالي إلَّا وقد قضى الله حاجات الناس على يده. ذات صيف والتماساً لمزيد من البركة تطوَّع شخص من القبيلة، وأهداه قطعة أرض قريبة من الطريق، وبعدها توالت الهدايا، إلى أن أصبح للشريف من الأرض ما لا يوجد لدى أيِّ واحد من أفراد القبيلة. ومنذ ذلك الحين، وإلى عهد قريب، والقبيلة تقوم بأعباء الحرث والحصاد، وتعزو كلَّ ما يلحق بها من خير لبركة الشريف، فإذا حصل شيء سيِّئ، بحثوا عمَّنْ يكون قد أخلَّ بالواجب تجاه «بضعة رسول الله»، فاقتصُّوا منه، لترتفع اللعنة.

سأل سليمانُ الشيخَ عبد الله:

- ومَنْ قال لكم إنه شريف؟!

قال الشيخ عبد الله:

- وهل يخفى الشرفاء؟ إيَّاكَ أن تُكذِّب، كثيرون ذكروا الشريف بسوء، فأصبحوا «لا يدَيْن ولا رجلَيْن»، إلى أن يرضى الشريف، ويأتي إلى خيامهم، فتُذبَح عند قدمَيْه الذبائح، حتَّى إذا رقَّ قلبه، بخَّ في وجه المريض، فلا يقوم الشريف من مقامه حتَّى ينهض المشلول، كأنه كان يكذب. «الشرفاء واعرين»، إيَّاكَ أن تغلط»!

بعد ذلك، سيقول الشيخ عبد الله، لا أحد يركب في القبيلة، إلّا إذا وضعه شريف شرقاوي، من شرفاء زاوية بَجَّعْد على صهوة الجواد. يأتي هو الآخر كلّ صيف، يقيم عند أحد أفراد القبيلة، ويأتي الصِّبيَة بخيلهم، ليمنحهم «الشجاعة والسرّ»، والصبيُّ ما إن يضعه الشريف على الجواد، حتَّى يصبح جزءاً من أديمه، يطير معه حيثما طار، والشرقاوي يصعد هو الآخر إلى شاحنة محمَّلة بالزيارة، ويطير مع مطلع الخريف.

كان سليمان يتابع ما يقوله الشيخ عبد الله بسمعه فقط، بينما كان عقله بالكامل في المرتفع الذي كان يطلُّ على خيامهم، حيث كانت شجيرات «الكريش» تؤلِّف في ما بينها خميلة تشبه بيتاً بشرفة، تطلُّ على المنبسط، كانت أُمُّه تحبُّ هذا المكان .. تقضي فيه قيلولتها، وتُعلِّق في غصن داخلي ما تبقَّى من مرآة مكسورة، تحدِّق فيها من حين لآخر، وتغنِّي لتلك النضارة التي رفضت أن تموت. ومن هذه الشرفة، كانت تشير بأصبعها إلى المنبسط، وتقول:

- بلاد الشريف؛ مَنْ هي الحمقاء، أنا أم القبيلة؟.

وسليمان في تلك السنِّ المبكِّرة لم يكن ليدرك ما تعنيه. كان كلَّما تبعها إلى الخميلة يخاف فقط. وبسبب خوفه يظلُّ جامداً في ركن قَصِيٍّ، إلى أن تقرِّر الأُمُّ أن تعود به إلى الخيام، أو تأتي جَدَّته لتستردَّه، وفي الطريق تقول الجَدَّة كأنها تُحدِّث نفسها:

- ذات يوم ستُلقيكَ من ذاك المرتفع!

- مَنْ سيُلقيني؟ يسأل سليمان جزعاً.

- ليس أنتَ، ليس أنتَ، أنا فقط أُكلِّم نفسي!

في خيمة الشيخ عبد الله، جلس المَدعوُّون، أو على الأهمِّ اضطجعوا، بشكل يجعل الخيمة غرفة نوم كبيرة، استفاق فيها الناس، ولم يغادروا أمكنتهم، وعندما وصل الضيوف الجدد، جرت همهمة، أعقبها زحف عدد من المضطجعين إلى الطرف الآخر من الخيمة، ليتمَّ بذلك إخلاء الصدارة «للغرباء». كان سليمان طيلة الوقت الذي استغرقتْهُ المأدبة، يحدِّق في الوجوه، ويحاول أن يقرأ في ملامحها ما تبقَّى من تلك القبائل المقاتلة، هؤلاء هم «البربر» الذين سمَّاهم أحدهم، «بحواريِّي» رسول الله. لأن شخصاً منهم، حسب زعمه، كان قد التقى في المنام بفاطمة الزهراء بنت الرسول، فسألتْهُ مَنْ أنتَ؟ فقال لها: أنا رجل من المغرب، فقالت: من أيِّ المغرب؟ قال: من البربر. فبكت فاطمة، وقالت: قال لي رسول الله، صلَّى الله عليه وسلَّم: «لكلِّ نبيٍّ حواريُّون، وحواريُّو ذرِّيَّتي البربر»!

سمع سليمان مراراً هذا الحديث للدلالة على أن خدمة الشرفاء ليست طارئة، بل متَّصلة بالمنابع الأولى للوحي. وها هو الآن يتفرَّس في هذه الوجوه المنطفئة، ليعثر فيها على بقايا العزِّ الذي رجع به أجدادهم من أبناء أمازيغ من مقابلة أسطورية مع «عمر بن الخطَّاب»، وقد بشَّرهم بأن الرسول قال عنهم:

«إن الله سيُعزِّز هذا الدِّيْن بقوم من المغرب، ليس لهم مدائن، ولا حصون، ولا أسواق، ولا علامات يهتدون بها». وإذنْ فهؤلاء المضطجعون هم أحفاد أمازيغ جبل فزاز، وأبناء «شعب الظلِّ» أو «آيت أومالو»، أبناء الأحرار من قبائل زيان، واشقرن، وآيت سخمان، وآيت يسري، وبني مجيلد، وزمور، وبني حكم... هؤلاء إذنْ هم وَرَثَةُ تلك النمور الطليقة التي كانت مبثوثة في غابات الأرز والعرعار والسنديان والبلُّوط، من جنان أماس، إلى بومزيل، ومن تراب بني مجيلد إلى زيان وإيتزر، وإلى جبال آيت يحيى، غابات وغابات، ومنابع وأنهار، وغارات وحروب خاطفة وتمرُّد على السلطة، ثمَّ انصياع لها بالقوَّة. اقتتال لا ينتهي» وانفلات دائم، وتأرجح مستمرّ بين الخمود والاضطرام.

قال سليمان لإبراهيم وهما يعودان من الوليمة: ماذا حصل لنا؟

لم يفهم إبراهيم لأوَّل وهلة، فعاد سليمان ليسأل عمَّا حصل لتلك النمور الشرسة حتَّى أصبحت تتفرَّج على مجالها يهرب منها، وعلى الغابة تنسحب حتَّى تصبح مجرَّد فكرة، كشجرة البلُّوط التي يبني إبراهيم قُبالتها بيته الطيني.

- لقد قطعوها، هذا كلُّ ما في الأمر!

كان إبراهيم يفكِّر طبعاً بالغابة، ويفكِّر بتجَّار الفحم، وعصابات الحطَّابين السرِّيِّيْن، أمَّا سليمان، فكان لديه شعور مبهم بأن هذا الشعب لم يفقد جزءاً كبيراً من الغابة فحسب، بل فقد بعضاً من روحه، لا يعرف كيف حصل ذلك، ربَّما بسبب المخاطر الدائمة أو بسبب إهمال أخرق لهذا المشتل الطبيعي الذي كان يمكن أن ينبت ما لا نهاية له من الأشجار، ومن العقول المتَّقدة، أو بسبب الجمال الباهر لجبال فزاز والأطلس الذي لم يترك حيِّزاً فارغاً

لانبثاق جمال آخر، أو فقط بسبب التسليم بأن هناك سلالة صافية، لا بدَّ أن يُسلِّموا لها قياد أنفسهم، فإذا اختفت السلالة، عوَّضوها بالحروب فيما بينهم، لأن الحرب أيضاً سلالة .. لا أحد يمكنه أن يفهم هذه الشراسة والأنفة والكبرياء كلَّها مجتمعة في كيان واحد مع هذا الإذعان الأعمى للسلالة، منذ وضعت قبيلة أوربة سطوتها كلَّها في خدمة رجل وحيد، فرَّ في القرن السابع الميلادي من بطش العباسيِّيْن، وعرض أمام رجال مضطجعين يُشبهون ضيوف الشيخ عبد الله أغصان شجرته الوارفة التي لا يقف سموقها حتَّى يصل إلى السيِّدة فاطمة الزهراء بنت الرسول، شخصياً. وأغرب من ذلك أن يموت الرجل نفسه، فلا يُولَد وريثه إلَّا بعد شهور وشهور قضاها «راقداً في بطن أُمِّه»، ولا يظهر قبره إلَّا بعد قرون، إلَّا أن تكون هذه الحكايات كلُّها مجرَّد إخراج، لا علاقة له بالحقيقة، وهَبْ أنها كذلك، فما هي الحكمة في هذا التبرُّع بأراض شاسعة للشريف دون حتَّى أن يُدقِّق أحدٌ في نسبه، والحال أن المتبرِّعين أنفسهم يُشعلون حروباً طاحنة لنزاع بسيط حول الحدود بين هذا التراب أوذاك أو هذا الماء أو ذاك.

وقف إبراهيم وسليمان أمام البناء الذي أشرف على النهاية، لم يبق إلّا وضع الأعمدة ونسيج القصب، لتصبح السقوف جاهزة، لا ينقصها سوى غطاء البلاستيك، ثمَّ الخليط العازل من طين وحصى، وبذلك فإن البيت ما إن تصير له نوافذ وأبواب، حتَّى تنتهي علاقته بالمادَّة التي نشأ منها، سيصبح امتداداً لجسد الإنسان. وقال إبراهيم إن ذلك سيحدث قبل بداية الشتاء، وربَّما استمع إلى قطرات المطر الأوَّل لهذه السنة تنزل على سقفه الجديد، وهو مستلقٍ على ظهره، يحاول أن يطرد من ذهنه صوت المطر على قصدير البراكة، ذلك الصوت اللاسع الرتيب الذي يسقط داخل الرأس، وينقر أسلاك المخِّ المتحفِّزة، الصوت الذي يتبعه منذ الطفولة حيثما ذهب، لأنه لم يعد صوت مطر يقع على شيء، بل صوت المطر نفسه، يسمعه كلَّما رأى مطراً، ولو من شرفة فندق في نيويورك.

رأى سليمان شخصاً تحت شجرة الفِلِّين، ينزع عن أعمدة الأوكاليبتوس المُعَدَّة للسقف قشورها ذات الرائحة الزكية، وعندما سأله عن الحكمة في ذلك، قال الرجل، إن «تجليد الأعمدة» أي نزع جلودها الندية، يمنع تسوُّسها، هل كنتَ تعرف ذلك؟ الجلد هو سبب التسوُّس؛ طبعاً، ردَّ سليمان الجلد هو سبب التسوُّس، في الخشب وفي غيره، ثمَّ جلس قريباً من الرجل، يتأمَّل الطريقة التي يقشِّر بها جسد الأوكاليبتوس، ليكشف عن اللحم الحَيِّ، ذلك الذي من فرط عُريه لن يتعرَّض للتسوُّس، وإذ كان قريباً من تلك العملية، فقد استمتع كثيراً بالشذى المنبعث من التقشير، شذى غامر، لا يشبه أيَّ شذى عرفه من قبل. وعندما رآه إبراهيم يمرِّر يده على الملمس الناعم للأعمدة المسلوخة، قال إنه اقتناها من شركة استغلال غابوي، اشترت مربَّعات الأوكاليبتوس من الجماعة. وذكر أن بريجيت ابتكرت حمَّاماً، بنقع هذا الجلد الطري، وأنه وجد ذلك مريحاً ومبهجاً في آنٍ، فتذكَّر سليمان أن جَدَّته كانت تطبخ لماء الحمَّام قشوراً وأوراقاً من شجر شتَّى، وأن ذلك كان يغمر الجسد كلَّه بشذى قويٍّ، يظلُّ عالقاً بالشَّعْر والثياب لأيَّام. حتَّى أُمّه بعد حمَّام قسري تتعاون نساء الخيمة على إخضاعها له، تصبح طفلة خائفة، تنزوي في ركن قَصِيٍّ، وتتوسَّل إليه أن يقول لهم إنها ليست هنا. فإذا اقترب منها ووصلتْهُ تلك الرائحة لم يقوَ على المقاومة، فطوَّقها بذراعَيْه، وهي لم تكن تحبُّ ذلك،

ولكنها كانت تسمح به في هذه اللحظة، لأن الغابة سكنت جلدها، وأصبحت شجراً كثيفاً، يملؤها بالظلال.

أحسَّ سليمان بعينَيْه تفيضان كما لو أنه أصبح من جديد ذلك الطفل الذي طوَّق أُمَّه بذراعَيْه، إنه هنا، في غابة المعمورة، بعد نحو خمسين سنة من هذا المشهد الطفولي، لا يعرف ما إذا كان هذا الدمع هو الذي وصل متأخِّراً أم أنه هو الذي بكى متأخِّراً في نوع من الاستدراك الغريب! وعندما استقرَّ في السيَّارة جنب إبراهيم، وهما في طريق العودة إلى الرباط، رأى من المناسب أن يقول شيئاً عن الموضوع، فقال: إنه عطر تلك الأعواد المسلوخة، أو نهاية يوم طويل، أو ذلك الغداء في خيمة مليئة بالأشباح، أو فقط تلك الأرض، أرض الشريف، التي كانت تبدو مثل جمل في قِدْر، أَلَا يقولون إن الجَمَل يدخل القِدْر

قطعة قطعة؟ ثمَّ ماذا؟ تريد الحقيقة؟ لقد اشتقتُ كثيراً إلى أُمِّي!

توقَّف إبراهيم في محطَّة البنزين قرب أسواق مرجان، وعندما كان عامل المحطَّة مستغرقاً في تنظيف زجاج السيَّارة من غبار الغابة، سأله سليمان:

- هل لديكَ أخبار عن (يَنْسِي)؟

قال إبراهيم:

- لا، ولكنني كثيراً ما أحلم به، نلتقي، ولكنه لا يتذكَّرني، أظلُّ أسرد عليه وقائع القصَّة التي جمعتْنا، فيُحدِّق في وجهي، ويبتسم ابتسامة إنسانية تُفزِعني، إنه لا يقول شيئاً، ولكنْ، يفهمني بتعبير وجهه أنه لا يعرفني، ولا يتذكَّر شيئاً ممَّا أقول، وعندما يستدير لينصرف، أتبعه وأنادي باسمه، فيستدير نحوي، فإذا هو كلب ضخم يهمُّ بافتراسي.

قال سليمان:

- كابوس مضحك؛ مَنْ يدري؟ ربَّما هو أيضاً يحلم بكَ، يجري وراءكَ، وينادي باسمكَ، فإذا استدرتَ، أصبحتَ كلباً يهمُّ بافتراسه؛

قال إبراهيم:

لقد حكيتُ الحلم لبريجيت، فقالت تقريباً مثلما قلتَ، وأضافت إن الكلب هو كابوس القُنْفُذ، وأنها متأكِّدة أن (يَنْسِي) يوجد في مكان ما، قريب هنا، يرانا ولا نراه، وربَّما يكون بصدد تحضير شيء، يُفاجِئنا به.

كان سليمان متأكِّداً من سطحية هذا الوجود الذي يتَّخذ هيأة انعطاف حاسم في حياة إبراهيم، بينما هو مجرَّد وجود ضبابي لكائن طريف، كان يمكن أن يعبر ويمضي دون أن يترك أثراً، وها هو يتمدَّد كقصَّة بلا أزمنة، مرَّات كثيرة، فكَّر سليمان أن يقول لإبراهيم: كفى من هذا القُنْفُذ! لقد أدَّى دوره وانتهى،

كان عليه أن يُوصِلكَ إلى بريجيت، وقد فعل. والآن فإن بريجيت هي الانعطاف الحاسم، وليس القُنْفُذ، لكن الارتباك الذي كان يُحدِثه ذِكْر (يَنْسِي) كان يمنع سليمان من قول شيء بهذا الحسم، خصوصاً وأن بريجيت نفسها صارت تبدو له مجرَّد وجود سطحي في حياة إبراهيم، كأنها طريق موازٍ، بما أنها لم تَستَعِدْه إلى المدينة، وتركتْهُ يغرق في مشروع إعادة الخليقة إلى نقطة البدء، فإنها إذنْ تمشي معه، ولا تمشي فيه.

عندما كان سليمان يذكر هذه الأمور لأُمِّ كلثوم، كانت تتعجَّب من قدرته على تركيب أشياء معقَّدة ممَّا كان يبدو لها في غاية البساطة. تقول إن إبراهيم يحبُّ امرأة هادئة. هذا كلُّ ما في الأمر، بريجيت لا تستعجل شيئاً، تترك النسيج يستوي خيطاً بعد خيط، لوناً بعد لون، حتَّى تتَّسق الأشكال، كأنها كانت هنا دائماً، تسكن في الخيوط التي تمشي.

عندما خرج إبراهيم وسليمان من محطَّة البنزين، وجدا سيَّارة تقف في الطريق الفرعي الذي يربط «الأسواق» بالطريق الدائري، وقد نزلت منها سيِّدة وأطفال يتصايحون، وعندما نزلا بدورهما من السيَّارة، سمعا الأطفال يتحدَّثون عن قُنْفُذ مرَّ أمامهم، ويريدون أن يمنعوه من العبور إلى الطريق السيَّار، أحضر إبراهيم مصباحه اليدوي من صندوق السيَّارة، وأنار تلك الهُوَّة التي تُشكِّل حاجزاً، يمنع العبور. لم يكن هناك أثر للقُنْفُذ، وانتهى الأمر بالحشد الذي اجتمع بسرعة إلى الانصراف، كلٌّ إلى حال سبيله. من الجائز أن يكون القُنْفُذ قد رجع إلى الوراء، وعاد أدراجه صوب المساحة الكبيرة. ومن الجائز أن يكون الآن مجرَّد مضغة نازفة وسط الطريق السيَّار. لا أحد يمكنه أن يتكهَّن بمصير قُنْفُذ، توحي خِلْقَتُهُ بأنه

وُجد، أصلاً، للتضليل. اتَّصلت بريجيت عندما كان إبراهيم ينعطف بسيَّارته من حيِّ الرياض نحو حيِّ الفتح، فأخبرها فوراً بظهور قُنْفُذ تائه قرب محطَّة الوقود في مواقف مرجان. فلم يبدُ في صوتها أيُّ أثر للمفاجأة، بل قالت بنبرة متوجِّعة إن صحيفة تحدَّثت اليوم عن ظهور قنافذ عديدة في حيِّ الرياض، وأن بعضها يقوم بغارات ليلية على الفيلَّات، ويتسلَّل إلى المطابخ

والمخازن. وكثير منها انتشر في أسواق مرجان وأسيما وكارفور وبيم، وفضلاً عن السرقات التي أصبحت تثير غضب السكَّان، فإن القنافذ تثير أعصاب الكلاب المربوطة، فتأخذ في نباح هستيري، لا يترك أحداً ينام. تقول بريجيت إن المثير للأسى هو أن عدداً من القنافذ تحاول العبور عبر شارع المهدي بنبركة وشارع عبد الرحيم بوعبيد، وعبر شارع النخيل وشارع الميليا، وأحياناً تجرؤ على عبور الطريق الدائري، وعند ذلك يتخلَّف منها ضحايا، تظلُّ لأيَّام متتالية أشلاء، لا تدلُّ على هُويَّتها سوى الأشواك المتناثرة، فإذا لفحتْها الشمس، أطبقت رائحتها العفنة على كلِّ شيء حتَّى تضطرَّ البلدية إلى تجنيد مئات العمَّال لغسل تلك الشوارع قبل سقوط ضحايا جدد.

كانت بريجيت مكتئبة، لأنها واثقة أن هؤلاء هُم بالتأكيد أبناء (يَنْسِي) وحَفَدَتُه، فكأنما كانت تقول لإبراهيم: ها هم أبناؤنا يُدهَسون في الشوارع، ونحن مَنْ تسبَّب في تيههم بين العجلات. وإبراهيم الذي لم يعرف طعم الأُبُوَّة من قبلُ داهمه إحساس بالفجيعة. فقال مرتبكاً إنه سيمرُّ بعد قليل. وعندما نقل هذه الأخبار السيِّئة إلى سليمان وهو ينزل قرب سكناه، رأى الحَيْرة ترتسم على مُحيَّاه، وربَّما لكي يتخلَّص منها قبل الصعود إلى شُقَّته، قال:

- لستُ مطمئنَّاً، بمثل هذه الأشياء الصغيرة تبدأ التحوُّلات المدوِّخة!

أمضى إبراهيم تلك الليلة وقتاً، لم يهتدِ إلى تصنيفه، فقد كان وقت امتلاء بمشاعر عارمة تجاه بريجيت جرَّاء ما أصبح لهما من فقدان مشترك، ووقت خَوَاء داخلي، بسبب هذه النُّذُر السوداء التي ذكرتْها الصحافة، والتي تقول دون أن تعلن ذلك بداية إبادة مؤكَّدة. لأن هذا الحديث المستفيض عن غزو القنافذ للأحياء الراقية ولأسواقها، ستتبعه بدون شكٍّ حملات تطهيرية بالمصائد والموادِّ السامَّة والمطاردات الحربية. وبين الامتلاء والخَوَاء بذل إبراهيم جهداً مضنياً للخروج من دوخة الأسئلة، ولمَّا لم ينجح في ذلك، استسلم لجسده، وقد كان مبذولاً لأنامل بريجيت منذ بضع دقائق، حتَّى تغلَّبت الملذَّة على الكآبة، فاستطاع العشيقان أن ينفصلا عن كلِّ شيء، وأن يظلَّا

ملتحمَيْن ببعضهما حتَّى رنَّ المنبِّه، لينتقلا، في اللحظة نفسها، إلى وضع شخصَيْن، يطرحان على أنفسهما أسئلة البدايات.

كانت بريجيت تُحضِّر الإفطار بحركات كبيرة، كأنها تريد ابتكار إيقاع عالٍ لليوم الذي تبدؤه، وتريد في الوقت نفسه أن تستبقيَ بهذا الحماس الزائد «زمناً» تعرف أنه سينسحب سريعاً مثل المياه السريعة في نهر هائج. كثيراً ما فكَّرت بريجيت بأن الإنسان لو استطاع أن يُجمِّد هذه اللحظات الأولى من الصباح، فإنه يستطيع الإبقاء على ما تبقَّى من اليوم متوقِّفاً، نعود إليه متى شئنا، لنستأنف به معجزة الوجود. وعندما ذكرت ذلك لإبراهيم، قال إن الزمن يتوقَّف في حالة واحدة، لحظة نفارق الحياة .. الزمن هو نحن أحياء، وعندما نموت يصبح زمن الآخرين .. ولحسن الحظِّ، فإن الأبدية ليست زمناً.

كان إبراهيم يشرب قهوته عندما اتَّصل سليمان، فأجابه متوجِّساً من أن تكون له أخبار مزعِجَة عن القنافذ، لكنه كان فقط يتساءل عمَّا إذا لم يكونا مهتَمَّيْن بحضور جلسة من جلسات «ليالي الفلسفة»، التي تنظِّمها جمعيات الفلسفة مع المعهد الفرنسي، في رحاب المكتبة الوطنية، في محاولة لإعادة الاعتبار للفلسفة بعد سنوات من الاحتقار والمطاردة. كانت ليلة اليوم ستستضيف الفيلسوف الفرنسي ميشيل صير، وأبدى سليمان خلال هذه المكالمة حماساً كبيراً للاستماع لهذا الفيلسوف، رغم فتور إبراهيم الذي لم يسبق له أن سمع بالاسم، ولا يعرف شيئاً عن فلسفته. لكن سليمان ما لبث أن أثار فضوله عندما ذكر أن

الكتاب الذي سيقدِّمه، يتحدَّث عن تحوُّلات الإنسان وهو يقع في فخِّ الحياة الرَّقْمِيَّة، وعلى رأس هذه التحوُّلات ما سمَّاه «بالإبهامية» مستعيراً ذلك من تلك الحركة المحمومة التي يأتيها الشباب وهم ينقرون بالإبهامَيْن لوحات هواتفهم الذكية. كان إبراهيم في إطار الحرب التي يخوضها على عاداته القديمة قد تخلَّص من «هاتفه الذكي»، ورجع إلى استعمال أوَّل هاتف حصل عليه إبَّان اشتغاله بالبنك، كان هاتفاً بسيطاً، لا يعرف شيئاً سوى إجراء المكالمات. وبما أن إبراهيم كان قد أغلق حسابه في الفيسبوك الذي استقرَّ

على اعتباره مزبلة كبيرة، واستغنى نهائياً عن الواتساب، وأتلف ترسانة الصور والفيديوهات التي راكمها خلال سنوات، فإن الاقتصار على وظيفة المكالمة كان يلائمه.

لذلك أثار فضوله اهتمام فيلسوف كبير بما يحدث للإنسان عندما يقع فريسة سهلة بين مخالب الرَّقْمِيَّة. فما كان منه إلَّا أن وافق بسرعة على حضور هذا اللقاء، وأسعده أن تُوافِق بريجيت على مصاحبته.

وصل إبراهيم وبريجيت إلى المكتبة الوطنية، فاندهشا لذلك الحضور الحاشد، في وقت لم تعد فيه اللقاءات الثقافية تستقطب سوى كمشة من «المدمنين». قال سليمان إن ليالي الفلسفة جذبت سنة 2015 ما يناهز عشرة آلاف متتبِّع في الدار البيضاء والرباط، أغلبهم من الشباب الذين يُفترَض أنهم لم تكن لهم أبداً علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالفلسفة، فقد «حظرت» عليهم لسنوات في أسلاك التعليم وفي الحياة العامَّة، هل يُقْبلون عليها اليوم للانتقام من هذا الحظر الظالم أم لأنهم يرون في استعادة العقل نوعاً من العثور على مفاتيح المستقبل أم لأنهم اهتدوا بإيحاء من «التضامن الأممي»مشخَّصاً في «المعهد الفرنسي» إلى محاربة الظلامية بالفلسفة؟! يقول سليمان الفلسفة كالماء، تجد دائماً منفذاً للإفلات من الأَسْر. في نهاية السبعينيات، وبعد إجبارية الصلاة في المدارس، وتعميم الكتاتيب القرآنية، وبعد حذف الفلسفة من الجامعات المغربية كلِّها باستثناء جامعَتَي الرباط وفاس (لأسباب لا علاقة لها بأيِّ استعلاء طبقي)، وبعد مطاردة الفلسفة وإبعادها من المقرَّرات والكتاب المدرسي، وبعد إغلاق معهد السوسيولوجيا (لأنه يُفرِّخ الباحثين عن توابل التمرُّد)، ستفتح الدولة في الجامعات كلها شُعَب الدراسات الإسلامية نسخاً ممسوخة عن نظام المدارس العتيقة، حيث سيتولَّى التخلُّف والجهل والوهَّابية التي تمشي في ركابهما مسح كلِّ أثر للفلسفة، قولاً وفعلاً .. ومع ذلك، ها هم مئات الشباب يتزاحمون في قاعة عمومية، ليستمعوا إلى الفلسفة، بل وأكثر من ذلك، ليستمتعوا بها.

يتذكّر سليمان أنه استمع إلى ضابط من الأكاديمية العسكرية بمكناس، جاء إلى الثانوية التي كان يدرس فيها بالخميسات، لِيُحَرِّض طلّاب الباكالوريا على الالتحاق بالأكاديمية، وقد أتى في معرض حديثه عن المحتوى الدراسي للأكاديمية على ذِكْر المكانة الخاصَّة للدرس الفلسفي في نظام التكوين العسكري، فسأله أحد الطَّلَبَة:

وما جدوى الفلسفة في الحياة العسكرية؟

أجاب الضابط:

- وما جدواها في الحياة المدنية؟!

ربَّما لم يكن الضابط الشابُّ يعرف حينئذ أن الفلسفة ستصبح حصرياً مادَّة عسكرية.

من السهل طبعاً ترتيب منافع الفلسفة في لائحة طويلة حتَّى تصبح هي الأخرى لها أركانها وفرائضها ونواقضها، وذلك كلُّه لن يعادل أبداً هذا البريق الذي يشعُّ من عيون فتيات وفتيان يدخلون هذه القاعة، ليُنصتوا إلى مفكِّك ذكي، يستخرج المعنى من الكلمات، والكلمات من المعنى.

الفلسفة تشبه الحبَّ، يقول سليمان، والوقوع فيها يشبه الوقوع في الغرام، التَّوله نفسه، الهيام نفسه، والتوجُّس نفسه، والوقوف المرتبك على شفا الهاوية.

يتذكَّر سليمان ارتعاشته الأولى أمام نصٍّ فلسفي، كان نصَّاً لأفلاطون عن «الجميل» يوجد ضمن نصوص فلسفية مختارة، عثر عليها في مكتبة الثانوية، وفيه يرسم الفيلسوف مسار الرحلة التي يجب أن تقود الإنسان من «جمال جسد واحد» إلى «جمال واحد» متعدِّد في أجسادٍ متفرِّقة، ثمَّ إلى «جمال الروح»، ثمَّ إلى الجمال الموجود في انشغالات الناس، وفي قوانينهم، ثمَّ إلى

«جمال العلم» الذي يجعل الإنسان أمام «شساعة الجميل» يدرك أنه لا يوجد سوى عِلْم واحد هو «عِلْم الجميل».

حدث له ذلك في يوم ربيعي، وهو يتهجَّى هذا النصِّ، تحت الإنارة الشحيحة لقاعة المراجعة بالداخلية، لم تكن الإنسانية قد اكتشفت بعد الهواتف الذكية التي يفوق تعدادها عدد الأذكياء في الكوكب، ولا أصدقاء الفيسبوك، ولا عكَّاز غوغل الذي يقودنا في الظلام، ولا ملاقط اليوتوب التي تسرق بها أحلامنا السرِّية، لم يكن يعرف أننا سنمرُّ إلى «الجمال الافتراضي»، وأننا سنبتكر «أشياء ذكية» نتخلَّص فيها من ذكائنا. ولكنْ، ليس أفلاطون وحده مَنْ لم يكن يعلم بذلك، سليمان أيضاً لم يكن يعرف، كما أن لا أحد منَّا يعرف اليوم كيف ستكون عليه الأرض يوم تستطيع الأشياء الذكية أن تتخلَّص منَّا جميعاً، وتضع حَدَّاً لمنغِّصَيْن أساسيَّيْن من مُنغِّصي هذه الحياة: التناسل والموت.

يشعر سليمان بامتنان عميق لهذا النصِّ، ليس لسبب معرفي، ولكنْ، لأسباب عاطفية محضة. فقد حصل أن استدعاه مدير الثانوية غداة اليوم الذي «ارتعش فيه» أمام أفلاطون، وأخذه لاستقبال حرص على تفخيمه بكلِّ ما أُوتي من بلاغة لغوية وغير لغوية. وقد بدا له المدير الذي كان يعتبره أضخم كائن في الوجود ضئيلاً في تلك الغرفة التي يمكن أن تجري فيها الخيل .. وزادت ضآلته عندما وصل السيِّد الوزير .. وكان، في الواقع، شخصاً لطيفاً، تغمر وجهه ابتسامة مقتضبة، ويكاد يكون خجولاً. قال الوزير الذي كان من أعيان زمور، أو أصبح من أعيانها إنه معجب بنبوغ إسماعيل في مادَّة الفلسفة، وإنه سيرسله بمنحة فرنسية إلى باريس، ليدرسها هناك «على حقِّها وطريقها» .. وها هو سليمان سنوات بعد ذلك يجلس بين بريجيت وإبراهيم، ويستمع إلى ميشيل صير:

«الإبهام الصغير، أو الإبهامة الصغيرة، الإبهامة أفضل، لأن هيمنة النساء على هذا الشكل الجديد للوجود الإنساني يفرض تأنيث الإبهام، هؤلاء الفتيان والفتيات أبناء الكتاب، وأحفاد الكتابة، تحوَّلوا تحت بصرنا، ونحن مستمرُّون في اعتبارهم نسخا منَّا، إنهم يشتغلون بأدمغة يضعونها تحت أصابعهم، وفيها

ذاكرة ومخيال ولوجيسيلات تتحرَّك في كلِّ اتِّجاه، وتحلَّ مشاكل عدَّة في آنٍ واحد، وفي قلب هذه التحوُّلات تحوُّلات المخِّ نفسه، الذي صارت نتروناته تشتغل بطريقة مختلفة تماماً عمَّا تشتغل به في أمخاخنا العتيقة ..».

قال سليمان وهم يغادرون المكتبة الوطنية مخاطِباً إبراهيم:

- أنتَ الذي فهمتَ كلَّ شيء، لا خيار لنا سوى البدائية، الإنسان الجديد سيكون مُخَّاً في إبهام .. ونحن سنعود إلى الغابات، لنموت فيها وَفْق الطقوس القديمة للنُّسخ الأولى من الأموسابينس.

-5-

كانت أُمُّه تذكر في أغانيها جندياً من «تِيدَّاسْ»، يتذكَّر سليمان أن الجندي في الأُغنيَّة، ربَّما عاد من حرب قديمة، الحرب انتهت من زمان، وهو لم يعرف بذلك. ظلَّ مختبئاً في الغابات والأحراش، حتَّى عثرت عليه متكوِّماً في الخميلة، ولأنه كان جميلاً وله شَعْر أسود ينسدل على كتفَيْه، فقد خبَّأتْهُ عن الناس، وعن الحرب التي لم تعد قائمة، تقف الحكاية عند هذا الحَدِّ، ولا تقول إنها من كثرة ما تردَّدت على الخميلة بأطعمة تُهرِّبها من الخيمة، انتهت القبيلة بوضع يدها على جندي، يشبه إنسان الأحاجي، لكنْ، في أُغنيَّة أخرى تستأنف الأُمُّ الحكاية بالحديث عن العينَيْن اللتَيْن بلون السماء، إنهما معي تقول الأُغنيَّة، وبعيدان كما السماء»، ذات يوم «ستنهمران عليَّ مثل مطر الأصياف». ثمَّ في أُغنيَّة أخرى تعود للجندي من «تِيدَّاسْ»، «كان في عشِّه مثل نَسْر جريح، والأفعى التي شمَّت رائحة الدم تسلَّلت إليه، ونشبت نابها في جسمه الواهن».

ذات مرَّة سأل سليمان أُمَّه: أين توجد تِيدَّاسْ؟ فأشارت بيدها جهة الشرق من ولماس، ثمَّ جهة جنوبها، ثمَّ اعترفت أنها لا تعرف. كيف لي أن أعرف؟ قالت إنها كانت ستذهب إلى تِيدَّاسْ ذات فجر، ولكن الشمس أشرقت عليها وهي وحيدة تنتظر، ثمَّ ضحكت وقالت: كلُّ شيء مرَّ بالليل، وأطرقت مَلِيَّاً، ثمَّ غرست نظرتها الغائبة في عينَيْه، وقالت:

- عندما تكبر، اذهبْ إلى تِيدَّاسْ.

- وماذا أفعل هناك؟

- لا أعرف، ولكنكَ سترى تِيدَّاسْ!

- لا أحبُّ تِيدَّاسْ. قال سليمان وقد أحسَّ بالخوف.

- «الحمقاء» تحبُّ تِيدَّاسْ!

ولأوَّل مرَّة سيهرب الطفل سليمان نحو جَدَّته، تأكله الغَيْرة من هذه التِّيدَّاسْ التي لا يعرف ما إذا كانت أُغنيَّة أم غابة أم ذئباً تلمع عيناه في العتمة.

عند عودته من فرنسا مرَّ سليمان من فترة اضطراب حادٍّ، سببه الظاهر صعوبة التكيُّف مع أجواء توجد في تعارض دائم مع كلِّ ما تعوَّد عليه في باريس .. أمَّا أسبابها الخفية، فقد كانت ملتبسة ومتشبِّعة، وتكاد تكون غير مقبولة بالنظر إلى الخفَّة الجذلانة التي كانت تصاحب وقوعه في غرام أُمِّ كلثوم. لقد حصلت له بعض المماحكات العادية في الكلِّية. استشفَّ منها بعض التعالي، وشيئاً من عدوانية مبطَّنة، أوعزها سليمان للعصبية التي تأخذ بخناق نخبة المُدُن كلَّما وجدت نفسها وجهاً لوجه أمام متفوِّقين من الهامش .. لكنه لم يَمِلْ، بأيِّ حال من الأحوال، إلى اعتبار ذلك مشكلة مستعصية، بالرغم من أن هذا الجوَّ ساهم في ما بعد، وخصوصاً عندما شرع في ترسيم علاقته مع أُمِّ كلثوم، في شحذ حساسيته المفرطة تجاه «النظام الثنائي» الذي يحشره دائماً في خانة «القادم من كوكب آخر». ثمَّ انتهى إلى اعتبار كلِّ تلك التفاصيل التي تكاد تكون تافهة أحياناً مجرَّد تجسيد للثنائية الموجودة في العقلية السائدة، ثنائية الوضيع والنبيل، الشرفاء والعوامّ، أولاد الناس وأولاد السوق، الألبَّة والأوباش، أو الخشاش، أو الخديش، أو الحثالة، أو هوبَّنْ درْكَنْ، أو ما إلى ذلك من أصناف السوقة والرعاع التي لا ينبت في تربتهم سوى الشرِّ والخديعة. ولا أحد يتساءل كيف تستخلص هذه الزبدة المتعجرفة من مَخْضَةٍ بهذا السوء؛ كانت أُمُّ كلثوم حديثة العهد بالتمرُّد الماركسي، لذلك كانت تضحك على هذه الأمور، وتعتبرها موجودة في المخيال الثقافي أكثر ممَّا هي موجودة في الحياة الواقعية، لكن سليمان كانت له

قرون استشعار خاصَّة بهذا الأمر، يلتقط بها ما يدور في المواقف والعبارات المسكوكة، والسلوكات، واللغة، ويشعر بنفسه مَعنيَّاً بها حيثما قيلت، وبأيَّة طريقة قيلت بها، إذ لا بدَّ في كلِّ مرَّة أن يشرح كيف درس الفلسفة في باريس؟ وأين كان من قبل؟ في الخميسات؛ ومن قبل؟ في ولماس؛ ومن قبل؟ في الغابة، وهل العائلة هاجرت من فاس إلى ولماس؟ أبداً، كنَّا دائماً هناك، منذ مئات السنين، أو منذ آلاف السنين، نوعاً من «السكَّان الأصليِّيْن»

إذا شئتَ! يشرح كثيراً، ويشرح، وينتهي إلى الاعتقاد بأن حياته كلّها ستصبح نوعاً من الاعتذار الدائم عن وجوده في «مكان خطأ». ثمَّ إن جَدَّته وأخواله ما لبثوا أن حرَّكوا قصَّة «الشريف»، طمعاً في استعادة الأرض أو جزء منها. وسليمان كان قد انفصل تماماً عن هذه «الأسطورة الخاصَّة»، لكن تحريكها من جديد أيقظ كثيراً من الفتن الخامدة، وضمنها ما يتعلَّق بالجندي: مَنْ هو جندي الأُغنيَّة؟ ومن هو النَّسْر الجريح، والأفعى؟ وهل حدث شيء لا يعرفه كان سبباً في جنون أُمِّه، وكان هو طرفاً فيه بشكل مباشر أو غير مباشر؟

كان اضطراباً كبيراً، عاشه سليمان بإصرار كبير على اعتباره خللاً في الواقع، وليس في النَّفْس. إنها فقط أزمة النزول من الجنَّة .. لقد أكل من الشجرة المحرَّمة، فهوى من رحاب السوربون والكوليج دو فرانس إلى مدرّج الشريف الإدريسي في كلِّية، تتوقَّف فيها الدراسة عند كلِّ أذان .. أمَّا السلالة، فأمر محسوب على «الرصيد الخرافي» الذي لا يضير في شيء أن ينقص خرافة أو يزيد أخرى، إذا كان الإنسان قد وُلد فرداً، وسيموت فرداً، فما الحاجة إلى خيط متَّصل أو منفصل من الأنساب الواهية. النَّسَب الوحيد الجدير باعتباره كذلك هو الجنون الذي يمسك بتلابيب المرأة، ويجعلها تغنِّي حافية القدمَيْن، وتنام بخفَّيْها الوسخَيْن. أو جنون الطفلة تتسكَّع بين الأشجار ببطنها المنتفخة، وقد كنتُ فيها، ولا أعلم بالجهد الذي تبذله في نقل قدمَيْها من خطوة إلى أخرى، كأنها تهيل تراباً وحجراً على ضوء، لا يريد أن يختفي. يقول سليمان، الجنون حالة فردية مثل الولادة ومثل الموت، لا يمكن أن تكون علاقة نَسَبية أو سَبَبية بين شخصَيْن .. ولكنْ، مَنْ أداره؟ «أنا ولد الحمقاء»، ليس مجازاً ولا سباباً، بل إقامة معها في السحب الخفيضة نفسها التي تلمس رؤوس الأشجار، وتجعل الماعز يطمح في التحليق، وإلَّا لماذا يتبعني الخوف من أن أقيم مرَّة أخرى في شيء مشابه، مع امرأة أخرى، هي أُمِّي وليست أُمِّي، المرأة التي انتزعتُها انتزاعاً من «كتاب المراثي»، وقلتُ لها إنني لا أحبُّ هلدرلين؟! ومع ذلك فإن اشتهائي الأكثر عصفاً وتطويراً، هو أن أمصَّ الشفَتَيْن اللتَيْن تلهجان بكلماته الحمقاء ..

- هذا ما تريد؟

وضحكت المرأة، وقالت نمشي أوَّلاً، غير مبالية بموافقتي بعشرات من «نعم» حارقة، ومجازفة بأن لا تكون للقُبْلَة عندما ستحصل أيَّة علاقة بهلدرلين.

أو تلك الفتاة التي كانت تجهش بالبكاء في أثناء الحبِّ، وتتوسَّل لي أن أستمرَّ:

- ليس بكاء، ليس بكاء، أرجوكَ .. لا تتوقَّف متعي كلُّها هكذا، نار عظيمة، «ودموع مطافئ» تُهرع لتطويق الحريق!

وتلك الأخرى، وتلك الأخرى .. دائماً تصل العلاقة إلى بئر، نتبادل الوقوع فيها، ونبتكر طُرُق إنقاذ، تردم البئر من فرط رقَّتها.

ذات مرَّة ذهب سليمان إلى طبيبة نفسية، وقال لها بدون مقدِّمات:

- أخاف كثيراً أن أكون سبباً في جنون امرأة!

فتفرَّست الطبيبة في ملامحه طويلاً، ثمَّ قالت ضاحكة:

- لديكَ كلُّ ما ينبغي لذلك!

- قال إبراهيم:

- أقصد الجنون الآخر، ذلك الذي نسمِّيه في بلادنا: «طيران الفرخ»، عندما يخرج العصفور الصغير من قفص الجمجمة ويطير، مخلِّفاً قفصاً خاوياً. «والفرخ» يمكن أن يُحلِّق بعيداً، ثمَّ يعود، ثمَّ يُحلِّق، ثمَّ يعود، وقد يتيه، فيصبح القفص خاوياً حتَّى تُطبق عليه العتمات.

قالت الطبيبة:

- لنبدأ إذنْ من البداية.

لم يكن سليمان يعرف شيئاً يبدأ منه سوى العودة مجدَّداً إلى الطيف الذي يسكن جلده، طيف الحمقاء التي كانت تتبعه إلى المدرسة، فإذا ابتلعتْهُ أسوارها، أرسلت خلفه صوتها الشجي منتزعة به ابتسامات حيَّة من أقرانه، وفرحاً هادئاً من أعماق روحه. وماذا في الأمر؟ إنها فقط تغنِّي، وتكلِّم نفسها. وما أكثر ما رأى الناس متأثِّرين حَدَّ البكاء وهم يسمعون غناءها .. ثمَّ إنها كانت تبدو بهيأتها النحيلة المترنِّحة، مريضة .. توشك على الانطفاء .. «إنها تمضي»، تقول النساء العابرات وهنَّ يرونها تستعيدني من المدرسة .. كأنهنَّ يقلنَ إنها تعود إلى البيت، وأنا كنتُ أدرك أنهم يقولون إنها تموت، فكنتُ أتشبَّث بتلابيبها حتَّى تغضب منِّي، وتنهرني .. ثمَّ تندم على ذلك، فتبكي وتقول لي:

- حتَّى بدون شجرة .. ها أنا أبكي!

كانت تشير بذلك إلى سرٍّ من أسرارنا الصغيرة، أيَّام كنَّا في الغابة، فكانت كلَّما أخذتْها نوبة بكاء في الأيَّام الماطرة، جلست تحت شجرة البلُّوط الكبيرة. وانكفأت على نفسها، لتبكي بدون صوت، كنتُ عندئذ أذهب إليها، وأمسك يدها، وأقول لها:

- انهضي، البكاء يوجد تحت الشجرة!

وعندما تنهض وتمشي، ويدها في يدي تأخذها نوبة ضحك، فأقول لها:

- شُفْتِي، قلتُ لكِ، البكاء يوجد تحت الشجرة!

فتحرِّك رأسها بالإيجاب وهي مستمرَّة في ضحكها الذي ليس ضحكاً تماماً، بل شيئاً بين الضحك والأنين. وعندما تهدأ تمسح وجهها، وترسم على ملامحها سحنة جدِّية، لتطرد بها عبثي.

لنبدأ إذنْ من البداية!

بداية مَنْ؟ وبداية ماذا؟ هل يعرف أحد كيف تبدأ الأشياء؟ وهل يمكن أن يحصل كلٌّ واحد منَّا على بداياته الخاصَّة؟ .. وماذا نفعل عندئذ ببدايات

الآخرين؟

هناك بداية في حكاية الشريف. ولكنْ، لا أحد يعرف عنها شيئاً. لا أحد يعرف أنها ابتدأت أو انتهت. وهناك بداية في حكاية الأُغنيَّة، ولكنها أقرب للشِّعْر منها إلى المعيش، ثمَّ هناك بداية الطفل الذي كان «ولد الشريف» و«ولد الحمقا» دون أن يكون شخصَيْن منفصلَيْن، وضع منذ فجر طفولته في أرجوحة، يدفعها الهمس والغموض. والبدايات نظنُّها خلف ظهورنا أبعد ما تكون عمَّا نحن عليه هنا والآن، ولكنها تنبثق عندما تشاء، كأنها تلحق بالنهايات أو تتجاوزها في سباق محموم.

يتذكَّر سليمان أنه فكَّ ارتباطه بالطبيبة النفسية، لأن المغامرة المعرفية كانت أقوى من اضطرابات الغرام .. ولأن باريس، آه، هذه المدينة «الإبرة الهائلة بفتحتها الليلية التي يمرُّ منها خيط السين» على رأي كورتزار، تستطيع أن ترتق التمزُّقات الطارئة والجِرَاح التي بدأت قبل البدء .. وعندما وقع في غرام أُمِّ كلثوم ابتعد عن أزمته القديمة، وقال في نفسه هذه بداية يمكن أن يُبْدَأَ بها، الحبُّ كعلاجٍ معجز! هل هناك ما هو أكثر بداهة في تجربة الإنسان من هذه الوصفة؟ وفيما بعد سيتخفَّف يقينه في كلِّ ما يرى، فيقول لأُمِّ كلثوم معلِّقاً على اضطرابه الجديد:

- إنها فقط الأعراض الجانبية للوصفة العظيمة!

ليكن؛ ستكون انتكاسة، تتبعها انتكاسات، مَدٌّ وجَزْرٌ، بين السقوط والنهوض، بين الذهاب المرح إلى المستقبل، والعودة الخائفة إلى الماضي. وفي الحياة دائماً منعطفات صغيرة، تكاد لا تكسر الخطَّ المستقيم، تقودكَ إلى الأشياء أو إلى الأماكن التي سبق أن نفضت منها يدَيْكَ.

وها هو سليمان الآن بسبب الغابة التي يؤمُّها مع إبراهيم، وبسبب القُنْفُذ الذي يظهر ويختفي، تراوده فكرة الذهاب إلى «تيدَّاس»، ليس طمعاً في فتح فجوة في الحكاية، بل فقط لإنزال المكان من علياء المجرَّد، واختبار قدرته على

الصمود أمام الواقعية الهوجاء التي تغرس في مجال آمن باسم المدنية، مأذنة ودكاكين وأزقَّة، وتعطي لذلك الاسم نفسه دونما أيِّ اعتبار لمخزونه الشِّعْري.

ذات أحد سيجد سليمان نفسه محشوراً في رحلة يقتسمها مع إبراهيم وأُمِّ كلثوم وبريجيت، كان ينبغي أن يذهب بمفرده إلى هذا المكان، ولكنه تهيَّب من ذلك، وها هو نادم على تحويل حجٍّ وجداني إلى ما يشبه رحلة مدرسية. وقد قالت أُمُّه متى ما وصلتَ إلى تِيدَّاسْ فما عليكَ إلَّا أن تُنصِتَ «لأصحاب المكان»، فكيف سيفعل ذلك في زوبعة من الدهشة والثرثرة؟!

الطريق التي تنعطف يميناً بعد تجاوُز مدينة تِيْفَّلْتْ صوب «المعازيز»، تمنح تلك المشاهد القروية الحديثة التي تأسر الحقول الضيِّقة بين المسالك المعبَّدة، وأسلاك التوصيل الكهربائي، والإسمنت الذي طرد الخيام وبيوت الطين، لا يكفي أن تنعطف خارج الطريق الوطنية لتعثر على الوحشية المأمولة. هذه مجالات كانت في قلب غابة المعمورة، ولكنها اليوم مجرَّد أرض فلَّاحية شحيحة، تنتظر معجزة التعمير، لتصبح أحياء جديدة أو مُدُناً، رغم أنف العالم القروي. قال إبراهيم إن تِيْفَّلْتْ كانت أيضاً هكذا قبل أن تصبح أحد المراكز الأكثر حيوية والأعقد نسيجاً في منطقة زمور، ولكنْ، تصوَّروا أن «تيفلفت» الاسم الأصلي لتِيْفَّلْتْ يذكرها ليون الإيفريقي «كمدينة صغيرة يخترقها نهر قليل الأهمِّية، على ضفافه غابة تؤوي أُسُوداً شرسة جدَّاً .. تضرُّ كثيراً بالمارَّة». لقد عبرنا قبل قليل جسراً على هذا النهر، حيث لا ماء ولا غابة ولا أُسُود. هل المكان يظلُّ المكان نفسه مهما فَقَدَ من أرواحه؟ هل المكان بوجود أسد هو المكان نفسه متى أصبح بدون؟ وهل الأسد في مكان ما هو الأسد في أيِّ مكان؟ تساءل إبراهيم وهو يتوقَّف في المفترق الذي يؤدِّي تفريع منه إلى المعازيز يميناً، ويبدأ منه الصعود يساراً نحو تِيدَّاسْ. كان يريد أن يعرف ما إذا لم تكن هناك طريق أخرى عبر المعازيز، وبذلك يمكن عبور جسر على نهر بورقراق، واختراق المرتفعات المحيطة به، وقد كانت بكلِّ تأكيد في تاريخ ما قريب أو بعيد جزءاً لا يُجتزأ من مجال المعمورة.

لكن سليمان أقنعه سريعاً باتِّباع الإشارة الطّرُقية للذهاب رأساً إلى وجهتهم. وهكذا بدؤوا الصعود نحو تِيدَّاسْ، عبر أشجار قليلة عادت إلى الظهور متفرِّقة ومتناثرة في البداية، ثمَّ أصبحت أكثر كثافة كلَّما تقدَّموا عبر المنعرجات.

كان سليمان حزيناً، بسبب الغابة، ما بقي منها وما انقرض، ثمَّ أصبح غاضباً ومكتئباً عندما رأى مساحات شاسعة من شُجريات «الكريش»، و«الدرو» تشتبك بها أكياس البلاستيك السوداء، وهو ما اعتبره في البداية أسراباً من الغربان، قبل أن يدرك ما فعلتْهُ مطارح النفايات العلنية أو السرِّية بهذا المجال .. ثمَّ عادت الخضرة الغامقة من جديد، وعادت أشجار مختلفة للتناوب على المرتفعات. ثمَّ بدأت «الهضاب الصغيرة» في الظهور، قرية اسمها «هضاب» أو «هضاب صغيرة»، «تِيدَّاسْ» كيف يمكن أن نعيدها بِكْراً إلى أُغنيَّة بعيدة؟. سينهار هذا الشِّعْر دفعة واحدة عندما ستقف السيَّارة فيما يشبه ساحة تجمَّدت منذ سنوات في الارتجال المتهافت الذي جعل منها ساحة. نزل سليمان للعثور على شيء جاء من أجله دون أن يدرك ما هو. وبينما وقف سليمان متَّكئاً إلى السيَّارة. يتفرَّس في ملامح العابرين، كأنه على موعد مع أحدهم. كان متأكِّداً أن هذه الرحلة لن تكون شيئاً، إذا ما لم تسفرْ عن لقاء ما .. لقاء مريح ومربك، مثل خيط حكاية تمدُّه السماء، وما علينا إلَّا أن نمسك به، ونجذبه، لتنهمرَ علينا خيوط الحكاية كمطر جميل. لكن سليمان سرعان ما تنبَّه إلى الطابع الخرافي لهذا الانتظار. فابتسم لنفسه: لا شيء يصمد أمام الحاجة إلى معجزة؛ وماذا عساه يحدث لي في هذه الهضبات المتكوِّمة على نفسها؟ هل سيبزغ منها فجأة صوت أُمِّي؟ هل ستحطُّ على كتفي يد جندي «فارٍّ من الأُغنيَّة»؟ هل سأجد طريقة أتبع بها دمي، لأعثر على الشخص السرِّي الذي ينام في الحكاية؟

ماذا عساه سيحدث سوى أن المكان الذي كان أسطورة سيصبح قطعة كابية من شظايا بركان قديم؟

كان سليمان يائساً تماماً، وتمنَّى في قرارة نفسه لو لم يستسلم للرغبة في هذه الرحلة.

تعلَّقت أُمُّ كلثوم بذراعه، وقادتْهُ عبر مسالك خارج الممرِّ الطُّرُقي، نزولاً نحو الوادي الذي امتلأ بالمنازل حتَّى لم يعد يسمح بتأمُّل الهضبات، ثمَّ عادت به إلى الطريق بحثاً عن موقع يسمح باستعادة «الهضبات» مأسورة في ضباب أزمنة سحيقة، ويسمح بإنقاذها من مخالب الأبنية المتزاحمة. وعندما ابتعدا بعد تجاوُز صيدلية أخرى ومقهى الأطلس يمين الطريق المؤدِّية إلى والماس، ظفرت بشيء يشبه ذلك، فوقفوا جميعاً نصف مقتنعين، ليطلقوا صرخات انبهار بهذا الجمال المختفي خلف برقع من الحياء والفقر. قال سليمان:

- تجوَّلتُ كثيراً في جبال فرنسا وسويسرا وألمانيا، لا يوجد مكان جميل في تلك الأصقاع البعيدة إلَّا وشُيِّدت فيه قرية ساحرة تليق به، لماذا لا تكون لنا قرى ومُدُن تحتفي بأمكنتنا الرائعة، وتليق بها؟

قال إبراهيم:

- لتلافي اللخبطة دون شكٍّ؛ القاعدة هي الاحتفاظ بالأُبَّهة «لمغرب الواجهة» و«بالتدهور» للمغرب العميق، نوع من حماية الوضاعة من الانقراض، الوضاعة شرط من شروط الحُكْم، أَلَا تريد أن تفهم ذلك؟

استأنف سليمان المشي، وترك أُمَّ كلثوم تدخل في نقاش حادٍّ مع إبراهيم حول فكرته عن الوضاعة، وبدا له من الجمل الأولى أن النقاش لن يفضيَ إلَّا إلى مزيد من سوء الفَهْم، وعندما اقترب من السيَّارة، سمع أُمَّ كلثوم تقول:

- مَنْ سمعكَ تُقيم هذا الجدار العالي بين عالمَيْن، سيعتقد أننا في الهند، حتَّى الهند شُفيت تقريباً من هذه الثنائية الحادَّة، وأصبح الذين «لا يُمسُّون» يصلون إلى المراكز العليا في السلطة.

قال إبراهيم: نعم، نعم، بسبب الديمقراطية اللعينة، ثمَّ أضاف ضاحكاً:

- ومع ذلك، فإنهم «لا يُمسُّون».

جلسوا في المقهى المجاور لصيدلية تِيدَّاسْ، لم يكن فيه زبائن في ذلك الوقت، لكن الطاولة الوحيدة التي التأم حولها خمسة أشخاص توقَّف فيها كلُّ شيء بمجرَّد دخولهم، القهوة وورق اللعب والحديث الصاخب والضحك، كأنما أصبح كلُّ شيء لقطة جامدة، خرجت من الزمان والمكان، وأصبح من غير الوارد أن تعود إلى الحركة، إذا لم يمتدّ خيط بينها وبين الغرباء الذين لم يتوقَّفوا عن الحديث عن الهند والعامَّة والهندوسية والبوذية ممَّا أضفى عليهم مزيداً من الغرابة. ولمَّا تجرَّأ أحد الأشخاص الخمسة، وسأل الزبائن الجدد عن أصلهم وفصلهم، وتيقَّن الجميع ظاهرياً على الأقلِّ، من أن الأمر لا يتعلَّق ببعثة رسمية، تريد بهم شيئاً، عاد الشريط للاشتغال بالفيلم نفسه الذي يبدأ أو ينتهي إلى أن يزحف الظلام على الأشخاص والأمكنة.

كان سليمان في أثناء ذلك مشتَّت الذهن، لا يستطيع الرسو على شيء، ينتقل بين أُمِّه وأخواله وجَدَّته، كأنه يريد أن يضعَهُم في هذا الديكور المحيط به، ليصبح للبلدة جذور في الأسماء وفي الأشخاص، ولكنهم كانوا ينفلتون من هذا الترتيب الذهني، ويعودون إلى أجوائهم المبهمة.

ثمَّ فجأة ظهرت في رصيف المقهى، كانت سيِّدة عجوزاً توقَّفت متَّكئة على عكَّازها، ولم تكن واهنة ولا بئيسة، كانت وقفتها ولو مقوَّسة، متماسكة ثابتة، وكان وجهها ناصع البياض، وخدَّاها متورِّدَيْن لحَدٍّ تبدو فيهما التجاعيد مجرَّد رسم لعوب. وقد ركَّزت نظرتها الحادَّة على سليمان، لم ترفع بصرها عنه حتَّى عندما سألتْها أُمُّ كلثوم عابثة عمَّا إذا كان زوجها قد أعجبها لهذا الحَدِّ. لم تزدْ على أن رفعت يدها معترضة على الكلام، واستمرَّت في التحديق في وجه سليمان. كان من الممكن أن لا ينتبه إليها أحد، فتظلّ هناك، محدِّقة في الشخص الذي تريده، ولا شيء كان سيحدث للإخلال بهذا المشهد الذي لا

شكّ أن العجوز كرَّرتْهُ مراراً وهي تمشي بين المقاهي والعابرين. ولكن انتباه المجموعة إلى وقفتها وإلى تحديقها المباشر في شخص لا تعرفه، أحدث ارتباكاً كبيراً في المشهد. وقد بادر إبراهيم إلى تقديم صدقة للعجوز، يُنهي بها هذا الارتباك، فصدَّتْهُ بحركة عصبية، وتطوَّع أحد الرجال الخمسة، فانتقل إلى طاولة المجموعة، وأسرَّ إليهم وظَهْره إلى العجوز أنها ليست متسوِّلة، إنها فقط مضطربة العقل منذ قُتل ابنها قبل عقود في ظروف غامضة. وفي نهاية المطاف، لم تجد المجموعة شيئاً تقوم به أفضل من القيام دفعة واحدة استعداداً للمغادرة. فتوجَّه الأربعة صامتين نحو السيَّارة، وانطلقوا بها في طريق العودة، وقد هجمت عليهم فجأة أجواء سوداء، بسبب ظهور قتيل في الحكاية. وعندما توقَّفوا أخيراً في تِيْفَّلْتْ لتناول الغداء، اغتنمت بريجيت لحظة انفرادها بإبراهيم، فسألتْهُ متوتِّرة:

- ألم تلاحظْ شيئاً؟

- مثل ماذا مثلاً؟

- المرأة العجوز؟

- ما لها؟

- إنها تشبه بشكل مثير سليمان .. كأنها ولدتْهُ، أو ولدها!

-6-

هل يمكن لطفل لم يصل السنة الثانية من عُمُره أن يتذكَّر شيئاً ممَّا يحصل حوله في ذلك الفجر البعيد؟ تتراءى لسليمان كلَّما حاول التوغُّل في هذه الأدغال البعيدة صفحة بيضاء مثل نهر عميق، لا يرى فيه شيئاً، ولكن الأصوات التي تسكنه تقفز من حين لآخر من تحت الماء، وتحاول أن ترسم له برقصاتها المهرِّجة لوحات، يستعين بها على الملاحة. ذاكرتُهُ، في الواقع، هي التي تفعل ذلك، تُعيد تركيب ما انفلت منها، ليصبح قابلاً للاستعادة، ولو في شكل أحداث غريبة، جرت بعيداً عنه، وعن تلك الحياة التي تبخَّرت في الهواء المالح للأزمنة.

كانت جَدَّته تحكي أشياء كثيرة عن مرض أُمِّه، قبل أن تضعه، وبعد ولادته، مع الإلحاح على أن المرض تفاقم تحديداً بعد ولادته.

«لم يكن مرضاً واضحاً، كانت فقط تصرخ وتقول إن كلَّ شيء يؤلمها، وعندما آخذكَ إليها لتُرضعكَ، تتوقَّف عن الصراخ، وبعد ذلك، أكاد لا أحملكَ على ظهري حتَّى تعود إل أنين متقطِّع، قبل أن ترفع صوتها بما يشبه العويل، ولكنها، في ذلك كلِّه، لم تكن تؤذي أحداً، كان فيها من الحنو على الناس وعلى الأشياء، ومن الطيبة ما يكفي لإذابة جبل من الحجارة، ولم تتغير إلَّا عندما أخذناها إلى ضريح مولاي بوعزة، لتلمُّس الشفاء والبركة، منذ بداية الرحلة صارت عنيفة، وكلَّما اقتربنا من المقام، امتلأت بطاقة جبَّارة، لا يقوى أحد على كَبْحها،حتَّى إنها دحرجت من تلَّة الضريح كلَّ الذين تعاونوا على إخضاعها، من القبيلة ومن الزوَّار، وعند ذلك جاءت سيِّدة، وأشارت بضرورة تمريرها تحت صخرة مولاي بوعزة، فتطوَّع عدد هائل من الناس لإخضاعها لهذا الطقس الذي لا يمرُّ منه بسلام إلَّا الذين كُتب لهم الرضى .. والصخرة مجرَّد فتحة في الحجر الصلد، ولكنها تكفي لإعادة تمثيل مشهد الصراط، والنجاة منها هي نوع من العبور إلى الجنَّة... لكن البنت ما إن حشرناها تحت الصخرة حتَّى صارت بركاناً، تغلي به الأرض، حتَّى إن الحشد الكبير الذي

تجمَّع حولها لم يرها تخرج رشيقة من الصخرة، بل رأى الصخرة ترتفع إلى عنان السماء، والناس يتدافعون، ليُبعدوا جمعنا المفزوع عبر الوادي، كأنهم يُبعدون لعنة جاءت في موكب «المجدوبة». ولم نكد نخرج من ذلك الزحام حتَّى صارت لا تكفُّ عن التقاط الحجارة وإلقائها على كلِّ شيء يمرُّ أمامها. أخوالكَ كانوا يتناوبون منذ هذه الرحلة المشؤومة على حراستها، لأنها كانت تريد أن تذوب في الغابة على حَدِّ قولها. ثمَّ صاروا يتناوبون على ضربها. وعندما يشرعون في ذلك تتوقَّف عن الصراخ والأنين حتَّى يصير ممكناً سماع السياط في الجبل كلِّه. إلى أن رحل الشريف، جاء خدَّامه لأخذ أغراضه، ثمَّ ذات فجر، ركب بغلته، فمشى عدد كبير من الناس، يتقدَّمهم أخوالكَ، يمسكون بركاب البغلة، ومن حين لآخر، يشتدُّ الزحام من تدافع الناس لالتماس البركة وتقبيل بلغة الشريف وبرنوسه وسرج البغلة وأديمها المتعرِّق .. وعندما كان أخوالكَ يحاولون تهدئة الناس كان يهبُّ من هؤلاء شخص يصبُّ عليهم غضبه، لأنهم لم يعرفوا كيف يستبقون من بينهم هذه العين الصافية التي يُشيِّعونها الآن بلا حياء ولا حشمة، ومباشرة بعد عودة ذلك الحشد، توقَّف صراخ أُمِّكَ .. ولشهور عدَّة كانت تنام بالليل والنهار، نُوقِظها بالقوَّة، لتأكل وترضعكَ قبل أن تعود إلى سباتها المتَّصل ..».

الأصوات التي تسكنه، وتُوقِظه في بعض الليالي مفزوعاً منقضباً، يختلط فيها صراخ أُمِّه، بصراخ أشخاص يتصارعون أو يقتل بعضهم بعضاً، بعواء ذئب يقف على مشارف الخيام. وبصوت امرأة تقول لشخص يضربها:

- ليس هو، اضربْ كما تشاء، ليس هو!

كان سليمان يستفيق وقد استقرَّت الجملة في فمه، يردِّدها بأعلى ما يستطيع، ليخرج

من الكابوس، وعندما تسأله أُمُّ كلثوم عمَّنْ يكون هذا الشخص الذي ليس هو، يردُّ مرتبكاً:

- لا أعرف، ربَّما أُمِّي تقول ذلك، فأردِّده بعدها، لإنقاذها من الضرب!

- وهل تتذكّر شخصاً كان يضرب أمَّكَ؟

- لا أذكر، ولكن أصواتاً تعني ذلك تسكنني.

تقول الجَدَّة «إن الصراخ هو التربة التي نما فيها الغناء، لم تكن تغنِّي هكذا أبداً، وما تُغنِّيه لم يُغنِّه أحد قبلها. تنظم هامسة، ثمَّ تُغنِّي، فكأنما ينزل ذلك الغناء من السماء، إذا كانت غائمة ينزل أسياناً، وإذا كانت صافية ينزل جذلاناً. حدث ذلك فجأة، كانت جالسة في مدخل الخيمة في هدوء الظهيرة، فرفعت صوتها بالغناء، دون أن يكون لذلك أيَّة علاقة بترنيماتها الطفولية، كما حدث لها ذات يوم عندما كبرت فجأة، كانت طفلة، وكما لو أغمضت عينَيْكَ وفتحتَهما صارت امرأة، وإحدى زوجات جَدِّكَ هُرعت نحونا، وقالت:

- انظروا!

فنظرنا صوبها.

كلُّ ما حصل بعد ذلك، حصل بسبب تلك العيون التي افترستها بدون رحمة، لا شيء أقسى من عين البشر. الشريف أيضاً نظر صوبها في ذلك اليوم، وقال ما قال، وهي لم تقل شيئاً أبداً، لا قبل ولا بعد، كانت فقط تضحك من حين لآخر ضحكاً متَّصلاً متدفِّقاً، كأنها تضحك ممَّا جرى، ثمَّ تتبع القطعان عندما لا يكون الشريف في الخيام.

فإذا نُهِيَتْ عن ذلك، قالت متأفِّفة:

- وماذا سأفعل طوال اليوم؟

- تعالي ساعدينا في الخيمة، تقول أُمُّها.

تردُّ محتدَّة:

- لا أحبُّ شغل الخيام!

وعندما يعود الشريف تصير طفلة من جديد، وتُهرع إلى أكياس المؤونة التي يحملها، تبحث فيها عن الحلوى وعلب اللبان والبسكويت. تُخزِّن منها ما تشاء، وتذهب بالباقي إلى أطفال الخيام. ذلك كلُّه والشريف يفحص بعينَيْه الضيِّقَتَيْن الطفلة الذي لا تريد أن تكبر، ويتحسَّر على المرأة التي رآها ذات يوم مكتملة النضج قبل أن تهرب من جديد إلى طفولتها. ولا أحد كان يعرف أن «المجنونة» تكون طفلة عندما تريد، وامرأة عندما تريد.

تقول أُمُّ كلثوم إن الأصوات التي تزوره في المنام لم تظهر إلَّا بعد الرحلة إلى «تِيدَّاسْ» وسليمان يؤكِّد أنها كانت تزوره عندما كان تلميذاً داخلياً في الخميسات، ثمَّ توقَّفت عندما حلَّ بباريس، وعادت فعلاً بعد الرحلة مباشرة .. لا فائدة من الجري وراء تفسيرات تقريبية لما يحدث، الأصوات تسكننا، ولا سبيل إلى التخلُّص منها. يحصل ذلك ونحن أجنَّة في بطون أُمَّهاتنا، نسجل كلَّ نَأْمَةِ أو نداء أو وجيب أو آهة أو ضحك أو بكاء، في علبنا المائعة، ثمَّ ذات يوم ستخرج الأصوات من تلقاء نفسها، أو بتحريك عشوائي. سليمان يعمد، أحياناً، إلى غربلة الأصوات، ليستخلص صوت أُمِّه نقياً صادحاً، وهي تنهض من نومها، وتجتهد وهي ما تزال جالسة، لتجمع شَعْرها كلَّه في منديل رأسها ذي الألوان الفاقعة. وتُغنِّي:

«لا أريد ضفائر

سأُمشِّط هذا الشَّعْر الغزير

وأُطعمُهُ للريح

حتَّى تشبعَ»

أحياناً .. ينجح سليمان في إنقاذ صوت أُمِّه من الجلبة، وأحياناً يضيع منه، فتتكفَّل الأحلام بإصلاح الخَلَل. إلى أن جاءه صوتها ذات فجر وهو بين المنام واليقظة.

قالت كأنها تتكلّم وراء باب:

- لماذا ذهبتَ إلى تِيدَّاسْ؟

فتح الباب متلهِّفاً، وألقى بنفسه في حضنها. لكنها تصرَّفت كما كانت تفعل، وهي جالسة تحت الشجرة. دفعتْهُ عنها، وقالت متأفِّفة:

- أنتَ لم تعد رضيعاً!

- بلى، رضيع ما أزال، تحملني جَدَّتي إليكِ، لنسكتَ معاً، ونرهفَ السمع حتَّى نُمسكَ بصوت الحليب .. هل تتذكَّرين؟

- مَنْ رأيتَ في تِيدَّاسْ؟

- لا أحد، كانت هناك فقط امرأة عجوز، حدَّقت في وجهي طويلاً.

- أريدكَ أن تعود إليها. إذا كنتَ تُحبُّني، عُدْ إليها.

ثمَّ أغلق الباب، أو على الأصحِّ، دَبَّت في خشبه حياة سريعة، فأصبح شجرة. فلم يتبقَّ من هذا اللقاء سوى عطر نسغي، يشبه عطر أغصان البلُّوط التي يقطعها الرعاة لماشيتهم.

كلَّما مشى سليمان في الغابة صحبة إبراهيم، صادف رعاة يحزُّون أغصان البلُّوط لأغنامهم، فيصدر عن جروحها عطر لاسع، هو بالذات عطر أُمِّه، في المنام وفي اليقظة، كأنها هي أيضاً قُطعت من شجرة. بريجيت دأبت على تصوير الأشجار المقطوعة، ووضعها في صفحتها على الفيسبوك. كانت تريد أن يعرف العالم كلُّه أن المعمورة تتعرَّض لاغتيال بطيء، وأنها ستختفي ذات يوم. إحدى أكبر غابات البلُّوط في العالم ستنسحب من الوجود تاركة خلفها قرى مرتجلة، لا شيء يمكنه إيقاف هذا التلاشي. منذ زمن بعيد، كانت مجال اقتتال بين القبائل، عندما كانت القبائل تملك الغابة وتخسرها في تنقُّل دائم بين الخضوع والتمرُّد. والمخزن الذي كان يخترق الغابة في حملات متَّصلة

لإخضاع الجبال المتمنِّعة والقبائل الخارجة عن الطاعة، كان يقايض مروره الآمن من المعمورة بوضعها تارة بين أيدي رماة زمور، وتارة أخرى بين أيدي رماة بني حسن. الآن وقد وضع الرماة أسلحتهم، وانتهى زمن الحركة والحملات، فإن الغابة لم تعد مجالاً للاقتتال، ولا ملكاً للمقايضة. صارت مجرَّد ثروة مستباحة، فقدت خيولها الوحشية وضواريها، وظباءها ووحيشَها الذي كان الفرنسيون ينظِّمون حوله مواسم صيد لأكابر باريس. وشيئاً فشيئاً لم يعد يلوذ بها سوى الأرانب، وأسراب حجل مذعور من كثرة ما تطارده البنادق والعصي والفخاخ. ثمَّ شيئاً فشيئاً صارت غابة خاوية، والغابة تموت حتماً عندما تصبح خاوية. الإنسان الذي كان يخطف حطبة يابسة، وهو خائف يترقَّب هجوم الضواري، صار يتقدَّم بمناشيره وشواقيره مطمئنّاً، لينزل شجرة كاملة من علياء اطمئنانها، ولكنْ، يقول سليمان لبريجيت: هؤلاء الذين تصوِّرينهم يقطعون الأشجار ليسوا سوى أبناء وحَفَدَة الرماة الذين كانوا يحمون الجيوش النظامية،

ويوفِّرون لغزواتها المؤن والمقاتلين، وجُلُّهم لا يقطع شجرة، ليصبح من الأغنياء الجدد، بل فقط ليأكل، وليطعم بضع معزات، سيُحوِّلها السوق وموادّه الشحيحة إلى دقيق وزيت وسُكَّر. الدولة وضعت قواعد حديثة لاستغلال الغابة، ولم تفكِّر بالكائنات القديمة التي لم تعرف حياة أخرى غير حياة الغابة. وحول القواعد الحديثة نمت إمبراطوريات صغيرة من صفقات الخشب الذي تبيعه الجماعات، ومن تجَّار الفحم الذين يضحكون على الإدارة. ومداخيل الغابة الحديثة تحطُّ الرحال في أحضان منتخبين من كلِّ حدب وصوب، صارت لهم بين عشية وضحاها سيَّارات رباعية الدفع، ومحطَّات بنزين على جوانب الطُّرُق التي شقُّوها بعرق الغابة، مثلما بنوا مقرَّات وأسواقاً وغابات تحتية للكسب السريع .. وماذا يفعل أبناء الرماة؟ هل يعودون إلى بنادقهم؟ هل يتجمَّدون في لوحة فانطازيا تأسرهم إلى الأبد في باروديا الحرب وملهاة الخيل والبارود، هل يتحوَّلون إلى طابع بريد، أو إلى نوع نادر في النظام البيئي، يمشي جنباً إلى جنب مع الديمقراطية والحداثة؟ دعه يأكل، دعه يمرّ؛ يقول سليمان. بينما إبراهيم الذي أصبح من سكَّان الغابة يتابع بحياد تامٍّ هذا الخلاف البيئي، حتَّى إذا امتدَّ انبرى لتنبيه أطرف الخلاف إلى أن ما تتعرَّض له

المعمورة ليس شيئاً أمام ما يتعرَّض له القطب الشَّمالي، وأعماق البحار، وغابات الأمازون ونهرها العظيم، وجبال الهمالايا. وأن الكوكب في مجمله سيفقد بعد قرون قليلة مظاهر الحياة كلَّها، لا بشر، ولا حيوان، ولا نبات، طوفان غامر وزلازل وأنواء مكتسحة، سينتهي هذا الضجيج السخيف الذي تقوم به ذرَّة ضعيفة، تتصوَّر نفسها مركزاً لهذا الكون. لكنْ، هل تعرفون الخبر المفرح؟ بعد هذه القيامة، لن تحتاج الأرض إلَّا لمليونَيْن أو ثلاث من السنوات العادية، لتتطهَّر من أدران البشرية، ثمَّ تستأنف الحياة بعد ذلك، كأن شيئاً لم يكن . شيء رائع، أليس كذلك؟ حتَّى المعمورة ستعود كما كانت، وأحسن ممَّا كانت عليه، وستمتدُّ من جديد على أكثر من مائة وثلاثين ألف هكتار، ونستأنف دورة الحياة من البكتيريا إلى الأموسابينس الثاني وآدم وحوَّاء، والقاتل والقتيل، والديناصور والتنِّين، والحوت الذي التهم يونس، وسفينة نوح، والنظريات والثورات وقصص الحبِّ وجرائم الحرب. كلُّ شيء سيستأنف حماقاته بمنتهى الدقَّة في التسلسل والتشابه، لأن التكرار هو جوهر الحياة، (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيْدُهُ).

مع ذلك، تقول بريجيت، السكوت على هذه الجرائم لا يختلف كثيراً عن المشاركة فيها، منذ سنة فقط، اختفى مربَّع الميموزا، ولم يبقَ من الغابة الكبيرة في هذه المنطقة سوى الأشجار الواقفة على جنبات الطريق. لم يحدث هذا بعد آلاف السنين، بل خلال سنوات معدودة. حتَّى الشيخ عبد الله الذي عاش جُلَّ حياته في الغابة، لم يعد يأبه لذلك. كأن ما يحدث لها هو بالذات ما يجب أن يحدث.

التفت سليمان نحو الشيخ عبد الله، وسأله:

- هل ترى ما يحدث للغابة؟

ردَّ الشيخ عبد الله ساخراً:

- وهل ترى ما يحدث لعمِّكَ عبد الله؟ وما لها الغابة؟ (ما تموتش؟!) سأسحبها معي، إذا عاشت أزيد من قرن كما عشت، فماذا تريد أكثر؟

قالت بريجيت:

- وأولادكَ، وأحفادكَ؟ أتحبُّ أن يعيشوا بدون غابة؟

قال الشيخ عبد الله:

- الغابة، هي الكثافة والوحوش والخوف، أليس كذلك؟

قالت بريجيت:

- نعم، وأشياء أخرى.

فقال الشيخ عبد الله:

وإذنْ، لم يضع شيء، المُدُن هي غابات هذا الوقت!

- والأشجار، أيُّها الشيخ، أين ستختبئ الأشجار، إذا انقرضت الغابات؟

قال سليمان وقد تأثَّر بفلسفة الشيخ:

- في الواقع نحن نُصرُّ كثيراً على النظر إلى البقع الخاوية. انظروا إلى غابة الحزام الأخضر، وإلى الملايين من أشجار الزيتون التي غرستْها الدولة. وإلى النخيل الذي حطَّ رحيله بمُدُن المملكة كلها، أشجار تموت، وأخرى تُولَد، ما هو المفجع في الحكاية؟

قالت بريجيت:

- معكَ حقٌّ، لدينا اليوم أشجار أكثر، ولكنْ، غابات أقلّ. الغابات لا تُعوَّض بكثرة الأشجار.

رفع سليمان يدَيْه مستسلماً، واتَّجه صوب السيَّارة .. كان يفكِّر بتِيدَّاسْ، وبالمرأة العجوز التي سيبحث عنها أو ستبحث عنه. وكان يفكِّر في طريقة ينجو بها من هذا الفخِّ الذي يعرف أنه متى ما وقع فيه، فسيصبح جحيمه الأبدي، وفي لحظة ما قدَّر أن الفخَّ ليس قَدَرَاً لا مفرَّ منه، يكفي يقول سليمان أن أُقرِّر بمحض إرادتي أن لا أتبع أيَّ نداء خارجي .. ولو كان نداء أُمِّي. أن لا أُنصت لما تقوله الأحلام والهواجس، وأن أبقى في الشخص الذي بنيتُهُ بنفسي، كما بنى إبراهيم بيته الطيني، مُنصتاً لدواخلي، وللمشاعر المؤجّجة التي التقطتها من أكوام الجليد. لماذا عليَّ أن أُسلِّم هذا الشخص المشبَع بالسكينة إلى أشباح تبحث عن قُوَّتها في أرواح الناس؟

وظلَّ سليمان يردِّد في نفسه هذه الأسئلة وغيرها حتَّى وصل إلى حيِّ الفتح، فما إن فتح باب شُقَّته حتَّى وصله عبير الحساء الذي يحبُّه والمرأة التي يحبُّها، فقال في نفسه: إذا كان هناك شبح يتربَّص بهذه اللوحة الجميلة، فلا مناص من قتله قبل أن يقتلَني، هناك ثلَّاجة ضخمة في جوف كلِّ إنسان، تحفظ فيها جثامين الأشباح القتيلة، وقد آن الأوان لأستخدم الثلَّاجة التي تخصُّني.

ونام سليمان نومة عميقة، حتَّى إنه عندما استفاق لم يُصدِّق أن نهاراً جديداً قد وصل، وأمضى وقتاً طويلاً قبل أن يدرك أنه هو، وأنه في الفراش الذي هبَّت منه أُمُّ كلثوم كأنها خرجت من المنبِّه. وعند ذلك أسلم نفسه لما تبقَّى من طقوس الإفاقة. ثمَّ نزل من الشُّقَّة لإحضار خبز ساخن من مخبزة الحيِّ، وعندما كان يهمُّ بالانصراف أخبره صاحب المخبزة أن شخصا كان يسأل عن عنوانه قبل قليل، فأقلقه الأمر، وأسرع الخطى، حتَّى إذا وصل إلى باب العمارة، رآها جالسة أعلى السلالم، غارقة في بياضها الناصع، فما إن لمحتْهُ حتَّى حدَّقت فيه بعينَيْن متَّقدتَيْن في مثل زرقة السماء ..

لم يقل صاحب المخبزة إن سيِّدة عجوزاً تبحث عن عنوانكَ، بل تحدَّث عن شخص، والشخص لم يكن هناك، كانت هناك امرأة تِيدَّاسْ، بكلِّ جبروت نظرتها الزرقاء، ولم يكن يبدو عليها أنها راغبة في الكلام، أو مستعجلة لاقتحام حياة أحد ما. لقد جلست حيث جلست، لتصبح جزءاً لا يُجتزأ من جغرافية المكان، ربَّما تصير فيما بعد جزءاً من جغرافية الكلام، لكن المرأة التي توحي بجلستها الواثقة أنها تعرف كلَّ شيء لم تكن هناك للكشف عن حقيقة، بل فقط لوضع نفسها في البناء المختلِّ، في ذلك الفراغ الذي يخترق الجدار ويجعله آيلاً للسقوط. حتَّى سليمان وقد اضطرب لرؤيتها سرعان ما طردها من مجاله البصري، فلم يُلقِ عليها تحية الصباح، ولا فكَّر في مخاطبتها، بل توجَّه إلى شُقَّته، كأنه رآها فقط في شاشة تعرض صوراً سريعة. وعندما أخبر أُمَّ كلثوم بأمر المرأة، هُرعت مستاءة لدعوتها إلى مائدة الإفطار، كيف تكون متيقِّناً أنها هي، امرأة تِيدَّاسْ، ولا تدعوها؟ قالت ذلك ونزلت مسرعة، وقد تركت الباب مفتوحاً. انتظر سليمان طويلاً، وقدَّر أن ما تفعله أُمُّ كلثوم الآن مُجَازِفَةً بالتأخُّر لأوَّل مرَّة في حياتها عن حصَّة التدريس، هو بالضبط ما لا ينبغي للإنسان أن يفعله بأيِّ حال من الأحوال، إذ في اعتقاد سليمان بالحكمة الشعبية وليس بالفلسفة «أن اللي خَلِّيتها تْخَليكْ»، كلّ ما تركتَهُ يتركُكَ، إذا كنتَ ماشياً، فلا تتوقَّف عند ما ترى، بل واصِلْ مشيتكَ، لا تعتبر أن القَدَرَ قد وضع في طريقكَ حالة، يجب أن تحشر فيها نفسكَ. اتركْ له بضاعته في عنقه، وانصرف إلى حال سبيلكَ. هل خرجتَ لتُحضر الخبز الساخن؟ طيِّب، لا تُحضرْ سوى الخبز الساخن، ما هي الحكمة في إحضار امرأة عجوز جلست لسبب تعرفه وحدها في سلالم العمارة؟!

عادت أُمُّ كلثوم لاهثة، وخبطت الباب بقوَّة. لم تجد العجوز، لقد ابتلعتْها الأرض، وبالمقابل، وجدت شخصاً، أرسله إبراهيم لتصليح سخَّان الحمَّام. لقد ذهب لإحضار معدَّاته. كانت غاضبة، ولا تعرف كيف تقول غضبها، أو تنسبه لشيء محدَّد، هل لأنها لم تجد المرأة أم لأن سليمان لم يُعِرْ لمبادرتها أيّ

اهتمام أم لأنها نزلت وصَعِدَت أربع طوابق وهي لا تحبُّ ذلك أم لأنها قد تتأخَّر في الوصول إلى حصَّتها .. أم فقط لأن الصباح الذي يبدأ بهذا التوتُّر يتحوَّل إلى مساء قبل الأوان؟ وفيما كان سليمان يشرب قهوته قال لأُمِّ كلثوم:

أمَّا وقد تبخَّرت المرأة، فإنني مضطرٌّ لاعتبار ظهورها مجرَّد رؤيا .. كأنني استخرجتُها من هلوسة قديمة، ووضعتُها في تلك الجلسة. شجَّعني على ذلك مرور شخص بالمخبزة يسأل عن عنوان سكناي .. وأيضا قوَّة ذلك التحديق الأوَّل الذي لم أُشفَ منه، وظلَّ معي مفصولاً عن صاحبته، وهو ما كان يرعبني. لقد قمتُ بإرجاعه إلى المرأة .. هذا كلُّ ما في الأمر . وحتَّى ولو كانت هناك بالفعل «لضرورة الحكاية»، فإن اللعبة كانت ستفسد حتماً بمجرَّد صعودها إلى الشُّقَّة.

كانت أُمُّ كلثوم قد وصلت إلى الباب بكامل هيأتها الأستاذية، فتوقَّفت لحظة، لتقول مغتاظة إن الشخص الذي سيُصلح السخَّان قد وصل، فأسأله بالمناسبة إن كان يستطيع إصلاح هذا العطل الجديد الذي يجعل أشخاصاً من لحم ودم لا يظهرون إلَّا لكَ وحدكَ.

بعد انصراف أُمِّ كلثوم، انشغل سليمان بتفاصيل الإصلاح الذي بذل الشخص جهداً واضحاً لجعله مهمَّة شبه مستحيلة. وقد تسلَّى بذلك. تفهَّم إصرار تِقْنِيٍّ مبتدئ على بيع «خبرته النادرة». بطريقة أقرب للسخرية منها لأيِّ شيء آخر. نعم، نعم، فهمتُ، يقول سليمان، كان السخَّان قريباً من الانفجار، لولا الألطاف التي أوصلتْكَ إليه في الوقت المناسب، وربَّما كنتُ سأقضي في الحمَّام جرَّاءَ تماسٍّ أحمق بين الماء والكهرباء، كما حدث لكلوكلو، هل تعرف كلوكلو؟ أكيد أنكَ لا تعرفه، جيل آخر، وموت آخر، عندما كان يمكن للموت أن يشبه صعقة راقصة؟ وماذا سنفعل الآن لنقطع الطريق على المأساة القادمة؟

نُبدِّل قطعة غيار فوراً، ليكن، من الأفضل أن نقوم بذلك على وجه السرعة .. ولكنْ، قبل ذلك، لا بدَّ أن نفكِّك السخَّان، ونُنزله إلى الأرض. لا مناص من

ذلك، أو حتَّى أستعير منكَ فكرة الرقصة، لا يمكن أن نرقص أسرع من الموسيقى.

وها هو الماء مقطوع في الشُّقَّة، والسخَّان قد نزل إلى الأرض، والشخص يريد الخروج أوَّلاً لتدخين سيجارة، وماذا لو دَخَّنْتَها في الشرفة؟ لا ينفع، لا بدَّ من تعديل مزاجي بالتدخين مشياً، حتَّى لا أركب أيَّ شيء بالغلط. وإلَّا سنعود إلى وضعية الخطورة القصوى، تلك التي تسبق الانفجار .. أو الصعقة على طريقة كلوكلو.

جلس سليمان في الشرفة وقد أدرك أن مشاغل الحياة اليومية أفضل للإنسان من كلِّ العقاقير المضادَّة للانهيار العصبي، إنها مجرَّد تفاصيل تافهة في الظاهر، ولكنها تأخذكَ من نفسكَ، ولا تتركك فريسة لأسئلة معقَّدة، وأكثر من ذلك تبثُّكَ في الأشياء، فتصبح سلكاً في سخَّان، أو مُوصلاً في قنِّينة غاز، أو ربطة بقدونس نسيتَها، وعليكَ أن تنزل إليها أربع طوابق.

الآن وقد استقرَّ السخَّان في مكانه، وعادت أُمُّ كلثوم لتواجه القيامة التي خلَّفها الإصلاح، صار بإمكان سليمان أن يعود إلى نفسه، أي إلى المرأة التي تركها أسفل العمارة .. هل كانت هناك حقَّاً؟ هل جاءت من تِيدَّاسْ خصِّيصاً لتبحث عنه؟! وإذا كانت قد فعلت لماذا تختفي دون أن تكلِّمه؟ وما هو الهدف من هذه اللعبة؟؟ كان سليمان حتَّى الآن شبه مقتنع بأن المرأة لم تظهر في المكان الذي رآها فيه، بل ظهرت في خياله أو خطرت في باله، فوضعها في المكان الأنسب لوظيفتها في الحكاية، يدلُّ على ذلك أن العجوز ما كان لها أبداً أن تعرف شيئاً عن مقرِّ سُكناه. كان واضحاً أن سليمان قد اتَّجه إلى إبقاء المرأة في سجلِّ العابر والوَهْميِّ. إنه لا يريدها، لا يريد أن يربط أيَّ جزء من حياته بوجودها. كان يقول لنفسه: أعرف إلى ماذا تريد الحكاية أن تجرَّني إليه، ولكنني مُصمِّم على البقاء حيث حفرتُ لجذوري أيَّام ما كانت هشَّة وقابلة للتلف، وبذلتُ كلَّ ما قدرتُ عليه وما لم أقدر عليه، لتنغرس عميقاً، وتجاهد من أجل البقاء.

فجأة تذكّر سليمان أن أحد الأشخاص الخمسة الذين كانوا في طاولة مجاورة لطاولتهم في مقهى تِيدَّاسْ، قد سأله عن المدينة التي أتوا منها، وعن الحيِّ الذي يسكن فيه، وقد ذكر له سليمان حيَّ الفتح، يتذكَّر الآن ذلك جيِّداً، فالشخص سأله متظاهراً بمعرفة دقائق الأمور.

- من جهة البحر أم من جهة الأوطوروت؟

ليس مستحيلاً إذن أن يكون الشخص قد ذكر ذلك للعجوز، سواء سألت أو لم تسأل، وفي هذه الحالة، فإن ظهورها في الحيِّ لم يكن مجرَّد رؤيا، بل ظهوراً حقيقياً موضوعاً في سيناريو يقتضي الظهور والاختفاء، أي تحضيراً دقيقاً لبناء محكم من الوقائع والإيحاءات، إنها هنا، في الحيِّ، أو في المدينة، تقضي أيَّاماً هادئة عند بعض أقاربها، لا تقول شيئاً عمَّا يشغلها، ولا تعبأ بما سيقع، لأنها، ببساطة، لا تنتظره، ولا ترغب فيه، إنها بنوع من المكر الفطري تريد أن تخرِّب وهماً أو يقيناً، لا فرق. وربَّما تريد أن تفعل ذلك بالصمت، وليس بالثرثرة.

تحدَّث سليمان مطوَّلاً في الموضوع مع إبراهيم الذي أصبح منذ استقرَّ في المعمورة مستمعاً جيِّداً لِمَا يحفل به المجال من إشارات، فقال إبراهيم إن الرؤيا ليست نقيضاً للمحسوس، إنها جزء منه، مكمل ومعدّل ومصحّح إذا اقتضى الأمر، وقال إنه جمع كثيراً من الكُتُب والوثائق عن الغابة وعن قبائل زمور وزعير وبني حسن، ولكن الإشارات والأحلام تُسعفه في استحضار روح المكان أكثر ممَّا تُسعفه المعرفة.

وقال إبراهيم في نهاية حديثهما، إن العجوز هي، بالتأكيد، امرأة من تِيدَّاسْ، ولكنها

أيضاً روح من ذلك الماضي الذي يتشابك فيه التاريخ الشخصي بأشباح السلالة وأساطير الأصول المتنافرة. ليس هناك ما يستحقُّ أن ننسج حوله حبكة بوليسية. نحن هكذا، كلُّ واحد منَّا يعيش بطريقته الخاصَّة علاقة بسيطة أو معقَّدة، مع «شبح الأصل»، الأصل في السلالة، والأصل في القبيلة، والأصل

في المدينة، لا بدَّ أن يكون لكَ أصل وفصل، وإلّا فأنتَ في الكمِّ المهمَل الذي لا يُطلَب منه أن يكون ورقة يانعة في شجرة أنساب، بل مجرَّد اسم في سجلِّ الطاعة.

- وأين نحن تحديداً؟ سأل سليمان.

قال إبراهيم:

- نحن في السجلِّ، ولكنْ، برؤوس ساخنة!

عموماً، يقول إبراهيم، فإن كلَّ عبقرية السلطة في بلادنا أنها كانت دائمة آلة ضخمة لتفريخ «الطاعة»، هل ترى هذه الغابة التي تحتضر؟ لقد عبرتها حملات المخزن مئات المرَّات، لتتوجَّه صوب قبائل الجبال، ليس لأن هذه الأخيرة أعلنت انفصالاً عن الدولة، أو دعت إلى تأسيس إمارة مستقلَّة، بل فقط لأنها حرَّة في تلك الجبال المنيعة، والمخزن يريدها أن تكون «مطيعة» خاضعة بالدفع والتسليم.

كلُّنا لنا مشكلة مع شبح الأصل، هبْ أنكَ من بني مجيلد، وقرَّرتَ أن تشقَّ عصا الطاعة، ثمَّ عبرتَ مفازات الدنيا كلَّها هارباً من فعلتكَ الشنيعة، فإنكَ حتَّى لو حللتَ في جزيرة الوقواق، فلا بدَّ أن يشير إليكَ أحدهم ذات يوم، ويقول هذا هو المجيلدي الذي فعل كذا في يوم كذا من تلك السنة المشؤومة، شيء يلصق بالجلد، فإذا سلختَهُ من جلدكَ، فإنه يسبق الجلد إلى اللحم العاري. كلُّنا لنا مشكلة مع «شبح الأصل» من أين جاءت قبيلة كذا، وسلالة كذا، وإلى ينتهي نسب الشريف الذي .. والشريف الذي... هل هناك شيء أكثر إضحاكا من الشجرة؟ فلان بن فلان بن فلان بن الحسين بن عليّ وابن فاطمة بنت رسول الله .. أبناء مولاي إدريس الأوَّل، وأبناء مولاي إدريس الثاني وأبناء مولاي علي، وأبناء مولاي عبد السلام، أبناء الزاوية الوزانية والدرقاوية والتيجانية والكتانية والعيساوية والحمدوشية والناصرية والقادرية والحراقية أبناء مولاي ومولاي ومولاي .. شبكة من الروافد والتفريعات والتقاطعات لأنهار غامضة، تصبُّ في الصحراء أو في البحر أو تتبخَّر في

الطريق. ليس إلّا الزحام المحشور في الأودية والخلجان والمستنقعات ولا فرد واحد بذاته وصفته. يكفي أن يكتب لكَ العدول شجرة، ويمنحكَ المخزن ظهيراً، لتصبح ركناً من أركان الوجود، روحاً عطرية مستخرَجة من سحق أطنان من الأعشاب والجذور والأوراق. تقود الناس بالشذى الذي لا تخطئه الحاسَّة، إلى الطاعة والإذعان، وإلى الدفع عدَّاً ونقداً، عيناً أو سخرة أو حرباً إلى يوم الدِّيْن. ها هي قبائل زمور، أمازيغ أحرار، سواء تحدَّروا من فزاز أو من الأطلس أو من «يَمُّور» الصحراء، أو نبتوا هنا بين أشجار الفِلِّين، لعبوا طويلاً مع المخزن متحالفين أو متمرِّدين، ونُكِّل بهم أكثر من مرَّة، ولكنَّ ذلك لم يمنعهم من انتقاء تفريعات من قبائلهم، لتكون نوعاً من ذلك العطر الخالص، شرفاء أبناء شرفاء ادِّعاءً أو بالأدلَّة الدامغة حتَّى يخرجوا من «الكمِّ المهمَل». إنهم شرفاء آيت يدين، وآيت أوريبل، وآيت سيبر، وآيت عطا، وآيت بو يحيى، وأولاد سيد العربي الخياطي، وأولاد سيد الغندور المباركي، سلالات نَقَّتْ نسبَها من شوائب الأصول العامَّة، وانتقت لنفسها أصلاً لا يُعلَى عليه. وحده السلطان مولاي إسماعيل، وقد حكم زهاء نصف قرن، فطن إلى أن الشرفاء أصبحوا أكثر من الشعب، وأن الخزائن جفَّت، بسبب إعفاءاتهم الضريبية، فجمع قضاة المملكة وعدولها، وغربل الأشجار والظهائر حتَّى انتقى ما يكفي للإبقاء على الشرفاء والعوامِّ في نِسَب معقولة، لا تضرُّ بالمدخول الضريبي، ثمَّ أضرم النار في «الرسوم الزائدة»، حتَّى ارتفعت ألسنة لهبها في مكناس من الجُمُعة إلى الجُمُعة.

كان سليمان يستمع إلى إبراهيم وهو يفكِّر بجَدَّته التي كانت تقبِّل يده في كلِّ تحية، وتأمر أفراد العائلة كلِّها بتقبيل يدَيْه وقدمَيْه في الأعياد والمناسبات. لم يكن يفهم هذا الطقس، وأُمُّه لم تفعل ذلك أبداً، كانت تضحك كلَّما رأتهم يفعلون ذلك. وعندما يسألها :لماذا تضحكين؟ تقول:

- وهل هناك حمقاء لا تضحك؟ ادعُ لي، أمولاي الشريف؛

ثمَّ تهرب وقد وضعت رداءها على وجهها، لتستر ضحكتها المستمرَّة.

جَدَّته التي كانت تطلب منه أن يضع أصبعه في إناء الحليب، ليعطي زبدة أكثر، وأن يقصَّ خصلة من ضفائر البنات، ليصبح لهنَّ شَعْر غزير وناعم، وأن يمرِّر أصابعه بين خيوط المنسج، ليسخِّر الله في إكمال الزربية بدون عناء، كانت تشرح له، وتقول إن في يدَيْه بركة من بركات النبي، لأنه ببساطة، بضعة منه، ومَنْ يدري؟! ربَّما بسبب هذا الأصل الشريف سيصير كبير قبائل زيان وزمور وأمازيغ الدنيا كلِّهم.

قال إبراهيم كأنه يُكمل حديثاً دار بينه وبين نفسه، إن زوجته السابقة كانت تكره أن يتحدَّث عن تِيْفَّلْتْ، وعن دوار «الضبابة»، وأن يفعل ذلك بنوع من الانتشاء والرضى، كأنه كما تقول يتحدَّث عن «قاع فاس»، وطالما ترجَّتْهُ في مناسبات عائلية أن يتكتَّم على هذا «الأصل المبتذل»، لأنه لا يتناسب مع وضعه الحالي. كإطار بنكي مرموق، يستحقُّ أن ينتمي إلى زبدة المُدُن العريقة.

يغضب إبراهيم ويقول إنه لا يحبُّ زبدة المُدُن العريقة، ولا الزبدة في حَدِّ ذاتها، وإنه يحبُّ تِيْفَّلْتْ، والدوار الذي خرج منه أبوه إلى مثواه الأخير، وتلك الطفولة التي كان فيها البؤس والمحبَّة لا يفترقان أبداً، كلاهما يشحذ الآخر، أو يُخفِّف من غلوائه، أو يجعله مجرَّد شيء عابر حتَّى قبل أن يعبر.

قال سليمان:

- ربَّما كنتَ تقول ذلك عناداً. وإلَّا فإنكَ لم تكن مغرماً إلى هذا الحَدِّ بذلك المكان البائس.

قال إبراهيم:

- بلى، مغرم به، وإلى الآن لا أستطيع أن أغفر لأخي الأكبر ذلك الاقتلاع الذي بترنا من المكان، ولا للذين محوه بالكامل لتعويضه كما يقولون بالسكن اللائق. السكن اللائق! يا لها من أسطورة!

عاد سليمان إلى الحديث عن المرأة التي تتعقَّبه، إنها منذ تلك النظرة المتفرِّسة التي أمطرتْهُ بها في مقهى تِيدَّاسْ، لا تريد أن تفلت الخيط، تتبعه واثقة من نفسها، فإذا أحسَّت به متوتِّراً، أرختْهُ، وإذا ارتخى، عادت لتشدَّه إليها بقوَّة تضع فيها كلَّ ما ترسَّب في نفسها منذ عقود طويلة من خوف ورغبة وغضب. إنها لعنة أرسلها ذلك المكان المبهم في أعقابه، لتردَّه مذْعنا إلى «عشِّ الأوهام».

قال إبراهيم:

- ربَّما يجدر بكَ أن تخلِّص هذه الحكاية من هذا الاندفاع الغنائي كلِّه .. إنها فقط امرأة مفجوعة، التقطت صدفة وهي تمرُّ بالمقهى شبهاً بينكَ وبين ابنها القتيل. ولا شكَّ أنها تعثر من حيث لآخر على شبيه منذ فقدته.

وبالمناسبة، بريجيت أيضاً لاحظت شبهاً بينكَ وبين المرأة. التشابه فخٌّ كبير كما تعلم.

ردَّ سليمان:

قتيل وتشابه وأُغنيَّة، وامرأة هشَّة ومتوقِّدة من الداخل، تعبر من تِيدَّاسْ إلى حَيِّ الفتح، أَلَا تظنُّ أن هذا كثير على الصدفة؟

- وماذا تريد أن تركب من هذه العناصر المتباعدة؟ سأل إبراهيم.

- لا شيء، لا شيء، قال سليمان ساهماً، ربَّما أتبع وهما لا يصلح لصالحة؛

قال إبراهيم:

ولماذا لا تذهب إلى المرأة في تِيدَّاسْ، وتسألها ما بدا لكَ؟

قال سليمان بلهجة صارمة:

- لا أريد ذلك، لا أريد أن تخطفني تلك النظرة الزرقاء، ولا أن تقتلني تلك الساحرة.

-8-

أنهى إبراهيم علاقته الكرائية بشُقَّة أكْدال، واستقرَّ بصفة دائمة في بيته القروي، وعندما كان يزور الرباط كان يقيم عند صديقته بريجيت، وهي كانت تنزل في البيت الطيني من الخميس إلى الاثنَيْن، وتساعد إبراهيم على تطوير وتحسين مشروعه الذي كان سيبقى محدوداً كما بدأ، لولا أن بريجيت نفخت فيه من روحها، فأصبح شغلاً حقيقياً، يمتلئ به إبراهيم جهداً ووجداناً، ويعثر في مملكته على مَعين لا ينضب من السكينة.

ذات يوم، وهو يُقَسِّم الصناديق، ويرفع بعضها على شكل طوابق، وبريجيت منهمكة معه في هذا الشغل الشبيه بالإنجاب، نظر إبراهيم صوبها عبر قناعه الواقي، فتراءت له بشرتها متورِّدة خلف قناعها، وابتسامتها متسائلة، فجثا على ركبتَيْه كما يفعل البعض في السينما، وسألها عمَّا إذا كانت تقبل به زوجاً، فسألتْهُ متأثِّرة:

- بهذا القناع أو بدونه؟

قال إبراهيم:

- مثل نحلتَيْن عاريتَيْن!

فارتمت بين ذراعَيْه، وظلَّا ملتصقَيْن ببعضهما لمدَّة مثل كائنَيْن فضائيَّيْن، حتَّى تهجَّج النحل، فرجعا إلى عملهما، واستغرقا فيه بفيض غامر من المشاعر المصفَّاة، جعل النحل نفسه ينقاد لهذه العملية التي لا يحبُّها بدون عناء، كأنه يريد أن يحرِّرهما للتفرُّغ لِمَا تبقَّى من «الفيلم».

بارك سليمان هذا الزواج بأن أهدى للزوجَيْن منحوتة لعبد الكريم الوزاني، كان قد اشتراها من زميل له في الكلِّية، تحوَّل فجأة من الماركسية إلى البوتشيشية، وقرَّر أن يتخلَّص من أوثان الماضي. كانت المنحوتة عبارة عن نحلة تسوق درَّاجة بعجلة واحدة، تتوسَّطها ساعة بدون عقارب. كانت

المنحوتة زاهية الألوان، جذلانة بتركيبها الساخر، فكان أوَّل شيء ملوَّن، يخرج البيت الطيني من تقشُّفه، ويهبه انشراحاً مبهجاً. وقد وضعت بريجيت المنحوتة في مدخل البيت، فأصبحت تدلُّ عليه، وتدلُّ على شيء أساسي فيهما معاً، فيهما مع بعضهما، وفيهما مع البيت، وصناديق النحل المبثوثة حوله. وكثيراً ما كان إبراهيم يعلِّق على المنحوتة، فيقول: إنها تبدو أقدم من البيت، ومن الشجرة، كأنها كانت هنا قبل مجيء العالم، فكان سليمان يشعر حينها بأنه ساهم بطريقته الخاصَّة، وهو يحضر هذه المنحوتة، في العودة إلى الجذور. أحياناً لا يتطلَّب الأمر بالضرورة العثورَ على الجزء الوحشي من تاريخنا، لاستعادة فورة البدايات، يكفي أن نلتقط شيئاً جوهرياً، لنصبح في فجر الخليقة. وهذه النحلة التي تركب دراجة بعجلة واحدة مثل درَّاجة المهرِّج، هي فعلاً لحظة جوهرية، في زمن يتسابق فيه العالم على إبادة الحياة فيما هو يعتقد أنه يتسابق لإنتاج الوفرة، غير منتبه «لمملكة الصمت» التي يقترفها بهذه الحماقة، والتي لن يتبقَّى فيها من الحياة سوى عناصر أوَّلية، لا يؤلِّف بينها شيء. النحلة في المنحوتة تعيد الزمن إلى العجلة الأولى التي انطلقت منها سرعة الإنسان في تدمير نفسه، وتأسر ذلك في ساعة بدون وقت.

خلال زياراته المتكرِّرة للغابة، كان سليمان يشعر مرَّة بعد أخرى بأن بريجيت وإبراهيم لا يبتعدان عن المدينة، بل يعودان إلى قلبها، فما كان يبدو هروباً من مدينة مأزومة سالبة للحرِّية، وعزوفاً عن المساهمة في كرنفالاتها المبتذلة، صار عودة فطنة إلى أسئلتها الأساسية، تلك التي لا تنفع فيها أشكال السياسة، ولا شجار الأرقام .. شيئاً فشيئاً تحوَّل تدبير النحل من صلاة في محراب الطبيعية، إلى مصارعة لطواحين الهواء.

بدأ ذلك عندما بدأ النحل، صباح ذات يوم بارد، يعود إلى الصناديق منهكاً، ثمَّ يتهاوى بعضه على بعض، ويدخل في احتضار طويل. كانت بريجيت مقتنعة أن الأمر يتعلَّق بتسمُّم بسبب المبيدات التي تستعملها بعض الضيعات المجاورة، فكان ذلك التجوال المنهجي الذي اقترحه إبراهيم في الضيعات والقرى لجمع علب المبيدات الفارغة التي تتكدَّس هنا وهناك، والذهاب بعيِّنات منها إلى

رؤساء الجماعات، وإلى السلطات المحلِّية، ثمَّ الإقليمية، ثمَّ الوطنية، عمل مضنٍ سرعان ما انطفأ حماسه الأوَّلي، ليصير أشبه ما يمكن بورطة، لا يعرف إبراهيم كيف ينجو منها ومن تبعاتها. شيئاً فشيئاً، أصبح الجلوس في قاعات الانتظار، والمثول بين يدي مسؤولين ساخرين متغطرسين جزءاً لا يُجتزأ من الحياة في الغابة. ثمَّ كان أن أحدث إبراهيم، بإيحاء من عضو معارض في الجماعة، جمعية لمناهضة استعمال المبيدات الكيماوية التي تقتل النحل.
وسارعت بريجيت إلى فتح صفحة لها في الفيسبوك، فلم تمضِ سوى بضعة أسابيع حتَّى صارت محجَّاً للمتضرِّرين من أنحاء البلاد كلِّها، ومنصَّة يتردَّد عليها كثير من أنصار البيئة النظيفة، و«الفلاحة المواطنة»، ولكنْ، أيضاً كثير من الشعراء الفاشلين وكُتَّاب المناحات. وانطلقت من هذه الصفحة حملات، وصل صداها إلى الاتِّحاد الأوروبي، الذي كان وقتها في عزِّ تذبذبه بين الرضوخ لرأي عامٍّ قلق على مستقبل الأرض، وعلى الصحَّة العامَّة، وبين الانصياع لِلُوبيات الصناعة الكيماوية التي تزعم أن المبيدات لا خطر منها، وأن منعها سيعود بالزراعة قروناً إلى الوراء. وفي خضمِّ هذه المناقشات، ظهر إبراهيم في برنامج بالقناة الأولى، كان من نتائجه أن تقاطر أفراد القبيلة على بيته، وتزامن ذلك مع زيارة رئيس الجماعة وقائد المنطقة الذي سارع إلى نصب خيمة الجماعة في الباحة، خصوصاً عندما لمح شعار القناة الثانية على إحدى الكاميرات، وأيقن أن هذه «التحريكة» لا بدَّ أن ينال منها نصيباً من الضوء.
ذلك كلُّه وبريجيت لا تدرك أيَّ معنى لما يحدث، وإبراهيم الذي أصبح تحضير الشاي لهذا العدد الهائل من الناس مسألة أعسر بكثير من كلِّ ما مرَّ به في حياته حتَّى الآن، كان لا يفكِّر إلَّا في العودة بأسرع ما يمكن إلى نقطة البدء، أي إلى لحظة الهروب التي كان يُفترَض أن تغلق أبواب هذا الضجيج إلى الأبد.
وعندما عاد الناس إلى خيامهم، وعادت الخيمة الكبرى إلى مخازن الجماعة، استلقى إبراهيم في فراشه منهَكاً، واستلقت بريجيت إلى جواره. وغرقا في الصمت. كلاهما كان يفكِّر في أقصر السُّبُل إلى استعادة المكان من الفتنة التي عصفت به، ويتساءل عمَّا إذا لم يكن من الأفضل التخلُّص في أقرب وقت ممكن من هذه المحاولات النضالية كلِّها التي تبدو كلعب مستوردة، والاعتماد على النحل وحده في المعركة، من أجل البقاء، لماذا هذه الوصاية

على نحلٍ عرف دائماً كيف ينقذ نفسه منذ آلاف السنين؟! ما هذا الحُمْق الذي يجعلنا نعلِّق نجاة النحل على المقدَّمين والشيوخ والرؤساء ورجال العَمَالة، كأنه مرشَّح انتخابات، تسانده السلطة. من المؤكَّد أن النحل سيعرف كيف يتصرَّف.

قالت بريجيت:

- نحن أيضاً لم نحسن التصرُّف، هذه الصناديق المبثوثة كلُّها في كلِّ مكان، جعلت النحل من الكثرة، بحيث لم تعد الأزهار الشحيحة والموسمية للغابة تكفيه، فصار ينتقل إلى الضيعات والحقول، ليقع هناك فريسة للأزهار المسمومة. كان يجدر بنا أن نترك النحل حرَّاً، يبني في تجاويف الأشجار، وفي كهوف المرتفعات، ما يتناسب مع مجاله، ومع رصيده الغذائي، عوض تحويله إلى «قطعان ماشية»، نسوقه عبر الغابات والجبال والبساتين، وننقله مهجَّجاً قَلِقَاً، في شاحنات، تلغي أجنحته عبر مسافات لا يفهمها، ونقدِّم له أعلافاً لإبقائه في الصناديق، ونرشُّه هو الآخر بأدوية، تعالج أمراضه أو تُحسِّن نسله وإنتاجه رغم أنفه.

كان إبراهيم حائراً، لا يعرف كيف يخرج من هذه الورطة، وفي اليوم الموالي تحدَّث مع سليمان الذي ضحك كثيراً من هذه التطوُّرات المفاجئة، وقال:

- ها أنتَ في قلب ما تهرب منه، لم يبقَ إلَّا أن تقترح عليكَ القبيلة الترشُّح للانتخابات

المقبلة.

كان سليمان يتلقَّى كلَّ التفاصيل المرتبطة بهذه الحياة الجديدة بكثير من الريبة والتوتُّر، إنه يشكُّ في أن يكون هو الشخص الذي درس الفلسفة في باريس، وفي الوقت نفسه هو الشخص الذي يتبع أُمَّه المجنونة في رحلة البحث عن شبح، مثلما يشكُّ في أن إبراهيم البنكي الذي كان على وشك الحصول على منصب في صندوق النقد الدولي، هو الشخص نفسه الذي يريد

إنقاذ النحل والبشرية المرتبطة به. وهذا الشكّ يُوتِّره إلى أبعد الحدود، ويجعله متبرِّماً بنفسه، يضيق بتزاحم الأضداد، ويودُّ التخلُّص من هذه الثنائية المزمنة التي تجعل الواحد منَّا يسرح في حياة الهُنَا والآن، ثمَّ فجأة تخرج له القبلية الثاوية في الأعماق، فتصبح زَيَان وزَمُّور كائنات تهبُّ عاتية من مهاجعها، وتقتحم عليكَ قلاع الحداثة الكرطونية التي تختبئ خلف أصباغها المائية.

وقال سليمان:

- أنا وأنتَ يا إبراهيم، مهما يكن من أمرنا، قبيلتان متجاورتان مثلما نحن في الجغرافيا، زمور تفضي إلى زيان، وزيان تفضي إلى زمور. وكذلك نحن في دِرْعِنا الكرطوني، فلسفة وبنك، صناديق نحل وصناديق أسرار. لو فقط يقتطعون لنا هذا المربَّع من غابة المعمورة، لنُنشئ على ترابه دولة الكائن المضطرب، دولة بلا قبائل ولا زوايا، بلا أشراف ولا عوامّ، ولا أولياء صالحين، دولة لا أصل فيها ولا فصل ولا نسب ولا أسماء.

قال إبراهيم:

- ولماذا دولة؟

لتكن فقط غابة «النَّكِرَات»، الإنسان فيها ليس فلان بن فلان، بل فقط عنصر من عناصر الأحياء، يتميَّز فقط بجنسه، كما تتميَّز الأُسُود عن الظباء، والزواحف عن الطيور.

وتذكَّر إبراهيم «دوار الضبابة»، فقال إن البراريك، في نهاية المطاف، هي أفضل شكل للدولة الحديثة، تُذوِّب الهجرات، وتدمج المتناقضات، وتقتل القبيلة أو تُخدِّرها على الأقلِّ، كنَّا هناك في البداية قبائل متجاورة من الريف وزمور وزيان وزعير وبني حسن وكروان ومجاط، ثمَّ صرنا كتلة واحدة مترامية من القصدير والتناسل الهستيري، حتَّى نسينا تماماً من أين جئنا. جَرِّبْ أن تسأل أحداً من أين أنتَ؟ سيُجيب أنا من دوار الضبابة إذا كان من تِيْفَّلْتْ، أنا ولد الكريان، أو ولد الدرب إذا كان من الدار البيضاء، أنا ولد البرج

إذا كان من مكناس، أو ولد دوار الكورة، أو دوار المحاريك، أو ولد المعاضيد، إذا كان من الرباط. البراريك هي أوَّل انتصار حداثي على القبيلة.

وسأل سليمان إبراهيم عمَّا إذا كان ما يزال له ارتباط ما بالريف، على اعتبار أن أسرته هاجرت من هناك، فردَّ إبراهيم بأنه لا يحسُّ بأيِّ شيء تجاه هذا الأصل البعيد، فالدوار الذي فتح فيه عينَيْه هو أصله، وفي ما بعد سيدرك أن المجال الأوسع لهذا الأصل هو زمور في ارتباط وثيق كذلك مع «المعمورة» كلّ العناصر الوجدانية التي تربطني بالأرض توجد هنا، يقول إبراهيم، حتَّى بريجيت تبدو لي، أحياناً، شجرة من أشجار المعمورة.

كم تبدو هذه الحوارات بعيدة، وأشبه ما تكون بشذرات من مذكِّرات متقطِّعة، كلَّما استعاد إبراهيم نتفاً منها، خالجه شعور بأن الأشياء ربَّما تكون أقلّ تعقيداً عندما لا نتحدَّث عنها، الكلام ينسج حول كلِّ شيء سياجاً من الأشواك، يدمي روحكَ، كلَّما أردتَ أن تلمسه .. كانت بريجيت بعد شهور من إقامتهما في الغابة تقول لإبراهيم، إنها مَدينة له بهذا التحوُّل الذي علَّمها الصمت، إنها صارت تسمع الأشجار، وتسمع الحشرات والطيور، بل إنها صارت تسمع الأرض. في البداية، كانت تسمع حفيف الأوراق، ثمَّ صارت تسمع أزيز الأغصان

المتثنِّية، ثمَّ صارت تسمع خفقان النسغ تحت لحاء الشجر، وصادف في تلك الفترة أن قرأت شيئاً عن الجهد الذي تبذله الشجرة في أعماقها لحَدٍّ يجعلها تتصبَّب عَرَقَاً دون أن نرى ذلك، وقد ذكر المقال أن شجرة فِلِّين من خمسين عاماً ترشح في كلِّ يوم بما لا يقلُّ عن مائتَيْن وخمسين لتراً من الماء، أمَّا إذا كانت غابة خمسينية، فإنها ترشح من مسامِّها بملايين الأطنان من الماء، عَرَقَاً في كلِّ يوم، الغابة عمل شاقٌّ حقَّاً، حتَّى تكون غابة عليكَ أن تكدَّ وتعرق، كأنكَ تتسلَّق جبلاً. كانت بريجيت منذ معرفتها بهذه الحقيقة، تسمع لهاث الشجرة التي تقطر عَرَقَاً، تخاف منها كما يخاف المرء من الجميل الذي ينضح بالشراسة. وتخاف عليها كما يخاف المرء على امرأة في أثناء المخاض.

في البداية، أيضاً، كانت بريجيت تسمع أصوات الحشرات والطيور كَكَمٍّ مبهم، وغير متمايز، ثمَّ صارت تنسب الصوت لصاحبه، ثمَّ صارت تفرز التمايزات داخل الصوت الواحد، فتلتقط منها ما يُفصح عن الحاجات والمشاعر، حتَّى ترسَّخت قناعتها بأن الإنسان لو أدمن الصمت والإنصات، لصار بمقدوره أن يتعلَّم لغات كثيرة، لا تمثِّل فيها لغات الإنسان سوى نسبة ضئيلة، لغات الحشرات والطيور والضواري والأنعام والحيتان، بل ولغات الأحجار والرمال والأتربة. وفي الآن نفسه، فإن هناك أشياء كثيرة لا ندركها باللغة، ولكنْ، بالصمت.

لقد لاحظت بريجيت أن الشيخ عبد الله كان يرهِف السمع خلال شهور الصيف، ليلتقط أصوات الغابة. وأصوات القرية اللصيقة بها، أصوات القطعان والرعاة والجدل والخصام، ويبذل في ذلك جهداً مضنياً، كأنه يرسل جسده كلَّه خلف الأصوات، ولكنه في شهور الشتاء، يسمع كلَّ شيء بدون عناء، حتَّى إنه يستطيع أن يقول لكَ ما يدور بين شخصَيْن في قلب الغابة، وهو مُستلقٍ على أطرافها، لأن الأرض كما يقول، إذا شبعتْ ماء، فإنها لا تمتصُّ الأصوات، وعند ذلك، فإنكَ تسمع منها ما تشاء.

من جهته، فإن إبراهيم كان سعيداً باكتشاف ما يحفل به الصمت من ثرثرة، سوى أنها ثرثرة حميدة، لا تسبَّب في تكاثر الأشواك والمنغِّصات. لقد مرَّت به تجارب حبٍّ، كان الكلام يحتلُّ فيها ثلاثة أرباع القصَّة، وها هو الآن تمرُّ عليه ساعات، لا يتحدَّث فيها مع بريجيت، وهما معا في غرفة واحدة أو في سرير واحد، وفي أثناء ذلك، فإن الحبَّ يستعيد المساحة التي يسرقها الكلام. ويصبح مجالاً أرحب بكثير من المروج التي ترسمها اللغة.

ومع ذلك، ورغم اللذائذ كلِّها التي اكتشفها إبراهيم في مملكة الصمت، أو بسببها أيضاً، فإنه كان يحبُّ تلك الحوارات المقتضبة التي تدور بينه وبين سليمان، فقد كانت تُسْفِر دائماً عن انبثاق أشياء مدهشة، يختلُّ لها توازنه وهو يتمشَّى معه في الغابة، جسدياً، وليس فقط على المستوى الذهني. والأشياء المدهشة كانت أحياناً تأمُّلات بسيطة في عناصر المجال، وأحياناً أخرى

استعادة لأسئلة، لم تدرْ قبل ذلك إلّا بين الشخص ونفسه، وكانت، في بعض الأحيان، وعلى نحو مفاجئ، اعترافات حول أشياء كانت ثاوية تحت طبقات سميكة من النسيان، ثمَّ انبثقت بسبب الخطو المتشابك بين الأشجار، أو بسبب الحاجة إلى ضبط إيقاع النفس مع إيقاع الغابة التي تُخفِي أكثر ممَّا تُظهِر، فإذا أظهرت كان ذلك كشفاً، يُشعل مصابيح الدواخل.

قال سليمان مرَّة تعليقاً على هذه الحوارات الكاشفة:

- إننا نتفلسف، لنتخلَّص من المعاطف الثقيلة التي تلبسنا من الداخل!

ضحك إبراهيم لفكرة «المعطف الداخلي»، ولكنه تعجَّب من قدرتها على التعبير عن الأثقال التي تترسَّب في أرواحنا، ويكون بمقدورنا أن نتخلَّص منها كما نتخلَّص من معطف ثقيل، لم يعد مناسباً. ولكننا لا نستطيع ذلك، مَنْ يستطيع أن ينزع معطفاً من الداخل؟ إنها فكرة عجيبة فعلاً، قال إبراهيم ..

- وإذن، ردَّ سليمان، فقد نجحنا في التفلسف، لأن أصل الفلسفة كما يقول أفلاطون كامن في التعجُّب.

ذات يوم وقد توغَّلا في الغابة، وفاجأتهما فيها عاصفة رعدية خلخلت سكينتهما الفلسفية، سأل سليمان إبراهيم بدون مناسبة تقريباً.

- هل راودتكَ مرَّة فكرة الانتحار؟

- ليس بقوَّة، ربَّما مرَّة في أثناء المراهقة. كان شابٌّ في حيِّنا قد انتحر بسبب فتاة رفضتْهُ، وفضَّلت عليه أستاذ الرياضيات. وبما أنني كنتُ وقتها مُتولِّهاً بأستاذة الفرنسية، ويائساً من إثارة انتباهها، فقد فكَّرتُ أن الانتحار ربَّما يكون أقصر السُّبُل إلى استدراجها لأحلامي العابثة.

قال سليمان:

- هذا نوع من دعابات المراهقة، وليس تفكيراً شيطانياً في القفز من الطابق الرابع.

- الانتحار هو الانتحار حتَّى عندما يكون دعابة.

- على العموم ربَّما يكون «سيوران» على حقٍّ عندما زعم «أن المنتحر شخص متفائل جدَّاً».

- ولماذا متفائل جدَّاً؟

- ربَّما لأنه يعتقد أن الانتحار سيخلِّصه من الحياة، بينما الحياة لا يخلِّصنا منها شيء، فحتَّى عندما نموت، نكون قد عشناها كاملة، وشبعت فينا ركلاً ورفساً.

كان حديثهما في ذلك اليوم وهما يَعْدُوان خائفَيْن تحت العاصفة، يقع بين الألم والسخرية، كلاهما كان متألِّماً من شيء، وساخراً منه، ومتوجِّساً من أن يحدث في هذه اللحظة البديعة وقد توقَّفت الأمطار والرعود، وارتسم فوق الغابة قوس قزح، بدا قريباً ومحسوساً، لدرجة تُطمِعُكَ في الإمساك به، وجرِّه إلى أعماقكَ، حيث المعطف الأسود الثقيل. وعندما وصلا إلى البيت، وجدا بريجيت دامعة العينَيْن، وعلما منها أن مساعدتها في المصحَّة قد اتَّصلت لتقول إن عدداً كثيراً من الناس يأتون إلى العيادة بقنافذ وجدوها مدهوسة الأطراف في الطريق الدائري. ويبدو أنها ضمن أعداد هائلة من القنافذ كانت تغادر حيَّ الرياض، باتِّجاه الغابة شَمالاً، أو باتِّجاه دار السلام شرقاً، أو ربَّما فقط لأنها قرَّرت القيام بانتحار جماعي، كما تفعل بعض الحيتان، والطيور المهاجرة، وكما يفعل البشر أحياناً، إذا غلبهم التفاؤل.

-9-

كانوا أعداداً هائلة من القنافذ، تدفَّقت من أحشاء المدينة، وألقت بنفسها في الطريق الذي جرت توسعته لحَدٍّ، جعل عبورها يستغرق وقتاً طويلاً، ويفرش الأسفلت بآلاف الضحايا.

جاؤوا من حيِّ المحيط، ومن العكاري، ومن يعقوب المنصور، وديور الجامع، ثمَّ صَعِدُوا عبر حديقة التجارب إلى أكْدال، ثمَّ إلى الشوارع الأولى لحيِّ الرياض، قبل أن يخرجوا جحافل متزاحمة إلى الشريط الممتدِّ من الحزام الأخضر حتَّى المنعطف المؤدِّي إلى دار السلام وعين عودة والرماني. كلَّما عبروا شارعاً، تركوا فيه كرات نازفة من الشوك والأمعاء. أمَّا عندما بدؤوا عبور الطريق باتِّجاه الشَّمال الشرقي، فقد أصبحوا نهراً كبيراً، اخترقتْهُ السيَّارات في البداية بمضاعفة سرعتها هلعاً من ذلك المشهد القيامي، قبل أن تتوقَّف تماماً، لتغلق هذا الممرَّ الحيوي بين جنوب البلاد وشَمالها ووسطها، وتتسبَّب في أضخم انحباس عرفتْهُ البلاد منذ دخول السيَّارة.

بدأ ذلك في الثامنة صباحاً، وقت الخروج إلى المدارس والإدارات والمؤسَّسات، ونشأ من ذلك هلع كبير في المدينة، كان خبر تكاثر القنافذ قد راج لأكثر من سنة، لكنْ، لا أحد توقَّع هذه الأعداد، حتَّى المسؤولين الذين انكبُّوا على وضع برنامج استراتيجي لمحاربة الانتشار السريع للقنافذ، لم يتصوَّروا أن يكونوا بهذا الكمِّ، ولم يتوقَّعوا إطلاقاً أن تخرج القنافذ بهذه الجحافل في ما يشبه هجرة جماعية منظَّمة. بل لم يفهموا كيف كانت هذه الأعداد كلُّها مختبئة في المدينة، وكيف جاءت، وكيف دبَّرت حياتها السرِّية، وهل يُعقَل أن يكون التناسل وحده هو السبب في هذا التكاثر. هل يمكن أن تكون القنافذ قد نظَّمت هذه الغارة على العاصمة، وهي الآن لأسباب تكتيكية غير مفهومة تنظِّم انسحابها باتِّجاه الأطراف الشَّمالية الشرقية للمعمورة؟ وهل يمكن أن تكون جهة ما لم تعلن عن نفسها حتَّى الآن هي التي خطَّطت

لهذا الاحتلال، وتسعى إلى تنفيذه؟ ومَنْ هي الجهة التي أعلنت علينا حرباً بالوكالة؟؟

أسئلة كثيرة تناقلها الناس وهم يخرجون بأعداد تضاهي عدد القنافذ، للتفرُّج على هذه العلامة من علامات الساعة. بعضهم يؤكِّد أنها خرجت من البحر، وبعضهم يعلن أنها خرجت من المواسير، ومن أنفاق مهجورة، لم يكن يعلم بها أحد. وأحد الفقهاء جاء إلى نشرة الأخبار الزوالية في القناة الأولى، وأكَّد أن هذا هو «خروج الدابَّة» المذكور في القرآن، وأن على الناس أن يستكثروا من الاستغفار، وينتظروا بثبات قيام الساعة. وبما أن التلفزة تحبُّ أن تجمع بين الدِّيْن والدنيا، فقد جاءت بأستاذ من كلِّية العلوم، حاول أن يشرح الظاهرة بكونها مجرَّد ردٍّ فعل بيئي من كائنات فقدت مجالها بالبراريك والسكن العشوائي والدواوير المرتجلة، وأن البيئة نفسها ستقوم بتنظيم ذاتي لهذه الطفرة المفاجئة، والشيخ يزأر: اتَّقِ الله في ما تقول، فيردُّ الأستاذ ويستغرق وقتاً طويلاً، ليفسِّر للشيخ ولعموم المواطنين أن القُنْفُذ ليس دابَّة، فردَّ الشيخ أن كلَّ ما يدبُّ على الأرض فهو دابَّة، والأستاذ ردَّ محتدَّاً بأن الدابَّة هو مَنْ لا يفرِّق بين القُنْفُذ والدابَّة، وانتهت النشرة بتدخُّل حكيم من مقدِّمها، حاول فيه التوفيق بين التنظيم الذاتي والقيامة. وفي هذه الأثناء، كانت القنافذ ما تزال تغلق المدينة، وتعرقل السير. وتنشر الحَيْرة والخوف، واستمرَّ ذلك حتَّى حدود الساعة الرابعة بعد الزوال، حيث توقَّف فجأة تدفُّق القنافذ، واستأنفت الحياة مسارها الطبيعي.

تابعت بريجيت وإبراهيم هذه الوقائع، وحاولا أن يتعقَّبا تلك الهجرة الصاخبة التي انطلقت بعبور الطريق الدائري، قبل أن تتوجَّه إلى غابة دار السلام، ومن هناك، وحسب شهود عيان من المنطقة، توزَّعت القنافذ إلى مجموعات، كلُّ مجموعة اتَّخذت لها وجهة محدَّدة، بعضها تحرَّك نحو عين عودة، ثمَّ نزل من هناك صوب نهر أبي رقراق، وبعضها استمرَّ باتِّجاه الرماني، وبعد أيَّام، ستظهر أخبار عن عبور القنافذ للنهر، ثمَّ عن زحفها على

منطقة «السهول»، قبل أن تنقسم إلى مجموعتَيْن، إحداهما توجَّهت إلى الجانب الشرقي من المعمورة، وأخرى عبرت الطريق الوطنية، واتَّجهت صوب الضفَّة الغربية للغابة. ومن هناك نفذت إلى «الفورات» من جهة «العرجات»، ثمَّ منها إلى «عين الجوهرة» قبل أن تختفي تماماً، ولزم مرور عدَّة أشهر، قبل أن تروج أخبار عن ظهورها بأعداد هائلة قرب وادي بهت، وحول بحيرة سدّ الكنزرة، وذكر بعض سكَّان المنطقة أن القنافذ هجمت على دجاج الدواوير، وأبادتْهُ، قبل أن تقتحم الخيام، وتنشر فيها رعباً وفوضى عظيمَيْن، وزعم الناس أن القنافذ كان تقضم أصابع الرُّضَّع، فلم يصدِّقهم أحد، حتَّى ظهر في المنطقة أطفال بلا أصابع. لكن الأغرب في هذه الوقائع، أن القنافذ عادت بعد بضعة أشهر إلى العاصمة. وهذه المرَّة نفذت من حيِّ اليوسفية قبل أن تنتشر في أحياء السويسي والرياض وأكْدال وكيش الأوداية، فعاد الناس ليتحدَّثوا عن خروجها من البحر أو من النهر، أو منهما معاً. لكن القنافذ وكأنما لتتجنَّب ضجيجاً إعلامياً زائداً، دخلت في السرِّية، وأصبحت نادرة الظهور. ولو أنها كانت تقوم من حين لآخر بغارات على الأسواق والمطاعم وعربات الباعة المتجوِّلين، تعقبها فترات اختفاء طويلة، ثمَّ صارت أعداد منها تقيم رسمياً في بعض الأزقَّة والساحات وحول بعض العمارات، وكأنها تريد تعويد الناس على هذه المعاشرة.

في هذه الفترة، تعرَّفت بريجيت على فريق من العلماء، جاءت بهم المندوبية السامية للمياه والغابات، من ألمانيا ليدرسوا الظاهرة. وقد ارتأت المندوبية أن تُشرك في هذه الدراسة بعض المهنيِّيْن المغاربة. فكانت بريجيت من بينهم. وفي المخبر الذي أقامه المسؤولون في الحديقة المعروفة «بغابة الوزير» بأكْدال تعرَّفت بريجيت لأوَّل مرَّة على نماذج من القنافذ مختلفة إلى حَدٍّ كبير عن النماذج الأولى التي عرفتْها من خلال (يَنْسِي) وعائلته، فقد كانت أكبر حجماً، وأشواكها أكثر طولاً، وكان زغب بطونها أكثر كثافة وميَّالاً إلى الشقرة. وأراد العلماء أن يدرسوا النماذج الأولى السمراء، فلم يعثروا على أيِّ نموذج منها. بحث إبراهيم والشيخ عبد الله طويلاً في الغابة، لم يعثروا إلَّا على النماذج الجديدة. وطلبت السلطات من المقدَّمين والشيوخ أن يبحثوا في كلِّ مناطق زمور وزيان وبني حسن وزعير وحتَّى في مرتفعات الأطلس،

لم يُعثر أبداً في أيِّ مكان من هذه الأمكنة على النموذج الأسمر، الذي كان جزءاً لا يُجتزأ من الرصيد الحيواني للبلاد، كأنكَ رفعتَ قُنْفُذاً، ووضعتَ قُنْفُذاً مكانه، الشيء الذي دفع الخبراء إلى استنتاجَيْن مختلفَيْن:

- إمَّا أن النموذج القديم قد تطوَّر بسبب الحياة في المدينة، فأصبح نموذجاً جديداً، بخاصِّيات جديدة.

- أو أن يكون الصنف الجديد «جنساً آخر» جاء من أصقاع بعيدة، واحتلَّ المجال، وأباد الصنف القديم، كما فعل الأوموسابينس بالأصناف الإنسانية الأخرى، وبالنِّيَانْدِرتال على وجه الخصوص، مع فارق مهمٍّ، هو أن الأشياء التي كانت تحدث عبر آلاف السنين صارت بحكم العصر الذي نعيش فيه تحدث في رمشة عين.

بعد شهور من الفحص والتحليل، اهتدى الخبراء أخيراً إلى استنتاج أكثر واقعية، فقد درسوا مسارات التحرُّك المجالي للقنافذ، فوجدوها دوائر تتَّسع وتضيق انطلاقاً من المعمورة، وتحديداً من تلك المساحات التي كانت ما تزال آهلة بشجر الفِلِّين في منطقة آيت ميمون من قبيلة زمور، ثمَّ تنتظم على شكل خطوط متوازية، بعضها تتَّجه نحو المدينة، وبعضها يخرج منها، ويتوزَّع على ضفَّتي النهر، وعلى الهضاب المحيطة به، في نوع من التناوب يضمن كثافة متوازنة للقنافذ بين المدينة والغابة. ووجدوا أن الزحام الذي حدث في ذلك اليوم المشهود كان بسبب اضطراب في نظام الخطوط الموازية (بسبب تضارب في الأطماع والمصالح)، جعل القنافذ الوافدة على المدينة تصطدم بالخارجين منها. بينما النظام (والتوافق الضمني) كان يقتضي أن لا يلتقي الخطَّان أبداً. ثمَّ وجدوا، أخيراً، أن خصوبة القنافذ قد ارتفعت بشكل مذهل لدى هذه النماذج الجديدة، حتَّى إنهم وجدوا في عشِّ إحدى الإناث واحداً وخمسين رضيعاً من حمل واحد.

تناسلت في المدينة مئات الحكايات حول الظاهرة، خصوصاً عندما ذهب الخبراء إلى حال سبيلهم، وتركوا خلفهم مختبراً وتقريراً مهجورَيْن، امتلأت صفحات التواصل الاجتماعي بصور مثيرة، وأخبار ونوادر أكثر إثارة. كان سليمان يسجِّل هذه الأشياء كلَّها في دفتر كبير معتبراً ما يحدث مقدِّمة لاضطراب طالما تمنَّاه وانتظره. ذلك أن سليمان له نظرية خاصَّة بخصوص الاضطراب. فقد دأب على اعتبار السكون الذي يلفُّ البلاد من أخمص قَدَمِها إلى قمَّة رأسها لعنة مستحكمة. بلدان كثيرة في العالم لها طبيعة مزمجرة، أعاصير وعواصف وصواعق وبراكين وزلازل وأمطار طوفانية وشتاءات بيضاء لا تنتهي وأنهار مرعبة، ومُدُن واقفة. وأخرى مشتبكة ببعضها، كأنها مشهد من صراع الآلهة. وبلدان كثيرة لها تاريخ طويل من الثورات والحروب والتمزُّقات، وهذه البلدان كلُّها تقيم بشكل دائم على خطِّ الهاوية، أي في الخطورة القصوى التي إن فقدتَ فيها ثانية من انتباهكَ، أو من اتِّقادكَ الذهني، فإنكَ ساقط لا محالة. وفي خضمِّ هذا القلق العاصف تُولَد الأفكار المخلخلة، والفنون والآداب العظيمة، والأشجار التي تتسابق على خيوط الشمس، والمُدُن التي تنبت فيها المسرَّات والأحزان القسوة والحنو في تراب واحد جنباً إلى جنب، عارية لا تخجل من بعضها، ولا ترى نفسها عورة في مرآة الآخر. في بلدان كهذه - يقول سليمان - يعيش الناس في كلِّ لحظة مشاعر عارمة. تمرُّ في تجربة الواحد منهم هزَّات واندفاعات، تشبه الطبيعة الجبَّارة التي تحيط به، يحسُّون بتلك المشاعر أمام إنجازات المعمار، ومعجزات التكنولوجيا، وفراديس الموسيقى والغناء، وأساطير السينما والمسرح، يحسُّون بذلك أمام قصص البطولات والخيانات، النجاحات والإخفاقات، أمام الزعماء والخطباء والأساقفة والملاكمين والعدَّائين واللصوص والنصَّابين .. الحياة التي تبتكر أصنافاً من الموت، والموت الذي يبتكر أصنافاً من الحياة - كيف تريد لشيء مذهل كهذا أن يحدث في هذا السكون الألوفي الذي يخنقنا.

يكتب سليمان في دفتره الكبير: «لا شيء يجيء، لا شيء يحدث»، مطر شحيح خجول، وفصول سريعة تستعجل الرحيل، وقضايا باردة، وأجساد مأسورة الغواية، وأبنية بلا نوافذ، أمَّا كيف هبَّت القنافذ، كأنها خرجت من البحر، فشيء لا يقدَّر بثمن .. ربَّما يكون الخطوة الأولى للمرور من السكون

إلى الضجيج العارم، إلى الانفجار العظيم، إذا كان المحيط بجلال قَدْره يتفرَّج كلّ يوم على سكوننا الألوفي، ولا يبعث لنا ولو تسوناميا صغيراً، نتغلَّب به على البلاهة، فلماذا لا تحاول القنافذ؟».

لم يفتأ سليمان يسجِّل في دفتره الكبير تلك المبالغات كلَّها التي يبتكرها الناس لأسطرة الظاهرة، القنافذ التي تسرق السيَّارات وتسوقها بجنون في شوارع العاصمة، والقنافذ التي تأكل الأطفال، وتغتصب النساء، وتجلس رِجْلاً على رِجْل في المقاهي، تدخِّن الشيشة، وتقرأ الجرائد، والقنافذ التي تخوض قتالاً عنيفاً في غابات الحزام الأخضر، حتَّى تهبَّ منها على المدينة روائح الجثث المتعفِّنة، والقنافذ التي تتسلَّل إلى القواعد الجوِّية، وتسرق منها طائرات لا تنفكُّ تحلِّق بها على مستوى منخفض حتَّى يفقد الناس عقولهم. حكايات وحكايات، يملأ بها سليمان دفتره الكبير، ويقول، كلَّما أضاف صفحات جديدة، هذا هو الكتاب الذي سأتركه، ربَّما أضيف إلى فصول القُنْفُذ فصولاً أخرى عمَّا تلوكه الألسنة من أخبار الحكَّام والأغنياء والفقهاء والدجَّالين. لن يكون إلياذة العصر، ولكن الإقامة في التُّرَّهَات لا تقلُّ ملحمية عن الإلياذة.

في ارتباط مع تجربتها في المختبر ومع ما حدث يوم «الخروج الأكبر»، وما تلاه بعد ذلك من انتشار سريع للقنافذ في المعمورة وفي كلِّ المُدُن والقرى المحيطة بها، من الرباط إلى الرماني، ومن سلا إلى القنيطرة، ومن تِيْفَّلْتْ إلى الخميسات، ومن المعازيز إلى ولماس، وأبعد من ذلك صعوداً نحو جبال الأطلس المتوسِّط، ومنطقة تادلة، ومنها حتَّى واحات مراكش ..

في ارتباط مع هذا التوسُّع السريع الذي ظلَّ من سماته البارزة، الظهور والاختفاء،

الاقتحام والانسحاب، أنشأت بريجيت وبعض الباحثين من معارفها مرصداً لمتابعة الظاهرة، فكانت تتجمَّع لديها من أعمال المرصد معلومات كثيرة، تمدُّ بها سليمان لتغذية كتابه. وكلَّما امتلأت صفحات جديدة من الكتاب، كان سليمان يزداد انقساماً داخل نفسه بين مبتهِج بهذا المتن الغريب، ومبتئِسٍ من عجزه على اِستخلاص فلسفة ما من هذا الخليطِ من الخيال الجامح،

والسخرية المبطّنة، والسذاجة المحيِّرة. كان يقول لأمِّ كلثوم: طالما وعدتُ صفاء ونهلة بكتابة شيء ما، له علاقة بمحبَّتي للفلسفة، وبتجربتي في تأمُّل المصائر والأمكنة، وها أنا أجمع من القمامة العظمى للبلاد بقايا أشياء متحلِّلة، أضعها في كتاب.

كانت أُمُّ كلثوم متضايقة، هي الأخرى، من هذا «الكتاب المزعوم»، ومن القنافذ التي تتقزَّز منها كلَّما رأتْها متكوِّمة قرب باعة الفواكه والأسماك، كانت تعتبر هذه الأشياء علامة على التدهور العامِّ الذي جعل البلاد تتداول هواتف ذكية أكثر من تعداد سكَّانها، وتغرق في حكايات من عهد ابن المقفَّع. وقد قالت لسليمان إنها تفضِّل أن لا يحدِّث ابنتَيْه في شأن هذا الكتاب. ثمَّ ندمت على ذلك، وأشفقت على سليمان، إنه يبحث عن شيء ما، يُقلقه البحث، ويُقلقه الخوف في أن يجد الشيء، والخوف من أن لا يجده، يتوقَّع في كلِّ لحظة أن يظهر له بين الحجارة والأتربة شيء لامع، يستخرجه ذهباً خالصاً من ركام اللاشيء. ويخاف أن لا يلمع الشيء أبداً. لا يهمُّ، تقول أُمُّ كلثوم، وماذا نفعل بالذهب الخالص؟ وهل من الضروري مصارعة الأنواء لوضع حيواتنا أو عصرنا في كتاب، ونحن نعرف أن الزمن سيُضرِم ناراً عظيمة في كلِّ ما نكتب؟

من جانبه استمرَّ إبراهيم في جمع كلِّ ما يمكن أن يُعمِّق معرفته بالمجال الذي اعتنقه بشغف، يناسب حاجته إلى بناء متماسك، يعطي لانتقاله إلى هذا المكان معنى أعمق من قطيعة سطحية. هكذا استمرَّ في تجميع الخرائط والوثائق والأبحاث المتعلِّقة بمناطق المعمورة وبتحوُّلات مجالاتها البيئية والترابية، وفي كلِّ مرَّة يعثر فيها على وثيقة مثيرة، يحتفي بذلك، ويستفيض في الحديث عن الإضافة الجديدة، مؤكِّداً أنها ليست ورقاً فوق ورق، بل لبنة أخرى في بناء داخل البناء، وبالفعل لم تمضِ سوى شهور معدودة حتَّى نشأ من المطبوعات بيت آخر داخل البيت الطيني.

ذات ليلة ربيعية باردة استضافت بريجيت وإبراهيم سليمان وأُمَّ كلثوم لقضاء ليلة في البيت الغابوي. قضت الجماعة وقتاً طويلاً في محاولة لفهم هذا

الاكتساح المخيف للقنافذ، ثمَّ في محاولة لفهم هذا «التعوُّد المستسلم» على الظاهرة. لقد مرَّت الأسابيع الأولى من الثرثرة والأكاذيب، ثمَّ انتهى الأمر سريعاً كما بدأ، انتهى بوضع الظاهرة تحت أختام من التجاهل والصمت، خوفاً من إحداث ثَلْمٍ في السكون السائد، يتوسَّع تدريجياً حتَّى يصير انهيارات وخرائب.

وبعد حديث طويل كاد يعزي القنافذ إلى انتقام سماوي، كرَّرت بريجيت مرَّة أخرى ما استقرَّ عليه رأي الخبراء الذين يرفضون دائماً منهج الخوارق في تفسير ما يحدث. على اعتبار أن العلم والتكنولوجيا والسلطة لها، متفرِّقة ومجتمعة، من القوَّة ما يسمح لها بإبقاء كلِّ شيء تحت السيطرة. إن الأمر، تقول بريجيت، لا يعدو أن يكون تدخُّلاً طبيعياً لتعديل خَلَل بيئي، لقد أشرفت القنافذ على الانقراض، بسبب احتلال مجالها، وبسبب سوء التصرُّف فيه، فابتكرت حيلة بيولوجية للبقاء، ثمَّ حيلة سلوكية للثأر. لكن القنافذ لا تستطيع التحكُّم في حماقات هذه الحيل التي سرعان ما تستلم زمام الأمور، لتتحكَّم في ضبط الخصوبة والتناسل، وابتكار التحوُّلات الجسدية الملائمة للحاجيات الجديدة، وتوجيه «التمرُّد الطبيعي» لوجهات غير متوقَّعة خارجة عن السيطرة. والآن يجب أن نعرف أننا سنتحوَّل بقوَّة الأشياء إلى أقلِّية مضطهدة، الإنسان الذي ارتقى منذ آلاف السنين إلى أعلى السلسلة الغذائية قد ينزل إلى أسفلها، قد لا يصبح، بالضرورة، طعاماً للقنافذ في المدى المنظور، ولكنه سيتدحرج بكلِّ تأكيد في سُلَّم القوَّة من الأعلى إلى الأسفل. الإنسان الذي

طوَّر مبيدات لمحاربة آلاف الكائنات الحيَّة، وكأنها مجرَّد ملحقات بالحياة، وليس ضمن مكوِّناتها البديهية، لم يتوقَّع أن تطوِّر القنافذ مناعة خاصَّة تحميها من أشدِّ المبيدات فتكاً، ومَنْ يدري؟ ربَّما تطوِّر في أجسادها قدرات ملائمة لهذه الحرب، كأن تصبح لها أنياب حيَّات سامَّة، أوحمم تقذفها من جوفها كالتنِّينات القديمة أو نوازع شراسة لا تُضاهى .. لن تكون هذه هي المرَّة الأولى التي تقوم فيها كائنات ضعيفة وغير منتظرة بتحوُّلات، تصبح بها وباء عارماً. الضفادع سبق لها أن فعلت ذلك، وفئران المواسير، والخنازير،

والقِرَدَة، والبقّ والبرغوت والقمل والعلق .. عشرات الأنواع فعلت ذلك دفاعاً عن نفسها أو دفاعاً عن الحياة، وعندما تهدأ الحرب، فإن الناس تتعوَّد على الأشياء الخارقة، فيرجعون إلى تربية الثعابين والسلاحف في بيوتهم، وإلى تربية كلاب البيتبول، وتنظيم مباريات للقتال بينها في الساحات الخلفية للسكن الاجتماعي، يتفرَّجون على تلك الشراسة الدموية، ويلتذُّون بذلك، ويُصدرون أصواتاً وتشنجات، لتشجيع الكلاب، يسقطون بعدها في نوبات الصرع.

وذكرت أُمُّ كلثوم أنها رأت نساء في حيِّ الفتح يفتحنَ علب سردين لإطعام القنافذ التي سكنت جنب صناديق القمامة، بعدما كنَّ قبل أيَّام يطلقنَ صرخات حادَّة كلَّما رأينَ القنافذ تعبر الطريق. لقد تعوَّدنا فعلاً. ها نحن نُطعمهم ونتودَّد إليهم، كأننا كنَّا نفعل ذلك دائماً أباً عن جَدٍّ. لقد دخلت القنافذ في عداد القطط والكلاب. شيء مقرف، تقول أُمُّ كلثوم، التي لم يغمض لها جفن هذه الليلة، بسبب الخوف من الزواحف والقوارض، ولأنها أصلاً لا تحبُّ البادية، ولا تفرِّق بين المبيت في بيت قروي وعبور غابات الأمزون. لذلك كانت امرأة واهنة، تلك التي نهضت مع خيوط الفجر الأولى لتحضير وجبة الإفطار. وأكثر ما كانت مقتنعة به وقتها، أنها لن تعود، أبداً، للمبيت في هذا «العهد السحيق». ولعلَّ سليمان خمَّن ذلك، فقال لإبراهيم كأنه يُحضِّره للمرحلة القادمة:

- سأحتاج إلى النبش في وثائقكَ، ربَّما أعثر فيها على شيء ينير لي الطريق. وقد يتطلَّب الأمر أن أقيم هنا من حين لآخر لبضعة أيَّام. ولم يشأ أيُّ واحد منهما أن يُفَصِّل في الأمر، كان برنامجهم هو الذهاب إلى سوق سبت دار بن حسين، وهو سوق غابوي يؤمُّه الرعاة والحطَّابون وسكَّان الجوار، لشراء ما تيسَّر من «الترفاس» هذا النوع من الفطر الثمين الذي تستخرجه نساء حاذقات من أحشاء الأرض، بحدسهنَّ الذي يهتدي إلى «المبائض» قبل أن تشرق الشمس؛ والترفاس متى ما حُضِّر بالدجاج البلدي، فإنه يطرد كآبة الدنيا كلَّها، ويفكُّ خيوط النفس، ولو كانت مخبلة كحرير في سدر.

ولعلَّ هذه المصالحة الكبرى هي التي حصلت بالضبط عندما التأم الجمع حول تلك المعجزة. حتَّى إن غبطة خفيفة سرت في الجوِّ، وجعلت سليمان يترنَّم بأُغنيَّة شجية من أغاني أُمِّه القديمة. وهو ما لم يفعله أبداً في حياته قبل هذا اليوم .. حتَّى إن أحداً لم يتعرَّف على صوته الرخيم، كأنه استعاره من غريب لهذه المناسبة، وحتَّى إنه عندما انتهى من ذلك، قالت أُمُّ كلثوم وقد اغرورقت عيناها:

- إنه شيء ربَّاني!

ولمَّا رأت تأثُّره، عانقتْهُ، وهمست له:

- نبيتُ هنا إذا رغبتَ!

قال سليمان ضاحكاً:

- نبيتُ بالمعنى الكامل للكلمة!

-10-

لم تعد المرأة العجوز إلى حيِّ الفتح، لكن عينَيْها ظلَّتا تلمعان في دواخل سليمان، وكلَّما امتلأ بتلك الزرقة العميقة، صار يعثر في كلِّ مكان على ملامح تشبه ملامح تلك المرأة، فيُمنِّي النفس للحظة أن تكون هي، ولكن الطيف يختفي بالسرعة نفسها التي ظهر بها. ثمَّ يظهر بشكل خاطف، في حافلة تمرُّ، أو في زحام طارئ، أو في لقطة من منام.

وكثيراً ما كان سليمان يكرِّر لنفسه أن لا حاجة له بهذه المرأة، لا يريد منها شيئاً، ولا يرغب في العثور من خلالها على حقيقة أو على وعد. ومع ذلك، لم يستطع التخلُّص من الرغبة في الاستماع إليها، في الجلوس إليها، والإنصات إلى صوتها القادم من منابع نائية. مجرَّد فضول يقول لنفسه، دون اقتناع كبير، لأنه يعرف أنها قد لا تقاسمه الفضول نفسه، ولا شأن لها بصوته أو بأيِّ شيء يمكن أن يقوله صوته بوحاً أو اعترافاً أو شكوى، وهي إذا كانت تتعقَّبه، فليس لأنها تريد أن تفعل شيئاً من أجله، بل لأنها تريد أن تفعل شيئاً من أجل نفسها. ولكنْ، إذا كانت تريد ذلك فعلاً، فلمَ تُضيِّع الوقت في اللعب، وهي ليس أمامها وقت طويل تغامر به في التشويق والمخاتلة؟!

كان سليمان مستثاراً بفكرة القيام بشيء من أجل تلك المرأة، نعم، هو أيضاً لا يريد شيئاً لنفسه. يريد فقط أن يكون رهن إشارتها، أو يكون بشكل ما انفراجاً، تختتم به حياتها المثقلة بالسحب، نوعاً من السفر عبر الملامح، أن يحلَّ كهل مضطرب في ملامح امرأة مطمئنَّة، وأن تحلَّ عجوز منهَكَة في ملامح رجل معافى. ربَّما عند ذلك لن يحتاجا إلى الكلام، ولو احتاجا، فلن يجدا الكلمات التي ستنهض به.

سجَّل سليمان في دفتره الكبير شيئاً له علاقة بالموضوع، كان ذلك أوَّل شيء حميمي، يسجِّله بعد صفحات كثيرة، خطَّ فيها ما جمعه من أخبار القنافذ منذ ظهور (يَنْسِي) إلى وقوع المدينة تحت الاحتلال، التقطه من الشارع، أو من وسائل الإعلام وشبكات التواصل الاجتماعي، من استيهامات الناس، أو

تعليقاتهم على ما حدث، ثمَّ نتفاً من حكايات التكيُّف مع الظاهرة، ومن ذلك أن القنافذ صارت تصعد سلالم العمارات، وتدخل الشُّقَق، وتجلس مع الناس للتفرُّج على المسلسلات التركية. وبعد صفحات كثيرة، خطَّ فيها ما سمَّاه بنوادر الأحداث ممَّا جمعه من أخبار الجرائم والفضائح، وأخبار الفساد والسرقات والفتاوى والأعراس والمحاكمات، وما إلى ذلك.

عندما اهتدى سليمان إلى فكرة القيام بشيء من أجل تلك السيِّدة، غمرتْهُ السكينة، وتحرَّر من تضارب الروايات، سواء كاحتمال، أو كحقيقة. حتَّى لو كشفت له تلك المرأة أسراراً، فإن ذلك لن يُنقِصَ منه أو يزيد فيه شيئاً، سيبقى كما هو، رواية فريدة، مزيجاً من الشكِّ واليقين، هما معاً يتبادلان المواقع كلَّما تقدَّم النصُّ، أو العُمُر، لذلك كان شخصاً خفيفاً وطرياً ذلك «السليمان» الذي شدَّ الرِّحال ذات فجر إلى تِيدَّاسْ دون أن يقول لأحد. كأنه سيذهب إلى غير رجعة. وقد وصل باكراً، إذ لم يكن أحد في المقهى. وكان الناس القليلون الذين يعبرون الساحة يمشون كأنهم مازالوا نياماً. تمشَّى قليلاً، ثمَّ جلس في المقهى، وعند ذلك أدرك أن هناك وشائج غير مفهومة تربطه بهذا المكان. حتَّى ولو كانت السَّحْنَة العامَّة للبلدة تطفح بالكآبة، هناك شيء في الروح التي تهيمن على هذه الهضبات المتكوِّمة على نفسها يمتُّ إليه بصلة، وإلَّا لما أتت أُمُّه على ذِكْر تِيدَّاسْ في أغانيها، وهي الزيانية التي لم تتحرَّك من موطنها الغابوي إلَّا مرَّة واحدة عندما نزلت إلى ولماس، وتِيدَّاسْ تقع في تراب زمور، في الحدود مع زيان، وإذا صحَّ أن «زمور» وابن عمِّه «زيان» هما الجَدَّان اللذان تشعَّبت منهما القبيلتان، فمعنى ذلك أن تِيدَّاسْ التي توجد في الحَدِّ الفاصل بينهما، هي تراب الاقتتال، وتراب الغواية في آنٍ واحد. المكان الذي تدخَّل فيه العنف لفكِّ الارتباط، والمكان الذي امتلأ منذ ذلك الحين بالرغبة والتوجُّس.

جلس سليمان في المقهى مدَّة طويلة. لم يأتِ أحد، ولا مرَّت المرأة العجوز التي يُفترَض أن يكون هذا الممرُّ هو تراب تيهها اليومي بحثاً عن وجه مفقود. ومع ذلك لم يكن قَلِقَاً، ولا مستعجلاً، كان يستمتع في قرارة نفسه بهذا

الانتظار الصبور، ويتوقَّع أن ينتهي بشيء مريح. حتَّى ولو كان عودة خائبة، فإنها ستضع حَدَّاً للتوقُّعات المجنونة، وستُيسِّر المرور إلى صفحة أخرى.

ولتزجية الوقت، استخرج سليمان دفتره الكبير، ودَوَّن فيه ما دار في ذهنه قبل قليل بخصوص تِيدَّاسْ، ثمَّ أضاف شيئاً تذكَّره في أثناء الكتابة. يتعلَّق الأمر بخاله الأصغر، الأقرب إلى أُمِّه سنَّاً ووجداناً، كان جندياً في الصحراء، يأتي من حين لآخر في إجازة. فكان لا يفارق أخته إلَّا لِمَامَاً. وهي كانت تصبح هادئة في أثناء إجازته. تكاد تقول عاقلة. وكانا ينسحبان من الخيمة، ويذهبان بعيداً، ويتكلَّمان بحماس وتدفُّق، فإذا عادا من المشي والكلام، كانت أُمُّه تبدو بإشراقة وجهها كأنها شُفيت من كلِّ شيء. وعند ذلك تقترب من والدتها، وتسألها:

- ماذا تريدين أن أقضي لكِ؟

تبتسم جَدَّته، وتقول:

- اذهبي أوَّلاً إلى المنسج، لأرى ما إذا كان عقلكِ ثابتاً.

تجلس أُمُّه إلى المنسج، وتبدأ في إكمال النسيج الذي بدأتْهُ منذ سنوات، تفعل ذلك بخفَّة ومهارة، كأن الخيوط كانت في أناملها منذ أمد بعيد. كانت الجَدَّة تطلُّ من حين لآخر، وتبتسم فرحة بالعقل الثابت لابنتها، حتَّى إذا رأت الخيوط قد خرجت عن منطق النسيج هُرعت إليها قائلة:

- كفاكِ، كفاكِ، يا ابنتي، ستعودين إليها عندما تهدأ الخيوط.

يتذكَّر سليمان أنه كان طفلاً سعيداً عندما كان يجلس جنب المنسج، ويرى أنامل أُمِّه تتحرَّك رشيقة، لتلعب بالألوان والأشكال. ثمَّ تتوقَّف وتقول:

- الخيوط لا تريد أن تهدأ. كيف أُكمل الزربية بهذه الخيوط الحمقاء؟

وفعلاً ظلَّ المنسج قائماً، تعود أمُّه إليه من حين لآخر، وعلى فترات متباعدة. ولكنها تصبح في غاية الشراسة، إذا تحدَّث أحد عن ضرورة تفكيك المنسج، كأنها تدافع عن أرضها. وعندما ذهبوا إلى ولماس، اضطرَّت الجَدَّة لترحيل المنسج بخيوطه ونسيجه تفادياً لغضب ابنتها. وهناك نصبوه في ركن من الغرفة التي يتكدَّسون فيها. فكانت أُمُّه تجلس إليه في بعض الأحيان، تنسج وتغنِّي، أو تغنِّي فقط وأناملها جامدة بين الخيوط. وعلى كثرة ما فعلت ذلك فإنها لم تُكمل زربيتها. ماتت والزربية ما تزال واقفة في حَلْق المنسج.

وقد علَّق سليمان وهو يستعيد هذه الحكاية بالقول إن أحداً لا يُكمل أبداً ما ينسجه. كلُّنا نضطرُّ إلى المغادرة، وفي منسجنا قليل أو كثير من المساحات الخاوية. وفي اللحظة التي أعاد فيها دفتره الكبير إلى مكانه، اقترب منه شخص سرعان ما تعرَّف إليه، إنه الشخص الذي حدَّثه عن المرأة العجوز قبل شهور، وشرح له لماذا تحدِّق فيه بتلك الطريقة. سحب مقعداً، وجلس متوثِّباً، كأنه يهمُّ بالمصارعة. ثمَّ بادره بالسؤال:

- هل التقيتَ بالعجوز؟

- رأيتُها فقط .. لكنها اختفت بعد ذلك.

- هل تعرف أنها لم تعد إلى تِيدَّاسْ منذ تلك الرحلة؟

صمت الشخص منتظراً. وراح سليمان يفكِّر بطريقة يخرج بها من هذه الورطة. إذا كانت العجوز قد حصل لها شيء، فقد يكون هو آخر مَنْ رآها. وعند ذلك سيكون مسؤولاً بشكل مباشر أو غير مباشر عن اختفائها. وإذا فُتح تحقيق في الموضوع، فإنه سيصل إليه لا محالة، ولا يعرف أحد ماذا سيحصل بعد ذلك.

يقول الشخص إنها منذ اللقاء الأوَّل لم تكفّ عن السؤال عنه، وعن عنوانه، وإنها استطاعت في ظرف وجيز أن تعرف كلَّ شيء عنه تقريباً، بل ذهبت

إلى ولماس، واقتربت من أحد أخواله الذي زوَّدها بمعلومات لرحلتها التي كان الجميع في تِيدَّاسْ يعرف شيئاً عنها. كانت تبدو مصمِّمة على اللقاء به في أقرب وقت ممكن. ومن كثرة ما تحدَّثت عن الرحلة، وعن سليمان، صار هذا الأخير معروفاً في تِيدَّاسْ، تنتظره البلدة، أو تنتظر شيئاً يحدث على يدَيْه، لم يكن يبدو عليها أنها تغادر بصفة نهائية. فقد رتَّبت أشياء كثيرة لِمَا بعد عودتها، لم تكن حتَّى متوتِّرة وهي تركب سيَّارة الأجرة، وتتوجَّه لأوَّل مرَّة في حياتها إلى العاصمة. كانت تقول: إنه مجرَّد غرض طارئ .. ستقضيه، ثمَّ تعود.

وأنتَ؟ سأل الشخص. كيف رأيتَها؟ قال سليمان: لمحتُها فقط قرب مدخل العمارة، وعندما نزلت زوجتي لاصطحابها، وَجدَتْها قد تبخَّرت. لم يعد لها أثر في الحيِّ. والغالب أنها رحلتْ بعيداً، إذ لو حصل لها شيء في المنطقة، لوصلت أخبارها على الفور .. ربَّما تكون مقيمة عند بعض أقاربها .. هل تعرف لها أقارب في الرباط؟

ابتسم الشخص، وقال إنه لا يعرف لها أقارب في أيِّ مكان. وحتَّى ابنها الذي يعرف الناسُ كلُّهم قصَّة مقتله، لم يره أحد من قبل .. ربَّما يكون موجوداً في قصَّتها فقط.

قال سليمان، والزوج؟ وعائلته؟ ومعارفه؟ أَلَا تكون قد التجأت لأحد منهم؟

لا أحد يعرف شيئاً عن المرأة سوى ما تقوله عن مقتل ابنها، كأنها خرجت من الغابة.

قال سليمان:

- ربَّما تكون مريضة لا تقوى على العودة، أو أنها من البداية اختلقت حكاية البحث عنِّي، لترحل بصفة نهائية.

ولمَّا كان الشخص يبتسم باستمرار، فقد شكَّ إبراهيم في أن يكون ضالعاً في هذا الاختفاء، وكاد يسأله عمَّا إذا لم يكن قد رافقها في تلك الرحلة، وهو الذي تحرَّى عنه في الحَيِّ قبل أن يُجلِسَها في باب العمارة، ويذهب. لكنه أحجم

عن ذلك في آخر لحظة .. واكتفى بالقول إنه جاء إلى تِيدَّاسْ، ليقوم بشيء من أجلها. إنه لا يعرف، حتَّى الآن، ما هو هذا الشيء، ولا يعرف ما إذا كانت قد جاءت إلى الحَيِّ فعلاً من أجله، وهل لها حاجة محدَّدة، تتوقَّع أن يقضيَها.

قال الشخص: أمَّا أنها جاءت من أجلكَ، فقد جاءت من أجلكَ، سألت عنكَ تحديداً، وعن المكان الذي جئتَ منه، والذي تعيش فيه، وقالت إن قلبها يقول لها شيئاً بخصوصكَ، كان سليمان متوجِّساً، يتوقَّع أن الشخص قد أخبر الشرطة بوصوله إلى تِيدَّاسْ، وأن تكون الفرقة الجنائية في طريقها إليه، وماذا سيقول عن اختفاء العجوز؟ ولماذا جاء من مسرح جريمة مفترَضة إلى مسرح جريمة قديمة؟ هل يعرف شيئاً؟ نعم، نعم، هل يعرف شيئاً؟ هذا هو السؤال المرعب في قلب كلِّ جريمة. ماذا تعرف عن القتيل القديم؟ عمَّاذا تحدَّثتُما عندما زارتكَ. لم تزرْني، ولم نتحدَّث، وهل يمكن أن تقوم بهذه الرحلة، وتجلس في مدخل العمارة ولا تتحدَّثا؟! هل اتَّفقتُما على شيء؟ لماذا جئتَ إلى ِتِيدَّاسْ؟ لا شكَّ أنها طلبت منكَ

أن تفعل ذلك للتمويه. هل تعرف شيئاً عن جريمة تخطِّط لها .. أو ثأر، أو تصفية حساب؟ تدور الأسئلة، وتدور. ثمَّ تعود إلى نقطة البدء: «هل تعرف شيئاً»؟

سأل سليمان جليسه الغامض:

- هل تعرف شيئاً تريده العجوز منِّي؟

قال الشخص:

- ليس على وجه الدقَّة، لكنها تحدَّثت كثيراً عن الشبه المثير بينكَ وبين المرحوم ابنها، وقالت، ربَّما تكون حفيدها، والظاهر أن ابنها قُتل لقطع هذه العلاقة، هناك شخص، تقول العجوز، لا يريد أن تكون ابناً لأحد سواه.

سأل سليمان: وهل كانت تعرف أشياء محدَّدة. أو تذكر أسماء معيَّنة أم أنها فقط تلوح بتخمينات مبهمة؟

قال الشخص: لم تكن تدخل في التفاصيل، أحياناً تقول إن شخصاً نافذاً هو الذي دبَّر قتل ابنها، وأحياناً تقول إن المرأة التي اختطفت قلب ابنها من زيان .. وعندما وقع ما وقع، جاء إخوتها، وخطفوا روحه لدفن الفضيحة. كانت تقول أشياء متضاربة، تدافع عن رواية، تقول إنها الحقيقة التي طمسها الدَّرَك، ثمَّ تعود، فتنقضها، وتدافع عن رواية جديدة. ولكن التفصيل الذي تعود إليه باستمرار، هو أن لها حفيداً، وأن الذين قتلوا ابنها، لا بدَّ أن يقتلوا الحفيد .. ثمَّ قالت مرَّة (وهذه بيني وبينكَ) إذا طاوعني الحفيد، تغدَّينا بالقاتل قبل أن يتعشَّى بنا.

اضطرب سليمان كثيراً لسماع هذه الأخبار السيِّئة، تصوَّر فجأة أن القاتل الذي يتربَّص به يوجد في مكان ما قريب منه، يراقبه ويترصَّده، ويتحيَّن الفرصة للانقضاض عليه. وقد يكون هو هذا الشخص نفسه الذي يجالسه، والذي خطَّط بمكر لزعزعة استقراره قبل أن يُجهِز عليه، وفي غمرة هذا الذعر الذي جمَّده وسلبه كلَّ قدرة على الحركة، تيقَّن سليمان أن العجوز لم تأتِ إلى حيِّ الفتح لتلتقيَ به، بل فقط لتستدرجَهُ إلى مكان الجريمة، إنها عكس ما تكون قد ادَّعتْهُ، هي أيضاً تريد أن تتخلَّص منه، أن تُسلِّمه لقمة سائغة للقاتل الذي يتعقَّبه منذ سنوات، وينتظر الوقت المناسب ليُقفل بقتله أبواب القصَّة ونوافذها. ربَّما يقول سليمان ترسَّخت عندها فكرة مجنونة أنني أنا السبب في مقتل ابنها، وعليَّ أن أدفع ثمن ذلك. هل يُعقَل أن تكون العجوز بهذه القسوة كلِّها؟ هل يمكن أن تشارك في إزهاق روحه بينما بقاؤه على قيد الحياة (لو كان صحيحاً ما تقوله عن حفيد محتمَل) هو التعويض الوحيد عن فقدان الابن، بل الثأر الوحيد الممكن لمقتله؟ كان سليمان يستعرض في ذهنه ما سيحدث لو جاء أحد ووضع حَدّاً لحياته في هذا المقهى الكئيب. سيأتي غرباء لتفتيش جيوبه. وسيستعملون هاتفه لاستخراج آخر رَقْم حادثه، لعلَّه رَقْم إبراهيم (كلَّمه وهو في الطريق إلى تِيدَّاسْ) سيقولون له بتلك العبارات المضطربة ما سيفهم منه أن شخصاً آخر ممثِّلاً للسلطة هو الذي يكلِّمه من هاتفي الشخصي الذي أصبح هاتف جثماني فقط .. وبعد ذلك ستتابع الأشياء في تصاعد درامي، يبدأ بصرخة أُمِّ كلثوم، وينتهي بالضوضاء القبيحة للجنازة التي ستأتي صفاء ونهلة لأجلها من لندن. ثمَّ تعودان لاستئناف الحياة التي لا

تتوقَّف بسبب هذه الحوادث المؤسفة، ولأن الموت في نهاية المطاف لا يعني سوى «الراحل العزيز». هنا تذكَّر سليمان دفتره الكبير، ربَّما سيأخذه المحقِّقون للبحث فيه عن أشياء، تُقرِّبهم من فهم الجريمة، هل سبق له أن كتب شيئاً عن العجوز؟ لم يعد يتذكَّر، لكنْ، لا بأس، من الممكن بعد التأمُّلات التي سجَّلها بخصوص تِيدَّاسْ أن يضيف شيئاً. أخرج الدفتر، وكتب في أعلى صفحة جديدة «العجوز تريد أن تقتلَني» «هذا ما فهمتُهُ من نظرتها الزرقاء الحادَّة، التي بَذَرَتْها في دواخلي، وجعلتْني أتبعها مسلوب الإرادة. ماذا أفعل هنا في هذا المقهى، ومع هذا الشخص الغريب الذي يريد أن يُوهِمني بأن قاتلاً يتعقَّبني، بينما هو مَنْ يتأهَّب مغتبطاً لقتل الحفيد المفترَض؟»

نهض سليمان وقدماه تكادان لا تحملانه. مشى متثاقلاً، ولم يكد يبتعد بضعة أمتار عن المقهى، حتَّى استوقفه رجل بالغ الحيوية رغم شيخوخته الزاحفة:

- هل أنتَ سليمان؟

- نعم، أجاب سليمان بصوت مرتعش. قبل أن يضيف:

- وهل ستفعل ذلك الآن؟

- أفعل ماذا، يا بني؟ أَلَا تتذكَّرني؟ أنا الأستاذ صالح، مدير الثانوية التي درستَ بها بالخميسات، أُحلتُ على التقاعد منذ سنوات، وأعيش الآن في مسقط رأسي. ليس هناك أفضل من تِيدَّاسْ لمَنْ أراد أن يعمّر طويلاً.

احتاج سليمان للحظة يسترجع فيها أنفاسه من الهلع الذي عصف به قبل قليل، واحتاج بعد ذلك إلى وقت أطول، ليُنهيَ به هذا اللقاء العابر. فقد كان الأستاذ صالح مصرَّاً على استبقائه لأطول مدَّة ممكنة. ووجد من المناسب أن يصحبه إلى سيَّارة الأجرة التي جاءت به من حيِّ الفتح، وهو لا يتوقَّف عن وضع الأسئلة. وعندما رأى سليمان مستقرَّاً في مقعده جنب السائق، وأنه ذاهب لا محالة، انحنى صوبه وسأله ببراءة مفتعلة، فضحها بابتسامة عوجاء:

- كيف حال الشريف؟

سكت سليمان، فأضاف الأستاذ صالح:

- لا شكَّ أنه قد تقدَّم به العُمُر كثيراً .. ومع ذلك، فإنه متوقِّد الذهن، ما يزال كما يظهر في التلفزة.

واصل سليمان صمته، فقال الأستاذ صالح:

- فعل خيراً عندما دبَّر أمر دراستكَ بفرنسا.

سأل سليمان منتفضاً:

- أليس حدو الشيكر هو مَنْ فعل ذلك؟

- بلى، ولكن الشريف هو مَنْ أمره بذلك، وإلَّا هل تعرف أحداً أرسله حدو الشيكر لدراسة الفلسفة بالسوربون؟

انطلقت سيَّارة الأجرة في طريق العودة. وعندما أخذت بالانحدار صوب العاصمة، سأل السائق سليمان:

هل قضيتَ الغرض؟

قال سليمان:

- العجوز هي التي قضت!

-11-

دأب إبراهيم على التوغُّل في الغابة من حين لآخر، تصحبه بريجيت، أو الشيخ عبد الله، كان يسجِّل كلَّ شيء يصادفه، ويلحق بذلك ملاحظات بريجيت، والحكايات المتفرِّقة التي يحكيها الشيخ عبد الله، والتي كثيراً ما تختلط عليه، فينقص فيها أو يزيد حسب مزاجه. كان قد تجاوز التسعين، ورغم أن ذاكرته ما تزال يقظة، فإن انطفاءات مباغتة تعتريه، فيصمت أو يغيِّر الموضوع.

يتوغَّل إبراهيم في الغابة، ولكنه لا يتهيَّب من ذلك، خصوصاً عندما يكون مع الشيخ عبد الله الذي يسمِّي الأمكنة التي يعبرونها، ويهتدي مغمض العينَيْن إلى المسارب التي تفضي إلى الطريق أو إلى دواوير، لا تخطر على بال. يعرف إبراهيم أن المعمورة التي كانت تشكِّل كتلة واحدة من مائة وأربعين ألف هكتار. وتمتدُّ من الغرب إلى الشرق، ومن الجنوب إلى الشَّمال. من مرجة بني حسن إلى الخطِّ الفاصل بين مياه سبو ومياه بورقراق، لم تعد بتلك الكثافة البدائية المخيفة التي كانت عليها قبل قرون، فمنذ وصلت إدارة المياه والغابات الفرنسية في ديسمبر 1913 إلى المعمورة، وشرعت في تدبيرها، خضعت الغابة لمعالجات طوبوغرافية وبيئية، فوزَّعتْها إلى «مربَّعات»، وفتحت في وسطها ممرَّاً مركزياً، تتفرَّع عنه ممرَّات ومسالك، ثمَّ قام الاستغلال المنظَّم والعشوائي بتفكيك تلك الكثافة الوحشية. فأصبحت المعمورة مجالاً يتراوح بين كثافات محدودة، وفراغات تكبر سنة بعد أخرى. كلَّما خرج إبراهيم في جولاته، استغرب من الفرق الشاسع بين المظهر الذي توحي به الغابة ونحن نخترقها عبر الطريق الوطنية، حيث تبدو منبسطاً، تملؤه الأشجار، وبين حقيقتها في الداخل، حيث تبرز مكوِّناتها الطوبوغرافية حافلة بمشاهد مدهشة، في شكل أنجاد وهضاب، تخترقها أودية جميلة، وتمرُّ منها وديان متفاوتة الأهمِّية، تصبُّ في نهر سبو، مثل واد الفوارات، وواد صمينتو، وواد تِيْفَّلْتْ، وواد تويرسة، وواد تغريست، ممَّا يجعل المجال الداخلي يبدو أعقد بكثير ممَّا توحي به الواجهة.

أمَّا الأودية، فبالرغم من كونها اليوم قد أصبحت مجالاً مأهولاً، تتخلّله بعض القرى، والمساكن المبثوثة هنا وهناك، فإن الطابع الوحشي المرتبط بالغابة ما يزال حاضراً. وكثيراً ما كان يُوقِظ في إبراهيم رغبة قديمة في أن يذهب إلى قلب هذا «المجال الأوَّل»، وأن ينتقيَ من تلك القرى المَنسيَّة ملجأ يستقرُّ به. لأن الإقامة على مقربة من الطريق هي أيضاً إقامة في فكرة العودة، بينما الإقامة في هذه الأماكن القَصِيَّة هي اختيار للقطيعة الكاملة.

عندما جاء الفرنسيون وجدوا الغابة قد تقلَّصت، وأصبح مجالها الأساسي هو بلاد الرمل التي يحدُّها المحيط غرباً، ومرجة بن حسين شَمالاً، والمستنقعات الطينية لواد بهت شرقاً والطين الأحمر لبورقراق جنوباً، وهذا الأخير كان يفصل الغابة عن امتداداتها الطبيعية في منطقة السهول ومرتفعات والماس، إذ من البديهي اعتبار السهول وزعير وبولحيوط جنوب الرباط جزءاً لا يُجتزأ من غابة المعمورة، مثلما هي جزء لا يُجتزأ منها غابات المرتفعات حتَّى ولماس، والغابات المحيطة بخليج الغرب حتَّى العرائش، هذه الامتدادات كلُّها تكسَّرت، وحتَّى جزءها المهمَّ الذي كان يغطِّي المجالات الواقعة في تراب تِيْفَّلْتْ تعرَّض تدريجياً للانحسار، ولم تعد تدلُّ على وجوده القديم سوى أشجار فِلِّين يتيمة، صمدت هنا وهناك حتَّى لم تعد هناك «شجرة تخفي الغابة».

لماذا تقلَّصت الغابة في المنطقة الجنوبية، وصمدت نسبياً في الشَّمال؟ يقول الشيخ عبد الله «لأن الغرب لهم أرض صحيحة» يزرعونها، أمَّا نحن، فنخطف الأرض من الغابة، وبعد بضع سنوات، لا يُسعفنا الرمل بشيء، فنخطف مساحة أخرى.

كانت بريجيت تحبُّ هذه الجولات في عمق الغابة. وتقارن ما تجده في الأرض مع ما

تقرؤه في الدراسات والأبحاث التي راكمها إبراهيم، وفي كلِّ مرَّة، كانت تجد الغابة أكثر تعقيداً في الأرض منها في الوثائق. أين تبدأ المعمورة؟ وأين تنتهي؟ كيف نشأت الفراغات الكبرى داخل الغابة؟ وماذا غيَّر «برنامج تشجير الفراغات» في فيزيونومية الغابة التي كانت فِلِّيناً بالكامل، ثمَّ صارت مزيجاً

من الفِلِّين والأوكاليبتوس والصنوبر والأكاسيا؟ ومن تداعيات هذا التعدُّد أن الشيخ عبد الله كلَّما مرَّ بمربَّعات الأوكاليبتوس، بصق ناحيتها، وصبَّ جام غضبه على هذه الشجرة السامَّة التي تمصُّ الماء حيثما كان، وتقتل الأعشاب، ولا تفرح معها حتَّى بالظلِّ، وإذا نمتَ تحتها تقوم مَهروس الجسد، كأن عصيَّها أوسعتْكَ ضرباً .. لكنْ، تقول بريجيت. الأوكاليبتوس وفَّر بعض الحماية للفِلِّين، فقد توجَّه إليه الاستغلال والاعتداء نظراً لوفرته ولسهولة نُموِّه وانتشاره، ممَّا سمح لشجرة الفِلِّين بقسط من الراحة.

يردُّ الشيخ عبد الله:

والدودة؟ هل نسيتِ أن الدودة التي جاء بها الأوكاليبتوس هي التي خرَّبت غابة الفِلِّين؟

لم تكن بريجيت تعلم بأمر الدودة، لكن إبراهيم الذي يعرف أن الفطريات التي اكتسحت المعمورة في نهاية عشرينيات القرن الماضي، ودأبت على العودة من حين لآخر، لا علاقة لها بالأوكاليبتوس، فأوضح أن الشيخ عبد الله مثله مثل جميع الغاضبين من الشجر الأسترالي يضعون كلَّ أوبئة المعمورة على عاتق الوافد الجديد.

كلَّما مرَّ إبراهيم ورفقته بشجرة فِلِّين ضخمة، كان الشيخ عبد الله يُخرِج من جيبه شريطاً من الدوم، ضَفَرَهُ بنفسه لهذه الغاية، فيقيس به قطر الشجرة. فإذا كان بين متر وعشرين ومتر وخمسين، فإنه يقول إن عُمُر الشجرة هو بين ستِّين وسبعين سنة، وإذا كان القطر بين مترَيْن ومترَيْن ونصف، فإنه يقول إن عُمُرها يقع بين ثمانين وخمس وتسعين سنة. وقد حدث له مراراً أن هتف بعد هذا القياس، هذه قرينتي، مثلي تماماً، تحمل قرابة قرن في عظامها، ولو أن قطري لا يتجاوز قطر غصن من أغصانها.

تتساءل بريجيت عمَّا إذا كانت الغابة البدائية، تلك التي كانت موجودة منذ قرون ما يزال منها شيء أم أن معمورة اليوم ليست سوى غابة حديثة، ليس

فيها أولوفيا سوى الاسم أو المكان؟ هل يمكن إذا بحثنا طويلاً أن نعثر على شجرة فِلِّين ترجع إلى قرون خلت؟؟

قال إبراهيم إن تقارير المياه والغابات الفرنسية انتهت إلى التأكيد على أن ما تضمُّه الغابة اليوم من أشجار فِلِّين يعود أقدمها إلى منتصف القرن التاسع عشر بين 1850 و1860.

وقال الشيخ عبد الله، إذا قال الفرنسيس إنها لا توجد، فهي لا توجد، أقدم الأشجار كانت بالجنوب الشرقي لدار بن حسين، بين واد تويرسة وواد تاغريست، وقد اقتُلعت عن آخرها على عهد فرنسا أو قبلها، الله أعلم.

الغابة تعرف كيف تنجو بروحها، يقول الشيخ عبد الله، مع دخول الفرنسيِّيْن في بداية القرن، اكتسحها حريق، أتى على ثلثها تقريباً، ثمَّ عرفت كيف تعود من تحت الرماد، عندما وصل الفرنسيون كانت مليئة بقُطَّاع الطُّرُق والمتمرِّدين. لكنَّ فِرَق الخيالة تعقَّبتْهم حتَّى أمنت المعمورة. الغابة الكثيفة المظلمة التي تخاف فيها نهاراً كانت بين واد الفوارات وواد صمينتو. الغابة الموجودة كلُّها جنوب الممرِّ الرئيس وسط الغابة كانت تحت سلطة «الفحَّامين» وهؤلاء كانوا يمنعون «اللحَّائين» (المعتاشون من اقتلاع لِحاء الفِلِّين، وبيعه إلى معامل الدباغة بالرباط وسلا) من دخول الغابة. والفريقان معاً تقاتلا على الأشجار، وقتلوا معظمها، الدباغة تطلب لِحاء الفِلِّين، والمدينتان الكبيرتان تطلبان الفحم للطبخ

والتدفئة. وكلُّ شيء من المعمورة. حاول الفرنسيون تنظيم الأمر بإنشاء «وكالة الفحم» التي تنتقي الأشجار القابلة للاستغلال. يقول الشيخ عبد الله إن والده اشتغل بالوكالة، وشهد مرحلة الإضرابات الكبرى التي قام بها الفحَّامون ضدَّ الوكالة التي أقدمت على «تسليع» الأشجار. وقد أدَّت الإضرابات إلى اختفاء الفحم من المدينتَيْن الكبيرتَيْن حتَّى صار الناس يوقدون لتحضير خبزهم اليومي أثاثهم المنزلي. إلى أن وجدت فرنسا حلاً لنزاع الوكالة مع الفحَّامين بعد تدخُّل شخصي من طرف المريشال ليوطي، في نهاية المطاف، يقول الشيخ عبد الله قبيلة زمور التي فقدت الآلاف من أبنائها

لتظفر بالمعمورة، لم تفعل شيئاً سيِّئاً للغابة، بل حافظت عليها كما يحافظ الواحد على أُمِّه. المُدُن هي التي عذَّبت المعمورة، ثمَّ الحرائق، والجفاف، والشركي، والدودة اللعينة. ثمَّ جاءت فرنسا، وزعمت أنها ستحمي الغابة. لكنها قَتلت باستغلال لِحاء الفِلِّين معظمَ أشجارها القديمة.

استغربت بريجيت أن تكون فرنسا التي كانت قد تعوَّدت على استغلال غابات الفِلِّين في الجزائر وتونس قد أقدمت على هذه الجريمة البيئية بكلِّ برودة، لكنها عندما عادت إلى أبحاث حول المعمورة، أنجزها فرنسيون في منتصف القرن الماضي، وقعت على حقيقة ما جرى. فالفرنسيون لم يفطنوا إلى الفرق بين خصائص الفِلِّين في المناطق الرطبة، وخصائصه في المناطق الجافَّة، فأقدموا على تقشير أشجار قديمة، تبلغ أعمارها ستِّين سنة في المتوسِّط، بينما لم تكن هذه الأشجار في وضع تتحمَّل فيه هذا التقشير، ففقدت المعمورة دفعة واحدة 200.000 شجرة.

خلال جولاتهما، كانت بريجيت وإبراهيم يصادفان كثيراً من القنافذ والأرانب والسحليات والثعابين، وأسرابا هائلة من الحجل والدجاج الوحشي، وأحياناً يصادفان ذئاباً متفرِّقة أو مجتمعة، وثعالب، هذا كلُّ شيء. وبريجيت التي قرأت تقارير قديمة عن الغابة، ونصوص رحلات متفرِّقة، تتعجَّب من أن تكون الفِيَلَة قد عاشت بالفعل في مرجة بن حسين، وتكاد لا تُصدِّق ذلك، إبراهيم هو الذي قرأ عن الفِيَلَة التي تحدَّثت عنها الوثائق الرومانية، وزعمت أنها كانت تخرج من الغابة ومن مرجة بن حسين وتخرب بساتين سلا. بعد ذلك قرأت بريجيت عن الرهبان «لاميرسي» الذين سافروا في مطلع القرن من فاس إلى الرباط عبر تِيْفَّلْتْ لافتكاك أسرى نصارى من الموريسكيِّيْن، وذكروا أنهم رأوا أُسُوداً ونُمُوراً وهم يعبرون المعمورة. وقد علَّق المؤلِّف الذي أورد هذه الواقعة ساخراً أن «الرهبان المساكين لا بدَّ أنهم هلوسوا من الخوف». لكن بريجيت كانت ميَّالة إلى تصديق الرهبان، وقالت لإبراهيم إن الظباء والوعول والخيول الوحشية كانت هنا، فلمَ لا تكون السباع؟!

عموماً كانت بريجيت تبذل جهداً مستمرَّاً للتعرُّف بدقَّة على وحيش الغابة، وقد لاحظت التكاثر الغريب للقنافذ التي أصبحت في رأس السلسلة الغذائية داخل الغابة تأكل فراخ الأرانب وبيض الحجل والثعابين وأنواع الزواحف كلِّها، بل أصبحت تهاجم الدواوير المتاخمة للغابة، وتُخرِّب كثيراً من المزروعات. وتثقب أنابيب البلاستيك التي يستعملها الفلَّاحون في الريِّ بالتنقيط. وأغلب هؤلاء كانوا ينظِّمون حملات ليلية لجمع القنافذ، ووضعها في براميل كبيرة حماية لمزروعاتهم قبل أن ينقلوها إلى الغابة. وعندما كانت تقول بريجيت لأحدهم إنه يعرِّض هذه القنافذ لخطر الموت بإبقائها أيَّاماً طويلة في البراميل كان يردُّ بأن الأمر لا يتعلَّق بقنافذنا الأصلية التي كانت تخاف وتستحيي، إنها فقط القنافذ الشقراء الجديدة، ومن الأفضل أن تُنظِّم إبادتها قبل أن تشرع في التهامنا. وعندما تستمع بريجيت إلى الشيخ عبد الله يحكي بدون انقطاع عن الصيد في الغابة، وعن الأساطير المرتبطة به، تتعجَّب لكون الحياة ما تزال مستمرَّة في الغابة، ولو في حدودها الدنيا، وإلاَّ لكانت المعمورة قد أصبحت مجرَّد خشب أقرب إلى مخزن للأثاث منه إلى غابة خضراء. وعندما تقول ذلك للشيخ عبد الله يردُّ بأن الحياة تعرف شغلها، في بعض السنوات يضرب الجذري أرانب الغابة، فتشرف على الانقراض، ونظلُّ لأيَّام نعثر عليها ميتة والغابة كلُّها تضجُّ برائحة تعفُّنها .. ثمَّ في الصيف تعود للظهور، فلا تمرُّ السنة حتَّى تضيق بها الغابة من كثرتها، فتهجم على الدواوير. نحن نعرف متى تكون الغابة مريضة، فنتركها

وشأنها، ونعرف متى تكون معافاة، فنلوذ بها. أهل زمور لم يكونوا أبداً لعنة على المعمورة. المعمورة كانت لعنتهم. دفعوا في الحرب من أجلها خيرة رُماتهم، وعندما كان المخزن يُجبر القبيلة على الانسحاب منها، كان المتمرِّدون من أبنائها يتسلَّلون إلى أعماقها، ويكيلون منها ضرباتهم الخاطفة. في تلك العهود المضطربة كانت الغابة تشطر بلاد المخزن نصفَيْن، نصفاً آمناً، ونصفاً لا يمكن اختراقه، حتَّى السلاطين كانوا إذا أرادوا الانتقال من عاصمتهم فاس، إلى عاصمتهم مراكش، يضطرُّون إلى تجنُّب البلاد التي يسيطر عليها الرماة المقاتلون من زمور وزيان، فيدورون حول المعمورة شمالاً، ثمَّ

يُحاذون المحيط حتَّى يصلوا إلى المكان الذي تلتقي عنده الغابة بنهر سبو. ثمَّ يعبرون إلى الجنوب.

في موسم البلُّوط، كانت بريجيت وإبراهيم يلتقيان في الغابة بأعداد كبيرة من الناس، يدعون «البلاطة» يتسابقون على جني تلك الثمرة الصلبة التي يقع طعمها بين طعم اللوز وطعم الكستناء، فكانا يجلبان منها للبيت كمِّية يستهلكانها كما هي أو مسلوقة، وتتجرَّأ بريجيت على تحضيرها بالزبدة والزنجبيل معجوناً لمصاحبة المشويات. وعندما ذاق الشيخ عبد الله من هذه الأكلة لم يُصدِّق أنها من ثمرة البلُّوط، وقال إن أهل المُدُن يقدرون على العجائب، وذكر أنهم في زمور كانوا يُطعمونها للماعز، فيصير لِلَحمه طعم اللوز، وما يفيض عن حاجاتهم، كان البلاطة يوصلونه إلى أسواق الرباط وسلا، وفاس ومكناس ومراكش .. دون أن يعرفوا أبداً ما تفعل به المُدُن. عند ذلك قالت بريجيت إن الإسبان يُطعمون البلُّوط للخنازير، فيُنتجون منها شرائح «الباتانيكرا» التي تُعدُّ الأثمن من نوعها، كما يُنتجون منها كحول «البايوطا» المعروف بخصائصه الاستشفائية، والمعروف خصوصاً بسَكْرته الهوجاء المعروفة «بالتبليطة»؛ فذكر إبراهيم ما قرأه في كتاب قديم عن نساء إشبيلية اللواتي تقدَّمنَ بشكوى في القرن السادس عشر، بعد انقطاع استيراد ثمرة البلُّوط من المغرب نتيجة الحصار الذي ضُرب على البلاد في أثناء الحرب على قراصنة سلا. ووقتها كان البرتغاليون القائمون بالحصار يحتلُّون «المهدية» على مصبِّ سبو، والمسمَّاة آنذاك : «سانتاكروز المعمورة». والظاهر، يقول إبراهيم، أن مدينة قديمة اسمها المعمورة كانت هناك، ولم يُعثَر على أثرها حتَّى الآن .. المعمورة، يقول إبراهيم، تاريخ معقَّد من الاختفاء والظهور. كلَّما عمَّ السلام أخذت الغابة في الاندثار، وكلَّما اشتعلت الحروب حولها، استعادت هدوءها، وتفرَّغت لإعادة إنتاج نفسها بكلِّ أمان.

عموماً، يقول إبراهيم للشيخ عبد الله، زمور تستحقُّ المعمورة، لقد حاربت من أجلها كثيراً، لكن الشيخ لم يكن يعرف من أمر هذه الحروب شيئاً، كان يعرف فقط تلك الغزوات المتبادلة بين زمور وبني حسن، وهي أقرب إلى

المناوشات والغارات العابرة منها إلى حروب طاحنة. وعندما كان إبراهيم يستعرض أمامه وقائع ممَّا قرأه، كان الشيخ عبد الله ينتبه جيِّداً ليُخزِّن في ذاكرته التفاصيل والمغربات كلَّها التي سيحكيها لجلسائه من القبيلة. حتَّى إذا اندهشوا واستخفُّوا بما يقوله، ردَّ عليهم بأن كلَّ ما يحكيه يوجد في الكُتُب. والكُتُب لا تكذب. وهذه الجملة الأخيرة لم يكن مقتنعاً بها تماماً، ولكنه كان يُفحِم بها جلساءه. أمَّا عندما يستمع إلى إبراهيم يسرد تلك الوقائع العنيفة للحرب على المعمورة، فإن الشكوك كانت تُساوره، كأنه لا يُصدِّق أن قبيلته قد مرَّت فعلاً من ذلك البلاء كلِّه.

أمَّا إبراهيم، فقد كان شغوفاً بتلك العهود السحيقة، كان يتمنَّى في قرارة نفسه لو أنه وُلد وعاش في القرن السابع عشر وبدايات الثامن عشر، عندما كانت الغابة مُحتلَّة من طرف القبائل الموجودة اليوم في سهول الغرب، كان يتمنَّى لو كان في رماة زيان وهم يدفعون هذه القبائل خارج المعمورة، فيرى كيف تمتلئ الغابة بالمندفعين، وتفرغ من المنسحبين، كما يدفع الماءُ الماءَ، أو يختطُّ نهر لنفسه سريراً جديداً، إذا فاض. أو يتمنَّى لو عاصر تيه زمور في بلاد بني مجيلد، بينما قبيلة بني حسن تحتلُّ بلادها الحالية كلَّها، وكذلك مرتفعات والماس وبورقراق والفوارات والمعمورة، أو لو كان في رماة القايد أحمد الغازي معزَّزين بفِرَق من زيان لطرد بني حسن من هذه الأطراف، والدفع بها إلى قلب الغابة، أو لو كان في الموقعة الكبرى، عندما تحالفت بني حسن مع بعض القبائل العربية من

مناطق السهول وزعير وعامر، وهجموا على زمور التي هزمتْهم في واد العرجات، وتمكَّنت من احتلال الفوارات وواد تِيْفَّلْتْ، ثمَّ عندما عاودت بني حسن هجومها، فألحقت بها زمور هزيمة نكراء، وبذلك احتلَّت المعمورة حتَّى واد توريسة بين ضاية الطوارفة وعين عسو، يتمنَّى لو كان في تلك اللحظات الحاسمة التي كانت زمور تدفع ببني حسن إلى ما وراء الضفَّة اليمنى لواد بهت، وتملك بصفة كاملة زمام المعمورة. وبما أن إبراهيم كان يعيش بوجدانه كلِّه في هذا القتال على المعمورة، فقد كانت أحلامه مليئة بمشاهد الغارات والخيل والبارود والخيام المتنقِّلة، وعندما يستفيق منها يشعر بانقباض، لكونه

امتلك قطعة من الغابة دون المشاركة في غزوة واحدة، فقط بما ادَّخره من مبالغ زهيدة من عمله.

وذات مرَّة وهو يتحدَّث مع الشيخ عبد الله اكتشف أن هذا الأخير يعتقد أن المعمورة كلَّها توجد بين يدَي قبيلته، يحاول إبراهيم أن يشرح له أن فرنسا بعد تلك الحرب الطاحنة حاولت إبرام صلح بين القبيلتَيْن، فأرجعت جزءاً من المعمورة إلى بني حسن، لكن زمور تمرَّدت واعتصمت بالغابة، وبعدما قامت فِرَق الخيَّالة الفرنسية بحملة تمشيط واسعة، ونجحت في تهدئة المعمورة نهائياً، لجأت إلى إبرام توافق بين القبيلتَيْن، فمنحت شمال المعمورة لبني حسن، وجنوبها لزمور.

قال الشيخ عبد الله:

- أنا فتحت عيني على زمور في المعمورة، ويكذب عليكَ الكاذب، ولو وجدتَ ما تقوله في كلَّ كُتُب الدنيا: المعمورة هي زمور .. وزمور هي المعمورة!

-12-

استأنفت بريجيت علاقتها مع ابنتها فجأة، فقد استيقظت ذات يوم منقبضة ومنشرحة في آن، وتذكَّرتها كما يحدث كلّ يوم عندما تفتح عينَيْها، وعندما أرادت أن تطردها كما تفعل كلّ يوم، ظلَّت واقفة أمامها في هيأة طفلة، تخرج من مهدها باكراً، وتهجم عليها في السرير. تطلَّعت من نافذة المطبخ إلى التربة الحمراء التي كانت قد ابتلَّت في أثناء الليل بمطر خفيف، وإلى الأشجار البعيدة وقد بدت غامقة وبصحَّة جيِّدة، وأحسَّت بالحياة تنفذ إلى مسامِّها من كلِّ ما تراه وتستنشقه، وبفعل توالد الحياة من أشياء بسيطة تكاد لا تكون حياة في حَدِّ ذاتها، شعرت بريجيت أنها تلد ابنتها مرَّة أخرى، أو على الأصحِّ أنها لم تتوقَّف عن ولادتها في كلِّ لحظة، وحيثما كانت ومهما ابتعدت، وأيَّاً كانت حالتها الجسدية والنفسية، فإنها تعود إلى رحمها، وتخرج منها كما يخرج الليل من النهار، والنهار من الليل. وعند ذلك هُرعت إلى هاتفها ودموعها منهمرة، فجاءها صوت ابنتها قادماً من نوم عميق، فما إن نطقت بكلمتها الأولى حتَّى تدفَّق بالكلمات والأخبار والمشاعر والأسئلة، في نوع من شروق جديد، لا علاقة له بأيِّ يوم مضى. وفي خضمِّ ذلك التشابك بين الصمت والثرثرة قالت منال: إنها قادمة، فوراً إذا وجدت سبيلاً إلى ذلك، وقد خطر لبريجيت أن تضع قدراً من التريُّث في اندفاع ابنتها، ولكنها خافت من إضاعة الفرصة التي نزلت من السماء، فما إن أنهت وإبراهيم إفطارهما حتَّى كانا يعرفان أن منال ستصل في طائرة المساء من باريس .. وأنها ستبيت هنا. فانصرفا بتوتُّر إلى تحضير غرفتها، كأنهما سيستقبلان طفلهما الأوَّل.

تحمَّست منال لكلِّ شيء، لإبراهيم وللغابة ولشجر الفِلِّين، للقنافذ وللنحل، لنمط الحياة الذي استقرَّ عليه الزوجان، وللحكايات، ولتاريخ الإنسان والمجال، كانت تقضي جُلَّ أوقاتها تمشي مع أُمِّها في الغابة، تُصوِّر الأشجار النادرة بأعمارها الممتدَّة، والقنافذ والعصافير، والدواوير المبثوثة في الوديان، وأعطاب البوادي: أسلاك الكهرباء، وبلاستيك الري، وعلب المبيدات والمآذن الإسمنتية المصبوغة بالأخضر. وعندما تعود تندمج في سكينة المكان، وتقول:

هذا ما ينبغي بالضبط. الإنسانية ضيَّعت وقتاً طويلاً تلهث خلف السراب، حتَّى تحوَّلت إلى آلة صمَّاء تُدمِّر مكوِّنات الحياة الجوهرية، والآن يجب فقط أن تُسلِّم بأنها لن تشرب من السراب، أن تجلس أرضاً، وتقتنع بأن الماء لا يوجد في المدى البعيد الذي نجري نحوه، بل يوجد تحت أقدامنا. وعند ذلك يجب أن تُنصت إلى الأرض، عوض أن تُجبرها على الإنصات لرغباتنا المجنونة. أن تُنصت إليها فقط، ونفعل ما تريد منَّا أن نفعله. لأننا إذا لم تُنصت إليها، فإنها في نوع من البكاء الكوني، ستُذيب جليدها، وترفع مياه المحيطات، وتغمر هذه الطفيليات كلَّها التي التصقت بجلدها.

عندما أتجوَّل في شوارع باريس تقول منال، كثيراً ما أقول لنفسي، كلُّ هذه الأنوار والتكنولوجيا والتفوُّق والقوَّة والجمال والإبداع، لا يصمد ثانية واحدة أمام مشهد امرأة عجوز مريضة تنام في صقيع الشارع مع كلبها كمصدر وحيد للتدفئة. صديقي السابق كان يقول لي: إن إنتاج الحضارة لا يعني إنتاج عالم ملائكي. في كلِّ حضارة توجد ما يمكن تسميته ب- «نفايات البناء»، انظري إلى القصور الجميلة، ما إن تستوي قصوراً جميلة حتَّى تلفظ خارج ملكوتها النظيف نفايات البناء التي لا معنى لها، حتَّى المنظومة الشمسية الرائعة تحفل بنفايات البناء المتبقِّية من الانفجار العظيم، وبعضها قد يرتطم ذات يوم بالأرض، فنصبح جميعاً ورشاً لإنتاج نفايات جديدة.

صديقي توقَّف عن أن يكون صديقي، بمجرَّد ما بسط أمامي نظريته عن «نفايات البناء». صرتُ أمشي في الشارع وأنا أتساءل: هل أنا ضمن البناء أم ضمن نفاياته؟ ثمَّ صرتُ ألتقط بنوع من الحدس البؤس المتخفِّي خلف السَّحْنات الواثقة. وكلَّما فعلتُ ذلك ازددتُ اقتناعاً بأن الحضارة الحديثة كلَّما كانت بوضع جيِّد، كان الإنسان فيها بوضع سيِّئ حتَّى إن

الوجود السيِّئ صار أكثر ما يدلُّ مع الوجود.

كلُّ ما حصل في هذه الزيارة الخاطفة لمنال، كان له وقع سحري، فقد فتحت منافذ لماء ظلَّ محبوساً لسنوات، وها هو الآن يغمر الأمكنة والأشياء والكلام، ويحيل الحياة إلى مروج صاخبة بزهورها وجداولها، حتَّى إن إبراهيم قد ساوره

الخوف من هذه البهجة الفائضة، وخشي أن تندثر بالسرعة نفسها التي انهمرت بها. وعند ذلك تذكَّر أن هذه الصيغة التي يحيا بها مع بريجيت ومنال كانت تجول بخاطره منذ سنوات، عندما لم يكن قادراً على الانفلات من حياته الفعلية، فكان يخلق لنفسه حياة أخرى، منها هذه الحياة التي تجمع في بهجة واحدة أشخاصاً، يصبُّ كلُّ واحد منهم في الآخر كأنهم أقداح متراكبة.

قبل يومَيْن من سفرها، اعترفت منال لأُمِّها بأنها تألَّمت طويلاً قبل أن تتخلَّص من الإحساس بأن أباها مات منبوذاً ومَنسيَّاً، كأنه لم يكن أبداً حجر الزاوية في وجودهما، وعند ذلك جرى لأوَّل مرَّة بين الأُمِّ وابنتها حديث هادئ عن ذلك الرحيل، هل قُتل في حادثة سير سخيفة لرجل كان يسوق وهو على مشارف الغيبوبة الكحولية أم أن ذلك كان انتحاراً منظَّماً تمَّ التستُّر عليه بالحادثة؟ لا أملك جواباً حاسماً، تقول بريجيت .. وأيَّاً كان هذا الجواب، فإنه لن يُريحني. إنني أتألَّم بالدرجة نفسها للاحتمالَيْن معاً. عندما أستعيد شريط علاقتي به، أجدني دائماً مجرَّد هامش لحياته. كان يريد زوجة لا تُفسد خططه الواضحة أو الغامضة. وبنوع من اليأس وحسن النية، كنتُ أراه رجلاً سعيداً مأخوذاً في عمله وصداقاته الكثيرة ونشاطه السياسي، لا يشكُّ لحظة واحدة في أن الأمور ستمضي مستقرَّة على هذا النحو إلى ما لا نهاية. ثمَّ فجأة تبدَّل كلُّ شيء، صَعِدَ جُلُّ أصدقائه في قطار الارتقاء جرَّاء تحوُّل سياسي، حمل أحزابهم إلى الحكومة، وبقي هو في وضع منتظر محترف، أو متردِّد، لا يعرف ما يريد، أنتِ خلقتِ عالمكِ، وأنا قنعتُ بعالمي .. وهو بقي ورقة ملفوظة من حياة سابقة، ولكنْ، شرساً وقاسياً. لقد كان خطئي القاتل أنني لم أنفصل عنه عندما كان سعيداً، ولا حتَّى عندما كان غارقا في علاقة فاضحة مع امرأة أخرى .. لم أكن أحبُّه، ولكنني كنتُ مخدَّرة، لا أقوى على القيام بشيء، بعد ذلك بدا واضحاً أن علاقتنا تتَّجه بمحض إرادتها وحتَّى بدوننا إلى التفسُّخ التدريجي .. حتَّى لم تعد في حاجة إلينا لإنجاز اندثارها الكامل. هذه أشياء قاسية، ولكنْ، من الممكن أن نُقدِم عليها بمزاج قاتل محترف .. يجب أن تعرفي، تقول بريجيت، أنني لم أتركه. بل فقط تجنَّبتُهُ، فقد أصبح عنيفاً معي، وطالما اقتحم عليَّ البيت سكراناً وهو يصرخ أن العالم تخلَّى عنه. أقول له لا أحد تخلَّى عنكَ، الحياة هكذا، كلُّ واحد يختطُّ فيها مساراً، لا يتقاطع بالضرورة

مع مسارات الآخرين، فكان ما أقوله يُخرِجه عن أطواره حتَّى لأنه يصبح شخصاً آخر.

سألت منال:

- هل كان يضربكِ؟

- كثيراً، وبعد انفصالنا، لم يتوقَّف، كلَّما بالغ في الشرب عن الاعتداء عليَّ باعتراض سبيلي أو بمكالمات في جوف الليل، حتَّى اضطررتُ إلى الاحتماء بالقضاء.

وضحكت بريجيت لتُداري انفعالها، ثمَّ قالت:

أيَّاً كانت الطريقة التي انتهت بها حياته، فإن ذلك حصل في فترة سلام بيننا، فقد كنَّا في نوع من الوئام الروحي بعد سنوات من الإنهاك المتبادل. حتَّى إنه في صبيحة ذلك اليوم مرَّ من العيادة، وترك لي باقة ورد، وفي الظهيرة كلَّمني من حانته المعتادة، ليسألني إن كنتُ قد تغدَّيتُ. وقبيل المساء، كلَّمني رجال الدَّرَك من هاتفه، رأيتُ رَقْمه، فابتسمتُ، قلتُ ربَّما سيسألني إن كنتُ قد تعشَّيتُ، لكن الصوت الذي وصلَني جمَّد الابتسامة في وجهي، فبقيت معي لفترة طويلة بعد الفاجعة.

المشي يساعد على فتح العلب المغلقة. كانتا تمشيان وتتكلَّمان، عن الحاضر وعن الماضي، عن الأشياء الصغيرة، وعن الأشياء الكبيرة، تتكلَّمان عن طفولتهما، وعن أحلامهما. وتستعيدان التفاصيل التي تسرَّبت إلى الدواخل، واختفت في أحراشها، وعن تلك التي وقفت أمام الأبواب الموصدة. وكلَّما توغَّلتا في الغابة. توغَّلتا في أغوارهما، ونسجتا من الرحلة أشياء كثيرة قابلة للضحك والبكاء والسخرية، وقابلة للصفح والنسيان. وفي نهاية تلك الزيارة كانت الأُمُّ والبنت قد وصلتا إلى تبادل مُحكَم لأدوار البُنُوَّة والأُمُومة.

لكن ما كان بالنسبة إلى منال شيئاً خارج التوقَّع هو تلك العلاقة التي نشأت بينها وبين إبراهيم، لقد أحسَّت أنها تستأنف معه هو الآخر علاقة قديمة، علاقة كانت دائماً هنا، مثل علاقتها بأُمِّها. وبدا لها بعد أقلّ من أسبوع أنه ليس طارئاً، ولا متسلِّلاً، إنه بالطريقة التي يعيد بها إحياء بريجيت، وبالطريقة التي يذهب بها إلى أقصى الأشياء، شخص استطاع أن يصنع المزيج الأكثر توازناً من القلق والطمأنينة، ليمشيَ به في الطريق التي اختارها واثقاً دون أن يفقد ذرَّة واحدة من حَيْرته. طالما كانت منال مقتنعة بضرورة القيام بعمل ملموس لصالح كوكب نظيف، واقتربت عدَّة مرَّات من التنظيمات الإيكولوجية، وصوَّتت لها، ولكنها كانت تتضايق ممَّا يخترق هذه التنظيمات من «أصولية خضراء»، ثمَّ رأت ما يفعله إبراهيم، فاقتنعت بأن الانتصار للطبيعة يتطلَّب شكلاً من أشكال الوقوع في الحبِّ، بأن تجعل حياتكَ الشخصية تتغيَّر رأساً على عقب، عوض أن تخاف على حياتكَ أكثر ممَّا تخاف على الحبِّ، هل تستطيعين أن تقومي بقفزة مشابهة؟ سألت نفسها، وعلى الفور شعرت أن تغيير المسار يتطلَّب أكثر من قفزة، ها هي قد فعلت شيئاً خارج المتوقَّع، جاءت من باريس، واستعادت أُمَّها، واكتشفت إبراهيم وعالمه الساحر، ومع ذلك، فإنها احتفظت على سبيل الاحتياط بخيط في يدها، يدلُّها على الوكر الآمن الذي غادرتْهُ، وها هي الآن في الطائرة التي تعود بها إلى باريس، كان ذهاباً وإياباً، وليس عبوراً إلى ضفَّة، لا عودة منها. وحتَّى هذه اللحظة، فإنها تحبُّ ما يحدث للآخرين، ولكنها ليست متأكِّدة أنها ستحبُّ أن يحدث لها.

في الأسبوع الذي تلا هذه الزيارة عاشت بريجيت محنتها الأولى في الغابة. فقد أصابها حزن شديد، فهمه إبراهيم كردِّ فعل على ذهاب منال، فهو أيضاً كان حزيناً للسبب نفسه، ولكنه أدرك، بعد محاولات عديدة لإخراجها من الوجوم والصمت، أن الأمر ربَّما يكون أعقد من ذلك. إنه الانهيار الذي يعقب البهجة العارمة. وبما أن الانهيار يحتاج إلى حطب كبير، فقد انصرفت بريجيت إلى تغذيته بكلِّ ما تقع عليه يدها من حياتها السابقة، من أحزان صغيرة، وخيبات مختلفة، ومناطق ظلٍّ، ومخاوف من كلِّ صنف، وانتهت إلى اعتبار نفسها مجرَّد كائن في خدمة انهياره. كان إبراهيم يراها تنسحب إلى مخابئ دفينة، ولا يستطيع شيئاً. حتَّى منال التي كانت تأخذها في مكالمات طويلة،

صارت تتعب كثيراً من احتباس الكلام في حلق أمِّها، وتتساءل عمَّا إذا لم تكن عودتها هي التي أخلَّت بالتوازن الذي انبنى منذ سنوات على انفصام لا رجعة فيه .. ثمَّ شيئاً فشيئاً بدأت بريجيت تخرج من الحالة، وتعود إليها، كما لو كانت تُحضِّر نفسها للخروج تدريجياً من الأزمة، وفي أثناء ذلك، جاءت أُمُّ كلثوم وسليمان، واستقرَّا لفترة بالبيت الغابوي، فساعدت رفقتهما على استدراج بريجيت إلى الحياة المشتركة. حيث كان يحصل لها أن تعود للصخب اليومي، كأنها لم تغادره أبداً، حتَّى إذا جمعتْها غرفة النوم مع إبراهيم، رجعت إلى صمتها، كأنها وقعت في بئر.

خلال هذه الفترة، كان يحدث لبريجيت أن تدخل في جدل فلسفي مع سليمان حول الحَيْرة، لأنها تعتبر هذه الكلمة هي الأنسب لوصف حالتها، وقد اعترفت له أنها كانت دائماً واثقة ممَّا هي فيه، خيراً كان أم شرَّاً، لم تشغل نفسها أبداً بالتساؤل عمَّا هو الطريق الأسلم، أو الحلّ الأفضل، كانت تأخذ ما تجده أمامها، وتمضي .. أمَّا الآن، فإنها ليست واثقة من شيء، لا تعرف ما إذا كانت مقبلة على خسارة فادحة أم على مكسب باهر، لا تعرف هل توجد في المكان الصحيح أم في المكان الخطأ؟ هل تعرف ما تفعله الحَيْرة؟ تقول

بريجيت، إنها تخرِّب المتعة، تلاحقها حتَّى في أدقِّ التفاصيل، وتقتلها بذرة حتَّى قبل أن تُولَد .. كان سليمان يُجهِد نفسه لمصاحبة أسئلتها، لكنه لا ينجح إلَّا في تعميق حَيْرتها، ذلك كلُّه وإبراهيم الذي كان يتمنَّى لو يستطيع أن يتبادل مع بريجيت بضع كلمات، صار يكتفي بدور المتفرِّج على الصمت الذي ينأى بها.

أمَّا أُمُّ كلثوم، فقد اقتربت من بريجيت بطريقة في غاية العذوبة، حدَّثتْها عن صفاء ونهلة، كيف امتلأت بهما حتَّى لم تعد حياتها تعني شيئاً خارج وجودهما، ثمَّ ذات يوم عندما رحلتا إلى لندن للدراسة، استيقظت لتجد بداخلها صحراء موحشة، ولشهور عديدة، كانت تضع في هذه الصحراء، ويضع معها سليمان كلَّ ما يمكن أن يُوقِف زحف الرمال بدون جدوى، كانت الصحراء تأكلها من الداخل، وتجعلها خلال أيَّام لا تقوى على مغادرة فراشها، لأنها تعرف أن وحش الغياب سيتلقَّفها مباشرة، ليمثِّل بها، إلى أن بدأت تمتلئ بهما مرَّة

أخرى غائبتَيْن، ولشدّ ما كان امتلاءً كثيفاً ومبهِجاً ذلك الذي لم يعد يعتمد على الحضور السهل، بل على الأواصر المتمنِّعة.

شيئاً فشيئاً بدأ هذا الحديث مع أُمِّ كلثوم يتسرَّب إلى الجذور الذابلة لبريجيت، ويُوقِظها، وكان أوَّل تعبير عن ذلك أن بدأت تخرج إلى الباحة متدثِّرة بلحاف صوفي، وتجلس تحت الشجرة. كان فصل الشتاء يقترب من نهايته، وتناوُبُ الشمس والمطر على الغابة يجعلانها تصخب بالحياة والتحوُّل. وهذا كلُّه أعاد لإبراهيم رغباته الهاربة كلَّها، فأقبل من جديد على صناديق النحل، وعلى البستان الذي غرس فيه فواكهه الأثيرة كلَّها، واستعاد على الخصوص الأمل في عودة بريجيت، ولو مختلفة قليلاً أو كثيراً عن نسختها الأصلية.

خلال هذه الفترة، بدأت القنافذ تخرج من بياتها، وأخذت تتردَّد على البيت، وتتشمَّس في الباحة، وبعضها كان يتجرَّأ على الأكل في راحة بريجيت، واندهش سليمان عندما رأى أُمَّ كلثوم تتخلَّص من امتعاضها من هذه الكائنات المنفِّرة بزعمها، وتُقدِم على التعايش معها، ولو بحماس محدود. ثمَّ تطوَّرت الأمور سريعاً، فظهرت أرانب كثيرة، أتت في ليلة واحدة على أحواض الخسِّ والجَزَر قبل أن يشرع إبراهيم في استهلاكها، ثمَّ ذات صباح، خرج إبراهيم لتفقُّد أحوال بستانه، فوجد أحواض البطاطس وقد أصبحت مجرَّد حُفر كبيرة خاوية. وعندما جاء الشيخ عبد الله أكَّد أن الخنازير هي التي فعلت ذلك، وأنها ما دامت قد وصلت إلى مشارف القرى، فإنها قريباً ستملأ علينا الخيام. وهذا كلُّه لأنكَ لا تريد اقتناء بندقية صيد، أنتَ لا تعرف أن هذه الوحوش كلَّها ستختفي إذا أرديتَ منها قتيلاً واحداً، الأرانب تشمُّ رائحة البارود حتَّى قبل أن يخرج من البندقية. ولا تنسَ أنكَ تسكن في الغابة، ومتزوِّج بنصرانية، ولا بدَّ أن يفكِّر اللصوص ذات يوم بالهجوم على البيت، وبماذا ستردُّهم إن لم تكن لديكَ بندقية؟! هل ستقذفهم بالكُتُب؟ وهوَّل الشيخ من أمر اللصوص حتَّى إن كوابيس بريجيت امتلأت بهم خلال أيام متتالية.

ومع ذلك، فإن إبراهيم لم يرضخ لفكرة البندقية، بل لجأ إلى حِيَل كثيرة، ليحميَ بها المزرعة، فأقام أسلاكاً شائكة حول البستان، ودأب على وضع

كمِّيات كبيرة من الخُضر والفواكه المستغنى عنها في أسواق المنطقة في أماكن مختلفة من مجاله الداخلي، وبعيداً عنها في الممرَّات التي تربط بين مربَّعات الفِلِّين ومربَّعات الأوكاليبتوس، كان يضع، من حين لآخر، بعضاً من أعلاف المواشي لفائدة الخنازير الجائعة.

صار سليمان كلَّما عاد لزيارة إبراهيم يزداد اقتناعاً بأن هذا الأخير وقد انطلق من مشروع بلا ادِّعاءات ولا طموحات جامحة، قد وصل إلى بناء عالم مَلحمي، يشبه سفينة نوح، بنوع من سكينة الأنبياء، لا يغترُّ بما يرى، ويتصرَّف كما لو كانت تلك التفاصيل المدهشة كلُّها مجرَّد مقدِّمات لطوفان لا يعلمه أحد سواه. لقد أصبحت حديقته مرتعاً لأصناف كثيرة من وحيش غابة أسطورية، لا تستطيع التفريق بين طبيعتها الوحشية

الأصلية وطبيعتها الدجنة المكتسبة، حتَّى الذئاب والثعالب وقد كانت جِدّ حذرة تقوم بغارات خفيفة، ثمَّ تختفي، صارت تتجوَّل مُستأنسة في «تراب المملكة». ونشأ من هذا التكاثر الذي لم يكن مُبرمجاً، لا في مشروع إبراهيم، ولا في نوايا الغابة نفسها، «مجتمع» له قوانينه وأعرافه، وقد انتبهت الحيوانات إلى ضرورة تنظيم التعايش في هذا المجتمع الجديد، فصارت تترك لإبراهيم الجزء الأكبر من خُضرواته وفواكهه ودجاجه، وتتقاسم الباقي فيما بينها، وقد تنشأ بينهم صدامات في أثناء هذا الاقتسام، تكاد تخرِّب التعايش، ثمَّ يتغلَّب العقل أو الحكمة أو الحدس الموروث من سفينة نوح، فتهدأ الأمور دون أن يضطرَّ إبراهيم إلى التدخُّل إلَّا بإشارات غامضة من عينَيْه.

هذا كلُّه كان سليمان يسجِّله في دفتره الكبير، كوقائع عادية في حياة عادية، فإذا عاد إلى قراءة ما سجَّله، اندهش للطابع العجائبي الذي يصبح لهذه الوقائع مكتوبة، كأنها ضَرْب من الخيال الجامح، وقد صار يتردَّد أحياناً في الإبقاء عليها، لأنها تبدو له خارجة عن منطق الدفتر الكبير الذي نذره لتسجيل ما يحصل بدون زيادة ولا نقصان. ومن الأشياء التي لم يجرؤ على تسجيلها ظهور زوج من الظباء في باحة البيت، والحال أن الظباء انقرضت من المعمورة منذ بداية القرن الماضي، ثمَّ ظهور خيول وحشية، بلا وحشية

ظاهرة، لأن بعضها كان يتمسَّح ببريجيت كقطط كسلانة. ولكن سليمان كان ينتهي به الأمر إلى تسجيل كلِّ شيء مُرْجِئاً تفسير ما وقع إلى وقت لاحق. إذا كانت هذه الحيوانات قد انبعثت فجأة، فلا مناص من انتظار الأفيال والأُسُود والنُّمُور، إذا كانت قد هربت من حديقة الحيوانات، فسترجع إليها طوعاً أو كرهاً، الوقائع لا تحمل معها شروحها الكاملة، تكفي القناعة بوجود معنى لكلِّ شيء، وأنْ لا شيء يحدث عبثاً، لتطمئنَّ النفس حتَّى في الظروف الأكثر اضطراباً، وإلَّا سقطنا في الهلوسة. وأيَّة هلوسة أكبر ممَّا اقترحه الشيخ عبد الله من ضرورة تحضير ذبيحة محترمة لسيد العربي، وَليّ الله الصالح الذي يحرس قلب «الخزازنة»، ويحمي رماة القبيلة، ويمسك الوحوش أن تطغى على الإنسان، أو تشحّ، فيأكل البشر بعضه بعضاً. أو سقطنا في هلوسة البسطاء من القرى المجاورة الذين رأوا في ما يجري كرامات مؤكَّدة، فصاروا يتردَّدون على البيت الطيني لالتماس البركة من «الشريف مولاي إبراهيم» مُدَجِّن الضواري ومُجير القنافذ، والإطار البنكي في حياته السابقة.

وقالت بريجيت وقد أدركت الاضطراب الزاحف على المكان:

- ولماذا لا ننسحب ونترك الغابة لأصحابها؟ أَلَا تكون هذه الوحوش الغريبة رسالة تريد أن تُعيدنا إلى الصواب، وتدعونا إلى وقف هذا الاقتحام المتعجرف لمجالها؟!

قال إبراهيم:

- ولكنها لا تكرهنا، انظري إلى الخيول التي تُدخِل رؤوسها من النافذة لتُوقِظَنا، وإلى الثعالب التي حفرت بيوتها بين كراسي الباحة، وإلى الظباء النائمة في البستان، هل هذه وحوش غاضبة منَّا؟

لكن بريجيت بنوع من التوتُّر الذي لم يكن متوقَّعاً، ولا مفهوماً، ألحَّت كثيراً على تجريب انسحاب تكتيكي، بالعودة إلى المدينة، مؤقَّتاً، لنرى كيف ستتطوَّر الأمور، ثمَّ نعود، لن تهرب الغابة، والمدينة لن تأكلَنا إذا عُدنا إليها. وعلى الأقلِّ، سيُخلِّصنا هذا الانسحاب من الذبيحة، وسيُنقذنا من وفود

المتبرِّكين، وهو أمر يخرِّب أعصابي شخصياً، تقول بريجيت، وعندما بارك سليمان هذا الاقتراح في محاولة للتخفيف من حدَّة بريجيت، قضت المجموعة ليلة صامتة، ونام كلٌّ واحد وهو يفكِّر في ما سيحدث إذا لم تنجح فكرة الانسحاب التكتيكي.

وفي صباح اليوم التالي، كان سليمان وأُمُّ كلثوم ما يزالان يُكملان إفطارهما في المطبخ عندما خرج إبراهيم. وفتح الباب على مصراعَيْه، ليُغيِّر هواء البيت، وعندما اندفع لتفقُّد

الأحوال، وجد البستان وما حوله خالياً، ليس فيه سوى القنافذ التي تجري وراء بعضها بعصبية، كأنها تبحث عن أرواح أكلتها الغابة.

«اختفت الحيوانات فجأة كما ظهرت فجأة، كتب سليمان في دفتره الكبير، وعلَّق على ذلك بالتساؤل عمَّا إذا لم تكن الحيوانات قد التقطت حكاية الانسحاب التكتيكي، فسبقت إلى استعماله تجنُّباً لتقلُّبات غير محمودة. لا يعرف المرء ما إذا كان ما يجري هو انتفاضة حقيقية للغابة على قَتَلَة الحياة أم هو فقط انفلات بلاغي، تلعب فيه الحيوانات دور الشرارة الشِّعْرية. ثمَّ أضاف سليمان «من الممكن أن تكون الحيوانات قد خرجت من حاجتنا إليها. وليس من الغابة. إبراهيم لم يقتطع هذا الحيِّز من المعمورة، ليُحوِّله إلى زنقة في أكْدال، بينما نحن نحتاج إلى شيء آخر، نحن كائنات متبرِّمة من زمانها، نريد أن نعود إلى القرن السابع عشر، الحياة فيه لن تكون أفضل، ولكن المشاهد الطبيعية ستكون أفضل، وأصوات الحيوانات أوفر من ثرثرة الإنسان، وهناك لن نكون في حاجة إلى ابتكار مدينة عادلة، ولا مدينة فاضلة، لأننا نعرف أن العمران لا يسمح بهذه ولا بتلك، أمَّا ما يظهر ويختفي، فلا داعي إلى حشره في خانة المعجزات، إنه شيء تُنتجه أرواحنا القلقة، ربَّما رسمنا لوحة حول البيت الطيني، فيها ظباء تأكل في راحات الجميلات، وطيور تقف على أكتاف الناس، وأسد يتوسَّد ركبة مولاي عبد القادر الجيلالي، ثمَّ نفخنا في اللوحة من روحنا، فنزل منها كلُّ شيء إلى الأرض.

عندما أغلق سليمان دفتره، كانت بريجيت تقف جنب الطاولة، كما لو جاءت لتقول شيئاً، ولم تشأ أن تقاطعه. كانت واهنة كأنها خرجت من مرض طويل. سحبت كرسيَّاً، وجلست، ثمَّ جالت بعينَيْها في أرجاء المكان، كأنها تتعرَّف عليه لأوَّل مرَّة، أو تستغرب من وجودها فيه، كان إبراهيم قد ذهب إلى النحل الذي دبَّت فيه حياة نشيطة مع بدايات الربيع، وأُمُّ كلثوم مستغرقة في القراءة، وأوراق شجرة الفِلِّين تعزف سمفونيتها الأبدية. قالت بريجيت بصوت خفيض:

- كيف يحدث ذلك؟ كيف يكون المرء واثقاً من كونه قد عثر أخيراً على سبيله، ووصل إلى المكان المناسب، وإلى الزمن المناسب، وإلى صيغة الحياة الأكثر استجابة لما يريده، أو يحلم به؟ كيف يكون واثقاً من كونه سيغرس جذوره هنا، فلن تشيخ إلَّا حيث هي، والنهاية عندما ستأتي، ستأتي والجذور مشتبكة بأرواح الناس والأمكنة، فتموت الشجرة، ولكن قطعة جذر بسيطة ستلد شجرة أخرى؟ كيف يحدث هذا كلُّه، ثمَّ فجأة يداهم المرءَ شعورٌ كاسح بأنه في السبيل الخطإ، وفي المكان الخطإ؟ كيف يمكن أن يحدث شيء بهذا العنف وبهذا اليأس؟ كان سليمان يُنصت إلى بريجيت وقد استبدَّ به الخوف من أن يكون هذا الحديث المتوجِّع مقدِّمة لانهيار ما بناه إبراهيم بدون أوهام، ولكنْ، بكثير من النوايا الطيِّبة. وعندما سألها عمَّا تعنيه عملياً بهذه الأسئلة، قالت:

- أريد أن أذهب!

- إلى أين؟

- لا أعرف، ربَّما أعود إلى المدينة، أو أسافر إلى باريس، أو ربَّما فقط سأمشي في الغابة، وأتركها تكبر عليَّ حتَّى أضيع. أليست هذه هي أفضل طريقة للإخلاص للغابة، أن تمنحها نفسكَ، وتتركها تتصرَّف فيكَ بالطريقة التي تراها مناسبة لحلول كلٍّ منكما في الآخر؟

- ولكنْ، هل تَحَدَّثْتِ مع إبراهيم؟

- لا ولا أريد أن أتحدَّث معه. لا أريده أن يعرف. ولو أنني أشعر به على علم بتفاصيل الوضع كلِّه، ولا يريد أن يتدخَّل في شيء، يعرف مثلاً أنني في ورطة، وأريد أن أخرج منها، وليس بالضرورة من حياته، ولا يفعل شيئاً لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

اهتزَّ سليمان لهذا الحدث المفاجئ، ولكنه تمالك نفسه، وانشغل بالمشي بعيداً عن البيت، ممَّا سمح له بالتفكير بهدوء في ما سمعه من بريجيت، وانتهى به الأمر إلى الاعتقاد بأن ما حصل لها هو نوع من «انهيار القناعات»، إنها لم تعد مقتنعة بشيء، كأن استعادة ابنتها، وارتباطها بإبراهيم، والحياة في البيت الطيني، وهي كلُّها كانت أقصى ما تحلم به، ما إن تحقَّقت حتَّى أصبحت بلا معنى.

عاد سليمان إلى دفتره، وسجَّل ما دار بينه وبين بريجيت، وما دار بينه وبين نفسه إلى كونه، ولأوَّل مرَّة في حياته، سيُخفي شيئاً عن إبراهيم، شيئاً ضخماً، وقد يكون قاتلاً، سيُصاحبه في محنة، لا قِبَل له بها، دون أن يتجرَّأ على إخباره بما جرى. ثمَّ هوَّن الأمر على نفسه، وماذا عساه يفعل إذا علم بما قرَّرتْهُ بريجيت؟ هل سيتوسَّل إليها أن تبقى؟ هل سيُرغمها على البقاء؟ هل سيحصل منها على تفسير مقنِع أو غير مقنِع؟ هذا الوضع لا يساعد على تحمُّله سوى الصمت.

عاد سليمان وأُمُّ كلثوم إلى حيِّ الفتح، صحبهما إبراهيم بسيَّارته، فخيَّم على رحلتهم صمت ثقيل. كان إبراهيم يبدو مضطرباً، فتوقَّع سليمان أن تكون بريجيت قد فاتحتْهُ في أمر ذهابها، لكنْ، سرعان ما تبيَّن له أن إبراهيم قَلِق بسبب نفسه، وليس بسبب بريجيت، وخاف أن يقول له هو الآخر إنه سيذهب، سيُسلِّم روحه للغابة أو سيبتكر لنفسه تيهاً جديداً. سيكون الأمر مخيفاً بالفعل أن يفكِّر كلُّ واحد منَّا في الذهاب بعيداً عن الآخر، كما لو يكون مرض سريع العدوى قد حلَّ بنا فجأة، فأصبحنا كلُّ واحد يجري في اتِّجاه مضادٍّ، وحيداً ومصرَّاً على عدم العودة. وتساءل سليمان ما إذا كان من الممكن أن تصيبه هذه الحُمَّى؟ فهاله أن يعثر في نفسه فجأة على رغبة قوية في الانفصال عن العالم، وعن نفسه على وجه الخصوص. كانت السيَّارة قد دخلت إلى الطريق السيَّار عندما قال إبراهيم إنه قَلِق ممَّا يجري حوله، هناك أشياء كثيرة اقتحمت عليه مجاله الحميمي، وأصبحت تُهدِّده بالانفجار. كانت الغابة «حلَّاً صوفياً» إلى حَدٍّ ما، اختارها للابتعاد أوَّلاً، ثمَّ للذهاب بعد ذلك في وجهة لا يزاحمه فيها أحد، ولكنها اليوم صارت شيئاً آخر، بيتاً، وعائلة، وعلاقات جديدة،

وجمعيات، وقبيلة، ومتبرِّكين .. وها أنا، يقول إبراهيم، بعدما تحلّلتُ من كلِّ رغبة في المواجهة، أخوض معارك لإنقاذ غابة، لن يُنقذَها شيء.

قال سليمان:

- ليس مهمَّاً ما ستؤول إليه هذه المعارك، المهمُّ أنكَ كفرد استطعتَ أن تبتكر لنفسكَ حياة مختلفة ..

قال إبراهيم:

- بعد سنوات من تمجيد الثورة والانتفاضة الشعبية، نلوذ أخيراً بحلٍّ صغير فردي، لا يتجاوز رتوشات باهتة على حياة صغيرة. أَلَا تلاحظ أننا نتفلسف، كما لو أن أمامنا الأبدية كلَّها لتغيير العالم .. بينما تظهر كلّ يوم في الواقع أحداث، ندير وجوهنا حتَّى لا نراها؟

- مثل ماذا؟

- مثل انتفاضة الحسيمة مثلاً، أَلَا تلاحظ أننا نكاد لا نتحدَّث في الموضوع، ينتفض الريف الذي جاءت منه أُمِّي حزينة إلى دوار الضبابة بتِيْفَّلْتْ الذي شيَّعتُ منه جثمان والدي، ولا أفعل شيئاً، بل لا تراودني الفكرة أصلاً أن أفعل شيئاً؟ إذا كان الأمر يتعلَّق باتِّخاذ قرار حاسم، يغيِّر مجرى حياتي، أليس الأجدر بي أن ألتحق بانتفاضة الحسيمة؟

ولكنكَ، يقول سليمان، كثيراً ما ردَّدتَ أن الريف لا يمثِّل شيئاً كثيراً في وجدانكَ، ماذا حصل لتشتعل هذه النعرة من جديد؟

قال إبراهيم:

لا أقصد الريف المادِّي، المجال والقبائل والعنف، أقصد الانتفاضة، نقول دائماً: لا يحدث شيء، وعندما يحدث نتركه وحيداً في مواجهة الجبروت.

قال سليمان:

- لا يمكن أن نرتجل لأنفسنا دوراً ثورياً في هذا العُمُر.

- وما علاقة العُمُر بالموضوع؟ نحن نقترف كثيراً من التفاهات في هذا العُمُر. لماذا نحظر على أنفسنا أن نخرج للشارع، ونتظاهر مع المتظاهرين، ونثور في وجه الظلم، بل ونموت من دون اليافعين الذين لديهم ما يخافون عليه، أمَّا نحن، فليس لنا ما نخسره في هذا العُمُر؟

قال سليمان:

- اهدأْ قليلاً، ليس هناك ثورة نلتحق بها، لا مُلثَّمون ولا مُلتحون ولا حرب عصابات ولا اختطاف طائرات، إذا كان لكَ في الراب أو في هيجان الأولتراس، أو في العمليات الانتحارية بفيديوهات اليوتوب، فخذْ مكانكَ في «ثورة اليوم»، أمَّا إذا كنتَ ما تزال مشدوداً «للتحليل الملموس للواقع الملموس» فَدَعْ نفسكَ في الغابة، وأَنْصِتْ إلى عظامكَ!

ضحك إبراهيم، فاستعاد عندئذ هدوءه، وحاول أن يُفهِم سليمان أن الأمر لا يتعلَّق بالرغبة في بعث شيء من عصور سحيقة، بل فقط بالانخراط في الحاضر، كما هو، وكما يعيشه الناس، لقد تغيَّر العالم، هذا كلُّ ما في الأمر، ليس بالطريقة التي كنَّا نتمنَّاها، ولكنه تغيَّر، طالما احتقرنا جمهور كرة القَدَم، كنَّا نسمِّي الجمهور الذي يحضر بعض حفلات مسرح محمَّد الخامس، فيُصفِّق ويُصفِّر ويقوم ويقعد دون أدنى اعتبار لما يحدث فوق الخشبة، إنه جمهور كرة. ها هو جمهور الكرة يملأ جنبات الملاعب بأُغنيَّة «فبلادي ظلموني» كأنه خرج من قُبَّعة الساحر غيفارا .. العالم تغيَّر، إمَّا أن نكون فيه كما هو أو نخرج منه لنبقى كما نحن.

- ليس بالضرورة أن نكون في شيء، التفاوت أيضاً شيء جميل، أن نحطَّ الرِّحال في مرحلة دون أن نكون مناسبين لها، أو تكون مناسبة لنا، أن نعيش

فيها، ونطلَّ عليها من شرفة بعيدة. الحياة ليست كائناً يضع خطوه على خطونا، من الممكن أن تتفاوت، ونبقى أصدقاء.

قال إبراهيم:

- في نهاية المطاف، حتَّى لو لم ألتحق بالثورة، فإن صيغة من صيغها قد التحقت بي، لقد هجرتُ حياتي الزائفة، وقاطعتُ كثيراً من البضائع منذ سنوات، وها هي حملة واسعة للمقاطعة تمشي على خُطاي دونما حاجة إلى حزب أو إلى زعيم.

تدخَّلت أُمُّ كلثوم لتقول إنها لا تحبُّ هذه المقاطعة، لأنها تحاول أن تبني شيئاً فقط بتكبيد الخسارات ..

- ولمَ لا نكيل لهم الخسائر؟ ردَّ إبراهيم منفعلاً، وهل أصحاب الحليب والمياه المعدنية ومحطَّات البنزين لا يكيلون لنا الخسائر؟ وفوق ذلك، فإنهم يغتنون ويحكمون ويحتقرون.

وإذن قال سليمان، لا قلق على مستقبل الثورة، كلُّ ما هنالك أننا لم نعد نحتاج إلى

أساطير.

وبالفعل، فإن سليمان الذي سجَّل في دفتره كثيراً ممَّا راج حول المقاطعة كان قد أدرك أن هناك تفاوتاً مريعاً بين العرض في مشاعر الغضب والتعبير السياسي عن هذه المشاعر، فالسياسة مليئة بالرضى، والحياة مليئة بالغضب، كلُّ شيء يبدو سهلاً، تكفي فيه شرارة صغيرة في الفيسبوك، وكلُّ شيء يبدو مستحيلاً عند الانتقال من الشاشة إلى الواقع. وهذا كلُّه يثير في سليمان إحساساً بالمجيء من كوكب آخر، إنه يرى كيف تشتعل الظواهر، وكيف تنطفئ، ويحاول الإمساك بما تبقَّى منها، فلا يجد شيئاً. تُراوِده رغبات مماثلة لِمَا يراه بين الاشتعال والانطفاء. كان يصبح صاحب موقع، يزوره الملايين من الناس، يتأثَّرون به، ويمتثلون لإيحائه، أو صاحب دعوة تخرج من

الشبكة، وتمسك بخناق المدينة، ولكنه لا يجد في نفسه أيَّة قدرة على القيام بذلك، كأن الأمر لا يليق به، أو كما لو كان سيخرج عارياً، ليرقص في حيِّ الفتح، مع أنه لا يستطيع أن يكبح إعجابه «بمحاربي طواحين الهواء الافتراضية»، إنه يحبُّ خفَّتهم، وقدراتهم السحرية، ولغتهم وجرأتهم، ويحبُّ تلك السهولة التي يضغطون بها على زناد الهاتف الذكي، ليقتلوا به أوهام الطمأنينة.

عندما غادر إبراهيم حيَّ الفتح، توجَّه إلى حيِّ يعقوب المنصور، ليشتري من تجَّار الخرداوات قِطَعَ خشب، يريد استعمالها رفوفاً للكُتُب والوثائق التي ملأت عليه البيت. وقد أمضى وقتاً طويلاً، ليهتدي إلى المحلَّات التي طمستْها البنايات الجديدة وعربات الباعة المتجوِّلين، ثمَّ أمضى وقتاً طويلاً، ليعثر على ضالَّته، وعندما وضع حمولته من الأخشاب داخل السيَّارة وعلى سطحها.
أحسَّ بالجوع، وكاد أن يستسلم لإغراء محلَّات المأكولات السريعة التي يعجُّ بها الشارع، لولا أن أنَّبْتُهُ نفسه على هذا الضعف، فقرَّر العودة فوراً إلى البيت. في الطريق اتَّصل ببريجيت مرَّات كثيرة دون أن تردَّ هاتفها. توقَّع أن تكون قد طوَّلت في قيلولتها كما تفعل هذه الأيَّام، أو فقط أقفلت هاتفها، وجلست على حافَّة السرير متطلِّعة بعينَيْن غائمتَيْن إلى الأشجار البعيدة. ماذا حدث لبريجيت؟ أو ماذا حدث لهما معاً؟ وهل هناك شيء يمكن القيام به للخروج من هذا المأزق؟ فكَّر إبراهيم أنهما ربَّما يحتاجان إلى حديث طويل حول تجربتهما، حتَّى ولو لم يكن لهما شيء كثير يقولانه، المهمُّ هو أن لا يتراكم الصمت حتَّى يصبح جدراناً، تفصل بينهما إلى الأبد، ربَّما يستطيع الكلام أن يكشف التفاصيل الملتبسة التي تُخرِّب اندفاع البدايات، وتتحوَّل، مع مرور الأيَّام، إلى طُرُق مسدودة. أو ربَّما يستطيع أن يقودهما إلى ترتيب استراحة ما، فيأخذا مسافة من الأشياء، ومن بعضهما البعض. وتصوَّر إبراهيم عندئذ أنها لو قامت برحلة إلى باريس، وقضت وقتاً أطول مع منال، فربَّما ساعدها ذلك على معرفة ما تريد. وعلى العودة إلى حياتها بدون شكوك مدمِّرة. ثمَّ قال في نفسه، لا بدَّ أوَّلاً أن ترغب في ذلك، ولا بدَّ أن يتجنَّب الإيحاء بالفكرة حتَّى لا تستفزَّ مقاومتها.

عندما وصل وجد سيِّدة من الدوار المجاور تأتي لمساعدتهما، جالسة على غير عادتها في الباحة. سألها عن بريجيت، فأخبرتْهُ أنها خرجت بعد ذهابه. اتَّجهت صوب الطريق، والواضح أنها عبرتْها إلى الغابة. كانت المرأة قَلِقَة، لأن بريجيت تأخَّرت كثيراً، ولأن الغابة كما تقول ليست مكاناً لامرأة مثل بريجيت، فطلب منها إبراهيم أن تنصرف، وذهب إلى المطبخ ليأكل شيئاً، لكنه لم يَقْوَ على ذلك، فخرج من البيت، ليتعقَّب أثر بريجيت.

كان يعرف المسار الذي تقطعه من أطراف الدوار إلى الطريق التي تتوجَّه يميناً إلى الرباط، ويساراً إلى القنيطرة، ويعرف لكثرة ما طَرَقَ هذا المسار أنها ستدخل المقطع الذي يضمُّ أشجار البلُّوط الكبيرة حتَّى تبتعد عن الطريق، ثمَّ تنعطف يساراً حتَّى تظهر لها أشجار الأوكاليبتوس في الجانب الآخر من الطريق، فتتوجَّه صوبها، وتمشي بمحاذاتها حتَّى تصل إلى مقطع البلُّوط الجديد الذي غرستْهُ المياه والغابات قبل بضع سنوات، فتدخل لتمشي وسطه مبتعدة عن كلاب الخيام التي نبتت في منطقة الأوكاليبتوس، وعند ذلك ستتَّجه شرقاً حتَّى تجد نفسها في باحة البيت.

مشى إبراهيم عبر هذا المسار الأليف حتَّى أدركه الغروب وهو ما يزال في مقطع البلُّوط الجديد، كان يبحث في الممرَّات الرملية عن أثر حديث لحذاء بريجيت، فلم يعثر عليه، ولا على أثر لأيِّ حذاء آخر، إذا لم تكن بريجيت قد توغَّلت شرقاً، فمعنى ذلك أنها لم تدخل الغابة، أمَّا إذا فعلتْ، فإنها ستسلك عندئذ الممشى الرملي المحاذي لمقطع الأوكاليبتوس بين القرية وغابة البلُّوط. وعليه أن يصل إلى هذا الممرِّ قبل أن ينزل الليل، لذلك مشى راكضاً حتَّى أفزع قطيعاً من القنافذ كان يمشي بين الأشجار الفَتيَّة، فصار يركض معه، الأمر الذي أفزعه كثيراً، فالقنافذ لا تؤلِّف قطعاناً في ما بينها، ولا تهبُّ بهذا التناسق الذي يشبه رقصة منظَّمة، وتحت وقع هذا الفزع المشترك، رفع إبراهيم من وتيرة ركضه، فرفعت القنافيذ من وتيرة ركضها حتَّى تهيَّأ له أنه يركض في كوكبة من الخيل، كأنه في «سربة» من رماة زمور، هبَّتْ للبحث معه عن بريجيت أو لافتكاكها من الأسر. وعندما وصل إلى الممشى الرملي،

وجد آثار أقدام كثيرة، حافية في أغلبها، ولم يجد بينها أثراً لحذاء بريجيت. فعاد أدراجه نحو البيت، حتَّى إذا اقترب من واجهته الشرقية التي تطلُّ نوافذها من المطبخ وغرفة النوم، رأى أثر سيَّارة وقفت هنا حديثاً، ثمَّ رجعت إلى الخلف واستدارت، لتتَّجه صوب الطريق. أثر لا معنى له. قال إبراهيم لنفسه، ودار حول البيت حتَّى وصل إلى مدخله وقد غلَّفتْهُ العتمات الأولى لِلَيل طويل.

انسحبت سريعاً لحظات التوتُّر التي كانت تمسك بخناقه وهو يبحث في الغابة عن أثر بريجيت. وقتها كانت تخطر في باله سيناريوهات بشعة، كأن يجد بريجيت فجأة جثَّة هامدة. قد داهمتْها سكتة قلبية، أو اعتداء وحشي. مجرَّد تخيُّل سيناريو بهذه البشاعة كان يغزو أعماقه بألم لا يُطاق. هو الآن أقرب ما يكون إلى الهدوء الذي يعقب النجاة من حادثة خطيرة. جلس إلى طاولة المطبخ، وأكل بشهية. قبل أن يستلقيَ على الأريكة، ويغرس نظرته في أعواد السقف. لقد رحلت بريجيت، الضجر يمكن أن يدفع جبلاً إلى الرحيل، ليس مهمَّاً، يقول إبراهيم لنفسه، أن أعرف لماذا، ولا أن أعرف إلى أين. إذا كانت ستعود، فإن هذه الأسئلة لا معنى لها، وإذا كانت لن تعود وهو الأمر الأكثر احتمالاً، فلا فائدة.

وابتداء من هذه اللحظة، سينتقل إبراهيم بهدوء وأناة إلى تحويل الغياب من حالة نفسية مخلخلة إلى كائن بديل. سيصبح شخصاً يجالسه، ويمشي معه، ويخوض معه في شأن النحل، ويأخذ رأيه في قضايا الزراعة والحبِّ والطبخ، دون أن يكون امرأة ولا رجلاً. بل فقط نوعاً من الروح التوأم، تُخضعه في كلِّ يوم إلى تنقيةٍ، يستسلم بعدها للنوم، وقد امتلأ بحبٍّ عميق لِمَا حصل له، دون أن يضطرَّ إلى فرز جيِّده من أسوئِهِ، إنها حياته، حبٌّ وتبنٌ، وهل يجوز أن يكون أحدهما من دون الآخر؟

مضى أسبوع قبل أن يتَّصل به سليمان. سأله إن كان يحتاج إلى شيء من المدينة، لأنه وأُمُّ كلثوم يعتزمان المجيء في نهاية الأسبوع.

- السمك، الكائن الوحيد الذي لا يخرج من الغابة، كما تعلم.

وعندما صمت سليمان طويلاً، كأنه ينتظر طلباً آخر، قال إبراهيم:

- نعم، نعم، لقد ذهبت!

لم يتحدَّثوا في الموضوع، داروا حوله كثيراً، ولكنهم امتنعوا دون أن يفكِّروا في ذلك، عن استحضار بريجيت، وعن وضع الأسئلة، كأنهم اتَّفقوا وقد انتبهوا إلى هذا الشقِّ الذي اخترق الجدار، على أن الأهمَّ في هذه اللحظات هو الحفاظ على جوهر البناء، أي على استمرار الغابة في حيواتهم، مهما حصل، وعلى استمرار إبراهيم مُنتِجاً يَقِظاً لنمط حياة مضادٍّ للسائد وللمُهيمِن. كانوا إذن يتفادونها، كما يتفادون فخَّاراً هشَّاً، وُضع في أماكن متفرِّقة من البيت. كلَّما وجد أحدهم نفسه وجهاً لوجه معها، تخطَّاها حَذِرَاً إلى وجهة أخرى، وأجهد نفسه للعثور فوراً على موضوع، يقوم مقامها، إلى أن حلَّت اللحظة التي جمعتْهم حول مائدة الغداء، عند ذلك ودون سابق إعلان، انفجرت أُمُّ كلثوم باكية، وقالت إنه عبث مجنون أن نتظاهر بأن شيئاً لم يحدث، وبأننا لا نهتمُّ ولا نكترث. لقد ذهبت بريجيت، لا نعرف إلى أين، ومع ذلك نستمرُّ في الحياة بدونها. في الحياة نفسها التي لم تكن فيها قطعة زائدة.

ثمَّ حاصرت إبراهيم بالأسئلة.

كيف يمكن أن تكون قد ذهبت دون أن يحدث شيء، أنتَ تعرفه، لأنكَ طرف فيه، أو على صلة به، أو تحدَّثتُما بشأنه؟ وأين ذهبت؟ وإذا كانت قد توغَّلت في الغابة أَلَا تكون قد تعرَّضت لحادث خطير؟ الغابة مليئة بالرعاة والحطَّابين والفحَّامين، وهي دأبت على تصوير الأشجار المقطوعة، والمربَّعات المنهوبة، ودأبت على نشرها في الفيسبوك، وكم من لجنة تحقيق حلَّت بالغابة، بسبب ذلك. أَلَا تتصوَّر أن أحداً من هؤلاء الأعداء المحتملين قد عثر عليها بالصدفة، ووضع حدَّاً لحياتها؟ وإذا حصل ذلك، وتمَّ العثور ذات يوم على بقايا جثَّتها، كيف سيكون وضعكَ، بل وضعنا جميعاً أمام القانون؟ وختمت أُمُّ كلثوم مرافعتَها بالإصرار على إخبار السلطة بهذا الاختفاء.

قالت:

إذا لم تقوما بذلك، فسأقوم به وحدي!

حاول إبراهيم أن يُفهِمَها أن الأمر يتعلَّق أوَّلاً بذهاب، وليس باختفاء، وثانياً أنه يخصُّ امرأة راشدة، مسؤولة عن أفعالها، وأنه أخيراً يتعلَّق به هو، في علاقته بنفسه، وفي علاقته بها، فكرة الذوبان في الغابة يقول إبراهيم، فكرة جيِّدة، تصلح في فيلم للإثارة، أو في منعطف حادٍّ لرواية سوداء. ولكنْ، نحن هنا أمام حالة واقعية بلهاء، فيها امرأة رحلت، ورجل يحاول أن يُعيد تركيب نفسه. لا مكان للافتعال، ولا للفرجة. كلُّ واحد منَّا يتظاهر الآن بترجيح فكرة تيه بريجيت في غابة شرهة، ولكنْ، في ذهن كلِّ واحد منَّا احتمال أقلّ مشهدية. هو ذهاب بريجيت إلى حال سبيلها، نشداناً لحياة أخرى، أو استسلاماً لغواية لا تُقاوَم... كما يذهب الناس كلُّهم عندما يذهبون. أَلَم أذهب أنا نفسي وتركتُ خلفي حياة لا تُخرِجكَ منها سكرات الموت؟ إذا كان هذا سيُريحكَ، لا داعي لتهويل الاحتمال الروائي في محاولة لمواساتي، أنا أُفضِّلها حَيَّة في تجربة أخرى، على أن تكون مفقودة في حكاية مَلحمية، إذا وُجدَت كما قُلتِ جثَّة ملقاة بين شجر الفِلّين، لن أُنكر أنني قتلتُها، أو أنني قاتلها الحقيقي، أيَّاً كانت اليد التي استلَّت روحها .. هل تعتقدين أن امرأة تستيقظ ذات صباح وتهيم على وجهها لا تفعل ذلك هروباً من قاتلٍ فعليٍّ أو مُفترَض؟ لنُقفِل هذا الموضوع. قال إبراهيم وهو يقبل على الطعام.

فاستجاب سليمان وأُمُّ كلثوم، وانخرطا بدورهما في مشاغل المائدة.

عشية ذلك اليوم، جاء الشيخ عبد الله متوتِّراً كعادته عندما يحمل أخباراً مثيرة، وقال

إن القيامة قامت قريباً منكم وأنتم تحتسون الشاي، وتقرؤون الكُتُب . الدَّرَك والعَمَالة والقيادة والقبيلة، كلُّهم في ملتقى الطريق المعبَّدة مع الطريق الرملية المؤدِّية إلى الدوار. لقد وَجدوا في جوف قناة تصريف الأمطار التي نعبر عليها كلَّ يوم جثَّة امرأة مقتولة.

داهمَهَم الخبر كسيل هادر، جعل صرخة أَمِّ كلثوم غير مسموعة تقريباً، وبينما كان سليمان يحاول إرجاع زوجته إلى حالة هادئة، تسمح باستجلاء الأمر، كان إبراهيم يرتعش بجسده كلِّه، ولا يقوى على مغادرة مَقْعَده. والشيخ عبد الله الذي لم يكن يعرف شيئاً عن ذهاب بريجيت، انكمش بردَّة الفعل التي عصفت بالجماعة، وراح يسرد مضطرباً بقايا الحكاية.

«الرعاة كانوا يجلسون كلّ يوم على القناة، والقتيلة محشورة فيها، لم ينتبهوا لشيء حتَّى داهمتْهم رائحة جيفة قريبة، وعندما حاول أحدهم أن يتبيَّن ما إذا كانت الرائحة تأتي من القناة التي يمرحون حولها، وجد رأساً مفصولاً عن الجسد. كانت مع الرعاة امرأة من الدوار، تعرَّفتْ فوراً على المرأة رغم التشوُّهات التي لحقتْ بها. إنها فاطمة، امرأة من عندنا. كانت متزوِّجة في آيت عَبُّو، زوجها العسكري المتقاعد هو الذي قَتَلَهَا. ووَضَعَهَا في مدخل الدوار، كأنه يُعيد البضاعة إلى أهلها».

هذه المشاكل كلُّها من طمع الدنيا، يقول الشيخ عبد الله. صار الناس يقتلون لأتفه الأسباب. في الماضي، كان الإنسان لا يقتل إلَّا في الحرب. أمَّا الآن، فلا يمرُّ أسبوع واحد، لا تسمع فيه عن جريمة قَتْل بشعة. هنا بين الخزازنة وتِيْفَّلْتْ، لا يمكن أن تذهب إلى السوق، ولا ترجع منه بحكاية مريعة، الشيخ المريض الذي هوى على رأس زوجته بالشاقور وهي في غرق النوم، هناك قريباً من مركز المياه والغابات، والمرأة التي قَتَلَت زوجها بمساعدة ابنَيْهما هناك غير بعيد عن جماعة سيدي عبد الرزَّاق قرب المسجد الكبير الذي بناه مدير اتِّصالات المغرب، والأطفال دون العاشرة الذين قتلوا عجوزاً تسكن في سطح بيت بتِيْفَّلْتْ، كلّ يوم تسمع عن قتيل في ظروف لا تُصدَّق. القلوب أصبحت قاسية جدَّاً، لا يعرف أحد لماذا، ربَّما من الدجاج الصناعي الذي لم نعد نأكل غيره أو من الدواء الذي نرشُّ به الخُضر والفواكه، أو من ملابس الشينوا .. الله أعلم.

لم يكن أحد يعير اهتماماً لِمَا يقوله الشيخ عبد الله. كانوا جامدين، كما لو كانوا يُعيدون باستغراق كامل الحجارة التي انهارت في دواخلهم إلى أمكنتها،

بُ

يُعيدونها بحذر شديد محاولين التغلّب على ارتعاش أيديهم، وعلى هشاشة البناء. وعندما عادوا إلى أنفسهم، كان الشيخ عبد الله الذي فسَّر إعراضهم بعدم الرغبة في وجوده يتهيَّأ للانصراف، لولا أن أُمَّ كلثوم سارعت إلى إحضار فطائر مَحشوَّة وإبريق شاي جديد. فعلت ذلك، لتتغلَّب على انفعالها. ولتشكر الشيخ عبد الله على أخباره المريعة المفرحة. بعد ذلك سيقوم سليمان إلى دفتره الكبير، ليُسجِّل فيه تفاصيل هذه الواقعة، وبعد ذلك، سيُعلِّق بما يلي:

«لِلَحظة ما، كانت الفجيعة قد استقرَّت في شكلها الأكثر ترويعاً: بريجيت مغتالة ومحشورة في قناة. ثمَّ انهار هذا البناء فجأة ببزوغ فجيعة أخرى، فجيعة باردة وبعيدة، لا تعنينا في شيء. القتيلة توقَّفت عن أن تكون روحاً وجسداً وشخصية. لقد أصبحت مجرَّد اسم. لو استطاع أحد أن يضع اسم بريجيت على شخصية فاطمة، لَكُنَّا الآن في زوبعة لا نعرف بسببها بعضنا البعض، ولكن شيئاً عجيباً أنقذَنا من هذا الهول، بعد أن وقعنا فيه بمنتهى السهولة، إنها حبكة ماكرة في الحكاية، حبكة وضعت جثَّة بيننا، ثمَّ سحبتْها، بالكلمات فقط، حتَّى إننا لم يعد لنا أيُّ إحساس بفجيعة حصلت على بُعد أمتار من جلستنا الهادئة: لا جثَّة ولا جريمة ولا هول. مجرَّد إحساس بالسعادة أنها لم تكن بريجيت».

ظلَّ إبراهيم بقية يومه مضطجعاً، نوع من الوهن اكتسحه بعد ذلك الفزع المفاجئ، فلم يعد يقدر على شيء أو يرغب في شيء. كان فقط يحاول أن يعود بنفسه إلى سكينة

اليوم الأوَّل عندما تمدَّد في فراشه، يغمره شذى الطين والتبن، وحدَّق في أعمدة السقف التي فقدت جلدها حديثاً، فكانت ملساء ندية لامعة. يا لذلك الصفاء الذي انتشله من عراك الأشياء والمشاعر، ومنحه غبطة كائن، لم يعد يجري خلف الحياة، بل يذوب في كُنهها! كيف السبيل إلى العودة من جديد إلى هذا الصفاء الذي طمستْهُ الرغبات والحسابات؟ فجأة أدرك إبراهيم أن العودة إلى هذه اللحظة المؤسِّسة تقتضي القيام بحملة تنظيف واسعة، أضخم من كلِّ ما فعله ليصل إليها أوَّل مرَّة. فما أكثر ما تراكم حولها من

«زوائد» في هذه الأرض الخَلاء: أبنية وأشخاص وحكايات وأثاث ومعدَّات ومشاعر من كلِّ نوع. هذا كلُّه تسلَّل إلى مشروع «الفردوس»، ونجح في اكتساحه بجحيم ممَّا «لا يُستغنى عنه»، ثمَّ هذا الوَهْم الذي حوَّل غرفة مُضمَّخة بالطين إلى رفوف تضجُّ بالكُتُب والخرائط والوثائق، وبما يتبع ذلك من غبار الورق وعَطنه، وَهْم امتلاك المكان بكشف أسراره القديمة والحديثة، والإمساك بسحره المختبئ في الأحداث والوقائع والتبدُّلات. والحال أننا لا نحتاج إلى شيء من هذا القبيل للإمساك بروح الأمكنة، المعرفة تفيد الذين يبقون في الورق، أمَّا الذين قرَّروا أن يجعلوا من مكان ما تجربتهم الوجودية، فإنهم لا يحتاجون إلى مكتبة أو دليل، إنهم يضعون أحذيتهم وغرورهم في مدخل المكان، ثمَّ يلجونه حُفاة بصدور خاوية، مشرعة لاحتوائه كلّاً لا يتجزَّأ.

كان من الممكن أن يستمرَّ إبراهيم في إعادة بناء مشروعه على أساس التنظيف الكبير الذي بدا له قضية حياة أو موت، التنظيف الذي يتَّخذ شكل نار عظيمة، يوقدها في باحة البيت، ثمَّ يبدأ في إطعامها تلك «الزوائد» المخرِّبة كلِّها، كلُّ ما يبدو لأوَّل وهلة لا غنى عنه، بينما هو مجرَّد أثقال تمنعكَ من التحليق .. ولكنه لم يجد في نفسه الشجاعة الكافية للقيام بذلك، ربَّما لو بقيت بريجيت هنا، لكان لهما حديث في الموضوع، ولَوَصَلا سريعاً إلى الحسم فيه. فَمَنْ غير بريجيت يستطيع أن يقلب حياته كما يقلب صفحة ثقيلة؟ لكن بريجيت لم تعد هنا. والصفحة التي يريد أن يقلبها تحدِّق فيه بعينَيْن ساخرتَيْن، وتقول: «تقدَّمْ إذا كنتَ رجلاً».

في المساء، كانت الجماعة قد استعادت هدوءها، خصوصاً بعد ما ذكرت أُمُّ كلثوم أن جَدَّتها كانت تقول: «إن النعي الكاذب يطيل العُمُر».

بريجيت إنسانة رقيقة، لا يمكن أن تؤذي أحداً، فكيف تؤذي شخصا تحبُّه؟ إنها فقط تقول أُمُّ كلثوم ذهبت لترى ابنتها، ربَّما خافت أن يرتخيَ الحبل بينهما من جديد، ربَّما تكون منال في ورطة، واستنجدت بها .. وهي لم تتبيَّن ما ستفعله بنفسها بعد هذا الانعطاف المفاجئ، هل تعود أم لا تعود؟ هناك غشاوة نزلت عليها، ولم تشأ أن تخوض فيها مع أحد. ستغيب ريثما تنقشع

الغشاوة. جَدَّتي تقول أمّ كلثوم كانت تقول عن زوجها الذي بات مرَّة ولم يصبح: (دازت ليه الضبابة على عينيه) .. نعم، يحدث كثيراً أن يغمر الضباب بصر المرء وبصيرته، فماذا يفعل عندئذ سوى الابتعاد إلى أقصى ما يستطيع، وعند ذلك يبدو لنا هارباً من شيء، وهو فقط يجري، ليخرج من الضباب!

قال إبراهيم:

- لكن بريجيت لن تعود.

وما أدراكَ؟ تساءل سليمان، من الممكن جدَّاً أن تعود، السؤال إذا عادت هو أنتَ، هل ستعود؟

انتبه إبراهيم فوراً إلى الاستحالة التي أومأ إليها سليمان. بالفعل، هو أيضاً قد لا يعود، لقد تحرَّكت الأرض تحت أقدامهما، فمضى فِرْقٌ بإبراهيم وآخر ببريجيت، وطمس الماء مسار العودة.

في نهاية المطاف، يقول إبراهيم، هناك شيء حصل بيننا وبين الغابة، خطأ جسيم اقترفناه في حقِّها عندما اتَّخذناها وسيلة للهروب من حيواتنا، كما كان يفعل المتمرِّدون من القبائل، الغابة تفضِّل الحطَّابين على اللاجئين، وها هي تكيل لنا الخسائر من حيث لا نحتسب، ستصيدنا الواحد تلو الآخر، كما يفعل أصحاب ثأر قديم.

ردَّد إبراهيم هذا الأمر بينه وبين نفسه مرَّات عديدة منذ ذلك المساء الذي اختفت فيه بريجيت، ثمَّ باح به لسليمان. إنها فقط مسألة وقت. لقد وقعنا في شَرَك لا مفرَّ منه. الغابة تستدرجنا بمكر وحش أسطوري، انظرْ كيف انسقتَ أنتَ بنفسكَ إلى غوايتها، فأصبحت تحمل دفتركَ الكبير، وتجري خلف وحوش الكتابة، وذات يوم وأنتَ تنبش بحثاً عن أثر تركتْهُ الأقدام بين تِيدَّاسْ وجبل فزاز، ستجد نفسكَ أثراً لشجر قديم .. وداعاً فيلسوف حيِّ الفتح، وداعاً ضربة الحظِّ التي وضعت السوربون في جرابكَ الزموري، الغابة ليست نزهة

رباطية، تُظلِّلها مقامات الطرب الغرناطي، الغابة روح قديمة، قديمة جدَّاً. كلَّما أزهقتْها الغزوات والحركات والحملات والمحلَّات، عادت على شكل بلُّوطة تسقط من شجرة، ثمَّ تُسلِّم نفسها لكيمياء الماء والشمس والتربة، حتَّى تصبح روحاً جديدة.

شجرة لا تحتاج إلى أحد، وغابة تخرج من نفسها. هل تعرف، يا سليمان، أن الخلق الذاتي قد توقَّف منذ منتصف القرن الماضي؟ نعم. الأشجار التي كانت تبذر ثمارها بنفسها، فيصبح لها بنون وحَفَدَة، لم تعد هنا لتفعل ذلك. البيروقراطية هي التي تجمع الثمار، وتحاول إحياء المعمورة بتشجير عنيد. هل الغابة ستكون هي نفسها إذا نشأت من هذا الاستنبات الاصطناعي؟ تصوَّر لو توقَّفت الإنسانية عن إنتاج نفسها بواسطة الحبِّ، وأصبح الأطفال كلُّهم أولاد أنابيب، هل سنبقى كما نحن؟! الآن إذا كنتَ ما تزال على رأيكَ بأن الإدارة ليست سوى آلة بلا قلب: اقرأْ تلك اللافتات الضخمة التي وضعتْها بين الرباط والكاموني، والتي تقول فيها بلُّوطة حزينة: «لا تَشتَرِني، ولا تلتقِطْني، الغابة تحتاجني». أحياناً لا يعرف أحد كيف تبتكر البيروقراطية فجأة جملاً بهذه الرقَّة.

الغابة تحتاج إلى نفسها فقط، لا تحبُّ الفضوليِّيْن، ولا صيَّادي القضايا الخاسرة. انظرْ إلى بريجيت، كم صوَّرت من أشجار مقطوعة، ومن مساحات مسروقة، ومن دواوير وقرى حلَّت محلَّ الأشجار، وكم كتبت من تدوينة، ورفعت من تقارير، وجنَّدت من أنصار، لم ينفع ذلك في انبثاق شجرة واحدة. وعلى العكس من ذلك، فإن الشجرة الوحيدة التي كنتُ أحسبها بجذور لا تفنى، حملت جذورها ورحلت .. أحياناً تُسوِّل لي نفسي أن أكسر صناديق النحل، وأضع يدي في يد الملكة، وأطير ..

-15-

بعد التحوُّل الأوَّل الذي طرأ على القنافذ، عندما خرجت من صيغتها السمراء الضئيلة إلى صيغتها الشقراء الضخمة، حصل تحوُّلان آخران، أخرجا القنافذ بصفة نهائية من وضع حيوان صموت خجول، إلى وضع حيوان صاخب واستعراضي.

قبل أن يحدث التحوُّل الأوَّل الذي نحن بصدده، لم يكن أحد يستطيع أن يقول لكَ إنه سمع صوت قُنْفُذ حتَّى ولو كان ينام جنبه في قلب الغابة. كان الصوت الوحيد الذي يُصدره عندما يشرع في ذَبْحه هو صوت رضيع يبكي. أمَّا في ما عدا ذلك، فإن القُنْفُذ يمارس حياته بدون صوت مسموع، لكن هذا الأمر تغيَّر تدريجياً، فقد بدأت القنافذ تُصدر أصواتاً متقطِّعة، أغلبها في أثناء التوالد، مزيج من مواء وشخير وصفير، ثمَّ بدأت الأصوات الحادَّة تعلو وتنزل حسب الأمزجة والمشاعر، ثمَّ تنتظم في شكل ضجيج متَّصل خصوصاً في أثناء الليل، حتَّى أصبح إبراهيم يجد صعوبة قصوى في النوم بدون صمَّامات قطنية. ومرَّة أخرى ظهرت في الصحف والروبورتاجات التلفزية موادّ كثيرة تتحدَّث عن ضجيج القنافذ الذي أطبق على الأحياء الراقية بالعاصمة، في المثلَّث بين السويسي وحيِّ الرياض ودار السلام. حتَّى إن بعض السفارات نقلت أخباراً مثيرة عن هذا الضجيج سرعان ما وجد طريقة إلى كبريات الصحف الأجنبية، قبل أن تتحرَّك قنوات تلفزية مختلفة، لتنقل عجائب هذا التحوُّل. وطبعاً ستتناسل من خلال هذا الاهتمام الإعلامي، صيغ متضاربة لتفسير الظاهرة، منها ما يذهب إلى ربطها بالتحوُّلات المناخية، وإلى اعتبار الاحتباس الحراري سبباً في اختلال الوظائف العصبية للكائنات الحَيَّة، بل وإلى الاعتقاد بأن صراخ القنافذ ليس سوى مقدِّمة لانفجار صراخ عامٍّ، ستساهم فيه الإنسانية بقسط وافر. ومنها ما يذهب إلى ربطها باعتداء الإنسان على المجال الطبيعي، وما تلا ذلك من إثارة عصبية، صُرَاخُ القنافذ أحد تجلِّياتها. ومنها ما يربطها بالضجر العامِّ الذي يُمسِك بخناق البلد منذ أمد بعيد. والذي لا يسمح بالخروج منه سوى انبثاق ظواهر مدهشة في الناس أو في الطبيعة. وفي هذه الأجواء،

نشأت خرافات وأساطير حول القُنْفُذ في مدينة، لا تعترف لهذا الحيوان بأيَّة مكانة خاصَّة، وتكاد تخجل من ارتباط اسمها بوجوده، منذ أصبح الإعلام يتداول أخبار علاقتهما المتوتِّرة. ولعلَّ الأكثر إثارة في الموضوع ما شاع على نطاق شعبي واسع من كون الأُذن اليمنى للقُنْفُذ إذا أُضيفت لمَغليّ الشعير، أعطت مهيِّجاً جنسياً أقوى من كلِّ ما اكتشفه الإنسان في العصور كلِّها، الشيء الذي خلق رواجاً كبيراً حول هذه الأُذن المعجزة، جعل جحافل من الصيَّادين تزحف على أحياء القنافذ الصاخبة للحصول على آذانها، وجعل عطارات البلاد بكاملها تنشط في ترويج هذه المادَّة السحرية دون أن تحمل همَّاً للقنافذ المبتورة، ولما سيترتَّب عن ذلك من تعديل قسري في فيزيونومية القُنْفُذ، حيث سيؤدِّي اختفاء الأُذن اليمنى لهذا الجنس إلى اعتبار «المونو أُذن» أو وحيد الأُذن تنويعاً جديداً على خلق قديم. وقد اهتمَّ الترويج بالوصول إلى المُدُن والقرى كلِّها قبل أن يغزوَ بنجاح كبير أسواق الخليج والسعودية والصين ودول جنوب شرق آسيا. ومع أن أغلب القنافذ فقدت الأُذن اليمنى، فإن ذلك لم يمنعها من مواصلة الصراخ، بل دفعها للزيادة فيه، حتَّى إن أثرياء الأحياء الراقية هجروا قصورهم الفخمة، وانتقلوا إلى شقق عادية في جهات متفرِّقة من العاصمة، رسمياً، لأن هذه القصور، بعد ذهاب الأولاد إلى فرنسا للدراسة، قد كبرت عليهم، وأصبح القيام بأعبائها شيئاً لا يُطاق، وواقعياً، لأن أرجاءها صارت تغلي بالقنافذ الصاخبة.

أمَّا التحوُّل الثاني الأكثر إثارة، فهو انكسار البيات الشتوي، فالقنافذ التي كانت تخلد لخمول بيولوجي في فترة من السنة، يُبعدها عن الحياة النشيطة، صارت تأكل وتتناسل وتتقاتل صيفاً وشتاء، ليلاً ونهاراً، حتَّى صار تعدادهم أكبر بكثير من تعداد سكَّان المدينة. وإمكانية تضاعفها عدَّة مرَّات أكبر بكثير من إمكانية الإنسان المحدودة. ونتيجة لهذا كلِّه، فإن الحيوان الخجول المتحفِّظ لم يعد كذلك، صار مقتحِماً، فظَّاً، عدوانياً، ولصَّاً محترفاً، يخطف المأكولات من طاولات المطاعم، ومن رفوف المحلَّات، ويتبرَّز بين كراسي المقاهي،

ويحدث في كلِّ يوم اضطرابات خطيرة في حركة المرور.

ثمَّ حصلت الحادثة التي أفاضت الكأس. فقد عضَّ أحد القنافذ سائحة فرنسية، كانت تتشمَّس في مسبح «السوفيتيل» رغم أنها كانت قد تعوَّدت على التسلِّي مع أبناء جنسه في حدائق الفندق الفخم. وتُوزِّع عليهم قِطَع البسكويت، وتأخذ معهم سلفيات «تُجَلِّخُ بها الواتساب، ولكنْ، هذه المرَّة كانت تُطعم بنفسها قطعة «مادلين» لقُنْفُذ، بدا عليه نوع من الاستعجال في التهامها، بل وأيضاً نوع من التبرُّم من هذا القرب المثير للسائحة، وقد أرادت أن تعاتبَه بسحب «المادلين» كلَّما همَّ بقضمها، لكن مزاجه السيِّئ في ذلك اليوم جعله ينقضُّ على اليد التي كانت تُطعمه، فيلتهم الحلوى، وجزءاً صغيراً من سبَّابة السيِّدة.

لا داعي للإفاضة في أمر هذه العضَّة الوحيدة والمعزولة، فقد كانت أوَّل وآخر عضَّة يتعرَّض لها الإنسان دون قصد طبعاً، بسبب قُنْفُذ، لم يُفرِّق بين الحلوى وأصابع السيِّدة، لكنَّ ما تلا هذه الحادثة كان انعطافاً خطيراً في تاريخ القنافذ. فقد انتابت السائحة حُمَّى، استدعت نقلها ليلاً إلى المصحَّة، ومع تفاقم حالتها، قرَّرت السفارة الفرنسية نقلها إلى باريس. تمَّ ذلك بطائرة خاصَّة وسط احتياطات أمنية وصحِّية مشدَّدة، وبعد أسابيع من العناية المركَّزة، توفِّيت السائحة دونما تشخيص دقيق لسبب الوفاة، ولكن الإعلام بتزكية ضمنية من الطاقم الطبِّي، روَّج بشكل واسع لمسؤولية العضَّة عن الوفاة. ممَّا فسح المجال لبروز أخبار عن ظهور فيروس جديد، نقله القُنْفُذ إلى الإنسان، كما سبق أن نقلت الطيور والخنازير والفئران فيروسات مشابهة، وتسبَّبت بها في انتشار أوبئة تاريخية، وكأنما لم تكن السلطات تنتظر سوى هذه الأخبار السيِّئة، لتُعلن أنها ستبدأ رسمياً حملة تطهير كبرى، بمشاركة أمم الأرض كلِّها، لتخليص الإنسانية من هذا الخطر المحتمَل، وبدا واضحاً أن السلطات حتَّى لو غضَّت الطرف عن انتشار فيروس جديد، فإنها لن تسمح بأن يتولَّى القُنْفُذ العضَّاض أو المسالم تخريب العلاقات التاريخية الحيوية، والتي لا تستقيم الحياة بدونها مع فرنسا، الأخت في الرضاعة وحليفة الساعات الصعبة.

ابتدأت الحملة بمحاصرة آلاف القنافذ، ومطاردتها عبر شوارع وأزقَّة المدينة تمهيداً لعزلها في تجمُّعات ضخمة خارج المدينة، وإحراقها حَيَّة في مشاهد مريعة، نقلها التلفزيون الرسمي، ونقلتْهُ عنه تلفزيونات العالم كلُّها، وفي أثناء هذه الحملة هلكت أعداد كبيرة من القنافذ وهي فقط تهرب من المطاردة، وتضاءل ضجيجها الليلي، إلى أن خمد نهائياً، ثمَّ هدأت الحملة تدريجياً تناسُباً مع تناقص أعدادها، وبينما كانت الصحف الفرنسية تمتدح الجهد المغربي الذي هزم كارثة طبيعية، كانت ستمتدُّ حتماً إلى المجال الأوروبي، أعلن بلاغ لوكالة الأنباء الرسمية أن القنافذ قد تمَّت إبادتها بشكل كامل.

سمع إبراهيم بلاغ الوكالة وهو عائد من سوق سبت دار بنحسين الذي ذهب إليه فجراً، لا يعرف لماذا، فقط لأن اليوم كان سبتاً، ولأنه كان وحيداً، ولا يعرف ما يفعل بنفسه. ولكنْ، ما إن انتهى المذيع من قراءة البلاغ الذي انفطر له قلبه، حتَّى اعترضت سبيله قافلة من القنافذ، تقطع الطريق، فأخذتْهُ نوبة ابتهاج، تطفح بالشفقة والسخرية، وخَمَّنَ وهو يلوِّح لها بشارة النصر، أنها ربَّما تتوجَّه نحو الغرب، إلى سيدي يحيى، ثمَّ إلى القنيطرة، إنها تبتكر استراتيجية جديدة للبقاء، ربَّما فطنت إلى الخطأ الذي ارتكبتْهُ بالتركيز على العاصمة، وقد تكون الآن بصدد الإعداد لانتشار مُحكَم في عدَّة مُدُن، لتستجمع قواها، وتعود للهجوم من جديد. لقد انطلقت الحرب لا محالة، علَّق سليمان بعد أن دوَّن هذه الوقائع كلَّها في دفتره الكبير بالقول: «إن القُنْفُذ الذي عضَّ السائحة الفرنسية لم يكن مُلهَماً على الإطلاق، فقد جَرَّ على نفسه وعلينا جميعاً لعنة أبدية .. لو اكتفى بعض واحد منَّا، لمرَّت الأمور بسلام، فنحن نفقد في كلِّ سنة مئات الأطفال بلدغات العقارب، دون أن يعلن أحد الحرب على هذه الحشرات الكريهة. ولكنْ، من جهة أخرى، ربَّما كان مُلهماً حقَّاً، فلو حدث ونشأ من هذه العضَّة فيروس جديد، ينقله القُنْفُذ إلى الإنسان، ثمَّ ينقله الإنسان لأخيه الإنسان، لكانت فرنسا أولى به، ففي رحابها يوجد باستور الذي يفهمها طائرة في هذا المجال، أمَّا لو عوَّلوا

علينا، فلن يبقى على ظهر الكوكب كائن يستحقُّ المشاهدة أو العضَّ».

خلال أيَّام متتالية، غرق سليمان في تتبُّع الأحداث التي أمسكت بخناق المدينة، كان يدوِّن كلَّ شيء بخصوصها، أخباراً وشائعات وتعليقات، فيجد بعد كلِّ جهد يقوم به لفهم ما يجري أن البلاد تعيش تجربة فريدة في التحوُّل لم يسبق لأيِّ بلد أن عاشها من قبل، فعوض الثورات والحروب الأهلية والانقسام والاحتلال والتشرذم، وما إلى ذلك، فقد فضَّلنا الاستكانة والخضوع والقبول بما كان، إلى أن قرَّرت الطبيعة العميقة أن تقلب عاليها سافلها، فلم يعد أحد يعترف بالعزَّة والجبروت إلَّا لخالق القنافذ. حتَّى الباعة المتجوِّلون الذين يعرضون «أُذن القُنْفُذ اليمنى» للبيع في شوارع أكْدال والرياض وداخل الأسواق والحافلات والقطارات، لم يعد يمنعهم من القيام بهذه التجارة التي تُجبر على الابتسام، أي خوف دائم أو عارض من رجال السلطة، رغم أن القناة الأولى تُحذِّر في كلِّ نشرة من انتقال أمراض فتَّاكة من الأُذن المقطوعة» حتَّى وقد أصبحت مادَّة مستقلَّة عن القُنْفُذ الأصل، وتؤكِّد أن السلطة ستضرب بيد من حديد على يد كلِّ مَنْ تُسوِّل له نفسه، إلخ... إلخ...- والناس، مع ذلك، وكأنهم أصبحوا في عالم آخر بعد «الانقلاب الطبيعي» يضعون الآذان اليابسة في جيوبهم، ويتمشّون مبتهِجِين مُقدَّماً بالفتوحات التي ستُسفر عنها هذه المغامرة.

يتحدَّث سليمان من حين لآخر مع ابنتَيْه صفاء ونهلة، لأنهما تتبعان ما يحدث باندهاش وقلق شديدَيْن، فيزوِّدهما ببعض الأخبار الطريفة، ويصف لهما تطوُّرات الموقف «على الجبهة» كما يقول.

وذات مرَّة وقد تأخَّر عن مهاتفتهما، قالت صفاء إنها تخاف أن يضيع منها خيط الأحداث، إذا تأخَّر في الاتِّصال، وعند ذلك، قال إنه يدوِّن كلَّ شيء في دفتره الكبير، وأنهما مهما تأخَّرتا في الاطِّلاع على ما يتسارع من وقائع، فإن بإمكانهما أن ترجعا إلى هذا السجلِّ، لتعثرا فيه على مادَّة خصبة، واقعها أغرب من الخيال، وخيالها أكثر ابتذالاً من الواقع. هل هو كتاب في التاريخ؟ سألت صفاء.

قال سليمان: إنه حتَّى الآن ليس كتاباً، لنقل هو «شريط مكتوب»، فيه ما يحدث وما تتصوَّر أنه يحدث، وهو لا يحدث بتاتاً، وما يمكن أن يحدث وما يستحيل.

وإذن قالت صفاء: فهو كتاب فلسفة.

- لا يهمُّ، لنقل فقط إنه «شريط مكتوب»، وبعد ذلك سنرى ما سيفعله بنفسه. أمَّا أُمُّ كلثوم التي تطلُّ من حين لآخر على ما يسجِّله، فإنها مقتنعة بأن الأمر يتعلَّق برواية تمزج بين التسجيل والتخيُّل والتأمُّل، وأنها في طريقها لأن تكون شاهدة على العصر. ولا يمكن أن لا يُدغدغ هذا القول مشاعر سليمان، ويحرِّك توقه القديم إلى إبداع أثر يمشي خلفه، ويدلُّ عليه. ولكنه سيردُّ على زوجته دائماً بأن الأهمَّ في الرواية ليس نيَّة الرواية، بل تمرُّدها على النوايا كلِّها.

تذكَّر سليمان في ذلك اليوم الذي بدأ بنزول ضباب كثيف على المدينة، ثمَّ انتهى بانقشاع نوراني، أضفى على الكون صفاء يوم خرج من الجنَّة، تذكَّر ما كانت تقوله جَدَّته كلَّما رأت شخصا يفرح بنفسه، ويحلِّق في السماوات حتَّى يخرَّ صريعاً، «إن الله عندما يريد أن يعذِّب نملة، فإنه يمنحها أجنحة»، ذلك أنه يصبح وهو قادر على التحليق طعاماً سهلاً للعصافير.

كان سليمان مبتهِجاً بالهواء البحري، وبالإضاءة الباردة التي تصاحبه، عندما سمع وهو يغادر كلِّية الآداب وينزل عبر شارع النصر، صوتَ طلقات نارية متتالية، خلقت هلعاً كبيراً بين الناس، وقد أدركوا أنها قادمة من «المشور السعيد»، فلم تمضِ إلَّا لحظات حتَّى كان

الناس يتكتَّلون في تجمُّعات تهرب مذعورة من شيء لا تعرفه. ومن فمٍ لأُذنٍ، انتشرت عبارة «الرصاص في القصر» كالنار في الهشيم، والبعض ممَّنْ كانوا في سيَّاراتهم حوَّلوا بسرعة إلى الإذاعة الوطنية ترقُّباً للبلاغ الأوَّل. بيد أن هذا الالتباس لم يدم طويلاً. فقد أكَّد شهود عيان قبل صدور بلاغ رسمي في الموضوع أن الحَرَسَ كانوا يطلقون النار على أجسام طائرة، ظهرت فوق

القصر وحوله في شكل دْرُونَات صغيرة الحجم، سيتَّضح بعد سقوط بعضها أنها قنافذ، أصبحت بفضل أجنحة غريبة قادرة على الطيران.

وطيلة اليوم، سُمِعتْ من حين لآخر طلقات نارية لإسقاط القنافذ، قبل أن تدرك هذه الأخيرة أن هناك أماكن في العاصمة لا ينتهي التحليق فوقها بسلام. فغيَّرت مسار تحليقها بعد منتصف النهار بقليل.

سجَّل سليمان تفاصيل ما جرى، وأعرب عن اندهاشه لكون القنافذ طوَّرت في وقت وجيز أجسامها، لتتلاءم مع مخاطر حياتها الجديدة وهي تهرب من الإبادة، أو من جنون السيَّارات. كيف احتاجت بعض الحيوانات إلى ملايين السنين، لتعدِّل خلقتها حسب الحاجة. بينما لم يتطلَّب ذلك من القنافذ سوى بضعة أشهر؟

وذكر ذلك لأُمِّ كلثوم، فسألتْهُ:

- هل رأيتَ بعينَيْكَ القنافذ تطير في سماء العاصمة؟

تردَّد سليمان في الإجابة، فقالت أُمُّ كلثوم:

- ذات يوم سنكتشف أن القنافذ أصبحت تمشي واقفة دون أن يكون أحد قد رأى ذلك، ولو في أحلامه.

ألمَّت بالشيخ عبد الله وعكة صحِّية، ألزمتْهُ الفراش بضعة أيَّام، وعندما ذهب إبراهيم لزيارته وَجَدَهُ واهناً مكتئباً. فعرض عليه أن يأخذه للمستشفى، لكن الشيخ الذي كان قد تجاوز حسب زعمه مائة وستّ سنوات، رفض ذلك رفضاً باتَّاً. وقال إن «ذاته» بخير، ولا تشكو من أيَّة علَّة، فهو يَقبَل الطعام، بل ويشتهيه، كلُّ ما في الأمر أن العُمُر قد تقدَّم به كثيراً، وأن رسائل الآخرة هي التي تصله من حين لآخر على شكل أمراض غامضة.

وعلى ذِكْر الرسائل، قال الشيخ عبد الله هناك رسالة وصلت فعلاً من الآخرة، ودسَّ يده في جيبه، وأخرج منه مظروفاً، مدَّه لإبراهيم.

في المظروف رسالتان، واحدة من إدارة الهلال الأحمر الدولي تقول فيها إنها على اتِّصال مع ابنه محمَّد الأسير لدى البوليساريو منذ سنوات، وأخرى من الطيَّار الذي وقع بمظلَّته بين أيدي الانفصاليِّيْن، ولم يظهر له خبر منذ ذلك الحين.

قرأ إبراهيم الرسالتَيْن بصوتٍ جَهِيْرٍ متوقِّفاً من حين لآخر للتأكُّد من أن الشيخ عبد الله قد فهم ما قرأه. وعندما انتهى من ذلك هتف مبتهِجاً:

- هذه أخبار عظيمة، محمَّد لم يطرْ مع الطيور .. إنه مازال فوق هذه الأرض.

وأضاف: عندما تصل الأمور إلى الهلال الأحمر الدولي، فمعنى ذلك أن الحلَّ قريب جدَّاً، وربَّما عمَّا قريب ستُفاجأ به واقفاً أمامكَ.

لكن الشيخ عبد الله استعاد منه الرسالة بحركة غاضبة، وأعادها إلى جيبه:

- هذه كلُّها تخاريف: ليس هناك هلال أحمر، ولا أخضر، بعضهم هنا فكَّر أنني سأموت بغُصَّة «الغائب»، فدبَّر هذه المكيدة الساذجة حتَّى أموت هانئاً. أنا لا أهتمُّ، محمَّد سأراه عند الله، سواء سبقني أم سبقتُهُ، سألقاه هناك. عند ذلك

رأى إبراهيم تلك النظرة الغامضة للشيخ عبد الله. كأنه يتطلّع بعينَيْن زجاجيَّتَيْن إلى عالم لا يراه أحد سواه. ثمَّ وصلتْهُ تلك الرائحة الغريبة التي اقتحمتْهُ لأوَّل مرَّة وهو يجلس طفلاً أمام جثمان والده المُسجَّى، كان ذلك قبل أن يطمسها البخور وأنفاس المُعزِّين وروائح الطبخ التي انطلقت قبل الدفن. وقد فهم منذ ذلك الحين أن الفقدان له رائحة تسبقه أو تعقبه.

كان الشيخ عبد الله يريد استبقاء إبراهيم كلَّما هَمَّ بالذهاب، وإبراهيم كان يريد أن يذهب، لأنه لا يحبُّ المودِّعين الذين جاؤوا تباعاً، وأصبحوا جمهرة من الناس يتحلَّقون بوجوه واجفة حول الشيخ، وقد راحوا يُحضِّرونه للمغادرة حتَّى دون أن يطلبوا رأيه في الموضوع. مثلما لا يحبُّ الفقيه الذي يجهر بتلاوة «يس» لتسهيل خروج الروح، ويُلحُّ على الشيخ الذي ما يزال في كامل وعيه أن لا يتوقَّف عن ترديد الشهادة، ولو لردِّ السلام، لأننا لا نعرف متى ستخرج الروح، ومن الأفضل أن تخرج وأنتَ تتلفَّظ بالشهادة، وليس بأيِّ كلام فارغ، والشيخ عبد الله كعادته يريد أن «يتعاود» كما يقول، أن يحكي مغرباته الصغيرة، كما لو كانت لحظة فاصلة في حياة الكون، الحرائق التي شارك في إطفائها أو في إشعالها، والقطعان التي كانت تشقُّ الغابة مثل نهر كبير، والطرائد التي اصطادها، والذئاب التي تبادل معها الغارات والمكائد، والأرواح التي أُزهِقت في الغابة، وكلَّما توقَّف، علَّق أحد الحاضرين بأن الشيخ عبد الله عاش بالطول وبالعرض، فكان إبراهيم يتساءل بينه وبين نفسه: وما العيش بالطول وبالعرض، إذا كان اللحاق بالأبدية سيُحوِّل زمن الحياة إلى لا شيء، ثمَّ إن الشيخ عبد الله الذي عاش نصف عُمُره في الغابة والنصف الآخر على أطرافها لم يحتجْ لبناء أسطورته حول العيش بالطول وبالعرض إلى شساعة العالم، بل فقط إلى تلك

الحياة المصفَّاة والفقيرة التي امتلأ بها؟ كان الشيخ عبد الله حتَّى تلك اللحظة حَيّاً، متوقِّد الذهن، ماكر الابتسامة، ولكن الجمع المتحلِّق حوله كان قد وضع ديكور الاحتضار، ولا ينوي التنازل عنه حتَّى تخرج الروح. كأن الناس اقتنعوا أن الوقت قد حان، وأن عليهم فقط أن يساعدوا النهاية على شُغلها، وكلَّما تمدَّد هذا التحضير الملحاح، أجهضوا كلَّ إمكانية لمباغتة الموت. وفي هذا الطقس

كان الشخص الوحيد الذي يخرج من اللعبة ويعود إليها بخفَّة مَنْ يعتقد أن الاحتضار هو احتضارهم، ولا يعنيه تنظيمه في شيء هو الشيخ عبد الله نفسه، الذي أنهك الخُلَّص من أحبابه في متابعة رحيله المُعلَن، شهوراً طويلة كان الشيخ يخرج فيها من حين لآخر من طقس الاحتضار، ليذهب إلى الحياة في تجلِّياتها الأكثر نصاعة: المرعى القريب من البيت، أو الغابة التي في الشطِّ، أو السوق الذي يشبه القيامة. في إحدى صحواته جاء الشيخ عبد الله إلى البيت الغابوي، وبعد يوم كامل قضاه مضطجعاً في الباحة، سأل عن بريجيت، فقال إبراهيم: إنها رحلت.

فلم يبدُ على الشيخ أيُّ انزعاج أو تأثُّر، بل سارع إلى التأكيد أن الغابة ليست سهلة، وأشار على إبراهيم بالارتباط بامرأة، فتحت عينَيْها هنا، ولا يسكن في مخِّها أيُّ مكان آخر، بل لا تعرف أصلاً أن الحياة ممكنة، إذا ابتعدت عن الغابة. ولمَّا رأى إبراهيم حائراً، لا يعرف ما يجيب به، ذكر له بعض الخيام التي بها نساء صالحات مؤكِّداً في كلِّ مرَّة أنهم «دْراوش» و«معقولين»، و«ديال الزواج»، وقد سمعتْهُ السيِّدة التي تشتغل عند إبراهيم، فخرجت إليه من المطبخ، وصرخت في وجهه:

- وأنتَ؟ متى تريد أن تموت؟

والواقع أن الشيخ عبد الله الذي عاش حتَّى فَقَدَ أبناءه المسنِّين كلَّهم، وأبناء جيله المعمّرين، لم يكن يهمُّه أن يموت، ولم يكن يريد ذلك، كان يعتقد أن الموت يفقد أُبَّهَتَهُ كلَّها إذا لم يكن سيُخلِّف ثكلاً عظيماً، ويُتماً لا حدود له. أمَّا في حالته، فلن يُخلِّف سوى التسليم «بوصول الأجل»، والشعور الساذج بالخلاص. ومع ذلك، فإنه عندما سمع سؤال السيِّدة ترك ذلك في نفسه أثراً سيِّئاً، ولم يغبْ طبعاً عن مكره أن السيِّدة تنوي بدون شكٍّ إلقاء شباكها على إبراهيم، وأكثر ما ساءه أن يكون هناك مَنْ يستعجل موته، ويسأله في ذلك كما فعلت السيِّدة قبل قليل. لذلك وقف بأسرع ما استطاع أن يستجيب به جسده، وقال:

- الآن، إذا سهَّل الله!

وانطلق عائداً إلى خيمته، وتبعه إبراهيم مقترحاً إيصاله بالسيَّارة، كان الشيخ عبد الله متردِّداً، ثمَّ قبل، لأنه يريد أن يقول شيئاً لإبراهيم، شيئاً جاء من أجله، وفكَّر فيه طوال اليوم دون أن يستطيع الحسم فيه. صَعِدَ إلى السيَّارة برشاقة، تعجَّب لها إبراهيم، وقال بلهجة أبوية صارمة:

- إيَّاكَ ثمَّ إيَّاكَ من تلك الأفعى السامَّة!

ابتسم إبراهيم وقد أدرك ما يعنيه الشيخ عبد الله، وعندما أراد أن يقول شيئاً في الموضوع، أوقفه الشيخ، وقال وقد تغيَّرت لهجته، فأصبحت توسُّلاً خاشعاً:

- تعرف، يا إبراهيم، لقد عشتُ داخل الغابة، لم أغادرها إلَّا مرَّتَيْن، أو ثلاثاً، لأَزْيَدَ من خمسين سنة. لم يخطر ببالي أبداً أنني سأموت في مكان آخر. والآن أجدني في محفل يبذل جهداً مضنياً لإنهاء حياتي في مكان لا يناسبني .. هل يمكن أن تساعدني؟

- أريد أن أعود إلى الغابة، أريد أن تأخذني إلى هناك بدون أن يعلم بذلك أحد من الناس، أن نقضي يوماً كاملاً في التجوُّل داخل الغابة، بين دار بن حسين، وسيدي علي الرياحي، والدْرية، سأحكي لكَ عن مغربات حدثت هناك، لم تسمع بمثلها أبداً في حياتكَ. وعند

الغروب، تتركني في المكان الذي سأختاره، وتنصرف إلى حال سبيلكَ.

كان قد وصلا إلى الطريق المعبَّدة الجديدة التي تلتفُّ على الدُوار، وتجعله مربَّعاً بين الغابة والطريق، فأوقف الشيخ عبد الله إبراهيم بحركة من يده:

- أريد أن أترك لهم جنازة خاوية، وأن يظلُّوا مشدوهين باختفائي طوال حيواتهم، ماذا قلتَ؟

قال إبراهيم:

- سأفكِّر بالأمر.

فنزل الشيخ من السيَّارة. وعبثاً حاول إبراهيم أن يُقنعَه بتوصيله إلى البيت، كان الشيخ يرفع يده مودِّعاً وهو يقول إنه «سيُعاون نفسه بالمشي».

سيُعاون نفسه على ماذا؟ تساءل إبراهيم، وهو يراه مبتعداً، على الحياة أم على الموت؟ على الفهم أم على سوء الفهم؟

ومنذ هذه اللحظة، ستستقرُّ هذه الجملة في ذهنه كجواب بديهي على حالات التأزُّم التي تنتابه، فكان ينهض ويمشي، يقول: سأعاون نفسي بالمشي»، يخترق الغابة وتخترقه، يتوقَّع أن تكون تلك مشيته الأخيرة، بعدها يتحوَّل هو الآخر إلى خبر اختفاء، ولكنه ما إن يشعر ببوادر الإجهاد الأولى حتَّى يقفل راجعاً خوفاً من الوقوع في شَرَك الغابة، حتَّى التيه لم يعد ممكناً، لقد انحفرت خريطة الغابة في قدمَيْه، يتعرَّف على المسالك، وعلى الأشجار التي تدلُّ على الطريق. كلُّ شجرة لها ملامح ووجه وشخصية. بعضها أطلق عليها أسماء، فصارت كائنات أليفة بشوشة. في بداية عهده بالغابة، كان يصعب عليه الخروج إلى الطريق المعبَّدة، أو إلى مقطع الأوكاليبتوس، أو إلى مشارف الخيام، وبالكاد كان يعرف الشرق من الغرب، لكنه الآن يعرف وجهته من جسده، فيكاد لا يغفل عنها حتَّى تتوقَّف قدماه عن المشي، لتُصَحِّحا مساره نحو الوجهة الصحيحة. عندما يأتي سليمان يستأنفان أحاديثهما المتشبِّعة عن الأشياء التي تظهر وتختفي، المشاعر والمخاوف والشكوك والآمال، وفي قلب هذه الأحاديث، يوجد دائماً ذلك الإحساس بالخسارة. لقد كان الفوز بشيء ما وشيكاً، ثمَّ في لحظة طائشة، تدخَّل الرَّقْم الغلط. كأن الطريدة التي كانت معلَّقة بالزناد تحرَّكت فجأة، وتركت مكانها للرصاصة. ومع ذلك، فإننا قد نفرح لهذه الحركة الماكرة التي جنَّبَتْنا إزهاق روح آمنة. أهذا هو الفوز؟ أهذه هي الخسارة؟ كثيراً ما يتساءل سليمان عن هذا التفاوت المزمن بين الفعل والحركة، في المصائر كما في أشياء الحياة اليومية، أن تقصد شيئاً، وتعثر على شيء آخر، أن تذهب إلى وجهة، وتجد نفسكَ في وجهة أخرى، أن ترى شيئاً بينما أنتَ لا ترى سوى أثر لشيء بعيد، جُلُّ الأشياء تقع في المكان الخطإ، وفي الزمن الخطإ، والتي تقع في وقتها، وفي المكان المناسب سرعان ما تؤول إلى آلة فاسدة.

الوجود مركّب بهذه الطريقة، إنه في غاية الدقَّة، وركام هائل من الأخطاء.

لا يمرُّ يوم دون أن يستعيد سليمان وجه أُمِّه الطفولي. كانت هذه هي رياضته المفضَّلة لمُداراة الأوجاع. كان وجهاً مليئاً بالخدوش، لأنها لا تحترس كثيراً وهي تمرُّ بين شجيرات «الكريش» الشائكة. وتلك الخدوش ما كانت لتُربكَ نضارتها. ولكنها كانت، بطريقة ما، تُفصح عن خدوش الدواخل. ترى لو لم تكن في ذلك المكان الخطإ، هل كانت طريقها ستتقاطع مع طريق الشريف؟ ولو أن تعبير وجهها لم ينضح متسرِّعاً بأنوثتها القادمة، هل كان الشريف سيرمي عليها شباكه كما تُرمى على غزال شريد؟ وهي كما تقول في إحدى أغانيها: «كانت تلعب عندما اشتبكت نظرتها بعينَي صقر يمرُّ فوق رؤوس الأشجار...» ماذا فعل بها الصقر؟ وماذا فعلت بنفسها؟ كيف تناثرت قِطَع الأحجية كشظايا فخَّار مكسور بينما كان أسهل من

ذلك أن تظلَّ قدحاً متماسكاً، يجمع بين الماء والطين والنار؟.

لكن استدعاء سليمان لأُمِّه أو استعادتها، لم يكن سوى تمرين داخلي، يُبقي به على جذوة العلاقة التي تربطه بها. لم يخطر بباله أبداً أن يتحدَّث في الأمر مع أحد، ولا حتَّى مع أُمِّ كلثوم. كانت أُمُّه ما تزال طفلة عندما ولدتْهُ، وكانت طفلة عندما نبذها الشريف. تحكي جَدَّته أنها مباشرة بعد رحيل الشريف عادت إلى اللعب مع الأطفال، وهناك في قلب ذلك اللعب حصل شيء خطف عقلها. هذه هي الرواية التي استقرَّ عليها طفلاً، وكبر معها، بإحساس غامض أنها بعض الرواية، وليس كلَّها .. وهي التي أسلمها لزوجته ولبنتَيْه، بدون تساؤل ولا ريبة. لكن البنتَيْن (اللتَيْن كان يقول لهما إن أُمَّه ولدتْهُ وهي أصغر منهما بكثير) تلحَّان اليوم على استلام رواية مفصَّلة، ونهلة على وجه الخصوص تقول إنها تحبُّ هذه الجَدَّة، وتودُّ أن تعرف عنها كلَّ شيء، بل وتزعم أن أباها لن يكتب شيئاً مهما رغب في ذلك إلَّا إذا أنجز أوَّلاً كتاب أُمِّه. وها هو سليمان يسجِّل في دفتره الكبير شذرات من تلك السيرة المشوَّشة. ولكنه لا يستطيع أن يمسك خيط الحكاية، ويذهب به إلى جوهرها. ذات يوم سيحاول أن يستجيب لحاجة الطفلتَيْن، ويكتب لهما نصَّاً، تعقدان به السلام مع

«شبح الأصل». أمَّا الآن، فإنه يرغب في إعادة تركيب العالم الذي فقده، ثمَّ صار يتعثَّر في تفاصيله.

ذات صباح، عاد إبراهيم من النحل، فوجد سليمان غارقاً في الوثائق والكُتُب التي جمعها، ينقل منها مقاطع وشذرات إلى دفتره، فقال إن الأجدر بنا أن نهجر هذه الأوراق، نحن نحتاج فقط إلى المشي، أن نضع هذه المجالات كلَّها المحبوسة في الكلمات في أقدامنا كما كان يفعل أجدادنا، عندما كانوا ينتقلون من الريف إلى زمور، ومن زيان إلى الغرب، ومن الحوز إلى دكالة، ومن تافيلالت إلى مراكش، ومن فاس إلى مكَّة، ومن الأطلس إلى تومبوكتو، مشياً على الأقدام، فتصبح تلك المسافات كلُّها في أجسادهم، وليس في عجلات مَركبة، أنزلتْهُم، وذهبت لتلتهمَ مسافات أخرى.

كانت فكرة المشي في ذهن إبراهيم مشروعاً عملياً، وليس مجرَّد صورة شِعْرية، ولكن سليمان لم يكن مستعدَّاً للدخول في مغامرة من هذا النوع. كانت تبدو له تمريناً عقيماً، سيُشتِّت ذهنه في الوقت الذي يحتاج فيه إلى تركيز شديد، يسمح له بتركيب عالم متماسك.

وخلال أيَّام متتالية، كان إبراهيم يعكف على الخرائط، ليخرج منها مسارات لتلك الرحلة المُؤَمَّلَة. انطلاقاً من البيت الطيني الواقع في تراب الخزازنة من قبائل زمور. والمشي إلى الجنوب الشرقي حتَّى مشارف تادلة، ثمَّ التوجُّه شَمالاً لاختراق زيان باتِّجاه فازاز، ثمَّ الانعطاف نحو بني مجيلد، ومن ثمَّ النزول صوب سايس، والمشي بعدها صوب وادي بهت، ومن هناك نعود لاختراق «المعمورة، مرَّة أخرى حتَّى نصل إلى البيت الطيني، وداخل هذه الدائرة، سنُفرِّع المشي على شكل جداول ستنساب عبر جسد الغابة، فتصل إلى سيدي شواري وسيدي الرياحي، ودار بن حسين، وصمينتو، وعين الجوهرة، وبلاد الدندون، وسيدي عميرة، وبير لحمر، والدْرية، وتغريست، وسيدي يوسف، وسيدي رابح، ودار السلام، والطايشة، ومشرع الكتان... لا تترك مقطعاً ولا تراباً إلَّا روتْهُ بالمشي والخُطى، كم ستستغرق الرحلة؟ ليس لإبراهيم أيَّة فكرة عن ذلك، ربَّما عدَّة شهور، أو سنة كاملة، أو ما تبقَّى من

العُمُر. ربَّما يستطيع إكمال الدائرة، وربَّما سيبدؤها فقط، أو يذهب حتَّى منتصفها. لا أحد يُكمل الدوائر كلَّها التي بدأها. سنرى يقول إبراهيم، ما إذا كانت هذه المسافات كلُّها قادرة على تقليص الشُّقَّة بيني وبين نفسي.

سيتحدَّث إبراهيم، في ما بعد، مطوَّلاً مع سليمان حول مشروعه، إنه مشي، مشي خالص، مصفًّى، يكاد يكون حلولاً في الغابة. ولكنه أيضاً أكثر من مشي، نوع من البناء الصبور لعالم داخل العالم. وسيذكر في معرِض حديثه تجربة قام بها قبل سنوات عندما

صَعِدَ مشياً إلى قمَّة توبقال عبر إمليل في ضواحي مراكش، ونزل منها عبر تيزي ونُّومس ووادي تفنوت حتَّى أَكَوْيَمْ، ثمَّ إلى ورزازات. كانت تجربة مُنقِذة، لأنها أخرجتْهُ من ضيقه بنفسه، ومن ضالَّته إلى شساعة لم تخطر على باله. وقد دأب منذ ذلك الحين على مساءلة زملائه، وزبائنه في البنك، عن معرفتهم بهذه الجغرافية العظيمة، وعندما يدرك أنهم لم يجرِّبوا أقدامهم أبداً في هذه القمم والوديان كان يشعر فوراً بالتفوُّق، وينسى إلى حين تلك العقد المرتبطة كلُّها «بوضاعة» الأصل.

ثمَّ سيذكر سليمان تجربته المخلخلة التي كانت الرحم التي تشكَّلت فيها اختياراته وقطائعه، والتي عاشها سنة واحدة قبل مغادرته للبنك في حجّ سان جاك دوكومبوستيل عندما مشى لمدَّة خمس وثلاثين يوماً، قطع خلالها حوالي تسعمائة كيلو متراً من هانداي إلى سان جاك، مروراً بسان سيباستيان، بلباو، سانتاندر، خيخون، أوبييدو ولوجو .. تجربة غيَّرت عميقاً علاقته بالطبيعة والدِّيْن والحبِّ ومعنى الحياة. حتَّى أصبح ما هو عليه اليوم. مُتديّناً فقط بالإنصات إلى الطبيعة، وعاشقاً فقط بالإنصات إلى جسده.

هل تكون هذه الرحلة الجديدة سبيلاً إلى استعادة تلك الروح التي طمستْها سنوات من العبودية؟ هل تكون تدشيناً لإيقاع جديد في الحياة؟ لمَ لا؟ يقول سليمان، التحرُّر يحتاج، قبل كلِّ شيء، إلى قفزة مجنونة وغير محسوبة العواقب. ويحتاج خصوصاً إلى نوع من الوحدة. لا أحبُّ قوافل الحجِّ، يقول

سليمان. أتصوَّر أن الامتلاء بالمسافات يقتضي أن يكون خارج «الشحن الجماعي». أن نكون فرادى، بغضِّ النظر عن عدد المشاة.

في بداية الصيف، كان إبراهيم قد أعدَّ العدَّة للقيام برحلته. وقد عهد بالبيت إلى أُمِّ كلثوم وسليمان، وعهد بالنحل إلى عائلة السيِّدة التي كانت تشتغل عنده. وقد كان ينوي المغادرة في نهاية شهر ماي، لولا الأحداث الطارئة التي أجبرتْهُ على التأجيل.

كان راجعاً من توديع الشيخ عبد الله، الذي قضى معه صبيحة كاملة، سأله فيها عن المسالك الغابوية، والدواوير التي يمكن الاستراحة فيها، والقرى والوديان التي سيعبرها. وقد أعطاه الشيخ عبد الله عدداً من الأسماء في القبائل التي يعرفها، والتي لا تتعدَّى مثلَّث دار بن حسين وسيدي على الرياحي والدرية، ولكن الشيخ عبد الله يعتقد أن المعمورة لا تحتاج إلى أكثر من ذلك. وقال الشيخ إن هؤلاء إذا كانوا ما يزالون على قيد الحياة سيكونون له سنداً في هذه الرحلة، وملجأً إذا دعت الضرورة. وقال إنه لو كان ما يزال قادراً على الوقوف والمشي لَمَا تركه وحده. وقال أيضاً إنه يفهم عدم استجابته بالمشاركة في تحضير موته السرِّي داخل الغابة، تلك كانت رغبة حمقاء، ولكنه كان سيكون سعيداً لو حقَّقها وفاضت روحه وهو يُنصت إلى صوت الريح في أوراق البلُّوط، عوض خروجها مغبونة على إيقاع تلك الأصوات المنكرة. ثمَّ قال أخيراً: إذا وجدتَ في طريقكَ مكاناً يخاطب قلبكَ، فلا تَتجاوَزْهُ، فإنكَ حتَّى لو عُدتَ، فلن تَجدَهُ.

ثمَّ بكى الشيخ عبد الله وهو يعانق إبراهيم، وتأثَّر إبراهيم لذلك بالغ التأثُّر، حتَّى إنه بكى بدوره عندما صَعِدَ إلى السيَّارة. أشياء كثيرة جاشت في صدره دفعتْهُ إلى ذلك. انفصام العرى، وذهاب بريجيت، واستحالة الحصول على السكينة .. ثمَّ هذه الرحلة التي يقبل عليها بمزيج من الخوف والرجاء، وكأنه يُلقي بنفسه قارورة في البحر. عندما وصل إلى البيت الطيني، وجد سيَّارتَيْن تحتلَّان الباحة، فما إن تَرَجَّل حتَّى أحاط به عدد من الأشخاص، واقتادوه بفظاظة إلى إحدى السيَّارتَيْن، ومن مكانه في مقاعدها الخلفية وسط

شخصَيْن، رأى أشخاصاً آخرين، يخرجون من البيت، وهم يحملون وثائقه وكُتُبه وخرائطه، وأراد أن يسأل عن الأمر، فأخبره أحدهم بلهجة حاسمة.

- الكلام كلُّه سيكون في الرباط.

محنة الشجرة

-1-

قضى إبراهيم بقية يومه وليلة كاملة في زنزانة رطبة فسيحة، لها باب حديدي يُوفِّر إنارة جيِّدة، وليس لها نوافذ. لم يُكلِّمه أحد، ولم يتفقَّده أحد. لم يغمض له جفن، وتعذَّب كثيراً بسبب التخمينات المتضاربة التي كانت تتشابك في رأسه دون أن يجد لها برَّاً ترسو عليه. وعندما انبلج الصبح وسط ضجيج مبهَم، تراوح بين ما يُسمَع في الملاعب، وبين ما يُسْمَع في مرابض الخيل. فتح أحدهم باب الزنزانة، ليتأكَّد من وجود الشخص حَيَّاً، ثمَّ أغلق الباب.

بعد ساعات طويلة، جاء شخصان، وفتحا الزنزانة، وطلبا منه أن يرافقهما. وضعه الشخصَان بينهما، وصَعِدَا به درجاً ضيِّقاً حتَّى نفذا منه إلى قاعة فسيحة، تتوسَّطها طاولة بثلاثة كراسيّ. أجلساه في الكرسيِّ المنفرد وظهره إلى النافذة، وجلسا قُبالته جنباً إلى جنب، لم يكن على الطاولة أوراق ولا ملفَّات. ولكن أحد الشخصَيْن أخرج من جيبه آلة تسجيل وضعها بينهما. القاعة باردة، وبها رائحة نفَّاذة لصباغة جديدة، فرضت فتح النافذة على مصراعَيْها، فأصبحت أكثر برودة، وإبراهيم يدير في رأسه فكرة المطالبة بمحام يؤازره، مرَّة يقتنع بها، ومرَّة يقول إن هذه الحكاية كلَّها مجرَّد سوء تفاهم، قد ينجلي مباشرة بعد الشروع في الكلام.

ثمَّ بدأ الكلام.

بعد تسجيل الاسم واسم الأُمِّ واسم الأب وتاريخ ومكان الازدياد ورَقْم البطاقة الوطنية.

- مَنْ أنتَ؟

- أنا إبراهيم .. كما سَجَّلْتَ.

- لا. لا. لا. أقصد مَنْ تكون؟ مَنْ هو الشخص الحقيقي خلف قناع مربِّي النحل وصاحب البيت الطيني في المعمورة؟

- أنا هو الشخص الحقيقي، ليس هُنَاكَ شخص آخر.

- ماذا تفعل في الغابة؟

- أعيش.

- هل تركتَ البنك وزوجتكَ وحياتكَ الرغدة فقط لتجرِّب شيئاً آخر؟

- ليس لأجرِّب، بل لأعيش حياة أخرى.

- وماذا تفعل في هذه الحياة الأخرى؟

- أربِّي النحل، وأجمع مكتبة عن المجال الذي أعيش فيه.

- ولكنكَ أيضاً تنشط في جمعيات وفي شبكات التواصل الاجتماعي، وظهرت في التلفزيون.

- مجرَّد قوسَيْن في مناسبات محدَّدة، ثمَّ رجعتُ إلى حياتي العادية.

- هل لديكَ مشروع آخر غير معلَن؟

- ليس لديَّ أيُّ مشروع.

- هل تُحضِّر مع أشخاص آخرين شيئاً ينطلق من الغابة للهجوم على العاصمة؟

- وكيف أستطيع ذلك؟! أنا مجرَّد لاجئ وحيد إلى الغابة.

- في الخرائط التي وجدناها لديكَ، هناك مَسَارات حدَّدتَها بلون أحمر، وقرى وضعتَ عليها دوائر زرقاء، هل هذه هي شبكتكَ داخل المنطقة؟!

- لا، هذه فقط المسارات التي أريد أن أسلكها في رحلة أنوي القيام بها داخل الغابة مشياً على الأقدام ..

- ولكن المسارات تخرج من الغابة، وتتَّجه نحو مولاي بوعزة، ثمَّ نحو تادلة، وتخترق الأطلس المتوسِّط، ثمَّ تعود إلى المعمورة .. هل هذه مجرَّد نزهة؟

- لا، ليست نزهة، إنها نوع من الرحلة الصوفية.

- هل لكَ علاقة بالخارج؟

- لا!

- مَنْ هي بريجيت؟

- بيطرية تعرَّفتُ عليها، وتصادقنا لمدَّة ثمَّ تزوَّجنا.

- وأين هي الآن؟

- ربَّما ذهبت لتزور ابنتها في باريس.

- تقول «ربَّما» ألستَ متأكِّداً؟!

- نعم، لستُ متأكِّداً، لأنها ذهبت دون أن تقول لي.

- وماذا تعرف عنها؟

- أعرف أنها ابنة عائلة فرنسية استقرَّت بالمغرب، وهي وُلِدَت هنا، وتجنَّست، واختارت أن تعيش بيننا، ثمَّ تزوَّجت وأنجبت وترمَّلت، والتقينا لأوَّل مرَّة في عيادتها عندما عرضتُ عليها قُنْفُذاً مصاباً لإنقاذه؛

- تقصد (يَنْسِي)؟!

- كيف عرفتُم؟

- وجدنا في عيادتها صورة كبيرة لقُنْفُذ مرفقة بهذا الاسم! وماذا غير هذا؟

- لا شيء. كان بينها وبين ابنتها جفوة قديمة، لكن زيارة ابنتها لنا مسحت تلك الجفوة.

- هل تعرف شيئاً عن علاقاتها في الخارج؟

- لا، ولو كانت لها علاقات من هذا النوع، لقالت لي.

- هي لم تقل لكَ حتَّى إنها رَاحلة، فكيف تفتح لكَ جعبة أسرارها؟

- (صمت).

- طفولتكَ الأولى كانت في تِيْفَّلْتْ، ثمَّ في الخميسات، هل أنتَ «زَمُّورِي» بالتبنِّي؟

- أنا «زَمُّورِي» بكلِّ شيء.

- ولكنكَ أصلاً من الريف.

- نعم، عائلتي هاجرت من هناك، من نواحي الحسيمة.

- هل احتفظتَ بعلاقة ما مع الريف؟

- لا، لم أحتفظ بشيء.

- ولكنكَ ذهبتَ مرَّة إلى الحسيمة في بداية «حراكها»، والتُقِطَت لكَ صورة في المُظاهرة.

- فعلاً ذهبتُ مرَّة واحدة فقط للتعرُّف على المدينة.

- والصورة؟!

- مجرَّد صدفة .. وجدتُ نفسي في المظاهرة متفرِّجاً، ثمَّ تدافع الناس حتَّى وقعتُ في لجة المُتدافعين، وفي اليوم الموالي وجدتُ نفسي في الصفحات الأولى للجرائد.

- ولكنكَ كنتَ تعرف بعض زعماء الحراك.

- أبداً، لم أعرف أي واحد منهم على الاطلاق، وأغلب الزعماء الذين ظهورا في الاعلام هم من صنف لا أحبه ولا أؤمن به.

- هل ذهبتْ بريجيت إلى الحسيمة؟

- لا أبداً!

- يبدو أنها أخفتْ عنكَ أشياء كثيرة!

- لا أعرف.

- نحن نعرف أنها ذهبت هناك عدَّة مرَّات.

- (صمت).

- هل تعرف شيئاً عن جمعية «كرامة الريف»؟

- لا.

- هل تعرف أن بريجيت كانت على علاقة معها؟

- لا.

- هل تعرَّفتَ على شخص من بلجيكا كان يزور بريجيت يُدعى «عْماروش»؟

- لا، أبداً.

- ولكننا وجدنا في هاتفه مكالمات أجراها معكَ.

- ربَّما، في فترة ما كانت بريجيت قد أضاعت هاتفها، فتركت لسكرتيرتها رَقْمي للاتِّصالات المستعجلة؟

- خارج اتِّصالاته مع بريجيت، هل اتَّصل بكَ شخصياً؟

- لا.

- هل طلبتْ منكَ بريجيت شيئاً بخصوص عْمَاروش؟

- لا.

- ما هي نوع العلاقة التي تتصوَّرها بينهما؟

- لا أتصوَّر شيئاً.

- هل تُقدِّر أن الرحيل المفاجئ لبريجيت كان بسبب اعتقال «عماروش»؟

- لا أعرف شيئاً عن الشخص، ولا عن اعتقاله!

- لنَعدْ إلى «زمور»، هل تعتبر أن المنطقة قابلة لتنظيم انتفاضة على غرار ما جرى في الحسيمة؟

- لم أفكِّر أبداً بشيء من هذا القبيل.

- ولكنكَ جمعتَ كتابات كثيرة عن اضطهاد زمور .. أَلَا تعتقد أن هذه الكتابات تصلح للتحريض على الانتفاضة؟

- جمعتُ كتابات كثيرة أبعد ما تكون عن التحريض.

- ولكنْ، بغضِّ النَّظَر عن هذا المجهود التوثيقي، هل تتوقَّع انتفاضة أمازيغية أخرى غير انتفاضة الريف؟

- لا أتوقَّع شيئاً، ولا أفهم في الانتفاضات!

- مَنْ هو سليمان؟

- صديقي منذ المرحلة الثانوية.

- يتردَّد كثيراً على بيتكَ القروي، هل هو شريككَ في مشاريعكَ؟

- نحن أصدقاء فقط.

- هَل تعرف شيئاً عن عائلته؟.

- أعرف زوجته وبنتَيْه، والتقيتُ مرَّة مع خال له، جاء لزيارته بالرباط.

- وأبوه .. هل حدَّثكَ عن أبيه؟

- أعرف أنه ينتسب «لشريف» كان في ولماس، وقد هجر أُمَّه مباشرة بعد ولادته.

- وأين هو هذا «الشريف» الآن؟

- يقول سليمان إنه يشتغل بالقصر.

- متى كان لقاؤكَ مع خاله؟

- قبل سنوات، لم أعد أذكر.

- وفيمَ تحدَّثتُما معه، أنتَ وسليمان؟

- حديثاً عامَّاً لم أعد أتذكَّر منه شيئاً على وجه التحديد.

- هل عرفتَ بعد هذا اللقاء شيئاً عن انتفاضة العطش في ولماس؟

- لا أعرف شيئاً عن هذه الانتفاضة، ولم أسمع بها.

- وسليمان أَلَم يُخبركَ أن خاله هذا كان أحد متزعِّمي هذه الانتفاضة؟

- أبداً، لم نتحدَّث عنه إطلاقاً.

- ولا عن اعتقاله ومحاكمته؟

- لا أذكر.

- هل ذهبتَ مع سليمان إلى والماس؟

- مرَّة واحدة، ولكننا لم ننزل من السيَّارة عندما وصلْنا،وغادرناها تحت مطر غزير.

- ولكنكَ ذهبْتَ معه مرَّتَيْن إلى تِيدَّاسْ .. لماذا؟

- بل مرَّة واحدة، كان سليمان يريد أن يعرف هذه القرية التي ذكرتها أُمُّه في بعض أغانيها.

- فقط؟

- نعم، فقط ..

- هل حدَّثكَ عن شخص تمَّ اغتياله قبل سنوات في هذه القرية؟

- حدَّثنا عن ذلك شخص التقيْنا به في المقهى.

- هل ذكر لكَ سليمان شيئاً عن القاتل؟

- لا، هو نفسه لم يكن يعرف شيئاً محدَّداً.

- ومَنْ أدراكَ؟

- هذا ما فهمتُ.

- يقال، في والماس، إن القتيل هو الأب الحقيقي لسليمان، هل ذكر لكَ شيئاً من ذلك؟

- لا، ولكنني فهمتُ أنه يقوم بتحرِّيات في موضوع نَسَبه.

- هل حدَّثكَ سليمان عن تهديد بالقتل، قد يكون تلقَّاه في الشهور الأخيرة، وتحديداً بعد الزيارة الثانية إلى تِيدَّاسْ؟

- لم يقل أيَّ شيء له علاقة بهذا الأمر.

- عندما ذهب سليمان للمرَّة الثانية إلى تِيدَّاسْ، هل كان يبحث عن شخص بعينه؟

- نعم، كان يبحث عن المرأة العجوز، والدة القتيل التي تهيَّأ له أنها جاءت تبحث عنه في حيِّ الفتح ..

- وكيف تعرَّفتُما على المرأة؟

- مرَّت علينا في المقهى الذي جلسْنا فيه في الزيارة التي قمْنا بها لتِيدَّاسْ، ويبدو أنها سُحِرَت بملامح سليمان، كما لو كانت تشبه بشكل مثير ملامح ابنها الفقيد!

- هي التي قالت له ذلك؟

- لا، لم يلتقِ بها أبداً، لكن الشبه كان مثيراً بالفعل. وقد لاحظتْهُ بريجيت أيضاً.

- هل تحدَّث معكَ سليمان عن هذا الشبه؟ هل قال شيئاً بخصوصه؟

- ليس بشكل واضح .. رجل المقهى أوحى له أن الشخص الذي قتل جندي تِيدَّاسْ، قد يُقدِم على قتله هو الآخر، إذا كان هدفه هو استئصال السلالة الغلط.

- هل هي معلومة استقاها رجل المقهى من المرأة أم مجرَّد تخمين شخصي؟

- لا أعرف. مهما يكن، فإن العجوز اختفت.

- ماذا تفعلان بالضبط في البيت الغابوي!

- نطبخ ونقرأ ونتمشَّى ونتكلَّم ونهتمُّ بالنحل.

- هل تتكلَّمان في السياسة؟

- أحياناً .. ولكننا معاً لا نحبُّ السياسة.

- المقاطع المؤشَّر عليها في بعض الكُتُب، هل أنتَ مَنْ أشَّر عليها أم سليمان؟

- سليمان في الغالب .. لغرض استعمالها في ما بعد في كتاب يؤلِّفه.

- وهل هي صدفة أن تكون هذه المقاطع كلُّها لها علاقة «بالشرفاء»، وبارتكاز الحُكْم على الشرف؟

- صُدفة، وليس صدفة... الكُتُب جمعناها بالصدفة أحياناً، ولكنْ، نحن معاً جئْنا من أوساط متواضعة، وكان يثيرنا أن الحُكْم، ومنذ قرون، لا يمارسه إلَّا الشرفاء.

- لديكما إذن موقف مضادٌّ لهذا الوضع؟

- ليس بالضرورة، نريد فقط أن نفهم.

- هل فكّرتَ شخصياً في طريقة تُنْهِي بها هذه الحكاية؟

- لم أفكِّر أصلاً في إنهاء الحكاية، فقط كنتُ أتساءل؟

- حول ماذا؟

- حول البسطاء من الناس، كيف ينظرون إلى هذا التقسيم الأبدي؟

- وهل سألتَ البسطاء؟

- لم أسألهم. ولكنني ألاحظ أنهم مرتاحون. إنهم يحبُّون ذلك.

- وإذن، ما هي المشكلة؟

- ليس هناك مشكلة.

- إذا لم تكن هناك مشكلة، فلماذا تغادر البنك وتذهب إلى الغابة وتؤلِّب الناس على الشرفاء.

- عفواً، لا أُؤلِّب أحداً .. أنا أتأمَّل فقط ..

- لكن القبيلة التي نزلت بها أصبحت تؤمن بكَ؟

- تؤمن بماذا؟ لم أطلب من الناس أن يعتنقوا ديناً جئتُ به ..

- ومع ذلك، فإنهم يعتبرون ما تفعله رسالة سماوية .. وهم يأتون إليكَ، ويتبركون بكَ.

- ولكنني لا أُجاريهم، هم يعرفون أنني لا أُصلِّي، وأتناول الخمر في باحة البيت، هذه ليست صفات الرُّسُل والصالحين!

- ويعرفون أيضاً أنكَ تحكم في القنافذ، وتتجوَّل في الغابة مع وحوش انقرضت من المعمورة منذ قرون!

- وهل تصدِّقون أنني أفعل ذلك؟!

- لا يهمُّ أن نصدِّق .. الناس يصدِّقون، ونريد أن نعرف ماذا تريد أن تفعل بهم.

- لا أريد أن أفعل شيئاً .. لقد جئتُ إلى الغابة لأنجوَ بنفسي، بنفسي فقط!

- ولكنْ، إذا اقتنع الناس بكَ، فستقتنع بنفسكَ. ماذا تريد أن تفعل؟

- لا أريد أن أفعل شيئاً .. كنتُ على وشك القيام برحلة في أغوار المجال الطبيعي.

- هذا ما يبدأ به الأنبياء في الغالب، أليس كذلك؟

- (صمت).

- على ذِكْر القنافذ، ماذا تقول في الموضوع؟

- أراها تكاثرت جدَّاً، وهجمت على المُدُن. وهذا أمر من أمور الطبيعة، لا رأي لي فيه.

- ولكنْ، لكَ فيه يَدٌ منذ البداية ..

- كيف يمكن أن تكون لي يَدٌ في تحوُّل يتحدَّى قوانين الطبيعة نفسها؟

- يمكن لأنكَ كنتَ في أصل المشكلة عندما أحضرتَ قُنْفُذاً من الغابة، وزرعتَهُ في أروقة مرجان.

- لم أزرعه، بل هرب منِّي.

- ذلك لم يمنعكَ من التردُّد عليه. لدينا صور طريفة من كاميرات مرجان، تحاور فيها القُنْفُذ وأنتَ تتمرَّن على درَّاجة ثابتة.

- هل يُعقَل أن تحقِّق معي الشرطة في مزحة مثل هذه؟!

- نحن لسنا شرطة!

- ومَنْ تكونون؟ .. أين أنا؟ أريد محامياً للحضور في التحقيق.

- هذا ليس تحقيقاً.

- وماذا يكون؟

- مجرَّد حوار في مسرحية القنافذ!

- أريد أن أخرج من هذا المكان!

- اهدأْ قليلاً .. لا أحد يخرج من هنا! لنعد إلى القنافذ! هل ما تزال على علاقة ب- (يَنْسِي)؟

- لا. لم أره منذ مرجان.

- كانت بريجيت ضمن اللجنة العلمية التي درست القنافذ الجديدة، هل أطلعتكَ على شيء لم تتضمَّنه التقارير الرسمية؟

- لا، بل لم نتحدَّث في الموضوع على الإطلاق.

- ألم تقل لكَ فيما بعد إنها جلبت لعيادتها بواسطة المَدعوّ عْمَارُوش قنافذ من بلجيكا وألمانيا؟

- لم أعلم بذلك أبداً.

- هل سبق أن تحدَّثتُما عن الدَّوْر الذي يمكن أن تلعبه القنافذ في تغيير الأوضاع السياسية؟!

- هذا جُنون، هل أنتم جادون؟

- هل فكّرتُما في استعمال القنافذ لزعزعة النظام؟!

- لم نفكِّر بحماقة من هذا النوع، على افتراض أنها ممكنة أصلاً.

- هل تعتبر ظهور قنافذ طائرة مسألة طبيعية؟

- إذا حصلت، فإنها طبيعية، لا يمكن أن تكون هناك قنافذ اصطناعية بهذا العدد!

- ها أنتَ قلتَ الكلمة بنفسكَ: «اصطناعية»، قنافذ اصطناعية!

- هل حدَّثتْكَ بريجيت عن محاولات لابتكار كائنات من هذا النوع؟

- من نوع ماذا؟

- من نوع القنافذ المعدَّلة جينياً، أو من نوع الكائنات التِي على شكل قُنْفُذ بينما هي «دْرُونات»!

- لم تُحدِّثْني أبداً في هذا الأمر، ولا أعرف، إن كان من المعقول أن يحدث ذلك.

- بماذا تفسِّر وجود كاميرات تحت أجنحة بعض القنافذ؟

- وما شأني أنا بتفسير ذلك؟ لستُ متأكِّداً حتَّى من إمكانية حدوث ذلك!

- إذا قلنا لكَ إنه حدث، فقد حدث.

- لا يهمُّني الأمر. ولا علاقة لي بالموضوع.

- إننا على يقين أنكَ مسؤول عمَّا حدث. نريد فقط أن نعرف الشبكة التي شاركت في هذه المؤامرة.

- والآن هناك شبكة، وهناك مؤامرة!

- كما هو الأمر دائماً!

- وماذا ينتظرني إذن؟

- لا شيء ينتظركَ، ولا أحد!

-2-

وصلت أُمُّ كلثوم وسليمان إلى البيت الغابوي في بداية الصباح. فوجدا سيَّارة إبراهيم في موقفها المعتاد، لكنهما ما إن دخلا البيت الذي كان مفتوحاً حتَّى فوجئا بالفوضى الكبيرة التي اجتاحتْهُ، ثمَّ سرعان ما جاءت السيِّدة التي تشتغل في البيت، وقالت منتحبة إنها لم تجد إبراهيم عندما وصلت قبل شروق الشمس، وإن البيت كان مقلوباً رأساً على عقب. وجُلُّ الكتب لم تعد هنا .. ثمَّ أضافت أن راعياً مرَّت به بعد أن يئست من العثور على إبراهيم، فقال لا تتعبي نفسكِ. لقد أخذوه بالأَمس. كانت السيِّدة لا تفهم ما تعنيه العبارة، وتحاول أن تعرف مَنْ يكون الذين أخذوه بالأمس، ومَنْ يكون المعتدون، ويبدو أنها تحدَّثت مع أهلها عن «اللصوص» الذين اقتحموا البيت، وخرَّبوا ما بداخله بحثاً عن شيء ثمين يتوقَّعونه، فسرى الخبر في القبيلة، فما هي إلَّا لحظات حتَّى وصل كثير من الناس إلى باحة البيت، وراحوا يتبادلون الروايات المحتملة لما حدث.

انتبهت أُمُّ كلثوم إلى خطورة الموقف، وطلبت من سليمان أن ينسحبا فوراً، لأن البيت قد أصبح فخَّاً لاصطياد مَنْ يمكن اصطياده. وفي الطريق، أسرَّت له بأن العادة جرت في مرحلتها الطلَّابية أن يعتقل البوليس ناشطاً يسارياً، ثمَّ يرابطون في بيته لاعتقال رفاقه المفترضين ممَّنْ يتردَّدون عليه.

- وهل تظنِّين أن إبراهيم قد اعتُقل؟

- بالطبع أنا على يقين أنه اعتُقل .. السيَّارتان اللتان رآهما الراعي تأخذانه من البيت، والكُتُب التي اختفت، وآثار التفتيش الذي عبث بكلِّ شيء. لا مجال للشكِّ، لقد اعتقلوه.

- ولماذا يعتقلون إبراهيم؟! شخص وديع لا يحبُّ النزاع، ولا يريد أكثر من حياة هادئة.

- ولكننا نحن لا نعرف، نحن لا نعرف، وإبراهيم نفسه، ربَّما لا يعرف، الذين يعرفون هم الذين اعتقلوه ..

- وهل يجب أن نُسلِّم لهم بالأمر؟

- اسمع، يا سليمان، قبل بضع سنوات، كان الناس يُعتَقلون أو يُختَطفون ويُحتَفظ بهم شهوراً وسنوات .. ثمَّ يُلقَى بهم في قارعة الطريق .. فتصبح عودتهم إلى الحياة أهمَّ من كلِّ ما جرى لهم .. وعندما كان يُسْأَل أحدهم عمَّا حصل، كان يردُّ، لا أعرف. فيردُّ عليه السائل: إذا كنتَ لا تعرف، فهم يعرفون!

- ولكن هؤلاء كانوا مناضلين في حركات، يريد بعضها تقويض النظام!

- حُرَّاس النظام هم مَنْ يحدِّد ماذا يُسقِط النظام، وماذا لا يُسقِطه.

- لقد تغيَّرت هذه الأشياء كلُّها .. لا تقولي إنها فقط وُضعت تحت أصباغ ثقيلة، ثمَّ انبثقت بعد أن «طارت الصباغة»!

- لا أقول شيئاً، أرى ما يقع، ويُرعبني تشابه الصفحات ..

رجعا إلى حيِّ الفتح، كانت أُمُّ كلثوم في غاية الاضطراب، ولمَّا همَّا بدخول العمارة، سحبتْهُ من ذراعه، وطلبت منه أن يتبعها بسرعة، فانقاد بحركتها متأكِّداً أنها رأت في مدخل العمارة ما استوجب هذا التصرُّف. بعد ذلك وقد وصلا لمكتب صديقتهما المحامية، فهم أن أُمَّ كلثوم قد دخلت تماماً في طقس الاعتقال والمطاردة.

تحدَّثا طويلاً مع المحامية عن إبراهيم وقصَّة اختفائه، واجتهدا، كلٌّ بطريقته في تقديم معلومات إضافية عن الشخص، لا تنظيم سرِّي ولا علني، ولا ميولات عنيفة أو متطرِّفة، ولا علاقات مشبوهة، الغابة والنحل وشجرة الفِلِّين والوقائع الغريبة لقبائل زمور، ولا شيء غير هذا، إلَّا ما تيسَّر من نبيذ وخبز

شعير وخُضر بيولوجيَّة .. والمحامية نفسها كانت مندهشة أشدّ ما يكون الاندهاش، ومع ذلك، قالت إنها كانت تتوقَّع هذا الاعتقال. قالت أُمُّ كلثوم:

- أنتِ لا تعرفين الشخص، كيف توقَّعتِ اعتقاله؟!

- سمعتُ منكما أشياء كثيرة عنه .. في نهاية المطاف، لا شيء أدعى للريبة من الانتقال من البنك إلى النحل!

- وهل هذه جريمة؟ سأل سليمان.

- السلطة لا تحبُّ هذه الانقلابات الشِّعْرية .. ترى أن وراء ذلك يوجد دائماً شيء ما .. هذه التحوُّلات يمكن أن تقوم بها في السويد، فتُحسب على ذكائكَ، وعلى قدرتكَ على التكيُّف، هنا إذا دخلتَ في نفق، فيجب أن تبقى فيه، فإذا حفرتَ مهرباً، فإنكَ لستَ على ما يرام.

- ولكنْ، هذا هو الحُمْق بعينه!

- يجب أن نستحضر دائماً أنه لا توجد سلطة بدون حُمْق. والآن علينا فقط أن نهتمَّ بصديقكما .. أن نصاحب محنته بأقلّ ما يمكن من التشكيك في عبقرية السلطة، التي تعرف ما يصلح لها، بل وتعرف ما يصلح لنا، وتعرف على الخصوص ما لا يصلح لنا.

اقترحت المحامية أن تباشر مسطرة البحث عن إبراهيم، ثمَّ أن تتابع بعد ذلك ما سيُسفر عنه الاعتقال. وعندما كان سليمان وأُمُّ كلثوم يهمَّان بمغادرة المكتب، طلبت هذه الأخيرة من زوجها أن يترك عند المحامية «دفتره الكبير».

- إذا كانت السلطة قد أخذت كُتُب إبراهيم، فإن الأَوْلَى بها أن تصادر دفتركَ!

- ومنذ هذه اللحظة، سيتعوَّد سليمان على التردُّد، من حين لآخر، على مكتب المحامية، ليس لتسقط أخبار صديقه، فقد أجابت الشرطة والنيابة العامَّة

على رسائل المحامية بالتأكيد رسمياً على أنها لم تعتقل أبداً شخصاً بهذا الاسم، وإنما ليعكفَ على دفتره الكبير. ويضيف إليه ما يُضيف متعجِّباً دائماً من هذه التفاصيل التي تهجم عليه في عُقر صمته، وتقوده إلى كتابة ما يكتبه.

استولت على سليمان أسابيع بعد اختفاء إبراهيم نوبة بارانويا حادَّة، جعلتْهُ متنبِّهاً باستمرار لحَدٍّ، لم يعد معه يستطيع النوم لأكثر من ساعتَيْن أو أقلّ في الليلة الواحدة. وخلال تلك اليقظة المتوتِّرة المصحوبة بهلوسات تعلو وتخبو، كان سليمان يُرهق زوجته بعشرات الأسئلة، ويمرُّ في يوم واحد من حالات حبور، تُخرِجه عن وقاره المعهود، ثمَّ من حالات صمت، يكفهرُّ فيها باطِناً وظاهراً. وقد تزامنت هذه النوبة بتصاعد حالات اعتقال ومحاكمات، جُلُّها لصحفيِّيْن أو مُدوِّنين أو ناشطين حقوقيِّيْن، وكلُّها حالات تملَّصت من صفتها الحقيقية كمحاكمات رأي، واتَّخذت شكل تلبُّس في قضايا جنسية أو قضايا السُّكْر العلني والتحرُّش والخيانة الزوجية والتهرُّب الضريبي، وما إلى ذلك. وهذا التزامن ضاعف من حدَّة النوبة، ممَّا جعل أُمَّ كلثوم تستعين بطبيب نفسي، تقبَّل سليمان على مضض تدخُّلَه. ومن جلسة علاج لأخرى خفَّت النوبة، ولكن شيئاً ما كان قد تكسَّر في الأعماق، لم يستطع الطبيب جَبْرَه. لذلك سيقبل سليمان، بصيغة الحَدِّ الأدنى للحياة التي أصبحت خياره الوحيد، فاستسلم لها متنقِّلاً ببطء شديد من البيت إلى المقهى، ومن المقهى إلى السوق، وتوطَّد صمته حتَّى أصبح التفوُّه بتحية عابرة، تكلِّفه جهداً لا يُطاق.

في بداية شهر يونيه، جاءت صفية ونهلة من لندن لقضاء أسبوع مع أبيهما، كانتا تعرفان من أُمِّهما وضعه بالتفصيل، أمَّا المكالمات القليلة التي كانت لهما معه، فلم تكن تدوم سوى بضع دقائق، يُنهيها على غير عادته بطريقة جافَّة. لكنهما اليوم، وهما في البيت، أصبح سليمان شخصاً آخر، يفيض حيوية ومرحاً، حتَّى إن أُمَّ كلثوم تضايقت لكون هذا الوضع الجديد لا علاقة له إطلاقاً بما كانت تقوله للبنتَيْن عن اكتئابه. ومهما يكن، فقد مرَّ الأسبوع أيَّاماً رغدة، عادت فيها الأسرة إلى مباهج الطفولة، كأن البنتَيْن لم تكبرا، وكأنما كما في

تلك البدايات لا بدَّ من أن يكون الشاطئ وحديقة الحيوانات، وضاية الرومي، والمدينة القديمة نسيجاً حيَّاً لحيواتهم المشتركة. شيء واحد كان يُفسِد مزاج سليمان هو الحديث عن البيت الغابوي، أو الخوض في «اعتقال إبراهيم»، حتَّى إن نهلة غضبت ذات مساء، وقالت، إنها لا تستسيغ» أن نصمت على اختطاف إبراهيم، كما لو أنه لا يَعْنِينَا»، وتوعَّدت أن تثير القضية مع منظَّمة العفو الدولية ومع برلمانيِّيْن بريطانيَّيْن. لا يمكن، تقول نهلة، أن تقبل بهذه الأساليب المنتمية للقرون الوسطى».

وعندما هدأت، قال سليمان إنه لا يرى مانعاً من أن تقوما بذلك، -انتظرا فقط حتَّى تعودا إلى لندن، أمَّا هنا، فنحن لا نعرف إبراهيم، ولا نعرف ما حصل له. محظوظون نحن إذا لم يتَّهمنا أحد بقتل إبراهيم ودفنه في مكان مجهول!

بعد عودة صفاء ونهلة ببضعة أيَّام، ظهر في صحيفة بريطانية خبر عن اختطاف «مناضل بيئي» في المغرب، والاحتفاظ به معتَقَلاً بدون محاكمة، ورغم أن صفة «مناضل بيئي» أضحكت سليمان كثيراً، إلَّا أنه وجدها، في نهاية المطاف، صيغة ذكية لإعطاء «مضمون حديث ومقنِع» لقضية إبراهيم.

مباشرة بعد سَفَر صفاء ونهلة، عاد سليمان لوضعه السابق. كان قد استفاق في اليوم التالي لسَفَرهما خفيفاً هادئاً، وعندما كان متوجِّهاً إلى المقهى، لمح شخصاً يشبه رجلَ المقهى بتِيدَّاسْ الذي تطوَّع لتعريفه بمَنْ تكون المرأة العجوز. كان واقفاً في ناصية الشارع، كأنه ينتظره، فما إن رآه حتَّى وضع يدَيْه في جيبه، وتوجَّه بخُطى واسعة ومشية عابثة إلى الجانب الخلفي للحيِّ. ومنذ هذه اللحظة، سيقع سليمان تحت وطأة هذا الظهور المفاجئ لشخص لا شكَّ أنه يتقصَّده بسوء، وذكر ذلك لأُمِّ كلثوم وهما على مائدة الغداء، فقالت إن الأنسب في هذه الحالة هو إخبار الشرطة بأمره، لكن سليمان رفض رفضاً قاطعاً أن يقوم بهذا التبليغ.

- تريدين أن أضع نفسي بين «فكَّي السبع» قال سليمان، وقد ارتعب ارتعاباً شديداً، وكأنما لم يكن ظهور الشخص الغامض كافياً، طرقت بابه قبيل الغروب سيِّدة حزينة قدَّمت نفسها على أنها أخت إبراهيم .. كانت تبكي طوال

الوقت، وتحاول أن تشرح ما حصل لها ولإخوانها، حيث خضعوا جميعهم لتحقيق طويل حول إبراهيم لم يفهموا منه شيئاً، وبينما كان سليمان منصرفاً بذهنه كلِّه إلى التساؤل عمَّا تريده منه هذه السيِّدة، وهل جاءت بمبادرة منها أم أنَّ يداً خفية توجد خلف هذه الزيارة؟ وما الهدف من إشراكه في ما حصل؟ وعندما لاحظت المرأة أن أُمَّ كلثوم وحدها تُنصت إليها، قالت منكسرة:

- لقد سألونا عن علاقته بكَ، قلنا نحن فقط نعرف أنكما أصدقاء، هل يمكن أن تقول لنا شيئاً عمَّا جرى؟ .. لقد طرقنا أبواب الشرطة والقضاء والعَمَالة، كلُّهم يقولون إنهم لا يعرفون شيئاً عن إبراهيم .. ولا يوجد لديهم شخص بهذه الهُويَّة .. ماذا يكون قد فعل؟ هل يمكن أن يكون إرهابياً دون أن تعرف أنتَ، صديقه الوحيد منذ سنوات؟! .. نريد فقط أن نعرف.

قال سليمان إنه لا يعرف شيئاً، ومن الأفضل أن لا نبحث عن شيء فعله، فهو، في الغالب، لم يفعل شيئاً يستوجب هذا الاعتقال. ولكن السلطة تشكُّ أو تتوقَّع، أو تخاف،

يجب فقط أن يُترَك لها الوقت لترى الأمور بشكل أوضح، وأن لا نُدَوِّخها بحركات زائدة، مثل هذه الزيارة مثلاً، لأنها عند ذلك ستحتاج إلى وقت أطول.

وبدا أن المرأة اقتنعت بما قاله سليمان، أو تظاهرت بذلك على الأقلِّ، بينما ارتسم على وجهها، وهي تنهض للانصراف، تعبير ساخر. وعندما أوصلتها أُمُّ كلثوم إلى الباب، استدارت فجأة، وسألت سليمان:

- وأنتَ؟ لماذا لم يأخذوكَ أيضاً؟ لماذا لم يسألوكَ عن شيء؟ هل يُعقَل أن يتركوك حُرَّاً طليقاً، ويركِّزوا شكَّهم كلَّه في إبراهيم؟

كانت لهجتها غاضبة، كأنها تتَّهمه بشيء، وتفطَّن سليمان لذلك، فقال إنه لا يمكن أن يعرف ما يدور في أذهانهم، ولا يملك، في هذه الحالة، إلَّا أن ينتظر

وهو متأكِّد أنهم، في لحظة ما، لن يعرفوا ما يفعلونه بإبراهيم، وعند ذلك سيعتذرون له، وسيضعونه في المكان الذي أخذوه منه!

قالت المرأة:

- لو لم يكن هناك شيء، لكنتَ ذهبتَ إليهم بنفسكَ، وعرفتَ منهم حقيقة ما جرى.

- أين أذهب؟ إنه لا يوجد عند أحد كما تعرفين.

كانت المرأة حائرة وهي تغادر الشُّقَّة، وبدا عليها أنها ستعود إلى البكاء. وقد خلَّفت بعد ذهابها جوَّاً ثقيلاً، لم تستطع أُمُّ كلثوم تبديده رغم الجهود كلِّها التي بذلتْها، بعد ذلك، سيمضيان ليلة سيِّئة، بسبب أرق سليمان، واضطراره للتنقُّل باستمرار بين الصالة وغرفة النوم، وبسبب حاجته إلى الكلام لإطفاء غليانه الداخلي. وقبل شروق الشمس، كان سليمان منهاراً على الأريكة بين النوم واليقظة .. وهو متأكِّد أنهم سيطرقون الباب بعد قليل، ليأخذوه .. إنهم يراقبون كلَّ شيء، ويعرفون أن الشخص الذي يترصَّده سيمرُّ إلى تنفيذ خطَّته بين لحظة وأخرى، وعليهم أن يسبقوه، فهم أَولَى به حيَّاً لاستكمال تحقيقهم. وبانتظار مجيئهم لا بدَّ أن يرتِّب أموره. لا بدَّ أن يُبعد كلَّ شيء يمكن أن يستعملوه ضدَّه. لا بدَّ أن يمحو رسائل الواتساب مع ابنتَيْه، والإيمايلات التي وصلت من أمنستي حول إبراهيم، والرسائل القديمة التي كانت تصله وهو في باريس .. وحتَّى الكُتُب التي تتحدَّث عن الثورات والتحقيقات التي جمعها حول ولماس عندما انطلقت حملة مقاطعة منتوجاتها. كان يقوم، من حين لآخر، كلَّما تذكَّر شيئاً يجب إتلافه. وعندما يضعه على الطاولة، يشعر بانتصار صغير يُنعِشه، ثمَّ يعود إلى الأريكة.

ثمَّ تذكَّر فجأة أن «الدفتر الكبير» يتضمَّن أشياء كثيرة، يمكن أن تُرسله إلى الجحيم. مقتطفات فاضحة من كُتُب التاريخ، «نوادر الأحداث» ..التي أصبحت أهمَّ نشاط وطني، فضائح الأكابر، تعليقات وتأمُّلات حول الدسائس والمؤامرات التي تُحاك في أروقة السلطة، روايات متقاطعة عن نَسَبه

الشريف، وعن أمِّه وخاله الذي ذهبت به انتفاضة العطش .. عن العجوز من تِيدَّاسْ، وعن ابنها القتيل، عن الشخص الذي رتَّب استئصال السلالة قبل رحيله. بالإضافة إلى كلِّ ما جمعه عن القنافذ منذ ظهور (يَنْسِي) يرقص مع أبنائه في حديقة الجنرال، إلى سقوط أوَّل قُنْفُذ طائر وهو يحلِّق في سماء القصر.

إذا وقع هذا الدفتر بين أيدي المحقِّقين، فإن السماء ستقع على الأرض لا محالة. وما إن وصل إلى هذه القناعة حتَّى أطبق عليه الذعر من كلِّ صوب. وحاول إيقاظ أُمِّ كلثوم عدَّة مرَّات لإنقاذه من الكابوس، لكنه كان يراها غارقة في النوم، بسبب إنهاك الليلة البيضاء، فيُشفق عليها، ويرجع إلى الصالة، وقد بدا له أن الزمن قد توقَّف تماماً، فلم يعد هناك ليل يمضي ولا نهار يجيء. وربَّما أخذته سِنَة، فرأى نفسه يدخل نفقاً في الغابة، ويمشي فيه مع

وحوش كثيرة، تحمل لافتات وملصقات، عليها صور إبراهيم، وهي تهتف باسمه، ثمَّ رأى إبراهيم يجلس على ظهر قُنْفُذ ضخم، والقُنْفُذ يستعدُّ للتحليق. وكلَّما اقترب الضوء القادم من مخرج النفق، ارتفع القُنْفُذ عن الأرض. ثمَّ رأى القُنْفُذ يطير بإبراهيم في اللحظة التي فتح فيها عينَيْه على نهار، يهجم من النوافذ.

جلس سليمان وأُمُّ كلثوم إلى مائدة الإفطار صامتَيْن. وغير بعيد عن المائدة، تراكمت كُتُب كثيرة ووثائق وصور وخرائط، نظرت إليها أُمُّ كلثوم متسائلة، فقال سليمان:

- من الأفضل أن نتخلَص منها قبل مجيئهم!

ثمَّ نهض مستعجلاً، وقال إنه سيذهب إلى مكتب المحامية.

جلس أمام «دفتره الكبير»، يقرأ ما كتبه، يتوقَّف عند كلِّ فصل، يقوم بتقييم دقيق لخطورته، يستخرج ما يمكن أن يكون قد تسلَّل رغماً عنه أو في غفلة منه إلى النصِّ من إيحاءات أو أحكام أو تأويلات مثيرة للريبة. وعندما يجزم

بينه وبين نفسه أن الفصل سيُنبِت قروناً حادَّة للمحقِّقين يقوم بتمزيقه. وقد قضى جُلَّ يومه يقرأ ويُمزِّق، يقرأ ويُمزِّق، إلى أن جاءت أُمُّ كلثوم، وانتشلتْهُ من ركام تلك المزق النازفة.

كما لو تكون رسالة إلى صفاء ونهلة

- لم أكن لأهتمَّ بالأمر، مَاذا يهمُّني من دم يجري في عروقي؟ هل هو من أصل شريف يصل بي إلى الأنبياء أم خالطته «لوثة» من قبيلة زيان؟ المهمُّ في الدم هو أن يكون من فصيلة محدَّدة، وأن لا تلتهم كرياته البيضاء كرياته الحمراء، وأن يتدفَّق من المضخَّة بانتظام لا يُشوِّش عليه توقُّف فجائي أو تباطؤ يخنق الأنفاس .. أمَّا ماعدا ذلك، فمجرَّد تُرَّهَات. ولو كان عليَّ لَمَا هَالَني أن يكون دمي خالصاً من تلك القبائل المحاربة، أين هي المشكلة؟ لم أكن لأهتمّ بالأمر، الناس يحتاجون إلى خيط يربطهم بالسماء، يتوقَّعون أن يختلَّ الكون إذا تولَّى «العامَّة» شؤونهم، منذ قرون لا تنهض دولة إلَّا من هذا التعلُّق بالسماء .. يخوض الشرفاء حروباً لسحق القبائل وإخضاعها. ويحصل أن ينهزموا، ويسقط كبيرهم بين الأقدام، يوجد دائماً محارب على نية الله، يردفه على فرسه، ويجري به إلى خيمة آمنة،وهناك ينقاد المنتصرون لسلطة الملك الأسير، يُطعمونه أفضل الأطعمة، ويضعون في سريره أجمل النساء، ويغسلون قدمَيْه، ويقفون دامعين يلتمسون البركة .. ثمَّ يحملونه إلى عرينه، أشاوس قساة في خدمة الشجرة، حتَّى لو باعت الشجرة، فالمحاربون يشترون، كلَّما كان هذا الدم لا يدور بيننا، كان مرتعاً لقداسة طاغية. سلط كثيرة نبتت كالفِطْر لحراسة الدم الشريف، الرسوم والظهائر والنقابات واللاوائح الملكية والغربلة من حين لآخر، عزل الشرفاء عن المتشرِّفين، إحراق الرسوم المزوَّرة، وتركيز العنصر الخالص، فإذا ارتجَّت القبضة، عاد تدفُّق الرسوم المزوَّرة والمتشرِّفون المتهافتون على الكسب والإعفاء الضريبي.

قرون من الصراع على نقاء السلالة، زواج شريفة من عامَّة الناس يقصيها من النَّسَب الشريف، أمَّا الشريف، فمتى ما تطاول واغتنى، فإنه يضيف إلى زوجاته الشريفات نساءً لاسعات من العامَّة، ويتسرَّى بالإماء. مهما أنجب،

فإنه لا ينجب إلّا وحده دماً خالصاً. سلاطين البلاد كلّهم تدخَّلوا لحراسة النَّسَب الشريف. وأشدُّهم حرصاً على ذلك، السلطان مولاي إسماعيل الذي حاول تعميم حظر زواج الشرفاء من غير الشريفات، ولو كان ذلك خارج الأسرة المالكة، فقد أمر النقباء عند تعيينهم «بالضرب على يد كلِّ مَنْ سوَّلت له نفسه مصاهرة العامَّة، وبفسخ الزواج إن هو حصل. حتَّى لا يتعرَّض النَّسَب الشريف للإتلاف». وذهب السلطان مولاي الحسن إلى أبعد من ذلك عندما أصدر ظهيراً ينصُّ على إسقاط كلِّ مَنْ تزوج من الشرفاء العلويِّيْن بغير بنات عمِّه، من زمام الشرف العلوي».

لم أكن لأهتمّ بالأمر، هل يمكن أن يخطر على بال أحد أن تلك الأُمَّ الطفلة، تلك القدِّيسة التي تفرح بكلِّ شيء خلقه الله، حتَّى إنها لا تأكل فاكهة حتَّى تقبلها بابتهال؟ هل يمكن أن يخطر على بال أحد أنها يمكن أن تُلوِّث دمي أو دم أحد من العالمين؟ ثمَّ كيف يمكن لأحد جرت في عروقه دماء من مداد نيتشة، وسبينوزا، وريلكه، وكافكا، وكبريرا أنفانتي وكواباطا ويوسا وبورخيص .. أن يهتمَّ بعبور نزوة طائشة من دمه؟ حتَّى كان ذلك اليوم السيِّئ الذي مزَّقت فيه صفحات كثيرة من دفتري «الكبير»، لأنني وقعتُ تحت سطوة خوف مدمِّر، منعني من التفكير السليم .. كان من الممكن أن أبعث لكما المخطوط، وقبل ذلك، كان من الممكن أن أستعمل لوحة إلكترونية لكتابة وإرسال ما كتبته بالمايل يوماً بيوم .. ولكنني لم أتخلَّص من اعتبار الكتابة حِبْراً يعبر من الدم إلى الورقة .. كذلك كتبت ما كتبت، على ورق غير مسطَّر، وبقلم الحِبْر الذي أُعبِّئه كلَّ يومَيْن أو ثلاثة، بمداد الدواة الزجاجية الضخمة التي تملأ مكتبي بأشعَّة بنفسجية كلَّما عبرها ضوء الشمس .. وهذا الجهد كلُّه مزَّقتُهُ على غرار ما فعله المغول بمكتبات بغدَاد. وعندما انتشلتْني أُمُّ كلثوم من الرُّهَاب الذي طوَّقني، مشيتُ في الحيِّ خاوياً، قلتُ لأُمِّ كلثوم: دعيني أتمشَّى للعودة إلى نفسي. مشيتُ كثيراً في الحيِّ، ثمَّ في الكورنيش، ثمَّ داخل نفسي، مشيتُ تحت أثقال

من التأنيب المتواصل حتَّى أدركتُ أنني لو مشيتُ إلى آخر الدنيا، فلن أنفصل عن صوته الملحاح. وعندما كنتُ راجعاً تردَّدتُ في الدخول إلى حيِّ الفتح من

الأحياء الخلفية أم من مدخل القنطرة، ثمَّ نسيتُ أن أقرِّر في الوقت المناسب، فوجدتُ نفسي تحت القنطرة. سيكون عليَّ أن أستدير يساراً، ثمَّ أنعطف بعد موقف الطاكسيات يميناً باتِّجاه العمارة .. لو أنني استعملتُ المنفذ الآخر، لما كنتُ الآن أمام «رجل المقهى»، والحال أنه كان ينتظرني هنا. وكان من الممكن أن أذهب من الوجهة الأخرى إلى بيتي، فأُفلت منه، ولو إلى حين.

أمَّا الآن، فها هو يتقدَّم منِّي بشوشاً كما في المرَّة الأولى بتِيدَّاسْ. لم يراوغْني،ولم يتظاهر بتجاهلي. صافحني كما يفعل الناس الواثقون المترفِّعون، بقبضة صارمة ورأس مرفوع.

قال:

- هل يمكن أن نتحدَّث قليلاً؟

قلتُ:

- ونحن نمشي، لا أريد أن تقلق زوجتي، بسبب تأخُّري في العودة إلى البيت.

قال:

- لا بأس. أنا أيضاً يجب أن لا أتأخَّر كثيراً. تعرف، المواصلات مع تِيدَّاسْ ليست سهلة ..

ثمَّ بدأنا نمشي، فقال:

- العجوز عادت من غيبتها. لا أحد يعرف أين كانت، عندما تسألها الجارات تقول: عند أحباب الله. ثمَّ تضيف: عدتُ لأموت في فراشي. وذات يوم بعثتْ في طلبي. جلستُ إلى جوارها، فدسَّت يدها تحت الفراش، لتُخرج كيساً من الثوب الأبيض، مدَّتْه لي، عندما فتحتُهُ وجدتُ بداخله لفَّة من الأوراق النقدية من فئة 200 درهم. قلتُ لعلَّها تريدني أن أسلِّم النقود لشخص ما، فحدَّثتْني

نفسي من وقتها أن أستلَّ ورقة أو ورقتَيْن وأنا أوصل الأمانة. لكنها ما لبثت أن وضعت يدها على يدي، وقالت:

- هي لكَ! هل تتذكَّر الشخص الذي يشبهني بعينَيْه؟ اقْتُلْهُ، وتعال لتأخذ الكيس.

قلتُ:

- وإذن، فأنتَ هنا لتقتلَني!

- لا، أبداً، أنا لم أقتل بعوضة في حياتي، كيف أقتل «شريفاً» من أبناء النبي؟!

- ماذا تريد منِّي، إذن؟

- أريد فقط أن تساعدني على ثمن الركوب إلى تِيدَّاسْ.

- ولماذا جئتَ أصلاً؟

- جئتُ لتعرف الحكاية، وتعرف أنني لن أقتلكَ، ولتعرف خصوصاً أنكَ «شريف» مائة بالمائة.

العجوز قالت ذلك، وقالت، تلك القصَّة كلُّها ركبت عوجاء.

اقتلْهُ، لأنه تسبَّب بمقتل ولدي ظلماً وعدواناً ..

أعرف ما ستقولانه، إن الشخص ليس سوى نصَّاب صغير، فقد التقط الحكاية، واحتال بها عليَّ للظفر بتلك الورقة .. وعمَّا قريب سيعود ويقول إنه قد غيَّر رأيه، وإن العجوز ألحَّت عليه، وهو لا يريد أن يكسرها وهي على فراش الموت، ثمَّ يعود ليقول إن الأهمَّ من هذا القتل الحرام هو الرجوع إلى تِيدَّاسْ، الأمر الذي يحتاج إلى ورقة أخرى لا غير .. أعرف أنكما ستقولان ما أسهل أن تُستخرَج الحكايات من بعضها، يكفي أن تكون الحاجة أو اللعب وراء ذلك؟ لكن الشخص ليس نصَّاباً. عرفتُ ذلك، من نبرة صوته، ومن بريق

عينَيْه، وفوق ذلك، إنه يتعاطف معي، يقول دعني أوهِم العجوز أنني مَاضٍ في مشروع تصفيتكَ، لن أجنيَ من ذلك شيئاً، ولكن العجوز ستموت راضية، وربَّما أوصت لي بشيء، ولو أن أحداً لن يُنفِّذ ما قد توصي به.

لم أكن لأهتمّ بالأمر، وها هو يهتمُّ بي، العجوز قذفت في وجهي حُكْماً لا مردَّ له: إنني شريف مائة بالمائة، لا سبيل لأيِّ التباس مبهِج. وجَدَّتي تعود من حين لآخر، لتقتحم عليَّ عالمي، بأحاديث متقطِّعة من الأرض، أرض الغابة التي باع الشريف معظمها قيد حياته، وأرض الماء التي ضمَّتْها الشركة بعد مماته .. إذا لم تفعل ذلك من أجل أخوالكَ الذين انتهوا أُجَرَاء عند الأغراب، فافعلْهُ من أجل أُمِّكَ، التي انتقلت من الزفاف إلى الجنون في رمشة عين .. وكلَّما ألحَّت الجَدَّة بزياراتها المتكرِّرة بين المنام واليقظة، ابتعدتُ عن سحر ذلك الاحتمال البهيج بأن أكون فقط ثمرة حبٍّ سرِّي مجنون، جمع بين فتاة طائشة وجندي عَبَرَ حياتها مثل وميض سريع. ربَّما حصل الحبُّ المجنون فعلاً، لا أحد يعرف متى وكيف، لكن الثمرة لا تحتاج لشيء صاعق مثل هذا. اللقاح يكفي، مهما كان مُوجِعاً وقبيحاً، وحتَّى اغتصاباً. لسنوات طويلة غَذَّيتُ بهذا الاحتمال حاجتي الشِّعْرية إلى الإفلات من السلالة، ولكنني أُدرك الآن، متأخِّراً أن الحاجات الشِّعْرية على نُدْرتها في هذا البلد السعيد لا يمكن أن تصمد أمام الواقعية العمياء «للقالب»، كُلُّنا يجب أن يخرج من القالب المُعدِّ سلفاً منذ قرون، الذي من قالب القبيلة، والذي من قالب السلالة، والذي من قالب الزاوية، والذي من قالب الشرف، والذي من قالب العامَّة، والذي من قالب الأرذال، والذي من قالب الأوباش .. إذا رأيتَ شخصاً أكبر من قالبه أو أصغر، فاعلمْ أنه «خطأ» فادح في الصناعة، وأنه بهذا الخطإ الفادح لن يعمّر طويلاً، اليابانيون يقولون: «المسمار الذي يتجاوز يُنادي على المطرقة»! ومتى ما جاءت المطرقة، فإنها ترجُعكَ إلى القالب، حيَّاً أو ميتاً، كلُّ واحد منَّا من فرط تقديس القالب، أصبح مطرقة الآخر، يقوم بالعمل مجَّاناً في سبيل الله، ويعتبر أنه يساهم بذلك في توازن «الدقَّة» الذي لا غنى عنه لتوازن الوجود.

وها هي أُمُّ كلثوم تقول لي شيئاً يعيدني إلى الاحتمال الوحيد، الذي لا محيد عنه، ولا مفرَّ منه. قالت:

- اذهبْ إلى أكابر البلد، وقلْ لهم ابن مَنْ أنتَ! وعند ذلك ستُنقذ إبراهيم، وتُنقذ نفسكَ من هذا الخوف المدمِّر أن يأتوا ذات يوم، ويأخذوكَ .. لن يأخذكَ أحد وأنتَ من تلك الشجرة!

وكلُّ ما استطعتُ الإجابة به هو أنني سأفعل قريباً، قريباً، قلتُ ذلك وأنا أعلم أني لن أفعل أبداً، وقد أفعل. هل تعرفان ما أنا منهمكٌ فيه منذ فترة؟ لن تصدِّقا، لقد اشتريتُ دفتراً كبيراً، وعدتُ إلى تدوين التُّرَّهَات. أحياناً أسترجع شذرات ممَّا مزَّقتُهُ، وأحياناً أكتفي بالكتابة من الآن، كأنني أكتب الجزء الثاني أو الثالث أو الأخير. أُمُّ كلثوم غير راضية إطلاقاً عمَّا أكتبه، تقول إن لهجتي حادَّة أكثر من اللازم، وسخريتي طافحة، كأنني أنتقم لضياع المخطوط الأوَّل. وقد ناقشتْني كثيراً في ما كتبتُهُ عن الأهواء الجنسية لوزراء الحكومة الإسلامية، وعن «الهَوَس الإفريقي» الذي أخذ بتلابيب الأُمَّة، وعن المغرب الأخضر والأزرق والبرج الأعلى على ضفاف بورقراق، والبراق الذي يأخذكَ من طنجة، ويضعكَ بعد ساعة في شارعكَ المفضَّل في العاصمة. تقول أُمُّ كلثوم، المغاربة لن تُغيِّرهم الثرثرة، بل هذا

التحوُّل المادِّي الذي سيصبح جزءاً من حيواتهم .. أقول لها مازحاً:

- أنتِ تصلحين تماماً للقناة الأولى!

لكنْ، عدا هذه السخرية المثيرة للجدل أطمع في كتابة تأمُّلات بسيطة في ما أراه كلّ يوم وأنا أتجوَّل في حيِّ الفتح، أو بين المدينة القديمة ومحيطها الذي يجري فيه ترميم السوق المركزي، وإنجاز أكبر موقف تحت أرضي للسيَّارات في العاصمة، يستهويني تفقُّد الوجوه التي عبرت حياتي كوجوه هامشية، مثل وجوه باعة السمك الذين انتقلوا من السوق الخاضع لأشغال الترميم إلى علب من الصفيح، منحوها لهم مؤقَّتاً لمواصلة العيش، كيف أصبحت هذه الوجوه بعد انتقالها من مكان إلى آخر؟ كيف احتفظت بأُلفتها، رغم أن سنوات طويلة تفصلنا عن آخر مرَّة رأينا فيها بعضنا؟ كيف تنطَبِعُ الوجوه في الذاكرة بتحوُّلاتها كلِّها التي لا نعرف عنها شيئاً، فتنبثق أمامكَ فجأة رغم حواجز الشيخوخة والتلاشي؟ أحبُّ كتابة شذرات من هذا النوع، أتوقَّف فيها

أمام تبدُّلات المدينة، متى أصبح الترامواي جزءاً من ملامح المدينة؟ كيف تغيَّر الجسد في علاقة مع استعمال الترامواي؟ بدا لي أنه تغيَّر، أصبح أكثر خفَّة وأقلّ توتُّراً، وربَّما أيضاً أكثر أناقة، ربَّما بسبب انتهاء عهد الزحام واللُّهَاث حول الحافلات المتداعية .. ربَّما لأن هناك ثقافة خاصَّة بالترامواي، لكونه يتزحلق بلا صوت ولا دخان، ولأن فضاءه النظيف يفرض نوعاً من الأناقة والتبرُّج، لأنه فضاء لقاءات غير متوقَّعة، وإغراء موعود، ومواعيد يمكن ضبطها على إيقاع مسافة تمتدُّ من حيِّ العرفان على مشارف تمارة إلى حيِّ كريمة في أطراف سلا. هل غيَّر «شكل الحجاب»؟ هل ابتكر لغة جديدة في المغازلة؟ أشياء كثيرة مثل هذه تثير حماسي للتأمُّل أو التعليق، وكلَّما فعلت ذلك وقرأته، أُمُّ كلثوم تقول لي: وما الفائدة من هذا الاهتمام بتفاصيل مُبتَذَلة، ما الذي يمكن استخراجه من التأمُّل في ظهور عربات عصير الفواكه الاستوائية في الشوارع، أو الدرَّاجات الكهربائية التي تَقطُر عربات لنقل الناس بين الأحياء، أو الأفارقة الذين يكنسون الأزقَّة مقابل تبرُّعات شحيحة للساكنة، أو غزو المحلَّات التجارية بورشات إصلاح وبيع الهواتف الذكية، أو انتشار الكلاب والجِرَاء من كلِّ نوع، ومحلَّات بيع مأكولاتها ووسائل تنظيفها وإيوائها! أو العيش على إيقاع ظهور القنافذ واختفائها وتحليقها في سماء المدينة .. إنها فقط طوارئ عابرة في حياة عابرة. ولكنني أرى ترك هذه الأشياء تستقرُّ بيننا على هواها بدون أسئلة يحوِّلها إلى ضَرُورَاتٍ» إضافية تُثقل كاهلنا، ثمَّ إنها ليست مظهراً خارجياً للمدينة، إنها تنمو كذلك في دواخل الناس، وتُغيِّرهم من الداخل، ومَنْ كان مثلي لم يركب الترامواي إلَّا بعد مرور سنتَيْن على ظهوره، سيكتشف أن المدينة غيَّرت سكَّانها في غفلة منه ..

وأخيراً ذهبتُ إلى والْمَاس. أجَّلْت كثيراً هَذِه العودة إلى المكان الأوَّل. كنتُ خائفاً من أن يكون قد اندثر، أو لحقتْهُ تشوُّهات، تقتلعه منِّي بشكل باتِرٍ. وكنتُ خائفاً أن أفقدَه مرَّة أخرى، وهذه المرَّة دونما إمكانية للحُلْم باستعادته. شيء لا يحصل إلَّا مع أمكنة الطفولة. نخبِّئها في أعماقنا طرية، فإذا عدْنا إليها بعد غياب طويل، نجدها فظَّة مُرَّة.

ُ

قلتُ لأمِّ كلثوم، نَذهب ليومٍ واحدٍ فقط، ثمَّ نعود مساءً، إذا لم يحدث شيء بيننا وبين المكان. خالي الأصغر هو الذي استقبلْنا في محطَّة سيَّارات الأجرة، كان بحُكْم تجربته الخاصَّة في انتفاضة العطش، وفي سنوات السجن التي أعقبتْهُ، لا يعرف الكلام إلَّا عن «عطش والماس». المنطقة، يقول، تدخلها كلُّ يوم مئات الشاحنات، لتُعبِّئ مياه الينابيع التي تبيعها الشركة، لكن المدينة ليس بها ماء، أو على الأصحِّ، يقطر خزَّانها على البيوت خيطاً شحيحاً، لا يكفي لإرواء ظمإ الساكنة. هذا هو الأمر، لا يريد أحد أن يتمرَّد على المخزن، ولا أن يقتل تجَّار الماء .. نريد فقط أن نشرب.

قبل أن نصل إلى بيت الخال الكبير، كان واضحاً أننا سنذهب في اليوم التالي للتفرُّج على «حقول الماء». الماء الفوَّار الذي يحمل اسم المنطقة والماس، والماء الآخر «سيدي

علي» الذي شملتْهُ حملة المقاطعة.

في بيت أرضي، له حوش مفتوح على الزقاق، اجتمع أخوالي الخمسة وزوجاتهم وأولادهم وأحفادهم في ما يشبه جمعاً «انتخابياً كبيراً»، وقد استغرق السلام عليهم وقتاً طويلاً، ثمَّ جاء دور الجيران، فاستغرق السلام عليهم وقتاً أطول، وخلال ذلك، لم أكن أعرف ما أفعل بنفسي. كنتُ منتشياً بوجود هذا العدد الهائل من الناس الذين تربطني بهم علاقة دم غامضة، إنهم شجرتي الكبيرة، أراها لأوَّل مرَّة بكامل أغصانها، ومعها لا يمكن أن أكون مجرَّد رَقْم في مدينة مزدحمة، أو حَنْجَرَة في مدرَّج مليء. معها أكون غصناً بفرع متِّصلاً بجذع متَّصلاً بشجرة، وفي قلب هذه الأجزاء المتفرقة كلِّها نُسْغٌ واحد.

ولكن انتشائي بهذا كلِّه لم يدم طويلاً، فقد تحوَّل شيئاً فشيئاً إلى أثقال خارجة عن السيطرة، خصوصاً عندما انتبهتُ متأخِّراً إلى أني وسط هذا الضجيج الذي زيَّنه حضور رجال السلطة، وبعض أعيان المدينة، كنتُ «الشريف» الذي جاء لزيارة أخواله، فجأة لم يعد لي اسم. صرتُ «هذا هو الشريف»، «سَلِّم على الشريف»، «الشاي للشِريف»، «زِدْ وسادة للشريف»، «أُعطِ للشريف»، «خُذْ

من الشريف» .. ذلك كلّه، وأنا أبحث بعينَيْن زائغتَيْن عن أمِّ كلثوم التي ابتلعها الزحام.

عندما هدأت الأمور مساءً، تمكَّنتُ من التفرُّس في ملامح أخوالي، وعثرتُ فيها على بعض التفاصيل من وجه أُمِّي، ولكنني تذكَّرتُ فجأة أن هؤلاء الرجال الذين زحفتْ على أجسادهم شيخوخة مبكِّرة كانوا، ونحن في الغابة أو بُعيدَ نزولنا منها إلى القرية، ضِخَاماً أشدَّاء، ثمَّ تقلَّصوا، ربَّما لأنهم لم يعودوا كائنات تمشي بين الأشجار، بل رجالاً منكفئين على التربة التي يشتغلون فيها، أو في معامل الماء المجاورة. حتَّى أصواتهم أصبحت خافتة، لأن البيوت القميئة التي يسكنونها لا تتحمَّل الأصوات الطليقة. تذكَّرتُ ما قرأتُ في تقرير ما عن كون المغاربة قد تمدَّدوا في العشرين سنة الماضية بنحو عشر سنتمترات، وقلتُ في نفسي: كان على أصحاب التقرير أن يُنقصوا من قياسهم ما تقلَّص من قامات أخوالي! خرجنا قبيل الغروب، أُمُّ كلثوم وأنا وخالي الأصغر حسن للقيام بجولة في القرية، وقبل ذلك رأيتُ النساء في الحوش مستغرقات في تحضير العشاء أمام قدور ضخمة، فأدركتُ أن الاحتفال بزيارتنا سيمتدُّ إلى الليل. القرية هادئة لم تتغيَّر معالمها كثيراً، هناك عدَّة بنايات جديدة، ولكنها لم تُضف روحاً مدينية على القرية، وهناك شوارع، وشيءٌ يشبه المركز، ومَع ذلك، فوالماس لم تعد والماس التي قضيتُ في أبهائها الخضراء طفولتي .. ولم أشعر بأيِّ فقدان جرَّاء ذلك. قلتُ إنه فقط مكان آخر بالاسم نفسه، وفيما لو نسجتُ معه أُلفة ما، ثمَّ فارقتُهُ، فإنني لن أجده بعد ذلك. جَدَّتي كان تقول «كلُّ شي على الولف» نعم، نحن مثل القطط، نألف الأمكنة أكثر ممَّا نألف الأشخاص.

قال خالي حسن ونحن نعود إلى البيت:

سترى غداً، الوديان التي كنَّا نمرح فيها بجداولها وبساتينها لم يعد لها أثر، «تجَّار الذهب الأزرق»، امتصُّوا المياه السطحية كلَّها، وجفَّفوا كثيراً من الينابيع. الشركة تقول إن التجفيف تقوم به الضيعات الكبيرة التي حفرت مئات الآبار، لتضخَّ منها كلَّ يوم بلا حساب، والضيعات تقول إن الشركة التي

تضخُّ الماء وتبيعه منذ ثلاثينيات القرن الماضي هي التي تجفِّف الماء الألوفي لهذه المنطقة .. ونحن بين هذَيْن الغُولَيْن نقضي الصيف بستّ عشرة ساعة في اليوم بدون ماء.

سألتُ خالي حسن: وهل خفَّفتْ حملة مقاطعة ماء سيدي علي من هذا الاستغلال الأحمق؟

قال حسن: في بداية الحملة، نعم، ثمَّ عاد الأمر لما كان عليه. وها هي طوابير الشاحنات التي تنتظر دورها للتعبئة تقول لا شيء تغيَّر!

في نهاية السهرة وقبل الخلود إلى النوم، فتح أخوالي معي موضوع الأرض. قالوا إن إخوتي من أبي جاؤوا وحَفَّظوا أرض الغابة، وأراضي البساتين، وحوَّلوا الأراضي الفلَّاحية التي دخلت إلى المدار الحضري إلى تجزئات سكنية، وما عليكَ إلَّا أن تذهب بسجلِّكَ العائلي إلى المحكمة، وتأخذ نصيبكَ. القبيلة كلُّها ستشهد أنكَ ابن الشريف، أو تذهب إلى إخوتكَ وتأخذ حقَّكَ منهم بالتراضي.

كان البيت خاوياً عندما استيقظْنا. كلٌّ ذهب إلى شغله مع الخيوط الأولى لفجر هذا اليوم. ولم يبقَ إلَّا خالي حسن الذي أصبح بعد خروجه من السِّجن الذي دخله بعد أحداث 1999، متفرِّغاً لجمعيات وحراك العطش».

بعد إفطار سريع، قامت أُمُّ كلثوم مستعجلة، فتبعتُها بدون تردُّد حتَّى صرْنا خارج البيت. وعندما قال حسن إن صديقاً سيأتي بسيَّارته، ليأخذنا إلى حقول استغلال الماء في «تارميلات» قلْنا بصوت واحد إننا نريد العودة فوراً إلى الرباط. ولم نلتقط أنفاسنا حتَّى مررْنا تحت الجسر المعلوم في حيِّ الفتح، وجلسْنا في المقهى الذي يُحبُّنا ونحبُّه. عندها قالت أُمُّ كلثوم:

- مَنْ يدري؟ ربَّما يجيء إخوتكَ ذات يوم للبحث عنكَ، كما في الأفلام، ثمَّ يأخذونكَ بالقوَّة، ليُنقذوكَ من العامَّة، ويعيدوكَ إلى «شجرة أسلافكَ

المنعمين».

قلتُ:

- ما كنتُ لأهتمّ بالأمر!

قالت:

- أنا خائفة عليكَ!

قلتُ:

- أنا أيضاً:

والواقع أن الخوف ليس مشكلة، كلُّنا نخاف من شيء أو نخاف عليه، المشكلة هي اكتشاف شخص يخرج من خوفنا، ويزيحنا بحركة عنيفة إلى الخلف، ليصبح هو ال- «نحن» كما يجب أن نكون، أيْ يصبح شخصاً لا يرى أيَّ ضرر في الاتِّصال بالأكابر. ظاهرياً لإنقاذ إبراهيم، وفعلياً لإنقاذ نفسه، ولا يجد غضاضة في التفاوض على الأرض، بل ولا يجد مانعاً من الذهاب إلى موعد مع شخص نافذ، رتَّبه مناضل «حراك العطش» خاله حسن، والاستفاضة في حديث شيِّق معه عن ضرورة تجديد النخب، وبثّ روح جديدة في اليسار، ومقاومة الظلاميِّيْن. هل هناك شيء ألطف من هذا الأفق التاريخي؟ وهل هناك دائرة نيابية أفضل من ولماس لدخول هذه المعمعة؟!

هل كنتُ سعيداً، ولم أعد كذلك؟ لا أعرف. أقنعتُ نفسي منذ أمد بعيد أن البقاء على قيد الحياة، يقتضي أن أُهرِّبَ نفسي إلى أصقاع بعيدة، لا يلحق بي إليها تاريخ شخصي، ولا إرث مشترك. وقد فعلتُ، وأَلْزَمتُ نفسي برغبات بسيطة، لا أتعذَّب كثيراً للحصول عليها، ولا أضجر كثيراً عند تحقُّقها. وانتهيتُ إلى الاعتقاد بأن الانتصار على العذاب والضجر وهما الحَدَّان اللذان يتأرجح بينهما الإنسان على الدوام حسب أحد الفلاسفة، يتوقَّف فقط على تعطيل الساعة، على إجبار بندولها على الخروج من دائرة الزمن، والتسليم بأن

التوقُّف هو، أيضاً، شكل من أشكال الأبدية. لذلك غَرَسْتُ نفسي في حيِّ الفتح. بُنْدُولاً مُعَطَّلاً يرى الساعات تمرُّ، ولا يشارك في إهدارها. تمرُّ بي السنوات، فأرفع يدي بالتحية، وأتركها تمرُّ، بلا

ندم ولا مراثي، إلى أن صَعِدْتُ خطأ إلى العربة التي تسافر عبر الزمن، فوجدتُ نفسي أُهَرِّب نفسي من جديد، وهذه المرَّة إلى المستنقع الذي حسبتُ أني نجوتُ منه.

هل تعرفان ماذا يفعل الشخص الذي يسقط في شيء يخجل منه ويرتعب من افتضاحه أو فقط، يصبح شخصاً، تعيساً، منكسراً، لا يشبه الشخص الذي كأنه دائماً؟

إنه يفعل أحد أمرَيْن:

إمَّا أن يقتل أعزَّ الناس إليه (زوجته وبنتَيْه مثلاً!) حتَّى لا يكتشفنَ العار المحيط به، وحتَّى لا يتعذَّبْنَ بانكساره، وإمَّا أن يُلقيَ بنفسه من الطابق الرابع، وقت عودة الموظَّفين، ليتفرَّجوا على الحطام الذي لا تنجح دموع العالم كلِّها في بعثه من جديد.

-4-

كما لو تكون رسالة إلى بريجيت

لا يُحَضِّر المرء نفسه أبداً بشكل كافٍ لمفاجئات الحياة. حتَّى عندا يزعمُ أنه حسم هذا الأمر بطريقة تكاد تكون ساخرة، بأن يترك الحياة تفعل ما تشاء، ويسمح لنفسه أن يفعل ما يشاء. ولو كان الأمر محسوماً، لكنتُ اكتفيتُ بتلك الجولة التي قمتُ بها في الغابة طمعاً في العثور عليكِ، هل كنتُ طامعاً بالفعل؟ هل كنتُ جادَّاً في البحث عن أثر لحذائكِ الرياضي؟ هل ارتعبتُ لفكرة العثور عليكِ قتيلةً، تمَّ التمثيل بها أم أنني كنتُ فقط أقوم بالطقس الذي ينبغي أن أقوم به، لأن ذلك ما يتوجَّب عليَّ أن أفعله حالما أدركتُ اختفاءَكِ؟ وإمعاناً في التمويه، لم أنسَ أن أحمل شالكِ الأحمر، لأغمركِ به ونحن نعود باردين، بسبب ريح المساء، وبسبب الصمت الذي يلفُّنا كضباب جليدي. وماذا تحسبين أنني فعلتُ بعد عودتي خاوي الوفاض، إلَّا من وخزة جاءتْني من أثر العجلات التي كانت خلف البيت؟ لقد اندفعتُ للأَكل بكلِّ ما أُوتيتُ من شَرَهٍ، وأنا تحت تأثير الوخزة أقول لنفسي، ما بالها تفعل هكذا؟ كأنها تقفز من النافذة، هروباً من وحش يطاردها. هل كانت مُجازفةً أن تخرج من الباب، وتمرَّ من الباحة، وتمضي واثقة أن ما تفعله لا يقلُّ جوهرية عمَّا فعلتُهُ عندما اعتنقتِ معي هذا المكان؟!

ثمَّ قضيتُ بعد ذلك ليلة بين النوم واليقظة، أي بين الغياب الذي يقضُّ مضجعي والتسليم بأن ما حصل كان ينبغي أن يحصل، إنه يكاد يكون تصحيحاً لخطإ في المسار. فما كانت وجهتي أبداً تكوين أُسرة، والبدء من أوَّل الورطة. كانت وجهتي هي التحرُّر من الروابط المتينة التي تُجبركَ على اليقين، وعلى الإقامة في وَهْم المخطَّط المُحكَم .. كانت وجهتي هي الانفراد بنفسي، بشكوكي وبحَيْرتي، بحاجتي إلى الروابط الهشَّة، تلك التي تسمح لكَ أن تنتقل في الحياة بين الأشياء والأشخاص والأمكنة بدون حروب مُدمِّرة، بدون خسارات ولا غنائم.

وإذن فقد كان ممكناً أن أستفيق في اليوم التالي خفيفاً، منشرحاً، لقد تولّت الحياة تلقائياً مهمَّة إرجاعي إلى الوجهة، وما عليَّ الآن سوى استئناف تمرُّدي على الصيغ الجاهزة. وقد حصل لي شيء قريب من هذا، نوع من الانتشاء بالوحدة مكَّنني من تخدير الغُصَّة لبضعة أيَّام، حتَّى جاءت أُمُّ كلثوم وسليمان، ثمَّ كانت جثَّة تلك المرأة التي استخرجها الدَّرَك من القناة التي نمرُّ فوقها كلّ يوم، والتي كادت أن تكون جثَّتكِ، وقد أَنْذَرَتْ بها قبل يومَيْن دموع أُمِّ كلثوم التي قصدت بها تعنيفي على ما اعتبرتْهُ بروداً في المشاعر، واستخفافاً بالتراجيديا، وما كنتُ لألومها في ذلك، ولو أني كنتُ أُفضِّل أن تَبكيكِ بلا زوائد كما فَعلْتُ مساء ذلك اليوم بحرقة بالغة، متكوِّماً في السرير الذي لم تعودي.. فيه ولن تعودي إليه، كمراهق يتولَّع من خيبته الغرامية الأولى .. وماذا بعد؟ هل ستفعلها وأنتَ على مشارف الخمسين؟ تنام محتضناً شالها الأحمر، وتقضي الساعات وأنتَ تحاول أن تنزعها من جلدكَ، فتكاد لا تنجح في بَتْر قطعة صغيرة حتَّى تعود إلى لحمكَ العاري محفوفة بالنزيف؟ لماذا أحاول ذلك ماشياً ومستلقياً، صامتاً ومثرثراً، غارقاً في ملكوت النحل أو في غموض الغابة، لماذا أحاول أن أنزعكِ من جلدي؟ أنتِ هذا الجلد كلُّه الذي يلزمني أن أخرج منه كما يفعل ثعبان يخرج من جلد، لم يعد جلده .. أعرف أنكِ إذا علمتِ بما يحدث لي، فربَّما عدلتِ عن فكرة الهروب. ستقولين إن رجلاً يعذِّبه الغرام لهذا الحَدِّ، لا يمكن أن يُهْجَر. وعند ذلك ستتخلصين من كلِّ ما في يدكِ، وتُهرعين إلى البيت الطيني، والواقع أنني لا أريدكِ أن تفعلي، لقد وقعتُ في غرام هذا العذاب اللذيذ، ولا أريد أن أستبدل به أيّ شيء، وفي ما لو التقيتُ بكِ مرَّة أخرى، صدفة أو عن سبق إصرار، بعد لحظة أو بعد سنوات؟ فستهجم عليَّ الأماكن كلُّها التي مارسنا فيها الحبَّ، والطُّرُقات التي مشينا فيها، والمطاعم التي ارتدناها، وهلوسات القنافذ، وأزيز النحل، ستأخذ هذه الأشياء كلُّها بخناقي، لتُطوِّح بي بعيداً عن

غواية العودة. سأقول لنفسي كم هي شهية وممكنة .. ولكنها لم تعد هنا، لقد صارت في حياة أخرى مقفلة الأبواب، ثمَّ ستهجم التفاصيل فيما بعد، بعد أن تكوني قد أدرتِ ظهركِ لي، ومشيتِ منهدَّة تحت ثِقَل هذا اللقاء، وقد انهار عليكِ كجدار كنتِ تمرِّين بجواره، أنا أيضاً سأكون منهدَّاً بهذا الزلزال المباغت،

ألوم نفسي على المجيء إلى المدينة، وعلى المرور المريب من أكْدال، حيث يُحتمَل أن تخرجي من عيادة القطط السمينة، وتذهبي إلى موقف السيَّارات، في الجانب الآخر من الطريق، حيث يُفترَض أن أمرَّ في تلك اللحظة بالذات، بينما لا يُفترَض شيء بخصوص شخص مجنون، يُهرع في ذروة عذابه الغرامي إلى موقع اللقاء الأوَّل، هناك حيث بترتِ ساق (يَنْسِي). يا للغرابة! بَتْرٌ بِبَتْرٍ! ها نحن متساوون في الحبِّ! متساوون في الإعاقة! أقول ستهجم التفاصيل، ليس في تلك اللحظة، وليس في أيَّة لحظة محدَّدة، بل على شكل تسرُّب بطيء، لا نرى منه شيئاً في الوهلة الأولى، حتَّى تتشكَّل البحيرة، ويصبح للنفس أعماق وشطآن.

كان يوماً ربيعياً صافياً. ذاك اليوم الذي عاد فيه أخي الأكبر دركياً حديث العهد «بالكسوة». دخل دوار الضبابة في ساعة الظهيرة، حتَّى يتجنَّب زحام العناق والقُبل والعيون الحاسدة، كم كانت أُمِّي سعيدة لو دخل أخي ببذلته الرسمية وسط الأهازيج والزغاريد، إذا خَجِلْتَ من الدوار، فقد خجلتَ من أُمِّكِ، تزاحم الأطفال والنساء والرجال الذين انتزعهم الخبر من القيلولة، وبكت أُمِّي، لأنها رأت ابنها البِكْر في هندام المخزن، ولأنها أخيراً يمكن أن تنتزع ابتسامة رضى من المرحوم، وبكت خصوصاً لأن ابنها الذي لا يخفي تأفُّفه من العناقات التي لا تنتهي، لم يكن ينوي البقاء طويلاً، ولو حتَّى لغداء «الفخر العائلي» .. إنه هنا فقط ليقول لها اجمعي الأغراض، سنغادر هذا المكان، وهذا المكان ليس له اسم، ليس له وجه، وليس فيه أحباب، ولم تكن لنا فيه حياة وفصول وأحلام! وعندما أفزعها ما سمعتْهُ منه، همس لها: ما لكِ؟ ألم تكن هذه هي رغبة المرحوم؟ .. نعم، نعم، كان يردِّد ذلك صباح مساء، سنذهب إلى مكان آخر، ذات يوم سنذهب إلى مكان، نستطيع أن نرى فيه كلَّ شيء بأعيننا المفتوحة دون أن نخجل من شيء .. ولكنْ، ما الذي يعطي الحقَّ للموتى في التسلُّط على حيواتنا، وتنظيم علاقة الحبِّ أو الكراهية بالأمكنة، وخصوصاً ما الذي يسمح لشخص تلمع أزرار بذلته الجديدة بأن يقتلعَني من حياتي، وبالضبط من قصَّة غرامي الأوَّل، وقد كان صاعقاً قوياً جميلاً مبهجاً، ليحوِّله إلى رماد، يقف في حلقي حتَّى اليوم؟. كما يقف رمادكِ أنتِ، ولو أني لا أحبُّ فكرة احتراقكِ، أُفضِّل أن تكوني فقط قد تناثرت كما تفعل الأزهار عندما تشبع من الشجرة.

يجب أن لا تثيركِ كثيراً قصَّة غرامي الأوَّل، فهي لم تكن سوى هُيام هادئ بين مراهق ومراهقة، ولكن الحاجة إلى عذاب غرامي رفعتْهُ إلى مقام عشق، يخترق الأزمنة. ذلك ما حصل منذ البداية، حتَّى قبل اقتلاعي من الدوار، فقد نَحَتُّ ذلك العشق، وأوقدتُ له شموعاً، ونثرتُ عليه قصائدي الأولى، وقرَّرتُ حتَّى عندما نأيتُ عن المكان الذي أَنبتَنا، وعن البنت التي كانت ترقص عند «السقاية» والبنات يضربنَ لها على علب البلاستيك التي ستفقد جرسها عندما تمتلئ بالماء، أن لا تكون في حياتي امرأة، ولا انخطاف، ولا اشتهاء، ولا حبَّ إلَّا إذا كان من هذا النبع الأوَّل، مهتاجاً خجولاً عَذْباً، يكاد يرجع أدراجه، إذا صادف قسوة في الطريق.

وكلُّهنَّ كنَّ على إيقاع النبع الأوَّل، على الأقلِّ في اللحظات الأولى، عندما يبدأ التهجِّي بالحروف التي تريد الإمساك بالمشاعر، وهي بنفسها حروفاً ما تزال .. ثمَّ تبهت الحكاية كما يبهت خيط الماء الذي تجفِّفه الوديان القاحلة والمسافات. وقالت زوجتي مرَّة، الأنهار هكذا، تجفُّ وتفيض، تعرف أن هناك نبعاً بعيداً ربَّما يعيد ارتباطه بها ذات يوم، وقالت أيضاً: أنتَ تريد أن تبقى حيث يفور الماء عند انبثاق النهر، ولكن النهر ليس هناك، إنه في المسافة التي يقطعها متدفِّقاً أو ناضباً، حقيقياً أو مجرَّد مجاز. كانت زوجتي تقول هذا ولا شكَّ أنها حفظتْهُ عن ظهر قلب من كتاب قرأتْهُ، عندما تراني أتعثَّر في جفاف النهر، فأنكفئ على نفسي، وأردِّد: لا لا لا .. هذه ليست حياة على الإطلاق، وما هي الحياة؟ تصرخ زوجتي، هل

تستطيع أن تقول لي ما هي الحياة؟ وماذا تكون قبل أن تصير حياة كلب .. أو فقط حياة و «ليست حياة»؟.

كلُّهنَّ كنَّ على إيقاع النبع الأوَّل إلَّا أنتِ. جئتِ من ماء جوفي بعيد الغور، وكنتِ ماء مضطرباً مثل ماء البئر الأوَّل، الذي بدا لي مضبَّباً غير سائغ، ثمَّ رشفتُ رشفة أولى وثانية، وقلتُ ربَّما ليس ماءً بعد، جنين الماء، ملتبس الملامح، متواري الطعم،وربَّما لن يكون أبداً ماءً أشربه، بل تشربه الأشجار والمزروعات. وإذا صفا، فسيحتفظ دائماً بنكهة الطين وأملاح الولادة، خطأ

فادح في التقدير، النبع نبع حيثما كان، على السطح، أو في جوف الأرض، ما إن يستقرّ في تدفُّقه حتَّى يصبح تركيباً معقَّداً من الموادِّ والأصوات والحركات. رشفة أولى، ثمَّ ثانية وثالثة، وذات صباح فتحتُ عينَيَّ، وسمعتُ رقرقة ماء قريب، كنتِ نائمة جنبي في سرير البيت الطيني، وكان يقيني المطلق لحظتها أن النبع الذي أسمعه ليس شيئاً طارئاً أو عابراً، إنه لحظة من الأبدية، وجوهر سيبقى معي حتَّى آخر رمق، وبعدها سيظلُّ محلِّقاً إلى الأبد، شكلاً آخر من وجودي، لقد عثرتُ على الجوهر، ولو لم أفعل، لَمَا صرتِ جزءاً سرمدياً من حياة سرمدية، بل مجرَّد جزء من فناء، إذا صحَّ أن يكون للفناء أجزاء.

هذا هو الهُرَاء بعينَيْه.أليس كذلك؟ كيف نسمح لأنفسنا بهذا البناء البابلي طمعاً في السراب. مع ذلك عليَّ أن أعترف لكِ أنني مازلتُ أسمع رقرقة الماء كلَّما أفقتُ، لقد ذهبتِ «وظلَّ الماء يقطر فوق ماء»(2).

يقول سليمان إن بريجيت أصابها ضجر السعادة، ولكنها ستكتشف سريعاً أنه أفضل بكثير من ضجر الشقاء، إنها عائدة حتماً، لكن الأهمَّ هو أن تعود أنتَ. أعود من ماذا؟؟ ومن أين؟؟ هناك أشياء إذا انتهت فقد انتهت، لا يمكن إعادة تعبئتها أو استبدال قطعتها الفاسدة، ومنها هذه العلاقة. هل تظنُّ أن بريجيت تلعب، تجرِّب إضافة بهار لاسع، لاستنفار طعوم الحبِّ؟ كلُّ شيء حصل مع بريجيت كان مزيجاً مُحكَماً من الصدفة والقَدَرية، كلُّ شيء كان يمكن أن لا يحدث أبداً. وكان لا بدَّ أن يحدث! حادثة (يَنْسِي)، الوقوع في الحبِّ، العيش في الغابة، خروج وحوش من أحشاء الخرافة، عودة منال، اضطراب المعنى .. كلُّ شيء كان ممكناً تجنُّبه، وكان مستحيلاً عدم الوقوع فيه، وإذن، يقول سليمان، فإنه بناء، بناء مُحكَم، وهذا البناء لم يكن ممكناً بدونكما معاً، ولذلك فالحياة ليست ممكنة بدونكما معاً!

يا فيلسوف حيِّ الفتح، دَعْكَ من هذه التقابلات المفتعلة. الحياة حكاية فردية بحتة، حتَّى لو شاركتَها مع الآلاف، فإنكَ إذا خرجتَ منها، فلن يسعفكَ أحد من أجل العودة إليها. ولكنْ، إذا شئتَ أن نبقى في الصيغ الفضفاضة: لا شيء يبدأ ولا شيء ينتهي. سأستعير لكَ من شاعر أعرفه قولاً، يزعم فيه أن «العلاقة

هي التي تنتهي، وليس الحبّ». ثمَّ إني أقول لسليمان، وفي الواقع فإنني أخاطبكَ، لم يكن ليصحبني أحد إلى حيث أمضي، ولا حتَّى أنتَ. سأُكمل هذا المسار وحيداً كما ينبغي لي. لم تكن فكرة سيِّئة أن تذهبي، كما لم تكن فكرة سيِّئة تلك التي خطرت لي وأنا أعود من البنك في أوَّل المساء، منهكاً، خاوياً، فقلتُ لنفسي وأنا أدخل المَرْأَب، ولماذا لا أترك كلَّ شيء؟ فأجبتُ نفسي على الفور: سأترك كلَّ شيء! قيل لي، مرَّات كثيرة، إنها لم تكن فكرة ناضجة. ولكنني على يقين بأنني لم أُنضِج في حياتي فكرة كما أنضجتُ فكرة هذه القطيعة. منذ اللحظة التي غادرتُ فيها دوار الضبابة وأنا أُنضِج في قرارة نفسي فكرةَ العودة إلى شيء ما والتخلُّص من حياة ما، حتَّى قبل أن أكون في شيء أعود منه أو في حياة أتخلَّص منها. عايشتُ أحداثاً كثيرة كانت تمرُّ جنبي، موازية لحياتي الشخصية. أراها بعين الطفل الذي ما زال يسمع صوت المطر على سطح الصفيح. مهما حدث، ومهما انفجر من أوضاع كنتُ أدير وجهي حتَّى لا أرى شيئاً، ولا أرى أحداً سوى وجه أُمِّي الأرملة التي كانت تُعينني بأُمِّيَّتها القاحلة كلِّها على إنجاز فروضي المدرسية، إذا طال بي العُمُر، سأشارك عندما أبرأ من أوجاع الوضاعة في ثورة

ما، أليس لكلِّ واحد من الخلق نصيبه من ثورة أو من أوهامها؟. حتَّى كان اليوم الذي قلتُ فيه لنفسي: ولماذا لا أترك كلَّ شيء؟ بربِّكَ، هل استطاعت الماركسية أو القومية أو حتَّى الظلامية الدينية أن تفعل شيئاً بهذا الحسم الثوري؟ الثورة الوحيدة التي تستحقُّ هذا الاسم هي التي يقوم بها فرد واحد ضدَّ العالم أجمع!

إنني ذاهب أيضاً، بالفعل، وليس مجازاً، يا صديقي .. يؤسفني أن لا أكون هنا عندما تنتهي من وضع العالم في دفتركَ الكبير، سأقوم بالرحلة الكبيرة، ليس داخل النفس، فلستُ مجنونا لهذا الحَدِّ، ولكنْ، في التراب الحَيِّ، من رواء زمور، إلى شغاف تادلة، إلى صفاء بني مجيلد، وربَّما عرجتُ على زرهون، لأمشيَ على خُطى ماجوريل وهو يرسم القصبة، فإذا أفلتُّ بجلدي من هذه الأمكنة الصاعقة كلِّها، فربَّما وصلتُ ذات مساء إلى ضفاف وادي بهت،

وسألتُ نفسي: هل حقَّاً سأعود إلى الغابة؟ وأين الغابة؟ أين مَنْ ما يزال قادراً على العودة إليها؟

---

(2) من بيت شِعْري لأبي نوَّاس: «فغاب الوجه منها تحت ليل - وظلَّ الماء يقطر فوق ماء».

-5-

بعد مرور الأسابيع الأولى، لم يعد إبراهيم يعرف الأيَّام ولا الشهور. كان يعرف أن فصل الصيف ما يزال حاضراً، ولكنه لم يدرك شيئاً من تقلُّباته، وخمَّن ذات يوم وقد شعر بتقلُّص النهار وانخفاض حرارة الليل، أن الخريف قد وصل، وأنه بذلك يكون قد أمضى في هذا المعتقل نحو أربعة أشهر. كانت عادة الحُرَّاس أن يجيبوه كلَّما سألهم عن اليوم بالقول إنه يوم جُمُعة، فإذا سألهم عن الشهر، أجابوا: وماذا يعنيكَ من الأمر؟ عندما يحلُّ رمضان سنُخبركَ، وكان هذا الجواب يقهره، لأنه صام رمضان قبل فترة وجيزة، وتصوَّر من كثرة ما استطال أنهم جعلوه يصوم شهرَيْن، إلى أن جاء أحد الحُرَّاس بفطائر وحلويات، قال إنها من بيته بمناسبة عيد الفطر. ثمَّ سمع حارساً يقول لرفيقه بما أن عيد الفطر صادف يوم الجُمُعة، فإن عيد الأضحى سيكون هذه السنة يوم جُمُعة أيضاً، ثمَّ عرف أن الشاف (وهذا هو اسم الحُرَّاس كلِّهم) لا يكون في الخدمة سوى يومَي السبت والأحد، وتبعاً لذلك، فإن الشاف الذي بعده هو يوم الاثنَيْن، والذي بعده هو يوم الثلاثاء، وبذلك صار الحُرَّاس أيَّاماً معلومة، والأيَّام حُرَّاساً بلا أسماء.

لمرَّات عديدة قيل له، ستُحال على التحقيق قريباً، عندما تنتهي منكَ «المخابرات». ولكن «المخابرات» تنساه مدَّة طويلة حتَّى يقول: «خلاص، لقد انتهوا منِّي»، ثمَّ تعود إليه، وتبدأ من جديد، أحياناً تعود إلى مواضيع سبقت معالجتها، فتقلبها كما تقلب تربة لتخصيب السيناريو. وأحياناً تضع شيئاً جديداً على الطاولة، شيئاً مُفزِعاً صاعقاً، يظلُّ إبراهيم تحت وطأته لعدَّة أيَّام. ومن ذلك ما حدث بُعيدَ عيد الأضحى عندما أتى فريق البحث، وشرع، كما هي العادة، في التفكيك والتركيب.

بدأت «الجلسة» بإخبار إبراهيم أن منال بنت بريجيت قد وضعت شكاية لدى النيابة العامَّة بالرباط بخصوص اختفاء والدتها في ظروف غامضة، وبإخباره، أيضاً، أن الخارجية الفرنسية دخلت على الخطِّ لمعرفة ما حصل لمواطنتها.

- في الجلسة الأولى، قلتَ إن بريجيت ربَّما تكون قد ذهبتْ عند ابنتها بباريس.

- توقَّعتُ ذلك، لأن بريجيت بعد استعادة العلاقة مع ابنتها صارت شديدة التعلُّق بها، وربَّما فكَّرتْ أن تدير ظهرها لكلِّ شيء، حتَّى لعلاقتنا، وتلحق بابنتها لاستدراك ما فات، هذا ما فهمتُ.

- هل أشارتْ لشيء من هذا القبيل أم أنكَ فقط «فهمتَ»؟.

- لم تقلْ شيئاً، لكنْ، كانت قبل ذهابها تعيسة جدَّاً .. كأنها لا تعرف هل تذهب أم تبقى؟

- ولكنكَ عندما ذَهَبَتْ لم تفعل شيئاً .. لم تتَّصل بابنتها مثلاً، ولم تبلِّغ السلطات عن اختفائها.

- تحاشيتُ أن أبدو معترضاً على قرارها .. ثمَّ إنني كنتُ مصدوماً، كنَّا في علاقة حبٍّ قوية، ونسجنا معاً عبر النحل والغابة والقنافذ علاقة بالعالم، فجأة خذلتْ كلَّ شيء، وتركتْني... بدا لي الأمر سُخفاً، لا يستحقُّ المجادلة.

- كنتَ غاضباً منها إذن.

- ليس منها حصرياً، من الوضع كلِّه، من ذهابها، من بقائي وحيداً، من كونها لها «طفلة»، ومن كوني بلا أطفال ..

- من السهل أن نتصوَّر عندئذ أنكَ فعلتَ شيئاً أكثر حسماً من مجرَّد الحديث معها ..

- مثل ماذا؟

- مثل قَتْلها!

- إنه تصوُّر مجنون.

- ليس لهذا الحَدِّ، منطقياً قد يؤدِّي الخوف من خسارة شخص إلى الإقدام على تصفيته تفادياً لقساوة الخذلان.

- لم تُراودْني الفكرة على الإطلاق .. أحبُّها حَيَّة مهما فعلت بي.

- في يوم اختفائها، قضيتَ وقتاً طويلاً في الغابة.

- بعد اختفائها مباشرة، ذهبتُ طمعاً في العثور عليها تتمشَّى في المسار الذي ألفنا المشي فيه .. ثمَّ عدتُ يائساً عند غروب الشمس.

- وبعد ذلك، رجعتَ حسب شاهد عيان بشال أحمر لبريجيت.

- لم أرجع به، بل ذهبتُ به، تحسُّباً لحاجتها إليه، عندما يبرد الجوُّ ..

- إذا لم تكن قد قتلتَها شخصياً، هل تُقدِّر أن لها «أعداء» في المنطقة قد يفعلون ذلك؟

- من الجائز أن يكون لها أعداء، فقد صوَّرتْ مساحات كبيرة مسروقة داخل الغابة، ونشرتْ صور أشجار مقطوعة، وأدَّى ذلك إلى التحقيق مع تجَّار الغابة، ومع رئيس الجماعة، ثمَّ أثبتت أن الرئيس هو، أيضاً، «مستغل غابوي» يشتري بواسطة «أقنعة» من أقاربه من الجماعة التي يرأسها المقاطع المعروضة للبيع، وبعدها يتوسَّع على هواه في المقاطع المجاورة.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- تداخلت هذه الفضائح مع نزاعات قبلية في المنطقة أدَّت إلى اعتقال الرئيس ومحاكمته.

- هل تتَّهم الرئيس إذن باختطاف بريجيت أو بقتلها؟

- لا أتَّهم أحداً، فقط أفكِّر بمَنْ يمكن أن يحقد عليها...

- لنعد إلى اليوم الذي اختفت فيه، قلتَ إنها كانت تعيسة ماذا تعني بذلك؟.

- تعرَّضتْ لنوبة اكتئاب مفاجِئة، بعد عودة ابنتها منال إلى باريس.

- هل تحدَّثتُما في الموضوع؟

قليلاً، ذكرتْ أنها تحسُّ بتأنيب الضمير تجاه ابنتها، لأنها لم تبذل مجهوداً لتفهُّمها، وأنها تخاف أن لا تغفر لها ذلك أبداً.

- كيف تفسِّر إذن أنها لم تلحق بابنتها كما توقَّعتَ؟

- لا أعرف، ربَّما خافتْ، ربَّما تكلَّمتْ معها وشعرتْ أنها لا تريد ذلك، وبعدها قد تكون

سافرت بالفعل، لأنها لا تجرؤ على العودة إلى الوراء، لا أعرف.

- هناك احتمال أقلّ تعقيداً من هذا كلِّه، أن تكون قد عثرتَ عليها قي تلك الجولة، وقتلتَها، ورميتَ جثَّتها في بئر من تلك الآبار المهجورة.

- ما أعرفه هو أن هذه القضية الجديدة ستبدو أقلّ عبثاً من قضية تتعلَّق بالقنافذ الطائرة.

- سيكون الأمر كذلك، إذا قلتَ لنا أين ألقيتَ بالجثَّة؟

منذ هذه اللحظة من التحقيق، سيدخل إبراهيم نفقاً مظلماً من الأوجاع والشكِّ والألم، فقد انبثقت أمامه فجأة صورة بريجيت، كما كانت مُنكبَّة في أوَّل لقاء لهما على (يَنْسِي) تعالج ساقه المتعفِّنة، وتذكَّر أن تلك السكينة التي كانت تشعُّ منها هي التي مسَّت شغاف قلبه أوَّلاً، وبعدها لم يفعل شيئاً سوى أن أَسْلَم نفسه لذلك «السلام» الذي كانت تبذله رقَّتها في الحبِّ، كما في تفاصيل الحياة اليومية، كان سلاماً عميقاً يكتنف جسده وروحه حتَّى إنه ليغفرَ

للحياة وهو يستعيد ضرباتها الموجعة كلّها، بما في ذلك كونه لم يتعرَّف على بريجيت إلَّا متأخِّراً، ولو كان عليه، لَمَا فتح عينَيْه منذ جاء إلى الحياة إلَّا على وجهها مضاء بتلك الرغبة في فعل شيء يُنقذ العالم .. وقد كانت تُنقذني بالفعل، يقول إبراهيم، في كلِّ يوم مئات المرَّات، كنَّا نقضي في البيت الغابوي أيَّاماً متتالية، لا نفعل شيئاً سوى الدوران على أنفسنا ككوكبَيْن يسبحان في الأبدية، نفقد بعضنا، ونعثر على بعضنا بتوالٍ، يشبه توالي الليل والنهار، نمرُّ من لحظات بلُّورية، لا يبقى فيها للجسد معنى، ثمَّ نمرُّ من لحظات طينية، تخلقنا فيها الشهوة، كأننا نعود إلى صيغتنا الأولى، ونبدأ من وقتها في التهام بعضنا تحسُّباً لِمَا سيصير عليه العشق بعد عصور من تطوُّر الفقاعة. ماذا سيفعل القتل في هذه الحالة؟ هل أكون قتلتُها بالفعل دون أن يَحدث ذلك خارج طقس الحبِّ؟ هل يعرف المحقِّقون شيئاً لا أعرفه أم أنني أستدرجهم بأجوبتي المتذبذبة إلى المكان الذي نسيتُهُ؟ وها أنا أمشي معهم في حشد من الأعوان والمصوِّرين، لأُمثِّل وقائع الجريمة، هل الباحة التي صنعها البيت الطيني وظلَّلتْها شجرة الفِلِّين الضخمة لا تليق بهذا المشهد الفخم، الجميلة بشالها الأحمر ترتاح في كرسيِّها الهزاز، والوحش ينحني بحنو بالغ، ليغمرَها .. ثمَّ تضغط راحته الكبيرة على أنفاسها، وينتهي كلُّ شيء؟ هل كان التمثيل متقناً؟ وأين المكان الذي نسيتُهُ؟ هل يوجد في الباحة أم في غرفة النوم أم في البستان الصغير بين أشجار الفاكهة أم في الممرِّ بين مقطع الميموزا وغابة الفِلِّين الجديد؟ بعد ذهاب المحقِّقين، سيقضي إبراهيم وقتاً طويلاً. يحاول أن يتذكَّر المكان الذي دفن فيه جثَّة بريجيت، قتيلته الجميلة. لا بدَّ أن يقول لهم في المرَّة القادمة شيئاً يقودهم بسهولة إلى رُفاتها. ليس معقولاً أن يحفروا هذه الأمكنة كلَّها بحثاً عن رُفات مستحيل.

انتظرهم طويلاً هذه المرَّة، انتهى الخريف بأيَّام ممطرة كتلك التي كانت تصادف الدخول المدرسي أيَّام صباه، وتمتدُّ حتَّى تغطِّي العطلة الشتوية، أمطار رتيبة مسترسلة، لا تتوقَّف إلَّا لتعودَ بأشدّ ممَّا كانت عليه. لم يكن المعتقل بناية سجنية ضخمة كتلك التي كان يسمع عنها أو يقرأ عن هندستها الداخلية المروِّعة، كان عبارة عن غرفة بحمَّام وأثاث نظيف بدون نوافذ، لها باب حديدي من قضبان، تسمح بدخول الضوء والهواء، وبين الباب والسور

الأبيض العالي الذي يقابله ممرٌّ، لا يتعدَّى متراً ونصف، ومن قعدته على السرير، كان إبراهيم يرى الحُرَّاس والمطر الرتيب، ولكنه لا يستطيع رؤية السماء. وعندما يُطفِئ الحُرَّاسُ الضوءَ من زرٍّ يوجد خارج الغرفة، كان يرى ضوءاً قوياً يشعُّ من خلف السور، وقد فهم بسرعة أنه ضوء كشَّافات تُنير ملعب كرة، وكثيراً ما كان يسمع صخب اللعب وهتاف المتفرِّجين. وأحياناً أخرى كان يسمع صهيل خيل وأصوات ركض، ومن ذلك كلِّه استنتج أنه ربَّما يوجد في ملحقة بالمركب الرياضي الأمير مولاي عبد الله قريباً من منطقة تمارة أو في غرفة من غرف الحُرَّاس بملعب الفتح الرياضي. كان سعيداً بهذا المطر الذي

لا ينقطع، ويقول في نفسه لقد عاد الشتاء كما كان في تلك السنوات البعيدة، ليرافق ما يحدث لي، هل سيكون شتائي الوحيد في هذا المكان أم أن الفصول ستتابع وتتكرَّر دون أن نصل إلى نهاية الكابوس؟ ثمَّ انتبه ذات يوم إلى أن النهار قد أصبح أطول من الليل، ومعنى ذلك أن فصل الشتاء قد رحل دون أن يأخذ معه أمطاره الغزيرة، وعندما رأى الشمس بعد ذلك بأيَّام تغمر الممرَّ وتثير في الحُرَّاس مرحاً غير مألوف، انتابه شعور قوي بالحسرة، فقد تذكَّر البيت الغابوي، وبستانه الصغير وأشجار الفِلِّين المغسولة، وتألَّم أن لا يكون هناك، ليرى التربة الرملية الحمراء تنسحب في كلِّ يوم لصالح تنويعات لا نهائية للأخضر المبهِج. ثمَّ تذكَّر بريجيت تستيقظ قبله ربيع السنة الماضية، وتقول إنها سمعت أوَّل تغريد لطائر السمان هذه السنة، وَدَعَتْهُ لإرهاف سمعه، فالتقط نداء ذَكَر السمان، ثمَّ جواب أُنثاه، وتكرَّرت النداءات، وتشابكت الأصوات والألحان حتَّى لكأن الكوكب كلَّه استفاق فجأة بعد ليل طويل .. وقالت بريجيت حينها إنها تأسف لكون الإنسان لا يُغرِّد مثل العصافير، وغمرتْهما تلك الأصوات القادمة من الغسق، فالتحما استجابة لسمفونية اليقظة الأولى للخليقة، حتَّى دخلت خيوط الشمس الأولى من النافذة، فاشتبكت مع الأصوات الشجية لكائنَيْن ينفلتان من جسدَيْهما. وبعد صمت مناسب لتلك الإضاءة العارمة، قالت بريجيت: - ها نحن قد غرَّدْنا كما تفعل العصافير!

تذكّر إبراهيم، بكثير من الشجى، لحظات الإقامة التي لم تكن ترتطم بالباب الحديدي، ولا بالسور الأبيض العالي، لحظات تشبه الولادة، كلُّ شيء يبدو معها فسيحاً بلا حدود، ومبهماً مطلق الغواية. الحياة لحظتها تشبه لوحة متعدِّدة الرؤى، تتناسب إيحاءاتها بقَدْر الحركات البادية والمضمَرَة التي وَضعت بها اليدُ بداياتِ الأشكال ونهاياتِها، بحيرة من احتمالات شتَّى، ولقاءات ومواعيد خاطئة. هل تكون بريجيت قد استجابت لنداء تلك الولادة، فَسَحَبَتْ نفسها بهدوء، وفرَّت من الأَسْر؟ إذا لم تكن قد ذهبت عند ابنتها، ولم يقتلها أحد، فأين اختفت؟ إلَّا أن تكون قد تبعت سحر العناصر، من شجرة إلى شجرة، ومن هضبة إلى أخرى، ومن واد إلى آخر حتَّى ذابت كما يذوب الملح في الماء. ولكنْ، كيف السبيل إلى إقناع المحقِّقين بأن هذا الأمر ممكن، وإنساني، ومنسجم تماماً مع قوانين الحياة القائمة أصلاً على تفاعلات مدهشة؟ كيف يمكن إقناع المحقِّقين بأن اختفاء شخص ما لا يعني بالضرورة اختطافه أو مقتله أو انتحاره؟ وماذا نفعل بالاحتمالات الأخرى؟ولماذا لا يكون ضمن حقوقنا الأساسية الحقّ في الاختفاء، والحقّ في اليأس، والحقّ في الخيبة؟ ولماذا لا تكون بريجيت قد لجأت إلى قبيلة من القنافذ، فَتَبَنَّتْهَا، وصارت واحدة منهم، ترانا نتعثَّر في «حقائقنا العرجاء»، وتضحك منَّا ومنها؟

-6-

جاء المحقِّقون أخيراً، كان ذلك، حسب تقدير إبراهيم، بعد استقرار فصل الربيع على إيقاع عواصف رعدية وأمطار قوية متقطِّعة، ووصول النسائم الأولى للصيف محمَّلة بصفاء ماي (نيسان) وخفَّته الناعمة. كانوا أربعة أشخاص هذه المرَّة، وعندما رأى إبراهيم الشخص الرابع، قال في نفسه إنهم تأخَّروا، لأنهم كانوا يبحثون عن شخص بهذه المواصفات المرعبة. لا يتعلَّق الأمر فقط بحجمه وضخامته، بل أيضاً بتعبير وجهه الذي يفضح توجُّعاً مُزمناً، لا يتناسب إطلاقاً مع قوَّته المشهدية.

في اللحظات الأولى لوصول فريق التحقيق، شعر إبراهيم بتغيير كامل في المعاملة، وفي منهجية العمل، فقد تبسَّطوا معه في الحديث، وطرحوا عليه أسئلة متعاطفة، تهمُّ صحَّته وظروف اعتقاله، قبل أن يقترحوا عليه الخروج لإكمال الحديث في الحديقة.

لم يكن إبراهيم يعرف أن هناك حديقة، لذلك فقد فُوجئ كثيراً عندما انعطفوا به يمين الممرِّ، ليجد نفسه في حديقة فسيحة، وقد وُضعت في وسطها طاولة وكراسي، ووُضعت عليها صينية شاي وصحون حلوى. رفع إبراهيم رأسه، فرأى السماء لأوَّل مرَّة منذ وصوله قبل شهور إلى هذا المكان، فكأنما أحسَّ أن السماء أصبحت في متناول يده، ولعلَّه تأثَّر لذلك حتَّى دمعت عيناه، فنطق الشخص الرابع بصوت معدني، اهتزَّ له جسده كلُّه.

- كلُّ شيء سيكون على ما يرام، كلُّ شيء سيكون على ما يرام.

قال ذلك وهو ينظِّم الجلوس إلى المائدة، ويعرض صحون الحلوى بإلحاح مبالغ فيه، وعندما استقرَّت الأمور تناول الكلمة كبير المحقِّقين:

- أين وصلنا في المرَّة الأخيرة؟

- قال إبراهيم:

- إلى جريمة قتل .. وكان عليَّ أن أخبركم بالبئر التي ألقيتُ فيها بجثَّة بريجيت.

ضحك المحقِّقون، باستثناء الشخص الرابع.

- لا جثَّة ولا بئر ..

- وجريمة القتل؟

- لا شيء .. لا شيء. بريجيت حَيَّة ما تزال، وقد عادت إلى عيادتها ..

- وماذا قالت؟

- قالت إنها سافرت لتفكِّر بطريقة أفضل!

- خسارة، كنتُ قد وجدتُ المكان الذي دفنتُها فيه!

- على العموم، ليس ضرورياً أن نقتل أحداً حتَّى ندفنه.

قال الشخص الرابع إن هذا التحقيق له طابع خاصٌّ جدَّاً، لأنه مُتابَع من قِبَل الدوائر العليا .. ثمَّ رجع إلى سَحْنَتِهِ المتوجِّعة.

وعند ذلك، قال كبير المحقِّقين، إن الهدف من التحقيق هو الوصول إلى حلول ترضي الجميع، وليس إلى مجرم نضعه في قفص الاتِّهام .. ثمَّ أضاف:

- لقد تعوَّدنا على التحقيق مع أشخاص مخاتلين، لهم أكثر من وجه، وأكثر من جواب ملغوم، لكنكَ شخص مختلف، تورَّطتَ في أوضاع خطيرة جدَّاً، ولكنكَ احتفظتَ بروح خالية من الشوائب، ولم تحاول المراوغة ولا الافتعال في أجوبتكَ .. لذلك نريد الآن أن نصل إلى النهاية.

- نهاية ماذا؟ سأل إبراهيم.

قال كبير المحقِّقين:

- نهاية المتاهة بالنسبة إلينا، وربَّما نهاية الكابوس بالنسبة إليكَ.

فتح أحد المحقِّقين حاسوباً محمولاً، كان أمامه، ونظر صوب إبراهيم:

- إنه لكَ، فتحناه لضرورات التحقيق .. ولكنْ، لم نُتلف أيَّ شيء. بإمكانكَ التأكُّد بنفسكَ.

لم يُبدِ إبراهيم أيَّ ردٍّ فعل، فقال كبير المحقِّقين:

- في الجلسة الأولى، سألناكَ عن بعض الصفحات التي أشَّرتَ عليها في كُتُب مختلفة، فقلتَ إنه انتقاء لبعض المعلومات والمواقف، كنتَ تزوِّد بها صديقكَ سليمان الذي يعكف على تأليف كتاب ما ..

- نعم، رواية عن زمور، فيما أعتقد.

- إذا كانت رواية، لماذا الحاجة إلى مشاهد من كُتُب التاريخ؟! .. أليس الخيال كافياً؟!

- أحياناً تكون الوقائع أقرب إلى الخيال أو أغرب منه، وعند ذلك تصبح الروايةُ مكانَها المناسبَ، وليس كُتُبَ التاريخ.

- على العموم، نريد أن نتحاور معكَ بشأن ما نقلتَهُ من تلك الصفحات إلى حاسوبكَ. إنه مجرَّد حوار للاستفادة، وليس توجُّهاً جديداً في التحقيق.

لقد وضعتَ مثلاً كرونولوجيا عن زمور بالشكل التالي:

- 1688 غزو مولاي إسماعيل لبرابرة فزاز، خضوع زمور وبني حكم للسلطان، وتولية بايشى القبلي عليهم.

- 1692 وفاة بايشي، وتعيين نجله بن إيشي الذي شارك مع القائدَيْن أمساهل وعلي بن بركة في النصر الذي حقَّقه مولاي إسماعيل على البربر قرب ادخسان سنة 1693.

- بعد وفاة المولى إسماعيل، تسلَّم الحُكْمَ نجله أحمد الذهبي الذي بدأ عهده بقَتْل خُدَّام أبيه، ومن بينهم القائد علي بن يشي.

- 1730 قاد مولاي عبد الله أحد أبناء المولى إسماعيل حركة ضدَّ قبائل زمور المستقرَّة بتادلة. فهزمهم على وادي العبيد، وعيَّن محمَّد بن علي بن يشي عاملاً على فاس، وبعد عزل السلطان من قِبَل عبيد بخاري، فرَّ محمَّد بن علي بن إيشي إلى زرهون.

- بعد حملة سيدي محمَّد بن عبد الله على قبيلة آيت سيبرن من زمور، انتقلت قيادة

زمور إلى بلقاسم الزموري، الذي لم يستطع منع هزيمة المحلَّة الشريفة، فتمَّ اعتقاله ومصادرة أملاكه ..

1784 قاد السلطان سيدي محمَّد بن عبد الله حملة ضدَّ زمور وبني حكم، فاحتموا بشعاب تافودايت، فأوعز إلى آيت إدارسن وكروان، فأحاطوا بهم، ونهبوهم، وقتَّلوهم، وتركوهم يتكفَّفُون بالناس.

1825 اعتقال محمَّد بلغازي، آخر أكبر قادة زمور، وحبسه في الصويرة، حيث توفِّي في السنة نفسها.

- 1843 عند تعيين القايد أحمد بلغازي من فخذة زمور قبليين، وتحت ضغط بني مجيلد تنازلت زمور عن مواقعها، وهاجمت بني حسن، وطاردتْهم حتَّى وسط المعمورة، وعند ذلك، استوطنت مجالها الحالي تحت حُكْم السلطان مولاي عبد الرحمان.

ثمَّ ختمتَ هذه الكرونولوجيا بحكاية وقعتْ في هجوم زمور على بني حسن، بطلها شخص يُدعى بوزرداني، وجد نفسه وحيداً في مواجهة جماعة من زمور في الحدود الحالية للقطبيِّيْن وآيت بلقاسم، فقتل فرسه، وفرَّ هارباً. وقد كان يضمُّ رِجْلَيْه، ويقفز خمسين متراً في كلِّ قفزة، إلى أن قُتل قرب عين الجرف بعد 15 كلم من المطاردة، ودُفن بسيدي بوشوكة قريباً من سيدي علال البحراوي. ولا تزال قفزات بوزرداني كلُّها مطبوعة على كومة الحجارة (الكراكر) الموجودة على منحدر صخري، يفصل شعبة الحامة عن وادي السطور، وتحمل اسم (كراكر التنقيزة).

هل هناك غرض محدَّد من إثبات هذه الكرونولوجيا وهذه الخرافة؟

- مجرَّد استحضار لِلَّحظات المتوتِّرة بين زمور والسلطة المركزية، هناك تفاصيل مثيرة للدهشة، مثل حدوث الحملات كلِّها على زمور، والقبيلة، على ما يبدو، في حالة ولاء للسلطان، ومثل التنكيل بالقوَّاد كلِّهم الذين عيَّنتهم السلطات دون أن يكونوا في حالة تمرُّد أو عصيان.

- وماذا تستنتج من ذلك؟

- لا شيء .. قدَّرتُ أنها تفاصيل لها نَفَسٌ روائيٌّ، فحضَّرتُها للكاتب.

أمَّا الخرافة، فجديرة بأن تعتبر الحكاية الأصل «لسبيدرمان» الكائن الذي أصبحت له، حسب «سْتَانْ لِي» مبدع الحكاية إثر لسعة عنكبوت مشعَّة، قدراتٌ خارقةٌ، أهمُّها السرعة الفائقة، والمشي على الحيطان. شيء مدهش حقّاً أن تُنتج حرب قبلية من منتصف القرن التاسع عشر خيالاً، يضاهي خيال هوليوود في عصرنا.

- بعد ذلك، سجَّلتَ ما يلي:

«يقول السلطان مولاي عبد الرحمان في رسالة لولده سيدي محمَّد بعد حملة على زمور: فلمَّا رأينا لجاجتهم في عماهم، وعدم رجوعهم عن هواهم، وأنهم لم يعتبروا بجلائهم عن بلادهم، ولا بما أصابهم من الفتنة في أنفسهم

وأولادهم، ولم يراعوا ما نُهب من زرعهم القائم والحصيد، ولا ما استُخرج من مخزنهم الكثير العتيد، رأينا قتالهم شرعاً، وجهادهم دبَّاً عن الدِّيْن ودفعاً، فاعتمدْنا على حول الله وقوَّته، وأمرنا بالزيادة عليهم في الأخذ والتضييق، والمبالغة في النهب والتحريق، وتركهم محصورين في أوعارهم، ومقهورين في أوكارهم... فتوالت عليهم الغارات، وتتابعت عليهم النكبات... أينما ثُقفوا أُخذوا وقُتلوا تقتيلاً.. ».

ثمَّ سجَّلتَ أيضاً:

يقول الناصري صاحب الاستقصاء، وكان السلطان عبد الرحمان رحمه الله، قد خرج من مكناسة، فنزل بالخميسات، وشنَّ الغارات على زمور، فتوغَّلوا في الجبال، فانتسف السلطان أموالهم، وأكل زرعهم، حتَّى أشجارهم، ثمَّ ارتحل عنهم إلى مراكش... ومن هذا التاريخ، صار السلطان وخليفته، رحمهما الله، يغزوانهم كلّ سنة، فتنتسف الجنود زروعهم وأموالهم حتَّى أضرَّ بهم الحال، وأشرفوا على الهلاك، وكادت تعدم عندهم الأقوات، وأذعنوا إلى الطاعة طوعاً وكرهاً...».

- هل انتقاء مثل هذه الأخبار الصادمة هو، أيضاً، بسبب نَفَسِهَا الروائي؟

- بكلِّ تأكيد، ولكنْ، أيضاً، بسبب الغرابة، فالسلطان يتحدَّث عن ما فعله بجزء من شعبه دون أن يشعر بأيِّ حرج من كلِّ تلك القسوة والشراسة، إنه يعتبر ذلك القتال شرعاً وجهاداً في سبيل الله. والمؤرِّخ يروي أخبار الغارات على القبيلة، كما لو كانت غارات على محتلٍّ أجنبي.

- إننا نتحدَّث عن منتصف القرن التاسع عشر، هل تظنُّ أن النبش في هذا الزمن البعيد يمكن أن تكون له فائدة أدبية؟

- لا أعرف، يتوقَّف الأمر على ما سيفعله الكاتب بهذه الأخبار، إذا بدا له أن يستعملها.

- لكنْ، ربَّما تُسَلِّم معي أنه خارج هذا الاستعمال الأدبي، من الممكن أن تُستعمل هذه المادة - المختارة بعناية على ما يبدو - لتأجيج نوع من الضغينة، والإيحاء بأن الظلم الحالي «المفترَض» الواقع على المجال الزموري وعلى قريبه المجال الزياني، هو استمرار لظلم تاريخي .. لا سبيل إلى نكرانه.

- هذه الأشياء موجودة، ومن الممكن فعلاً أن يستعملها كلٌّ واحد حسب هواه.

- ومن الممكن الاعتماد عليها لقدح شرارة الثورة.

- الثورة لا تشتعل بهذا الحطب الهزيل.

- وماذا أشعلها في الريف سوى حطب من هنا وحطب من هناك ..؟!

- في الأحوال كلِّها، فإن هذه الكتابات لم تغادر الحاسوب ولا دفاتر سليمان.

- لا يهمُّ ما فعلتُما أو ما ستفعلانه بهذه المنتخبات المتفجِّرة، سيكون هناك دائماً مَنْ سيقع عليها، ويزرعها ناراً في هشيم.

- لا شأن لي بذلك!

- دائماً الجواب نفسه .. لا شأن لي بذلك، وهل كان شأني أنا تعليق كاميرات في أجنحة القنافذ؟.

- أنتَ تعرف أن القنافذ لا تطير أصلاً، لماذا تعود بي إلى تلك الخرافة؟

- لنقل إننا قبل إغلاق هذا الملفِّ، نريد، على الأقلِّ، أن نحصل على بعض الصور.

- إذا كنتُم قد وضعتُم اليد على كاميرات القنافذ، فمعنى ذلك أنكم حصلتُم على صورها.

لقد تعطّلت بمجرَّد سقوطها ..

- وماذا تنتظرون من هذه الصور؟

أن نتعرَّف منها على نيَّات القنافذ، فهي لم تكن تحلِّق فوق السويقة، بل كانت تحلِّق فوق القصر، وفوق منشآت استراتيجية.

- لقد أصبح هذا التحقيق مضحِكاً، إننا لا نفكِّك خيوط مؤامرة استنفرت طاقات الدولة كلَّها، بل نكتب قصصاً للأطفال.

- التحقيق انتهى ..

الدوائر العليا قالت إن التحقيق انتهى.

قال كبير المحقِّقين:

- نحن فقط نتكلَّم، لنقترب من نهاية هذه المغامرة.

- هل معنى ذلك أن إقامتي هنا قد انتهت؟

- سنرى ما ستُسفر عنه المفاوضة. يجب أن تعرف أوَّلاً أن الأمور في البلد ليست على ما يرام.

- منذ متى؟

- منذ ظهور القنافذ، ولكنْ، بصفة خاصَّة منذ بدأ الأكابر يهربون منها.

- وإلى أين يهربون؟

- إلى باريس ومدريد وجنيف ومونريال... لم يبقَ أحد في الأحياء الراقية، والقنافذ احتلَّت قصورها، وتناسلت فيها، وأصبحت لها مخابئ ومطارات.

- وماذا تقول الدوائر العليا؟

- تقول إن هذا الأمر لن تحسمه المبيدات ولا المطاردة .. حتَّى الدول الكبرى تنصح باتِّباع خطَّة أقلّ عدوانية.

- وما العمل إذن؟

- قال الشخص الرابع:

- نشرع في المفاوضات مع القنافذ.

ضحك إبراهيم ضحكة مقتضبة، قبل أن يداهمه اكتئاب مفاجئ:

- لا شأن لي بذلك.

بعد ذلك سجَّلْتَ ما يلي:

واقعة السلطان مولاي سليمان ببني مجيلد.

جاء السلطان من مراكش، ونزل بزيان أوَّلاً، ثمَّ مرَّ على أزرو فإتزر .. ثمَّ تقدَّم لمحلِّ

المعركة... كان التنافس خلال هذه الحملة على أشدِّه بين قبائل زمور وبني مطير وكروان، وبين آيت آمالو. فأوغر الأوَّلون صدر السلطان عليهم، فجهَّز جيوشه جنداً وعسكراً، عرباً وبربراً، وتوجَّه لغزوهم، وسار معه ولده وفلذة كبده المولى إبراهيم حتَّى توغَّل في بلادهم. ولكنْ، ما كاد يلتقي الجمعان، حتَّى حصل تنافس آخر بين كبيرَيْن من رؤساء البربر المستنجدة بالسلطان، هما بلقاسم كبير زمور، والحسن بن حمو واعزيز، كبير آيت إدراسن، فجر الهزيمة على السلطان وجنده. وذهب كلّ ما بيدَيْه ولديه، وأعزّها ولده إبراهيم، وتمزَّقت المحلَّة، وكاد يذهب سلطانها بنفسه.

«والمجيلدي محمَّد ولحاج ولهرو المسعودي، لمَّا وجد السلطان سليمان وهو في الهزيمة، أردفه على فرسه، وركض لا يلوي على عقب، متحقِّقاً بأنه ظفر بالغنيمة الدنيوية والأخروية، ولم يقف به إلى أن أدخله خيمته وسط حلَّته آيت

بوبكر، من آيت مسعود، فهُرعت القبيلة رجالاً ونساء، يتمسَّحون ويتخلّقون ويُقبِّلون الأيدي والأرجل، ويكفِّرون عمَّا وقع من سوء تدبير بعض المتولِّين، وهكذا ظلُّوا يترضّون سلطانهم بكلِّ ما يقرُّ عينَيْه، ويُذهِب حزنه أيَّاماً .. وأخيراً يرجو منهم أن يوصلوه إلى عاصمته مكناس الزيتون، فركبوا أمامه وخلفه يركضون إلى أن وصل إلى قصبة أكوراي في عزَّة ورفعة شأن».

قال الناصري: (صاحب الاستقصا).

«وقد توالت الفِتَنُ على السلطان سليمان، وانفتقت عليه الفتوق، وصار الناس كأنهم فوضى، فلا سلطان لهم، فقامت فِتَنُ أهل فاس. وفيها كَتَبَ كتابه الشهير، ومنه: واعلموا أن العمَّال ثلاثة، عامل أكل السُّحْتَ وأطعمه الغوغاء والسَّفَلَة، وعامل لم يأكل،ولم يُطعِم غيرَهُ وانتصف من الظالم، وعامل أكل وحده ولم يُطعِم غيرَهُ، فالأوَّل تحبُّه العامَّة والسَّفَلَة، ويبغضُهم اللهُ والسلطانُ والصالحون، والثاني يحبُّه اللهُ ويكفيه ما أهمَّه من أمر السلطان، والثالث، كعمَّال اليوم، يأكل وحده، ويمنع رفده، ولا ينصر المظلوم، فهذا يبغضُه الله ورسولُه والسلطانُ والناسُ أجمعون».

-7-

هنا ينتهي ما سجَّلتَهُ منقولاً من كُتُب متفرِّقة كما تقول، أحياناً تشير إلى بعضها، وأحياناً لا تفعل.

بعد ذلك ستُسجِّل أشياء، لا نعرف إن كانت منقولة من كُتُب أخرى أم موضوعة من طرفكَ. منها مثلاً «ما تقوله عن انصراف الملوك العلويِّيْن عن البربر لَأَزيدَ من نصف قرن، لا يبالون بخيرهم أو شرِّهم، حتَّى صاروا مصدر فِتَن لا تنتهي، وبلغ بهم العتوّ أن صاروا يهاجمون الشرفاء من جيرانهم، ويستبيحوا أموالهم، بل ويسبُّون الشريفات من نسائهم، وما تورده من أخبار مغرضة عن موحا وحمو الزياني وعن معاركه لإرضاخ القبائل الأطلسية للسلطان، وما تقوله عن زيان .. بأنهم لم يذعنوا إلَّا بقوَّة السيف والغزو، وليس طوعاً ومحبَّة في الشرفاء. وأخيراً ما تقوله عن زمور بأن السرَّ وراء التنكيل بهم هو الخوف من وصولهم إلى تشكيل إمارة في منطقة حسَّاسة وسط البلاد، ولذلك فكلَّما لمع رئيس منهم له مواصفات أمير مستقلٍّ، إلَّا وكان مصيره القتل، كما حصل لبنيشي ولبلغازي...».

- هل هذه تعليقاتكَ الخاصَّة على ما نقلتَهُ من كُتُب التاريخ؟

- هي تعليقات، فيها آراء بعض المؤرِّخين، واستنتاجات استقيتُها ممَّا كتبوه.

لماذا التركيز على السلطان مولاي سليمان؟

- لأسباب سينمائية بحتة، فموقعة حربه مع القبائل وهزيمته ومقتل ابنه، وتهريبه من قِبَل بربري، لا يلتفت إلى ما جرَّتْهُ الحرب السلطانية على أهله وذويه، بل ينتبه إلى ما يمثِّله إنقاذ الشريف من تقرُّب إلى الله ورسوله، ثمَّ موكب الراكضين به على ظهور الخيل إلى عاصمته، كأنه عائد من انتصار في الحرب، هذا كلُّه في نظري يليق بكتابة سينمائية مثيرة. وإلَّا فإن الصدفة وحدها هي التي قادتْني إلى هذه النصوص.

- لكنكَ ذكرتَ في آخر فقرة كتبتَها عن الموضوع، إن هذا الإصرار على غزو هذه القبائل وإخضاعها لم يكن كلّه لأسباب سياسية وجبائية، بل ربَّما لأسباب دينية، كون السلطان مولاي سليمان كان «متشدِّداً دينياً»، وكان يرى في قبائل زمور وزيان الحريصة على تدبير أمورها «بالعُرْف»، وليس «بالشريعة» مجالاً يستحقُّ « الجهاد».

- هذا تعليق صديقي سليمان، أُثبتُهُ، لأنه في نظري جدير بالاهتمام، ولو أنني لا أهتمُّ بما يعنيه صواباً كان أم خطأ ..

- وحكاية العمَّال؟

- ذلك ما تحدَّثتُ فيه مع صديقي سليمان مطوَّلاً، الموقف التراجيدي للسلطان، الذي وجد نفسه يشخِّص بدقَّة مفاسد السلطة، ويقف أمامها عاجزاً، والأدهى من ذلك أن الرسالة وجَّهها إلى نخبة فاس، المدينة الأكثر عراقة في البلاد، والتي، مع ذلك، تمرَّدت على عاملها «الصفار»، وغرقت في فساد لا يليق «بالمتمدِّنين». حتَّى إن «السلطان الصالح» كما يعلِّق الناصري هجر فاس، وجال بخاطره وهو في عزِّ يأسه أن يترك الحبل على الغارب، ويُولِّي الأمر لابن أخيه».

- هذه أمور دقيقة، لا أظنُّ أنكَ صادفتَها في الطريق كأشياء ضائعة.

- صادفتُها بالفعل كأشياء ضائعة، وانتهيتُ منها فور تسجيلها ..

- تقصد، نُغلق بصفة نهائية ملفَّ التحريض على الثورة؟.

- لا ثورة ولا يحزنون، الناس في زمور لا يحبُّون شيئاً مثلما يحبُّون ما يسمُّونه «لَهْنا» عندما كانت الحرب بين القبائل والمخزن، والحرب بين القبائل نفسها، كان في أعلى الهرم الاجتماعي في القبيلة حَمَلَة السلاح، الرماة المقاتلون، وفي أسفله «الطَّلَبَة» حُفَّاظ كتاب الله. يقرؤونه على القتلى والمقابر .. في

مراحل حملات الحسن الأوَّل كانوا أزْيَدَ من عشرة آلاف حامل سلاح لنحو عشر آلاف وخمسمائة خيمة، ومن ذلك كلِّه، لم يحتفظوا إلَّا بالولع بالتبوريدة. بالخيل والبارود، وبالانخراط في الجندية، حتَّى الآن، فإن منتهى طموح البسطاء منهم هو أن «يركب» أحد أبنائهم، أي أن يعتلي صهوة فرسه الرمزي حتَّى وإن كان في فرقة المشاة.

- لكنْ، أحياناً تكون هذه «الجندية» نفسها مزرعة لتفريخ المشاريع المجنونة، أليس كذلك؟

- لا أعرف ما تقصد.

- أقصد الانقلابات مثلاً، لا تقل لي إنكَ لستَ على علم بما حصل في مدرسة هرمومو أو في خلايا السلاح الجوِّي.

- لا شأن لي بهذه الأمور.

- منذ بدأنا الحديث وأنتَ لا شأن لكَ، لا شأن لكَ، ولكنْ، الشؤون كلُّها التي نتحدَّث فيها هي من تحريككَ الماكر.

- عفواً، أنا إنسان أختار أن يذوب في الغابة من أجل سلام روحه، أحبُّ النحل، وشجر البلُّوط، وأحبُّ هذه القبيلة التي تخافون منها، أناسها طيِّبون، رقاق القلوب، حيواتهم كلُّها بنوها على التصالح ومعاهدات الأمان بين فخذات القبيلة وبين القبيلة والقبائل الأخرى، يُسمُّونها «الطَّاطا»، يجتمعون في خيمة، ويخلطون نعالهم، ثمَّ يتبادلونها، فتحرم بينهم أموالهم ودماؤهم، يمرُّ العام، فإذا التقوا في موسم يمشون نحو بعضهم حُفاة، حتَّى إذا وصلوا إلى بعضهم، بكوا كثيراً، وذكروا موتاهم، وتسامحوا قبل أن ينصرفوا إلى الذبائح والخيل والبارود، أناس يحبُّون المطروالخيل والغابة والحكايات، ماذا تريدهم أن يفعلوا بالثورة؟

- ليس هم، أنتَ أو أصحابكَ أو أدمغة الشرِّ التي توصل الأسلاك ببعضها، وتُشعل الحرائق.

- ها نحن عُدنا إلى التُّهم الجاهزة.

- نحن فقط نتحدَّث، ونحاول الوصول إلى حلٍّ.

- مثلما لا شأن لي بأيَّة مشكلة، لا شأن لي بأيِّ حلٍّ.

- هنا تدخَّل الشخص الرابع، وقال:

- الحلُّ تطلبه الدوائر العليا، وتعرفه. نحن هنا، وأنتَ أيضاً لِنُنفِّذَهُ، وليس لِنَجِدَهُ،

وابتداء من هذه اللحظة، سيتولَّى الشخص الرابع إدارة الحوار.

- هل لديكَ استعداد للتعاون؟

- نعم، إذا كان التعاون سيُخرِجني من هذه الورطة.

- عليكَ فقط أن تستحضر أننا مجرَّد أشخاص عابرين.

- نعم، نعم، نحن فعلاً كذلك؟

- المهمُّ هو أن نحافظ على الأساسي.

- نعم، ولو أن الأساسي يختلف حسب الظروف والأشخاص.

- الدوائر العليا تقول إننا بلد كبير، قد تحدث له بعض الأعطاب، ولكنْ، ليس به اختلالات .

- الحمد لله ،وإذن فإن الأمور بخير.

- هي كذلك، فقط يجب أن نسدَّ المنافذ التي تسمح للماء أن يتسرَّب حتَّى نصبح أجساداً طافية.

- من الأفضل أن أقول لكَ من الآن إنني غير مَعنيٍّ، لا بالماء ولا بالمنافذ.

- قال الشخص الرابع غاضباً:

- وإذن ماذا نفعل هنا؟

ثمَّ متوجِّهاً بحديثه إلى المحقِّقين:

- هل نحن مع الشخص الغلط؟ هل سنمرُّ إلى «الحسم» أم سنظلُّ سجناء في هذه الثرثرة؟

قال إبراهيم:

- السجين الوحيد هنا هو أنا.

- بالفعل، لكننا نبذل جهداً كبيراً لتحريركَ، وأنتَ لا تريد أن تفهم.

- أفهم ماذا؟

- أنكَ أوقعتَ البلاد كلَّها في ورطة، ويجب أن تساعدنا على إنقاذها.

- لا شأن لي بهذه الورطة المزعومة.

- وورطة القنافذ؟

فجأة أدرك إبراهيم في قرارة نفسه أنهم فقط يتسلُّون به، وأن خروجه الذي كان يبدو وشيكاً قد ابتعد كثيراً، وأصبح معلَّقاً على «إنقاذ البلاد» وعلى الدخول في مفاوضات سوريالية.

- لا تستعظمْ هذا الأمر، أنتَ غير مطالب بتحقيق نتائج فورية .. لقد فكَّرنا فيكَ، لأنكَ تجيد الحديث مع القنافذ. وقد سجَّلنا كما أخبرناكَ في الجلسة الأولى بواسطة كاميرات مرجان مقاطع مدهشة من حواراتكَ مع (يَنْسِي).

- لا أتذكّر شيئاً من هذا القبيل، ربَّما لم تسجِّلوا سوى هلوساتي أيَّام كنتُ مفتوناً بتحوُّلات (يَنْسِي)، وبمغامراته .

- مهما يكن، فلن يكلِّفكَ شيئاً أن تباشر هذه المهمَّة. ستكون مطالَباً فقط بالمحاولة بتجريب نوع من المصالحة. مع هذه الكائنات التي تريد إعادتنا للحياة البدائية.

قال الشخص الرابع:

- الدوائر العليا تعطيكَ كامل الحرِّية لمباشرة هذه المهمَّة بالطريقة التي تراها مناسبة، خذْ وقتكَ كاملاً، وأيَّاً كان الاتِّفاق الذي ستصل إليه، فإن الدوائر العليا ستقبله.

قال إبراهيم:

- إذا قبلتُ بالمهمَّة، ستقولون إنني أنا إذن مَنْ نظَّم هذه الأزمة!

- لن نقول شيئاً. إذا قبلتَ، سنطوي الصفحة.

رأى إبراهيم، من حديقة المعتقل، نفسه عائداً إلى البيت الغابوي، يتمشَّى في البستان الذي ستكون أشجاره الآن قد أسقطت أزاهيرها، وأصبحت خضراء بالكامل، ثمَّ رأى نفسه جالساً إلى الشيخ عبد الله، إذا كان ما يزال على قيد الحياة، يحتسي معه الشاي والحكايات، ورأى سليمان وهو في الباحة مُنكبَّاً على دفتره الكبير في غيِّه ما يزال، يعتبر كتابة رواية شيطانية نزهة آمنة. رأى ذلك كلَّه، وقال في نفسه لمَ لا؟ المفاوضات مع قبائل الجنِّ تهون في سبيل استعادة هذه العوالم الجميلة. فعبَّر لفريق التحقيق عن قبوله للمهمَّة وهو يكاد يبتسم. وعندها قال الشخص الرابع:

- عظيم، والآن ندخل في التفاصيل.

قال كبير المحقِّقين:

- هناك خَلَل أصلي، لا بدَّ من تصحيحه. انتقالكَ من البنك إلى النحل يجب أن ينتهي. سترجع إلى البنك، وإلى زوجتكَ السابقة، وإلى مسكنكَ القديم. لقد رتَّبنا كلَّ شيء. زوجتكَ مستعدَّة للمصالحة، والبنك مستعدٌّ لإعادة إدماجكَ، وبريجيت مستعدَّة للطلاق بالتراضي، انسَ صناديق النحل، والقعدة الوحشية تحت شجرة البلُّوط .. انسَ البيت الذي من خشب وطين، انسَ تلك الحياة التي من خشب وطين، وانسَ أنكَ كنتَ عندنا. أنتَ منذ الآن قد رجعتَ إلى ما قبل الخَلَل.

- إنكم تطلبون منِّي رحلة في الزمن .. تطلبون منِّي أن أعود إلى سنوات خَلَتْ، كأنني أغادر حياتي نحو حياة سابقة .. في هذه الحالة، لماذا لا تعيدونني إلى طفولتي، لأبدأ كلَّ شيء من صخب دوار الضبابة؟ لماذا تُوقِفون عقارب الرحلة في هذه اللحظات المضطربة؟

- لقد كانت حياة رائعة، لا تقل إننا نُعيدكَ إلى الجحيم.

- بل، وتفرضون عليَّ أن أختار ذلك بنفسي.

- نحن لا نفرض عليكَ شيئاً، بل نتفاوض، ونحاول أن نمسك العصا من الوسط.

- لكنْ، إذا عدتُ إلى حياتي السابقة، سأكون شخصاً آخر، لا يصلح إطلاقاً للمهمَّة التي تُكلِّفونني بها.

- لا بدَّ من التكيُّف مع الوضع الجديد.

- هل تتصوَّرون «بنكياً تقليدياً» يفاوض القنافذ على الخروج من الورطة؟

- نحن لا نطلب منكَ قَتْل الشخص الآخر.

- الشخص الجديد هو الذي سيقتله.

- مهما يكن، فالعودة هي هذه أو لا عودة!

قال إبراهيم بعد صمت كاد يُغضِب الشخص الرابع:

- قَبِلْت!

-8-

كانت إجراءات غامضة تقتضي أن يبيت ليلة إضافية في الاعتقال، فقضاها إبراهيم بيضاء، لم يغمض له فيها جفن، ومنذ اللحظة التي أطفأ فيها الحُرَّاس الضوء، أي نحو العاشرة مساءً، لم يتوقَّف عن التفكير في الشخص الآخر الذي سيكونه بعد بضع ساعات، بدا له شخصاً هادئاً، يعود إلى بيته في حيِّ الرياض، تستقبله زوجته في الحديقة، كأنه عائدٌ للتوِّ من مكتبه، بالهندام الأنيق نفسه الذي يدخل به البنك واثقاً كلّ صباح، كان شخصاً وُلد في يومه هذا، ولم يحتج إلى زمن ليكبر. لم يكن له أمس. كان شخصاً يخرج من العلبة، ملفوفاً ما يزال في بلاستيك شفَّاف، ولم يكن متوجِّساً ولا قِلِقَاً، هذه المرأة التي تستقبله ستفعل ما ستفعله بناء على برمجة محكمة، لا مكان فيها للمشاعر أو لاضطرابات المغامرة .. ومن الممكن أن يذهب الشخص بعيداً، فلا يكتفي بالجلوس مخذولاً إلى مائدة المصالحة، بل يتنمَّر فجأة، ويقود السيِّدة الخجولة زعماً، إلى غرفة النوم، لحظات خاطفة فحسب، يقوم فيها بزيارة إلى جسدها، كما يزور داراً قديمة، وأين تلك الشراسة التي كانت تمزِّق الرجل السابق، وتُلقي ببقاياه خارج السرير؟ لقد كانت في حياة أخرى، أمَّا الآن، وريثما يصل الضيوف، ندخل بملابس اليوم الأوَّل كلِّها في تنفيذ لبنود الاتِّفاق، نضع الشيء في المكان المعلوم، ونختصر الحركات حتَّى لا نضيع في استطرادات، تُفسد النصَّ، وبعدها نقف بلا أقدام، ونعود إلى المائدة. بدا له الشخص مُقدِماً على حماقة عظيمة، فهو لا يمثِّل دوراً سيخرج منه بمجرَّد نزوله من الخشبة، لا يدخل في هذا الطقس تمويهاً، وفي ذهنه مخطَّط محكَم، سيقوده بعد شهور من «التطبيع»، إلى التسلُّل خارج الحدود، والفوز بجلده، إنه لا يتصرَّف «كما لو» أو «ريثما» أو «تجنُّباً لكلِّ ما من شأنه». إنه يفعل ما يفعله بإرادة حاسمة أن يترك العتمة، كلَّ العتمة، تُطبق عليه. وعندما يحصل ذلك، يستأنف الرحلة بين مكتبه الزجاجي، والعالم، العالم الذي لا مفر منه، ولا شريك له. وإذ يفعل ذلك، فإنه يُسلِّم بأن ما يحدث هو ما يجب أن يحدث، وليس أيّ شيء سواه.

كان إبراهيم حتَّى هذه اللحظة يستطيع أن يرى الشخص منفصلاً عنه، كما يرى شخصاً يهمُّ بالقفز من شرفة بناية عالية. إنه يُشفق عليه، ويغبطه في آنٍ واحد، يتصوَّر أن الإقدام على خطوة بهذه القسوة يعني عبور آلام رهيبة، ويتصوَّر أن «الخلاص» يطلب منَّا دائماً أن لا ندقِّق كثيراً في الشكل .. «الخلاص» لذَّة لا تُضاهى، فهو يسمح لكَ بمغادرة ما كنتَ عليه دون أن تعرف ما ستؤول إليه، ولكن إبراهيم يعرف أنه بعد بضع ساعات لن يرى الشخص من هذه المسافة، سيراه من الداخل، سيكون المرئي والرائي في الوقت نفسه، وعند ذلك ربَّما سيفقد إلى الأبد إمكانية البقاء في المنطقة الواعدة «بين شخصَيْن» . هذه الإمكانية توجد الآن في هذه الغرفة المظلمة التي تصل إلى السور الأبيض العالي المقابل لها بقايا أضواء طائشة، يمكنه أن يغيِّر الوجهة، أن يترك الشخص غارقاً في تنفيذ بنود الاتِّفاق، ويذهب عبر المعمورة حتَّى يحترق مجال بني حسن في الغرب، ويتوجَّه نحو سبو، فيعبره شمالاً حتَّى يصل إلى اللوكوس، ثمَّ يمشي بمحاذاة المحيط حتَّى يصل إلى المضيق، ومن هناك يقفز كما من شرفة عالية، إلى الضفَّة الأخرى، حيث تلعب الأندلس نزقة في ماء المتوسِّط، وبعدها تجيء بريجيت أو لا تجيء، لا يهمُّ، هناك دائماً في أحراش المغامرة وجه نعثر عليه، ونفلته، ويد تهمُّ بالتدخُّل إذا ترنَّحت خطانا. هنا يمكنه أن يرجع إلى دوار الضبابة، ويقول لأُمِّه إن العبور لم يكن ممكناً، هناك شيء ينبت في دواخلنا من هذه الدواوير، لا يجعلنا نمشي كما نشتهي، ثمَّ يذوب في كثافة الأكواخ المتراكبة، إلى أن تعثر عليه الشرطة أو يعثر على نفسه.

هنا، في هذه الغرفة التي ستلفظه من بابها الحديدي بعد بضع ساعات، يمكنه أن يكتب رسالة إلى صديقه سليمان، وتكون هكذا:

«كيف هو حيُّ الفتح، يا صديقي، هل ما يزال «داراً للفلسفة» كما تزعم، لأنه يفرض

عليكَ بمعماره المبتذل، وحداثته المشوّشة، أن تفكِّر بقضايا الوجود وتعقُّد الكائن أم أنه انسحب إلى أغوار نفسه بعد بزوغ الكورنيش الجديد؟ وهل

مازلتَ تنتظر المرأة العجوز التي من «تِيدَّاسْ» أم أنكَ اقتنعتَ أخيراً أنها مجرَّد «رؤيا» مثلما هي الكائنات كلُّها التي تعبر هذا السديم؟ لا أعرف كيف تلقَّيتَ اختفائي فجأة، وكيف تعايشتَ معه، هل أنشأتَ جمعية للمطالبة بحرِّيتي؟ هل تعرَّضتَ لمضايقة ما بسببي؟ هل انتهيتَ من تأليف الكتاب الذي سيجمع هذه الشظايا كلَّها؟.

أرجو أن تعرف ذات يوم أن اختفائي لم يكن خللاً، بل كان تصويباً دقيقاً لخلل في دوران الأرض، ستقول إنها مجرَّد «عبارة»، نعم، إنها كذلك، بالفعل مجرَّد عبارة، ولكنْ، كيف نبلع، كُلَّ مَا نبلع، إذا لم نجد له العبارة المسيغة؟ أتوقَّع أن أمرَّ قريباً من حيِّ الفتح هذا الصباح، ولكنني لن أتوقَّف لمجالستكَ في مقهاكَ، أو للتجوُّل معكَ في سوق السمك، أو لالتهام قطعة من «كنافة» المهاجر السوري الذي غنمناه من الحرب .. سأذهب مباشرة إلى الحياة الأخرى التي تركتَها ملصقة على زجاج البنك .. ولستُ متأكِّداً أن يكون في هذه الحياة متَّسع لِلِقاء شخص مثلكَ».

هنا في ليل هذه الغرفة، ستتزاحم حوله الأطياف، «ولكن الشخص الرابع» من فريق التحقيق، سيُصوِّب مسدَّسه نحوها طيفاً طيفاً، فتسقط الأطياف على بعضها حتَّى تصبح ركاماً من الجثث، تحلَّلت ملامحها، وأصبحت مجرَّد ظلال صريعة.

في لحظة ما، لم يعد الضوء القادم من الباب الحديدي، ضوء كشَّافات بعيدة، بل ضوء شمس أشرقت فجأة، كأنها تفعل ذلك لأوَّل مرَّة، فقام إبراهيم من مضجعه مرتعشاً، ووقف طويلاً حتَّى يتعوَّد على الوَضْع الجديد، وَضْع شخص مقبل على المغادرة، وعند ذلك، سمع نداء الحُرَّاس، فحمل الكيس الذي جمع فيه أغراضه البسيطة، وتقدَّم نحو الباب.

قال الحارس إن الفريق لم يأتِ بعد، ولكن الفطور جاهز، وقاده إلى طاولة الحديقة التي كانت تزدحم بمأكولات مختلفة، لا شكَّ أنها جاءت من مطعم فاخر أو من متعهِّد مشهور. جلس إبراهيم، وجلس معه كبير الحُرَّاس، كانت الفطائر والهلاليات والأجبان وأنواع المربَّى والعسل تخطف الأبصار، ولكن

إبراهيم انساق بكيانه كلِّه إلى شذى القهوة الذي لم يصله منذ شهور، وعندما احتضن فنجانها الساخن بيدَيْه كلتيهما، وأخذ في احتسائها متعبِّداً، تأكَّد أن الجحيم أحياناً ينجح في ابتكار فردوس صغير مثل هذا الانتشاء المفاجئ الذي تسلَّل إليه في غفلة من الحُرَّاس.

انتظر إبراهيم ساعات طويلة حتَّى انتابه الشكُّ في أن يكون ذلك الاتِّفاق مجرَّد لعبة جديدة من «لعب التحقيق» أو صنفاً من أصناف التعذيب التي سيستدرجونه بها إلى تركيب قضية، تصلح للعرض أمام المحكمة. لكن هذا الشكَّ لم يُفسِد مزاجه، فقد ظلَّ ينظر إلى السماء الزرقاء المسيَّجة بأسوار الحديقة، ويرى نفسه محلِّقاً في صفائها، لا يحول شيء بينه وبين الأبدية. وعندما كان النهار يدنو من نهايته، جاء الفريق، ليجدَ إبراهيم وقد قضى يوماً كاملاً في الحديقة رائقاً ومستعدَّاً للاحتمالات كلِّها.

ذكر رئيس الفريق أن بعض الصعوبات حالت دون تحضير عودته إلى البيت هذا اليوم، ولكنْ، إذا كان يرغب في الخروج، فإنهم لا يمانعون في ذلك، عليه فقط أن يلتزم بالبقاء في المكان الذي يختاره حتَّى يعودوا لاصطحابه إلى البنك وإلى بيته، لاستكمال إجراءات العودة، فقال إبراهيم إنه يودُّ أن يقضيَ الليلة في البيت الغابوي قبل أن يغادره غداً بصفة نهائية .. ثمَّ إن سيَّارته وكثيراً من أغراضه توجد هناك، وإذا لم يروا مانعاً من ذلك، فإنه يودُّ استرجاعها.

لم يُبدِ كبير المحقِّقين اعتراضاً فورياً على هذا الاقتراح، ولكنه احتاج إلى كثير من المشاورات والمكالمات قبل أن يحسم في الأمر. ولمَّا وجد إبراهيم نفسَه في سيَّارة تنطلق

به من مكان ما قريباً من المركب الرياضي، وتتوجَّه به نحو الطريق الدائري الذي سيقوده لا محالة إلى المعمورة، لم يشعر لذلك بأيِّ ابتهاج خاصٍّ، كلُّ ما كان يشعر به هو بعض الوجع الرتيب المنتظم، الذي انطلق من فروة رأسه، وانتشر عبر رقبته وكتفَيْه حتَّى غمر ظهره كاملاً وفخذَيْه وساقَيْه حتَّى الكعبَيْن، لم يكن وجعاً قاسياً، ولكنه كان مِلحاحاً، كما لو أن بثوراً ستنبثق من

مسامِّه. ثمَّ سرعان ما اطمأنَّ بينه وبين نفسه إلى أن هذا الوجع لا يعدو وأن يكون ردَّ فعل جلدياً على انتقاله من العلبة الضيِّقة إلى المجال الفسيح.

دخلت سيَّارة المحقِّقين إلى باحة البيت الغابوي، حيث تقف سيَّارة إبراهيم منذ قرابة السنة، وبعدما تأكَّد أحدهم أن بطَّارية السيَّارة قد لفظت أنفاسها، سلَّم لإبراهيم كيساً يحتوي على بعض المأكولات والفواكه، وقال كبيرهم إن سيَّارة ستأتي صباحاً لأخذه إلى الحياة الجديدة، ثمَّ صافح إبراهيم، وقال بلهجة رسمية:

- هنيئاً!

قال إبراهيم:

- على ماذا؟

قال كبير المحقِّقين:

- لا يحصل الناس كلُّهم على حياة جديدة!

ثمَّ أضاف ضاحكاً:

- حتَّى نحن الذين نمنحها لا يحصل لنا ذلك!

ثمَّ انصرفت سيَّارة المحقِّقين. وبقي إبراهيم وحده واقفاً في الباحة، ولو أنه كان متأكِّداً أن المحقِّقين أو بعضهم على الأقلِّ لن يذهبوا بعيداً، ويتركوه خارج الرقابة، الطاولة والكراسي، والكرسي الهزَّاز، ومنحوتة الوزاني، كلُّ شيء ما يزال في مكانه، غسلتْهُ الأمطار الأخيرة، فكأنما مرَّ شخص قبل وصوله لتنظيف المكان. البستان، كما توقَّع، أينعت أشجاره، وارتَدَت تلك الخضرة الطفولية التي تمنحها البراعم للأشجار. بعد قليل ستغرب الشمس، وسيبدأ ليل آخر، لا يعرف إبراهيم كيف سيعبره، ولا كيف سيصبح بعده. بدا لإبراهيم أن يطلَّ على صناديق النحل، ليعرف ما صارت عليه، فكان شيئاً محزناً أن

يلاحظ، من أوَّل نظرة، أنها مجرَّد صناديق مهجورة، تحيط بها العناكب وشبكاتها من كلِّ جانب، ويحفُّها قبل الأوان «صمت العالم». ثمَّ توجَّه إلى البيت، دخله متأثِّراً، فما إن خطا خطوته الأولى في الداخل حتَّى أحسَّ بأن البيت مزدحم بالأرواح. جرَّب إنارة الألواح الشمسية، فوجدها لا تزال شغَّالة، ثمَّ أطفأها بسرعة تجنُّباً لإثارة الانتباه إلى عودته. توقَّف لبُرْهَة حتَّى هدأ قليلاً، وعند ذلك اكتشف، مصعوقاً بالدهشة والفرح، أن النحل كلَّه قد استوطن البيت الطيني، بنى شمعه في تجاويف الأثاث والأبواب والنوافذ، في الرفوف الخاوية للمكتبة المصادرة، وفي صناديق الأواني ومخازن المطبخ ودولاب غرفة النوم، وكأنما انتبه النحل لوجود إبراهيم، فشبَّت فيه حركة متصاعدة من التحليق والأزيز، استقبلها بفيض غامر من الدموع، والرغبة في وَضْع قُبلة على جبين الحياة، لأنها أبقت عليه حتَّى يعيش هذه اللحظة العظيمة. ودون أن يفكِّر بالأمر تخلَّص من ملابسه كلِّها، واستلقى على السرير. وعند ذلك، جاء النحل نحلة بعد أخرى، وحطَّ على جسده يتشمَّمه، ويعيد تركيبه بتلك الحاسَّة المُلَقِّحَة التي لا يملكها أحد سواه، كان إبراهيم يُنصِت لِمَا يقوم به النحل، كأنما يُنصت لشلَّال عظيم، يغمر الكون، وقد تطلَّب الأمر وقتاً طويلاً، ليُدثِّرَ النحل جسدَ إبراهيم بالكامل. وعندما هدأت حركاته، لم يبقَ في إحساس إبراهيم سوى المَلمَس الحريري لتزاحُم النحل في كيانه كلِّه، فاستسلم للنوم.

كان أوَّل شيء أحسَّ به إبراهيم وهو يفتح عينَيْه مع بزوغ يوم جديد، هو ذهاب النحل، وفي الآن نفسه، تقلَّص جسده، كأنه صار مجرَّد كرة أقلّ حجماً من كرة اليد في وسط السرير. وتهيَّأ له أن النحل ربَّما يكون قد التهمه، فمدَّ يده إلى صدره .. وفي اللحظة التي أدرك فيها من خلال يده الصغيرة جدَّاً أن زغباً ناعماً يغطِّي صدره وبطنه، وأن وجع الأمس قد أَنْبَتَ له شوكاً يغطِّي مجمل جسمه، توقَّف وجود إبراهيم .. وانبثق وجود كائن جديد، نزل من السرير مستعجلاً، وانطلق كالسهم إلى الباحة، قُنْفُذاً يعرف ما يريد.

كانت الزهرة الغريبة التي استلقى قربها (يَنْسِي) جريحاً قبل سنوات قد عادت إلى مكانها تحت شجرة الفِلِّين، عملاقة صاخبة بألوانها وشذاها، وكان (يَنْسِي) واقفاً قربها، ينتظر القُنْفُذ الجديد.

تقدَّم القُنْفُذ من (يَنْسِي)، ودون أن يحتاجا إلى كلام زائد، شرعا في المشي، كأنهما يفعلان ذلك معاً منذ زمن بعيد.

قال (يَنْسِي):

- إلى أين؟

قال القُنْفُذ الجديد:

- إلى الشَّمال الغربي، ثمَّ صُعُداً إلى أن تنتهي الأشجار!

- وماذا نفعل؟

- نمشي!

- نمشي فقط؟

- نعم، نمشي إلى أن تنبت لنا أجنحة مثل الجميع.

انتهت

تنويه

استفدت في كتابة هذه الرواية من الوثائق والمطبوعات التالية:

1) تقارير ودراسات المندوبية السامية للمياه والغابات حول تطورات المجال البيئي في غابة المعمورة وحول إشكاليات التدبير والاستغلال.

2) Economie Forestière Nord-Africaine, Description Forestière du Maroc .P.BOUDY. Edition Larose Paris 1958.

3) كباء العنبر، من عُظَمَاء زيان وأطلس البربر، أحمد المنصوري، تحقيق محمد بن لحسن، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وجيش التحرير.

4) الشرف والمجتمع والسلطة السياسية بالشمال الغربي المغربي، محمد عمراني (2015).

5) الدولة والسلطة والمجتمع – دراسة في الثابت والمتحول رحمة بورقية. دار الطليعة بيروت 1991.